

سوريا مزرعة الأسد

د. عبد الله الدهامشة

دار النواعير
بيروت - لبنان

سوريا
مزرعة الأسد

الدكتور
عبد اللّه الدهامشة

دار النواعير
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

إن الحمد لله وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:-

فإن كتابة التاريخ حق لأبنائنا في أعناقنا، حقٌ علينا لأجيالنا الصاعدة؛ لأن ما عشناه وشاهدناه وسمعنا به في حينه سيصبح مجهولاً عندهم، يبحثون عنه خلال الوثائق والآثار التاريخية، وقد لا يصلون إلى معرفة الحقيقة فيه، خاصة وأن مزوري الحقيقة يعملون بدأب لتضليل المسلمين، وإبعادهم عن معرفة تاريخهم[1] ، والذكرى تنفع المؤمنين، والله أسأل أن يحفظنا من الطواغيت، ومن أعداء الحقيقة، وأن يثيبني يوم لا ينفع مال ولا بنون، وعلى الله توكلت وعليه يتوكل المؤمنون...

وأسأل الله عزوجل الكريم أن يجعل ثواب هذا الجهد لوالديّ يرحمهما الله تعالى، اللذين أرسلاني إلى المدرسة الابتدائية، بعيداً عن سكنهما ، وأصرت والدتي – يرحمها الله – على أن أستمر في مواصلة الدراسة ، مما ألزمهما استئجار غرفة لي في المدينة اعتباراً من الصف السادس، حيث كانت المرحلة المتوسطة كلها في المدن فقط يومذاك، حتى حصلت على شهادة الكفاءة.

---

(١) في عام ١٩٨٢م هدمت السلطة بضعة وثمانين مسجداً، بعضـها أصـيب بالقصـف المـدفعي والصاروخي، وبعضها فجر بالديناميت عن قصد وعمد، وبعد بضع سنوات أراد أهالي الحي إصلاح مسجدهم وترميمه، ولابد من موافقة العقيد يحيى زيدان مدير المخابرات العسكرية في حمـاة، ولمـا تقدموا بطلبهم له، سألهم : من هدم هذا المسجد ؟ فسكتوا، فلم يعجبه سكوتهم، بل قال لهم إذن أنـتم لا تعرفون شيئاً مما جرى في حيكم عام (١٩٨٢م)، لقد فجرت مسجدكم عصابة الإخـوان المسـلمين، ويلزم أن تقدموا طلباً لي موقعاً من وجهاء الحي تقولون فيه : نرجو الموافقة على تـرميم المسـجد الذي دمرته عصابة الإخوان المسلمين عام (١٩٨٢م)، وقدم لهم ورقاً أبيض لكتابة الطلب، وطبعـاً لا يجرؤ أحد أن يقول غير صحيح، وبالفعل كتب وجهاء الحي هذا الطلب للمخابرات العسكرية، وصار هذا تقليداً متبعاً لكل حي يريد أن يرمم مسجده .

الفصل الأول

من كتب التاريخ

كانت سوريا مثل غيرها من البلدان العربية، تحت ظل الخلافة العثمانية، وفي عام (١٩١٤م) وقعت الحرب العالمية الأولى، وأعلن شريف مكة يومذاك الشريف حسين بن علي الثورة العربية الكبرى، ووقف العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا)، ضد دول المحور (ألمانيا وتركيا واليابان)، وفي عام (١٩١٨م) دخلت الجيوش العربية؛ الملحقة على جيوش الحلفاء بقيادة فيصل بن الحسين، دمشق وطردت الأتراك منها، وعرف الشعب ذلك العام بعام (الشريف)، وقامت حكومة وطنية في سوريا، كان وزير الدفاع فيها يوسف العظمة يرحمه الله، وفي نهاية الحرب العالمية الأولى تقاسم الحلفاء مناطق النفوذ في مؤتمر سان ريمو، ثم في اتفاقية سايكس بيكو، وكانت سوريا من نصيب فرنسا، لذلك دخل الجيش الفرنسي دمشق في تموز (١٩٢٠م)، بعد معركة غير متكافئة،استشهد فيها وزير الدفاع السوري يومذاك، في معركة ميسلون غرب دمشق، وأبرز من قاتلوا واستشهدوا في ميسلون من علماء المسلمين،الذين اعتقدوا أن الاشتراك في ميسلون فريضة جهاد مقدسة، يجب أن يؤديها المسلم ولو استشهد هناك، ومنهم فضيلة الشيخ عبد القادر كيوان، والشيخ كمال الخطيب، والشيخ محمد توفيق الدرة، والشيخ ياسين بن نجيب كيوان والشيخ كامل القصاب، وكثير غيرهم. ودخل (غورو) دمشق وذهب إلى قبر صلاح الدين وقال أمامه: ها نحن عدنا يا صلاح الدين [١]. وغادر الأمير فيصل إلى العراق وعين ملكاً عليه تحت الحماية البريطانية.

---

(١) يقول شوقي أبو خليل: كان يوسف العظمة رحمه الله متديناً محافظاً على صلاته وصومه، ولما خرج إلى المعركة كان متأكداً من استشهاده لذلك قال لساطع الحصري!! وهو يودعه (إني أترك ابنتي الوحيدة ليلى أمانة في أعناقكم)، انظـر كتـاب الإسلام وحركات التحرر العربية لشوقي أبو خليل، ص ١٣٠. ويقول إحسان هندي في صحيفة الثورة [السورية] (٢٤/٧/٢٠٠٦):

"وهكذا التقت في مرتفعات ميسلون، وحول الموقع الذي يحمل اسم (عقبة الطين) صباح يوم السبت الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ قوتان ضخمتان:

١- قوة عربية قليلة في عددها وعتادها، ولكن زاخرة بإيمانها ومعنوياتها، بقيادة وزير الحربية في الحكومة العربية السورية، يوسف العظمة، ويعاونه الأميرالاي (العميد) حسن تحسين الفقير كقائد=

عاشت سوريا ربع قرن تحت الانتداب الفرنسي، حيث عسكرت القوات الفرنسية في الساحل السوري، وعينت حكومات مدنية تدير شؤون البلد، وواجهت فرنسا عدة ثورات متواصلة كان أكثرها يخرج من المساجد بقيادة العلماء المسلمين[1].

وفي عام (١٩٤٥ م) أي في نهاية الحرب العالمية الثانية جلت فرنسا عن سوريا، مخلفة وراءها نواة للجيش العربي السوري، فيه ضباط طامعون ومتطلعون إلى الحكم، اتخذوا الجيش أداة للوصول إلى السلطة، ويقول الدكتور نيقولاوس فان دام في كتابه

=ميداني. وتضم هذه القوة بقايا اللواء العربي الأول، الذي سرح من الخدمة مع بقية الجيش يوم ١٩٢٠/٧/١٩ ثم استدعي من جديد على عجل يوم ٧/٢١، ومعه نضيدتا مدفعية (بطاريتان)، وسرية رشاشات، وسرية استحكامات (هندسية)، وسرية هجانة، وبعض المتطوعين المدنيين، وهذه القوة جمعاء لا يتجاوز عدد أفرادها ٣٠٠٠ رجل.

٢- قوة فرنسية تتكون من الفرقة الثالثة مشاة بقيادة الجنرال (غوابيه) GOYBET، معززة بجميع الصنوف اللازمة للعمل في الميدان، من مدفعية ودبابات وخيالة وهندسة وسرية نقل وسرية إمداد وتموين، بالإضافة لأربع طائرات، وتعدادها جميعاً حوالي عشرة آلاف رجل.

- واصطدمت هاتان القوتان في مرتفعات (عقبة الطين) على جانبي الطريق العام دمشق - بيروت. وبعد حوالي خمس ساعات من القتال المستميت غلبت الكثرة الشجاعة، وسقط يوسف العظمة شهيداً يعانق أرض الوطن ويروي ترابها بدمه، وأصبحت ميسلون نجمة مضيئة في ملاحم التاريخ، يتم تدريسها كرمز للممانعة، وواجب الدفاع عن الوطن. لم يكن بد من انتصار الجيش الفرنسي على مجموعة من المتطوعين، والجنود، استشهد معظمهم، مع يوسف العظمة (وزير الدفاع يومذاك)، بعد أن قرروا أن لا يمر العدو إلا على أجسادهم، فصمدوا وقابلوا الجيش الفرنسي بقليل من العتاد ... حتى تمكن الفرنسيون من الانتصار عليهم، والدخول إلى دمشق، بعد أن مروا على أجسادهم. ودخل الجنرال غورو دمشق .. وطلب من الملك فيصل مغادرة سوريا ففعل، وغادرها إلى أوربا.

(١) انظر كتاب الإسلام وحركات التحرر العربية، لشوقي أبو خليل، حيث ذكر أسماء أربعة علماء استشهدوا في ميسلون. كما يبين جهاد المحدث الأكبر بدر الدين الحسني يرحمه الله، ويذكر عدداً من علماء دمشق الذين شاركوا في الجهاد ضد الفرنسيين منهم الشيخ علي الدقر يرحمه الله، والشيخ نجيب كيوان، والشيخ محمد حجار، والشيخ موسى الطويل، والشيخ محمد ديراني، الذي كان يملأ النعش بالسلاح والذخائر، ويمشي خلفه في الجنازة إلى المقبرة حيث تفرغ في أحد القبور ليأخذها المجاهدون منه بعد ذلك .والشيخ عبده البيتموني، ومحمد البيتموني، والشيخ سعدي التغلبي، والشيخ محمد جويجاتي، والشيخ صلاح الزعيم، والشيخ عبد الحكيم المنير، والشيخ أمين سويد، والشيخ محمد الأشمر، والشيخ عبدالله الأفغاني وغيرهم كثير.

الصراع على السلطة في سوريا ص٥١: (فضل الفرنسيون تجنيد مختلف الأقليات الدينية والعرقية كالدروز والإسماعيليين والعلويين والمسيحيين والأكراد والشركس، وسياسة التجنيد الفرنسية هذه اتبعت تقليداً رسمته القوى الاستعمارية. وقد دعمت العائلات العربية السنية الثرية صاحبة الأراضي، وذات النشاط التجاري، التي قادت الحركة القومية العربية أثناء الاحتلال الفرنسي؛ دعمت بصورة غير مباشرة الاتجاه نحو التمثيل القوي للأقليات في الجيش السوري، وذلك برفضها إرسال أبنائها للتدريب العسكري، حتى كضباط، كما احتقرت في كثير من الأحيان الجيش كمهنة، واعتبرت الكلية العسكرية بحمص -كما وصفها (باترك سيل) مكاناً للكسالى، (الذين لم يحصلوا على مجموع مرتفع في الثانوية يسمح لهم بدخول الطب والهندسة) - أو المغمورين اجتماعياً. وثمة عامل اجتماعي اقتصادي شجع أبناء الأقليات (وخاصة العلويين)؛ على الالتحاق بالجيش ألا وهو الفقر، حيث تعيش معظم الأقليات في الريف أو الجبال التي لا تصلح للزراعة)[١].

وقد أكد الدكتور توفيق الشاوي، في مذكراته التي نشرتها مجلة المجتمع عام (١٩٩٦م)، أن الاستعمار الأوربي عامة والفرنسي خاصة، ما كان يترك البلد حتى يبني فيه ركائز من أنصاره يشغلون وظائف الحكم والجيش والإدارة، ويتأكد من إبعاد الإسلاميين عن ذلك كله.

قامت حكومة وطنية سورية بعد جلاء فرنسا، استمرت حتى عام (١٩٤٩م) حيث وقع انقلاب حسني الزعيم، وهو أول من فتح باب الانقلابات العسكرية التي جرت الويلات على سوريا. ولم يفتأ أن قام بعده انقلاب سامي الحناوي - قائد لواء - في (١٤/٨/١٩٤٩م) وقبض على حسني الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي وقتلهما، وسلم الحكم للمدنيين، وأعاد الضابط أديب الشيشكلي إلى القوات المسلحة بعد أن سرحه منها حسني الزعيم، وفي (١٧/١٢/١٩٤٩) قام أديب الشيشكلي بانقلابه الأول، ثم انقلاب الشيشكلي الثاني (٢/١٢/١٩٥١م)، ثم وقع انقلاب عسكري بقيادة النقيب مصطفى حمدون

---

(١) وفي رأي الباحث هذه العوامل المذكورة كلها عوامل ثانوية ساعدت على إذلال المسلمين السنة وهم غالبية الشعب السوري، ولكن العامل الأهم من ذلك كله هو جهل المسلمين بدينهم، فالعسكرية مفروضة على المسلمين (ومن لم يغز أو يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق)، والخدمة العسكرية أو التطوع في الجيش من باب الإعداد للغزو، كما جرهم الجهل بالإسلام إلى تفرقهم شيعاً وأحزاباً؛ مما سهل على أعدائهم التغلب عليهم.

أحد أنصار أكرم الحوراني، وطرد الشيشكلي من سوريا (٢٥/٢/١٩٥٤م)، وقامت فيها حياة نيابية برئاسة شكري القوتلي يرحمه الله[١]، استمرت حتى الوحدة مع مصر عام (١٩٥٨م) وهذه الفترة هي الفترة الذهبية في سوريا، لأنها كانت ديموقراطية تقريباً .

يقول محمد عبد الرحمن الأنصاري في مؤلفه (تاريخ سوريا الحديث)[٢].

(تكون الجيش الوطني بعد جلاء القوات الفرنسية عن أرض الوطن، من فلول الجيش المختلط والحرس السيار، الذي كان تحت إمرة القادة الفرنسيين مباشرة. وقد فضل الفرنسيون أيام الانتداب تجنيد مختلف الأقليات الدينية والعرقية:كالدروز والعلويين والإسماعيليين والأكراد والشركس. فيما يسمى بالقوات الخاصة للشرق الأدنى، وتطورت فيما بعد لتصبح هي القوات المسلحة السورية واللبنانية. ولم تشجع فرنسا المسلمين السنة للانخراط في الجيش جرياً على سياسة المستعمرين "فرِّق تسدْ".

وثمة عامل اقتصادي واجتماعي، دفع لبروز الأقليات في الجيش، حيث إن المناطق الريفية الفقيرة قدمت أبناءها لتوفر فرصة جيدة للتمتع بحياة أكثر رفاهية، من تلك التي يوفرها القطاع الزراعي، خلافاً لأهل السنة من سكان المدن الكبرى، وقد تمتع العلويون بأكثرية في الجيش منذ عام ١٩٥٥،حتى إن العقيد عبد الحميد السراج رئيس مكتب المخابرات، قد اندهش لدى اكتشافه أن ما لا يقل عن ٦٥% من ضباط الصف، كانوا تابعين للطائفة العلوية، كما أن العائلات المسلمة (السنية) مالكة الأراضي، كانت تحتقر الجندية كمهنة، بسبب سيطرة العاطفة الوطنية عليها، تعتبر الانتساب إليها في فترة ما بين الحربين العالميتين خدمة للفرنسيين. لقد غفل اليمين المحافظ في سوريا عن الجيش كقوة سياسية في ظروف نكبة مهلكة، دمرت فيما بعد نفوذ العائلات الإقطاعية وتجار المدينة. فمن هذا المزيج تكونت القوات السورية الوطنية، وصدر بعد ذلك قانون الخدمة العسكرية الإلزامية.

وقد كان هذا الجيش الحديث النشأة والتكوين يفتقر إلى الكثير من مقومات الجيش الانضباطي، من تدريب وسلاح وروح معنوية عالية... وهذه المواصفات، جعلت الجيش السوري الناشئ مطية سهلة للمغامرين من ضباطه، وكان سبباً من أسباب الشقاق والتمزق داخل صفوفه، ومن ثم انشغاله عن واجبه المقدس في حماية البلاد، والدفاع عن حدودها، وزجه بعد ذلك في خضم السياسة والنزاعات الحزبية والطائفية والعشائرية.

---

(١) الرئيس السوري الوحيد الذي ترك كرسي الرئاسة بإرادته، وقد تركه لجمال عبد الناصر عندما قامت الوحدة. ومات في أحد مشافي لبنان، وعجز أولاده عن دفع تكاليف المستشفى؛ فسددها الملك فيصل بن عبد العزيز يرحمه الله.

(٢) نشر هذا الكتاب في مجلة العصر الالكترونية، وحصلت عليه من الانترنت (٢٠٠٤).

وخلاصة القول: إن هذا الجيش الذي دُفع للقيام بالانقلاب الأول، كان جيشاً ناشئاً، ويعتبر إلى حد بعيد من بقايا الجيوش المرتزقة أيام الانتداب الفرنسي الغاشم.

عهد الوحدة

كانت الوحدة بين الأقطار العربية أملاً يظنه العرب سهل المنال، فقد كانت هذه البلاد دولة واحدة تحت الخلافة العثمانية، تتكلم لغة واحدة، وتدين بدين واحد، ولا توجد حدود بينها[١] ولها تاريخ واحد، لذلك فالوحدة أمر حتمي، ومن أول الواجبات بعد الاستقلال، وكان الحديث عن مقومات الوحدة العربية الموضوع الأساسي؛ في التاريخ والتربية الوطنية والجغرافيا والأدب والنصوص والتعبير والتربية الفنية، وكانت جميع المناهج مركزة على بث روح الوحدة العربية بين الناشئة، وتنمية الشعور القومي عندهم، حتى أفعم جيلنا بالشعور القومي العربي الوحدوي.

انتشر حزب البعث العربي الاشتراكي[٢] الذي أسسه ميشيل عفلق وزكي الأرسوزي وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني- انتشر بين العمال والفلاحين وصغار المثقفين

---

(١) حدثني والدي يرحمه الله أنهم كانوا يذهبون إلى الرطبة (الآن في العراق) يشترون التمر، ويذهبون إلى حيفا ويافا للعمل في مزارع البرتقال، ويذهبون إلى معان (الأردن حالياً)، وطرابلس (لبنان) ولا يحملون جوازاً للسفر، ولا حتى بطاقة أحوال مدنية، وكانت بلاد الشام (سوريا وفلسطين ولبنان والأردن) بلداً واحداً بكل ما تعنيه الكلمة حتى الربع الأول من القرن العشرين الميلادي، ثم مزقها الاستعمار الغربي الحديث إلى هذه الدويلات الحالية.

(٢) يقول محمود شاكر في التاريخ الإسلامي ١٠/٢١٠: بدأت جذور حزب البعث تظهر بلقاءات بين ميشيل عفلق النصراني وصلاح الدين البيطار اللذين جمعهما التدريس في التجهيز الأولى بدمشق ومعهم زكي الأرسوزي العلوي (من اسكندرون)، (وأحسن كتاب يوضح نشوء البعث كتاب سامي الجندي)، وكانت تطرح فكرة القومية في لقاءاتهم، ولم يقبل على الفكرة سوى بعض النصارى من أصحاب عفلق، وأصحاب البيطار مثل عبد الحليم قدور من قارا، ثم برز الحزب بعد جلاء فرنسا التي كانت تباركه، واتخذ له مقرًا في دمشق، في القنوات، وأصدر صحيفة البعث في عام ١٩٤٦م، ثم عقد أول مؤتمر له في (١٩٤٧/٤/٧م)، ثم اعتقلهم حسني الزعيم، وأفرج عنهم سامي الحناوي فعادوا إلى مزاولة نشاطهم، ودخلوا الانتخابات وفازوا بثلاثة مقاعد، وأقبل أبناء الأقليات على حزب البعث، وصار منافساً للحزب القومي السوري والحزب الشيوعي في جذب الأقليات، وفي هذه الأثناء كان أكرم الحوراني يلازم زعيم الكتلة الوطنية في حماة توفيق الشيشكلي، ثم اتصل مع القوميين السوريين، ثم انفرد لوحده وتقرب من حسني الزعيم، ومن سامي الحناوي، فأسندت إليه وزارة الزراعة، فاتصل مع فلاحي ريف حماة، وأحكم صلته معهم، وأسس حزبه العربي الاشتراكي، ونجح في الانتخابات النيابية، وأسندت له وزارة الدفاع، وهي ماكان يطمع فيها فأحكم صلته مع الضباط،=

والكسبة، ووضع الهدف الأول من أهدافه (الوحدة) وكان أنصاره يهتفون (وحدة، حرية، اشتراكية)، فالوحدة هي الهدف الأول، وهي الخطوة الأولى التي تمكن العرب من التحرر فيتحقق الهدف الثاني للحزب وهو الحرية، ولابد من الوحدة العربية والتحرر من التبعية الاقتصادية الاستعمارية لتقوم الاشتراكية بعد ذلك.

وشدت الاشتراكية العمال والفلاحين نظراً للبؤس الذي كانوا يعانونه، والظلم الذي يتجرعونه، إذ كانوا أجراء يعملون بما يقيتهم ويدفع عنهم غائلة الموت جوعاً، أهملتهم الطبقة الواعية والمثقفة،سوى التفاتات نادرة جداً من بعض الدعاة الإسلاميين مثل الدكتور

= وتم اتحاد حزبه (العربي الاشتراكي) مع حزب البعث، في حزب واحد هو حزب البعث العربي الاشتراكي، وأصبح أكرم الحوراني الزعيم السياسي للحزب، بعد أن نجحت قائمته كاملة في انتخابات (١٩٥٥م) وبقي ميشيل عفلق الأب الروحي للحزب وفيلسوفه، وهكذا تكامل الحزبان، فقد جذب حزب البعث الأقليات، كما جذب الحزب العربي الاشتراكي الفلاحين خاصة في ريف حماة والمعرة، حيث يوجد كبار الملاك، فاستغل الحوراني ذلك ودعا إلى الاشتراكية، وكان انقلاب مصطفى حمدون وهو من تلاميذ أكرم، فزادت قوة الحزب بالجيش، وصار لهم تنظيم عسكري يقوده حمدون وعبد الغني قنوت، وبرز أكرم الحوراني في الانفصال، وانشق الحزب بين أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار الذي ركب موجة الناصرية) ثم كان انقلاب الثامن من آذار، حيث استطاع العلويون خلال سبع سنوات (٦٣ ـ ١٩٧٠) أن يسيطروا على الحزب بعد أن سيطروا على الجيش، ثم آلت السلطة إلى أسرة حافظ الأسد) . ومن المفاهيم الأساسية للحزب أن الإسلام أدى دوراً حضارياً وحدوياً للعرب قبل أكثر من ألف عام، ثم انتهى هذا الدور، ولابد للعرب إذا أرادوا التقدم واللحاق بركب الحضارة من التحرر من كل ما هو قديم بما فيه الدين وأن يأخذوا الفكر القومي الاشتراكي العلماني كي يلحقوا من سبقهم من الأمم. وسبب تخلف العرب في رأي الحزب هو تمسكهم بالإسلام. وقد تبين من خلال مسيرة الحزب أنه يدعو إلى عكس ما يفعل تماماً فقد دعا إلى الوحدة، وهاهو يحكم سوريا والعراق منذ أكثر من ربع قرن، وقد حفر النظام الأسدي، خندقاً على طول حدودهم مع العراق، ولم يفعلوا ذلك مع إسرائيل. ودقوا أسافين الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وأحيوا الطائفية وأصّلوها حتى صارت بدهية متعارفاً عليها. ودعوا إلى الحرية وهاهم يحكمون بالأحكام العرفية منذ عام (١٩٦٣) عندما استلموا الحكم في سوريا، وبنوا من السجون أكثر من الجامعات، وقتلوا من شعبهم أكثر مما قتلوا من أعدائهم بآلاف المرات، ودعوا إلى الاشتراكية وسرقوا أموال الشعب، حتى صار آلاف من كبار أعضاء الحزب والجيش والمخابرات من كبار الرأسماليين في العالم، يملكون العمارات الضخمة في لندن وباريس وماربيا وواشنطن، كما يملكون أساطيل النقل البحري، وأفقروا الشعب حتى صار ذليلاً يبحث عن لقمة عيشه بين فتات موائدهم. وأفقروا الموظفين حتى جعلوهم يطلبون الرشوة علناً من المواطنين المراجعين ومن غير المواطنين، حتى صارت سوريا مضرب المثل في الرشوة.

مصطفى السباعي يرحمه الله،لم تدم طويلاً، وشاهدت أكرم الحوراني عندما زار إحدى القرى، وأقام له الفلاحون حفلة كبرى، وكم سمعت الفلاحين يتباهون بأن الأستاذ أكرم سلّم عليه وصافحه بيده وهو يبتسم له، وقال له كلمات مداعبة وصداقة، بينما كان المثقفون الآخرون يأنفون من مصافحة الفلاحين.

ونشأنا في جيل أتخم بالشعور القومي الوحدوي، ومن المظاهرات التي أذكرها مظاهرة كبرى عندما صرح الحبيب بورقيبة بأنه لا مانع من التفاوض مع الصهاينة، وكان الشعور والفهم يومذاك أنه عندما تتوحد سوريا ومصر فقط سوف نرمي الصهاينة في البحر ونحرر فلسطين (كل فلسطين) منهم، بل يجب أن نحرر عدة أجزاء مغتصبة من العالم العربي منها كما أذكر لواء اسكندرون الذي قطعه الفرنسيون من سوريا وأعطوه للأتراك، وعربستان التي أخذتها (إيران)، وأرتيريا التي استعمرتها الحبشة، وساقية الذهب المستعمرة الإسبانية، وطرد بريطانيا من الخليج العربي، أما الثورة الجزائرية فكنا نعيش أحداثها اليومية، وكان جمع التبرعات شهرياً على الأقل لها، ولما تحررت الجزائر صرنا نهتف (العيد الجاي بفلسطين) أي سنحرر فلسطين بعد أن حررت الجزائر، وكنا معشر الشباب نعتقد ذلك واقعاً لا محالة، وكنا نصدق الشعارات الكثيرة المطروحة على الشعب، والتي تمنيه بالوحدة العربية الكبرى، وكنا متأكدين أننا سنكون أقوى دولة في العالم بعد أن تقوم الوحدة العربية الكبرى[١].

---

(١) يقول الدكتور سامي الجندي: "وبعد مرور خمسة عشر عاماً في حكم سوريا والعراق، هل استطاع الحزب أن يقيم وحدة واحدة بين قطرين عربيين، وقد بلغت الدول العربية اثنتين وعشرين دولة؟! ما مبرر وجوده إذن؟! وأين الوحدة العربية التي أفنى حياته في الدعوة إليها"[البعث ص ١٦١]، ماذا قدم البعث بفريقيه للأمة ولصالح وحدتها؟!

ماذا قدم الفريق الأول حتى ٢٣/شباط/١٩٦٦؟! وماذا قدم الفريق الثاني بعد هذا التاريخ؟!، يقول الدكتور سامي الجندي عن الفريقين:

"أصبح البعثيون بلا بعث، والبعث بلا بعثيين، فأيديهم مصبوغة بالدم والعار، يتسابقون إلى القتل والظلم والركوع أمام الجزمة – أي حذاء العسكر!! – لم يستطع البعث أن يقيم وحدة واحدة في تاريخه، حتى بين شطريه، فهل تنتظر الوحدة من العشائر والقبائل الهمجية، التي اصطبغت أيديها بالدم والعار والمتسابقة للقتل والظلم والركوع أمام مهماز الجزمة، ومتى تحققت الوحدة في التاريخ على يد الطائفية والعشائرية الحاقدة؟! [البعث ص ١٦٣] يقصد بالعشائر الهمجية، أي عشائر العلوية المتخلفة، رفع البعث شعار الحرية [التجربة المرة لمنيف الرزاز، ص ٢٦٠]" ولم يعرف الحكم إلا تسلطاً وتزييفاً لإرادة الجماهير، ورفعت هذه الفئة شعار الاشتراكية واليسار، فكانت اشتراكيتهم

فوقية= =قطرية مستبدة. ورفعت شعار مقاومة الاستعمار والرجعية، وقدمت لها هدية، هو رأس حزب البعث "[المرجع السابق] ولا مجال هنا للحديث عن حرية الشعب الذي كان مصفداً في الأغلال بيدي البعث العربي، فإذا كان البعث يعاني من دكتاتورية أجنحته على بعضها، فمن أين تمنح الحرية للأمة العربية؟! يكفي أن نستمع إلى قادة الحزب عن رأيهم في الحرية التي دعوا إليها، وما مبررات ثورة ٢٣/شباط/١٩٦٦م على البعث نفسه؟! هذا منشور داخلي يشرح الأسباب الدافعة إلى هذه الثورة، ويبين لنا مدى الحرية التي يفهمها الرفاق مع بعضهم، يقول المنشور:

"ظهر منطق الوصاية على الحكم والسلطة إلى جانب منطق الوصاية على الحزب.. كان منطقاً يستهدف اقتسام النفوذ في الثورة وإحلال الفرد محل القيادة الجماعية، سواء أكانت حزبية أو حكومية.. أيها الرفاق! لقد كان الهدف الرئيسي لحركة ٢٣/شباط/هو تحقيق مبدأ احترام الديمقراطية في الحزب، وذلك برفع سيف الوصاية عن رقاب قواعد الحزب، وإتاحة الفرصة أمامها كي تقود حزبها بنفسها نحو الغاية المرجوة" [منشور داخلي للحزب ص ١٣-]. هذه هي حقيقة الحكم المتسلط الفردي قبل ٢٣/شباط/١٩٦٦م، فما هي الحرية التي قدمها ثوار ٢٣/شباط ؟! يجيب على ذلك الدكتور منيف الرزاز الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي، فيقول :

"إن حكم ٢٣/شباط، هو حكم العنف.. وإن تصورنا عن هذه المجموعة، لم يبلغ أبداً حدود التردي الذي وصلوا إليه.. أكتب هذه الصفحات، وأوضاع العنف ليس لها مثيل في تاريخنا، إن الذي يجري في سورية الآن لا مثيل له إلا في عهد عبد الكريم قاسم، حين تولت كتائب الشيوعيين المسلحة عمليات السجن والقتل في شوارع بغداد ومدن العراق..."، "كانت الشمس تحمل كل يوم عند مطلعها الجديد قائمة من أسماء المعتقلين الجدد، لتضم إلى القائمة من المعتقلين السابقين، حتى جاوز عددها المئات، ولما ضاقت بهم السجون، نقل معظمهم إلى تدمر، ذلك السجن الصحراوي البعيد ..."، "لقد كانت سوابق النازية والفاشية، وأساليب الستالينية نموذجاً لهم في أساليب الحكم.." [التجربة المرة ص ١٩٩].

ويقدم لنا الدكتور سامي الجندي صورة من صور الحرية لدى البعث فيقول مصوراً تلذذهم بمشاهد الإعدام:

"وفي استوديو التجربة، رأيت ما لا يصدقه العقل، فقد رأى أعضاء المحكمة أن يشترك الشعب بمباذلهم، فلا تفوته مسرات النصر، فعمدوا إلى تسجيل مشاهد الإعدام من المهجع إلى الخشبة، عملية عصب العينين، والأمر بإطلاق النار، ثم يندلق الدم من الفم، وتنطوي الركبتان، وينحني الجسد إلى الأمام، بعد أن تتراخى الحبال نفسها". "خرجتُ ولم أقل شيئاً، فسألني أحد الضباط مسروراً: كيف رأيت يا دكتور؟! قلت: أهذا هو البعث؟! قال: لم أفهم، أجبت: ولن تفهم"، "وإذا بالأستاذ صلاح البيطار يدخل لاهثاً، قال لي: هل صُوِّرت فعلاً مشاهد الإعدام؟! قلت: نعم، قال للضباط الموجودين: إياكم أن تنشر، فقد تسبب لنا قضية عالمية، وظل هناك حتى قصّ المختصون كل المشاهد المثيرة، ولكن بعض تلك الصور تسربت إلى خارج سورية". ثم يتابع الجندي حديثه قائلاً: "كنا نسمع أنها أزمة تمر، وأن السجناء يرفلون في نعيم مقيم، فلا ضرب، ولا تعذيب وصدّقنا، ثم علمنا بعد شهور عديدة، أن الرفاق تعودوا عادات جديدة، فصاروا عندما يملون الحياة الرتيبة، يذهبون إلى سجن

عهد الانفصال (١٩٦١/٩/٢٨- ١٩٦٣/٣/٨):

منذ السابعة صباح يوم (١٩٦١/٩/٢٨م) بدأت إذاعة دمشق تبث الموسيقى العسكرية، ثم قطعت برنامجها اليومي ليقول المذيع: هنا دمشق إذاعة الجمهورية العربية السورية، وقبل ساعات كانت (المتحدة وليس السورية)، ثم قدم المذيع نبأ الانقلاب العسكري الذي شكل بموجبه مجلس عسكري قرر فصل سوريا عن دولة الوحدة مع مصر، نتيجة التجاوزات والظلم الذي وقع على الشعب السوري، كما قال المذيع، واستمرت الموسيقى العسكرية طوال النهار، بينما تذاع برقيات التأييد من الوحدات العسكرية.

كان هذا النبأ مصيبة كبرى لمعظم الناس – وخاصة الشباب – وقوبل الانفصال برفض شعبي كبير يمثله الشارع العربي الإسلامي الذي يرى الوحدة من أساس دينه وعقيدته(١). حاول عبدالناصر إرسال وحدات من القوات الخاصة لإعادة الأمر إلى نصابه، ولكن الانقلابيين السوريين كانوا قد رتبوا أمرهم عسكرياً، ويبدو أن النقمة على المصريين في الجيش كانت منتشرة إلى حد كبير. وقد استسلم حوالي (٢٠٠) مظلي مصري أنزلهم عبد الناصر في الساحل السوري، ثم تبين له عدم جدوى المحاولة.

سنة ونصف من الحرية السياسية في سوريا:

بدأ الانفصال يوم (١٩٦١/٩/٢٨م) واستمر حتى يوم (٨/ آذار/ ١٩٦٣م) عاشت سوريا خلالها فترة نادرة من الحكم النيابي، حيث عادت الأحزاب إلى العمل السياسي

المزة، فتفرش الموائد وتدور الراح – الخمر – ويؤتى بالمتهمين للتحقيق ومن ثم تبدأ الطقوس= =الثورية، إذ يتفننون ويبدعون في كل يوم رائعة جديدة"، "وأظن أن الدولاب من اكتشافات آذار"، "بقي أن نسأل من هو المتهم؟!! الجواب: كل الناس!! فتقرير بسيط على ورقة من أحد الرفاق، تبدأ: بأمة عربية واحدة، وتنتهي بالخلود لرسالتنا، يعني شهوراً في الزنزانة، ثم إنساناً يحطم مدى الحياة "[البعث ص ١٣٠].

هذه شهادات قادة الحزب بتخلي البعث عن مبادئه، وتبنيه لسياسة العنف الوحشي، الذي ليس له نظير إلا في أساليب القرامطة ووحشيتهم ضد المسلمين.

(١) وعلى الرغم من الحرية السياسية التي ظللت سوريا خلال عهد الانفصال، وعودة الإخوان المسلمين إلى نشاطهم العلني الدعوي والسياسي، وعلى الرغم من بطش عبد الناصر بالإخوان؛ مع ذلك كله رفض الإخوان المسلمون التوقيع على وثيقة الانفصال، لأن الوحدة مبدأ استراتيجي من مبادئ الإخوان، وقبلوا بالخسارة السياسية والدعوية التي توقعوها بسبب رفضهم ذلك التوقيع، لأن مبدأ الوحدة عندهم لا يقبل المساومة. وهذا من الأدلة على أن السياسة في الإسلام سياسة مبادئ لا سياسة مصالح، بينما كان حزب البعث العربي الاشتراكي من أوائل الموقعين على وثيقة الانفصال، لأن سياسته تقوم على المصالح ولا تقوم على المبادئ.

العلني ومنها جماعة الإخوان المسلمون[١]. التي فتحت مراكزها في المحافظات، وعادت صحيفتها اليومية (اللواء) إلى قرائها، وأجريت انتخابات تشريعية نجحت فيها شرائح من الإخوان ومنهم الأستاذ عصام العطار، والأستاذ عمر عودة الخطيب، والأستاذ زهير الشاويش والشيخ محمد علي مشعل، والأستاذ طيب الخجا، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والدكتور نبيل صبحي الطويل، وغيرهم، وكانت كتلة الإخوان وأنصارهم عشرين نائباً[٢]،

---

(١) تأسست جماعة الإخوان المسلمون في سوريا عام (١٩٤٥م) عندما اندمجت خمس جمعيات إسلامية من خمس محافظات كبيرة تحت إمرة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي يرحمه الله، وقد كان المؤسسون لها على رأس الثورات الشعبية ضد الفرنسيين، ثم تعايش الإخوان مع الحكم الوطني، وجاهدوا في فلسطين (١٩٤٨م)، وانتخب السباعي، ومحمد المبارك للمجلس النيابي عام (١٩٤٧م) وتقلد محمد المبارك وزارة الأشغال العامة، وبنى ميناء اللاذقية، واستمرت الجماعة في نشاطها العلني ونصح الحكام، وبث مفهوم الإسلام الشامل كما أنزله الله عزوجل في الكتاب والسنة، ومحاربة الإلحاد والماركسية والعلمانية، وقد عاشت عهداً ذهبياً (١٩٤٥ ١٩٥٨م) حيث عاشت سوريا في ظل حكم ديموقراطي إلى حد كبير، ومارست نشاطاً تربوياً وإعلامياً وسياسياً، وهذا هو منهجها الذي رأته من أجل إعادة المسلمين إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في حياتهم. ثم حلت الجماعة نفسها استجابة لقرار عبد الناصر القاضي بحل الأحزاب كلها عند قيام الوحدة، ثم عادت إلى العمل السياسي والدعوي المكثف والجاد خلال فترة الانفصال، ثم دخلت مرحلة أخرى العمل السري والصراع الأمني مع انقلاب الثامن من آذار عام (١٩٦٣م) ومازالت حتى تاريخه. وقد تطورت الجماعة سياسياً وتنظيمياً إلى درجة جيدة خلال العقدين الماضيين، عندما فرضت عليها حكومة الأسد صراعاً مسلحاً وسياسياً وإعلامياً، وتقترب حالياً من الحزب السياسي المنظم الذي يعمل وفق خطة زمنية وبرنامج محدد، من أجل إقامة المجتمع الديموقراطي الذي يعطي للمسلم حقه في العبادة والتعبير والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما يعطي ذلك كله لغيره من المواطنين.

(٢) يقول فضيلة الأستاذ عدنان سعد الدين في كتابه الإخوان المسلمون في سوريا (١/١٧٠): الحركة الإسلامية في سوريا سبقت جميع الحركات الإسلامية في الوطن العربي والعالم الإسلامي بوجوب وضرورة خوض الانتخابات، قبل غيرها بأربعين أو خمسين سنة، ولم تبق جماعة إسلامية من جاكرتا إلى الدار البيضاء إلا وخاضت تجربة الحياة النيابية... والإخوان في سوريا قرروا خوض الانتخابات عام (١٩٤٧) بمباركة الإمام حسن البنا، ونجح الشيخ الدكتور معروف الدواليبي عن حلب، والأستاذ محمد المبارك عن دمشق، والشيخ محمود الشقفة عن حماة... ويقول فضيلة الأستاذ عدنان في (١/ ١٩٢): وكانت الحركة الإسلامية في سوريا التي تضم الإخوان والعلماء من أسبق الحركات الإسلامية في الوطن العربي والعالم الإسلامي في الإحاطة بشئون العصر ومتطلباته، وإدراكهم لفقه الواقع، في مجالات السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، فقرروا المشاركة بالحكم لدرء ما يمكن درؤه من المفاسد، وجلب ما يمكن من المصالح، ثم انتشر هذا الفقه لدى الجماعات الإسلامية. [وفي

وكان عدد نواب الإخوان أكثر من عدد نواب البعثيين ، ونجحت كذلك مجموعة من الاشتراكيين (انقسم حزب البعث العربي الاشتراكي إلى حزبين الأول سموه الحزب العربي الاشتراكي بزعامة أكرم الحوراني وقد شارك في فترة الانفصال، والثاني بقي في العمل السري وهو حزب البعث الذي حكم سوريا بعد ذلك، وكذلك صلاح البيطار وعفلق، كما نشط الحزب الشيوعي وعاد إلى العمل السياسي بزعامة خالد بكداش. وانتخب الدكتور ناظم القدسي (من حزب الشعب) رئيساً للجمهورية، وكلف خالد العظم برئاسة الوزارة، وكان معروف الدواليبي من رجال الحكومة المرموقين.

واختفى اسم المباحث أو المخابرات، وصار الطلاب يكتبون على السبورة نكتاً ثقيلة جداً على أعضاء الحكومة؛ إذ أن التيار العام لدى الشباب تيار وحدوي، وكان كل مواطن يعبر عن رأيه بحرية تامة دون أن يحاسب.وقد رأيت بعيني مرات عديدة سباً وشتماً يكتب على السبورة؛ ضد رئيس الجمهورية أو رئيس مجلس الوزراء، ناهيك عن الوزراء، ولم يصب أحد من الطلاب بأذى.

ومما يلفت النظر أنه وقعت معركة شرسة على الحدود مع إسرائيل في عهد ما سُمِّيَ بالانفصال كانت في صالح سوريا واستشهد فيها ضابط من آل الدباس، وقد غنم السوريون[١] عدة آليات من العدو عرضت في ساحة المرجة بدمشق عدة أيام، وربما كانت آخر معركة ينتصر فيها الجيش العربي السوري.

عام ١٩٩٤ قرر التنظيم العالمي للإخوان المسلمين أن ينصح جميع تنظيمات الإخوان في العالم باستخدام هذا النهج، نهج المشاركة في الحكم].

(١) وهذه آخر معركة انتصر فيها السوريون عسكريًا في نصف القرن الماضي قبل أن يخرب الأسد الجيش السوري، وكان بطلها الملازم أول محمود الدباس يرحمه الله، إسلامي من دمشق.

الفصل الثاني

النظام الأسدي[1] يحكم سوريا

خلال فترة الوحدة تشكلت خلية حزبية سرية من البعثيين. رفضت قرار حل الحزب، ضمت كلاً من صلاح جديد، وعبد الكريم الجندي، ومحمد عمران، وحافظ الأسد، وأحمد المير، عرفت باسم اللجنة العسكرية، وكان بداية تشكيلها في مصر، حيث نقلوا يومذاك خلال الوحدة، قامت هذه المجموعة بطرد أكرم الحوراني وكبار قادة الحزب المؤسسين، بحجة موافقتهم على الانفصال، ثم نظمت كثيراً من الضباط العلويين والدروز والإسماعيليين[2]، وتمكنت من دفع زياد الحريري(حموي لاانتماء له) إلى أن يقوم بانقلاب

---

(١) سوف يتضح من البحث أن حافظ الأسد هو المخطط والمنفذ لانقلاب (١٩٦٣/٣/٨م) لكن من وراء ستار، واستمر يعمل في الخفاء حتى (١٩٦٦/٢/٢٣م)، عندما عاد من دورة في لندن لمدة ثلاثة شهور، تدرب فيها على الصراع العلني، حيث تخلص من صلاح جديد، ثم من العلويين...

(٢) يقول محمود شاكر في التاريخ الإسلامي ١٠/١٨٣: ينتسب أكثر من ٦٩% من سكان سوريا إلى الإسلام (يقصد المسلمين السنة) يتوزعون في كل أنحاء البلاد، ويقلون في مرتفعات جبال العلوية، وينحسرون عن جبل حوران (الدروز) نهائياً. وينتسب ١١.١% من سكان سوريا إلى الطائفة العلوية التي يعيش أتباعها في المرتفعات المسماة باسمها، وبعض القرى شرق حمص، أما الآن فقد غزوا السهول الساحلية حتى كاثروا أهلها، كما نقل بعض أتباع سليمان المرشد إلى الحدود مع فلسطين (زعورا، وعين فيت والغجر)، وتهيأت لهم الظروف في الالتحاق بالجيش فتحسنت أوضاعهم المادية، (ثم سيطروا على الحكم في سوريا) . وينتسب ٣.١% من سكان سوريا إلى طائفة الدروز التي يعيش اتباعها في جبل حوران الذي حمل اسمهم (الدروز) وفي سفوح جبل الشيخ (مجدل شمس بقعسم قلعة جندل) وقريتان قرب دمشق (جرمانا، وصحنايا). وينتسب ١% من سكان سوريا إلى الطائفة الإسماعيلية التي يعيش أتباعها في بلدة السلمية، وما جاورها وفي مصياف، ويدخل بعضهم حالياً في الإسلام الصحيح (السنة). وينتسب ٠.٥% من سكان سوريا إلى الشيعة الذين يعيشون في دمشق (حي الخراب، وحي الأمين) وبعض قرى حمص. وينتسب ١٤% من سكان سوريا إلى النصارى ويعيشون غالباً في المدن في أحياء خاصة بهم، ولهم قراهم في حوران، والجزيرة (أشوريون) وغرب حماة وشمال اللاذقية، ويعايشون السنة في قرى الغوطة، وكان ١% من سكان سوريا ينتسبون إلى اليهودية، في دمشق وحلب، والقامشلي، ولهم أحياؤهم المغلقة كالعادة، وفر القادرون منهم إلى إسرائيل.

عسكري صبيحة يوم الثامن من آذار ويستلم الحزب السلطة في سوريا[1]. وبقيت هذه المجموعة في الظل، بينما استدعت ضابطاً كبيراً من ذراري السنة هو محمد أمين

---

(١) يقول الدكتور منير الغضبان (سوريا في قرن) : وتصوير انقلاب ٨ آذار بأنه تم بعبقرية نادرة من هؤلاء الستة هو تصوير فيه مجافاة للحقيقة، ولكن الأجواء السياسية العامة والتفكك بين الضباط في سورية وتشرذمهم العجيب هو الذي أدى إلى نجاح الانقلاب، وكما يقول زهر الدين: "وخلاصة القول: يكفيك أيها القارئ أن تعلم بأن القطعات التي كانت مكلفة بالدفاع عن العاصمة كانت تزيد في تعدادها عن العشرين ألف مقاتل، بينما القطعات التي دخلت دمشق صباح ٨ آذار لم تكن لتزيد عن الألف مقاتل، مع فارق كبير بالمعدات لصالح القطعات المدافعة، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على التواطؤ الواضح.

ومسؤولية زهر الدين كما ذكر في كتابه هي مسؤولية غير مباشرة. وذات دور كبير في إنجاح الانقلاب، فهو الذي رفض ابتداء تسريح ١٢٠ ضابطاً واكتفى بتسريح نصفهم، ولا شك أن هذا النصف الباقي بعناصره المنبثة بكافة القطعات قد ساهم مساهمة فعالة في إنجاح الانقلاب، إذ أن هذه العناصر كلها من البعثيين او المتعاطفين تعاطفاً تاماً معهم.

والسفارة الأمريكية التي لم تكن غائبة عن الساحة آذتها تلك المعركة المشرفة، أي معركة تل النيرب مع إسرائيل، والتي خاضتها القوات السورية ببسالة نادرة "فهي من المعارك التي تشرف الجيش العربي السوري، وتشرف الأمة العربية بأجمعها، لأن الخسائر التي تكبدها اليهود في هذه المعركة والتي شاهدناها ولمسناها (الكلام لزهر الدين) إضافة إلى التي أخبرنا عنها الجنرال فون هورن كبير مراقبي الهدنة، والتي لحقت بالمستعمرات اليهودية، قد تجاوزت الأربعمائة قتيل، عدا عن الخسائر المادية، وهي عبارة عن معمل، ومولدات كهرباء، ومزارع أبقار، وغيرها، يضاف إلى ذلك الغنائم الحربية التي ربحناها. أما خسائرنا فكانت أحد عشر شهيداً منهم المرحوم الملازم دباس وعشرة جرحى". انتهى كلام زهر الدين.

أقول (مازال الكلام للشيخ الغضبان): هذه المعركة قد لفتت أنظار أمريكا على خطورة الوضع، فطيلة عهد الوحدة لم يقع أي اشتباك مع إسرائيل، وأرادت أمريكا أن تدجّن سورية. وتبعد هؤلاء الضباط عن الساحة، وتعمل جاهدة على تفكيك الجيش السوري، وليس بين أيدينا دليل مادي على الدور الأمريكي في الانقلاب. وكل ما بين يدينا هو قول زهرالدين في مذكراته: "ناصريون وبعثيون وانتهازيون وأمريكيون يدبرون عصيان حمص (من إرهاصات ٨ آذار)" وقوله: "السفارة الأمريكية في دمشق وقنصليتها في حلب، لأن هم أمريكا الاستعمارية الوحيد وشغلها الشاغل كان وما يزال يهدف إلى حماية إسرائيل ومصالحها. وقد أدركت أمريكا أن استقرار سورية يعني القضاء على إسرائيل، وعدم الاستقرار يعني تطور إسرائيل وترسيخ أقدامها في الأرض التي اغتصبتها، وعلى هذا الأساس كانت الشخصيات الأمريكية لا تنقطع عن دس الدسائس على سورية كما كان شأنها قبل الوحدة وفي عهد الانفصال. هذه هي الفئات التي تعاونت لإزالة العهد الذي أطلقوا عليه اسم الانفصال. وقد علمنا بأن الممول والمخطط المستتر هو أمريكا. أما المخطط الممول والظاهر فكان=

الحافظ، لتجعله رئيساً لمجلس الرئاسة، كما وضعت عدداً من الضباط الكبار ذوي النزعة الوحدوية، دون أن يكون لهم تنظيم سياسيي مثل راشد القطيني ولؤي الأتاسي وغيرهم، وتبين بعد أربعين سنة أن لولب اللجنة العسكرية هو حافظ الأسد، لأنه كان يعمل بصمت من وراء أعضاء هذه اللجنة، ويضرب بعضاً ببعض آخر، حتى تخلص من جميع رفاقه في اللجنة العسكرية، وأخيراً انفرد بتملك سوريا له ولأولاده بعده.

وكان أول إجراء يقوم به حزب البعث لدى تسلم السلطة هو تسريح الضباط الدمشقيين (قادة الانفصال) وأتباعهم من الضباط الصغار وكلهم تقريباً من المسلمين السنة. واستدعت هذه الخليةالسرية الضباط الاحتياطيين من العلويين والدروز والإسماعيليين. ومن العجيب أنهم سرحوا من الجيش معظم طلاب الضباط من الكلية العسكرية، وطلبت دفعة مستعجلة من الكلية العسكرية كان معظم أفرادها من هذه الفئات المذكورة، ومنهم رفعت الأسد وعبد الله طلاس أحد أقارب مصطفى طلاس.

حركة جاسم علوان :

كنا نظن أن انقلاب الثامن من آذار وحدوي، وخاصة بعد أن أعلن عن قيام الاتحاد الثلاثي بين سوريا ومصر والعراق، بعد فترة وجيزة من الانقلاب، وقد سبق البعثيون العراقيون رفاقهم السوريين فاستلموا الحكم بانقلاب عسكري يوم (٨ شباط ١٩٦٣م).

=القاهرة. وقد دلت مباحثات الوحدة التي أجريت في القاهرة بعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣ على صدق ذلك، إذ اعترف الرئيس عبد الناصر بأنه وضع مبلغاً ضخماً من المال تحت تصرف الأستاذين عفلق والبيطار لمقاومة العهد في سورية".

ولا نشك أبداً أن خوف أمريكا من انتخابات حرة في سورية يصل الإخوان المسلمون فيها والتيار الإسلامي إلى الحكم قد حدا بالجميع إلى تنفيذ الانقلاب قبلها، وبالسرعة المطلوبة. فقد كان عدد نواب الكتلة الإسلامية لا يتجاوز في المجلس النيابي في عهد الانفصال عشرين نائباً، ومع ذلك برز الإخوان المسلمون على الساحة نداً عنيفاً للاشتراكيين. وأصبح القرار السياسي لا يمكن أن يمر دون موافقة الأستاذ عصام العطار المراقب العام للإخوان المسلمين عليه، فكان العظم والعطار والحوراني هم أصحاب القرار السياسي في سورية في أواخر عهد الانفصال، حتى إن انقلاب ٢٨ آذار ١٩٦٢ وانقلاب ٨ آذار عام ١٩٦٣ لم يكن يجرؤ على مواجهة التيار الإسلامي. فلم يجرؤ النظام بعد هذين الانقلابين أن يعتقل أحداً من الكتلة الإسلامية، أو ينفذ في أحد منهم قرار العزل السياسي، والصحيفة الوحيدة التي بقيت مستمرة بعد انقلاب ٨ آذار من الصحف التي كانت تصدر في زمن الانفصال هي صحيفة "اللواء" الناطقة باسم الإخوان المسلمين، أما البعث والوحدة فهما مجلتا العهد الجديد. (انتهى كلام الغضبان) .

ولكن مما لفت النظر أن سوريا لم تسمح للطائرة المصرية التي نقلت عدداً من كبار السياسيين السوريين الوحدويين (الناصريين) الذين كانوا في القاهرة خلال فترة الانفصال،لم تسمح لهم بدخول سوريا فعادت الطائرة بعد أن زودت بالوقود.

لذا قامت مجموعة من الضباط الوحدويين (الناصريين) بمحاولة انقلاب عسكري في دمشق في وضح النهار يوم (١٧ تموز ١٩٦٣م)، قادها العقيد جاسم علوان (من دير الزور)، وساعده فيها العقيد محمد الجراح، وقبل أن تتمكن من تسلم الإذاعة انقض عليها اللواء المدرع السبعون ودارت معارك على مشارف دمشق وداخلها أيضاً نهاراً، وانتشرت جثث القتلى في الشوارع، ففشل الانقلاب لأن هذه الخلية البعثية السرية (اللجنة العسكرية) تمكنت من اختراق هذا الانقلاب عبر جاسوسهم الرائد محمد النبهان الذي كان من قيادة الانقلاب (صورياً)، وقد حوكم محاكمة صورية مع جاسم علوان ومحمد الجراح، وأعدم العقيد هشام شبيب من سلاح الإشارة، والمساعد بحري كلش، ويبدو أنهما رأس حربة تنفيذ الانقلاب، وقد ترأس المحكمة العسكرية المقدم صلاح الضللي من دير الزور، وتشبث البعثيون بالحكم، واستفادوا كثيراً من هذه الحركة حيث سرحوا دفعات كبيرة من الضباط الناصريين ومعظمهم أو كلهم من المسلمين السنة، واستدعي ضباط احتياط من العلويين والدروز والإسماعيليين ليشغلوا أماكنهم.

وسوف نرى أن الخطة التي وضعتها تلك الخلية السرية القيادية لحزب البعث[١] [والأفضل أن نقول حافظ الأسد] تقضي بتصفية الجيش من الضباط غير البعثيين أولاً ومعظمهم من السنة، ثم تصفيته من البعثيين السنيين بعد قيام حركات التصحيح داخل الحزب نفسه، حتى يصبح معظم ضباط الجيش من الفئات التي تشكلت منها تلك الخلية السرية، ثم تأتي المرحلة الأخيرة وهي تسريح الضباط البعثيين غير العلويين، ثم سرح بعض الضباط العلويين (أنصار صلاح جديد)، وقد نفذ هذا المخطط إلى أبعد مما رسم له،

---

(١) يقول فان دام ص ٥٩: إن القيادة العليا للجنة العسكرية البعثية التي تأسست عام (١٩٥٩م) خلال الوحدة بين سوريا ومصر من قبل ضباط منقولين لمصر تكونت في البدء من خمسة ضباط من بينهم ثلاثة علويون هم محمد عمران وحافظ الأسد وصلاح جديد، وإسماعيليان هما: عبد الكريم الجندي وأحمد المير، ثم توسعت فيما بعد لتضم عثمان كنعان (اسكندرونة) وسليمان حداد، وسليم حاطوم وحمد عبيد (درزيان) وستة من ذراري السنة هم موسى الزعبي ومصطفى الحاج علي وأحمد سويداني (من حوران) وأمين الحافظ وحسين ملحم (من حلب)، ومحمد رباح الطويل (من اللاذقية).

وصار معظم ضباط الجيش من العلويين فقط[١]، ومن المخلصين لعائلة الأسد، كماتدل حادثة مدرسة المدفعية المشؤومة في حلب على ذلك [٢].

حركة مروان حديد في حماة :

ولد مروان خالد حديد في حماة عام (١٩٣٤م)، في أسرة مستورة الحال، وكان المولود الرابع فيها، أخوه الأكبر محام، وله أخ ضابط كبير في الجيش،استمر فيه حتى مقتل مروان يرحمه الله وكان ملحقاً عسكرياً في إحدى سفارات سوريا، والده مستثمر في الزراعة، ويقال: إن مروان كان في شبابه عضواً فعالاًفي الحركة الاشتراكية، حيث معظم أسرته منها (إلا أن الأستاذ عدنان سعد الدين ينكر هذه المقولة الشائعة في حماة انظر المجلد الرابع مذكراته).

التزم مروان بالحركة الإسلامية[٣]، عندما رأى أخاه الكبير فرحاًيقول: قتل اليوم أخطر رجل على الأمة العربية فسأله مروان من هو؟ فقال: حسن البنا شيخ الإخوان في

---

(١) يقول فان دام ص ١٣١: ويمكن تتبع هذه التصفيات من خلال بنية القيادات القطرية السورية، فبعد شباط (١٩٦٦) تم إزاحة آخر ضابط سني من حلب (وهو أمين الحافظ)، وفي تشرين أول (١٩٦٨م) تم إزاحة آخر الضباط الدروز (سليم حاطوم وحمد عبيد) وكذلك الضباط الحورانيين (نسبة إلى حوران) وفي آذار ١٩٦٩م أزيح آخر الضباط الإسماعيليين (عبد الكريم الجندي)، ويمكن تفسير انتخاب رفعت الأسد عضواً في القيادة القطرية (نيسان ١٩٧٥) بأنه انعكاس لاعتماد الرئيس حافظ الأسد على عائلته الشخصية أو عشيرته إلى حد كبير بعد (١٩٧٠م).

(٢) أقدم ضابط بعثي سني يدعى النقيب إبراهيم اليوسف على تنفيذ مجزرة خططها مع الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين بزعامة عدنان عقلة (في ١٦/٦/ ١٩٧٩م) قتل فيها قرابة المائتين من طلاب الضباط العلويين ومحل الشاهد أن منفذ العملية جمع طلاب الضباط في صالة المطعم أو النادي بحجة محاضرة وأخرج السنيين منهم بأعذار متعددة، فكان عدد السنيين قرابة ثلاثين طالباً من ثلاثمائة مجموع طلاب المدرسة يومذاك. ثم فتحت النيران من الأسلحة الرشاشة من عناصر الطليعة الذين وصلوا المكان في الوقت المناسب وكانت مجزرة جرت على البلاد ويلات وخيمة جداً، وقد تبرأ الإخوان المسلمون من هذه المجزرة ببيان صدر وقتها ونشر في مجلة المجتمع العدد (٤٥٢) في ٩ شعبان ١٣٩٩هـ .

(٣) يقول الأستاذ عدنان سعدالدين في كتابه مسيرة جماعة الإخوان المسلمين من (١٩٧٥وحتى ١٩٨٢م ص٤٢ ما يلي: التحق الشيخ مروان بالجماعة عام ١٩٥٠، وكان عضواً نشيطاً في أسرتي حتى عام ١٩٦٤م، وقد أرسلته الأسرة من صندوق تكافلها الاجتماعي لدراسة الهندسة الزراعية في القاهرة، فرأى ما يتعرض له الإخوان في مصر من إعدام وتنكيل، فامتلأت نفسه غيظاً على الظالمين، ولما عاد إلى سوريا هاله ما رآه من تحد للمشاعر الإيمانية وعدوان على القيم الإسلامية، والجهر بالكفر البواح عبر الإعلام المسموع والمقروء، فقرر السير على درب الشهادة، وطلق الدنيا=

مصر، يقول مروان فتتبعت الخبر من الراديو، ثم وجدت نفسي تحت وطأة خاطر ملح يدعوني للتعرف على فكر هذاالرجل، فقرأت رسائله وذهبت إلى مسجد السلطان لأستمع إلى الشيخ محمد الحامد، وأتبين حقيقة دعوة البنا، وكان التحول من العماية إلى الهدى، ومن الضلال إلى الرشاد.

ثم درس مروان الهندسة الزراعية في جامعة عين شمس بالقاهرة،وهناك عايش الإخوان المسلمين في نضالهم السري خلال عهد الوحدة، ثم عاد بعد تخرجه في عام (١٩٦١م) إلى حماة، ومع أن بكالوريوس الزراعة شهادة نادرة آنذاك وفرص العمل متوفرة جداً ؛ وعرض عليه محافظ حماة بل ألح عليه عام (١٩٦٤) وهو الأستاذ عبد الحليم خدام) وظيفة مرموقة؛ إلا أنه أصر على أن يفرغ نفسه للدعوة وتربية الجيل المسلم، فأصلح مسجداً صغيراً جوار بيته في أول حي البارودية بالحاضر في مدينة حماة، وجعله مقراً لنشاطه التربوي والدعوي، وقد رسم على باب المسجد سيفين متقاطعين بينهما مصحف (وهو شعار الإخوان المسلمين). وشارك أحد الإخوة في مزرعة ومدجنة، كان مروان يقدم له استشارات فنية بحكم دراسته، ويعيش من حصته في هذه المزرعة،وقد تخفف من أعباء الحياة فعاش عزباً طوال حياته يرحمه الله. وفي عام (١٩٧٢م) أرسل له رفعت الأسد رسالة مع السيد عبد المجيد الزعيم (من وجهاء الحمويين) يعرض عليه منصباً مرموقاًفي السلطة براتب عال، وكان رد الشيخ مروان يرحمه الله: (إن المناصب أوساخ من حكام الدنيا نطؤها بأقدامنا، ولا حاجة لي بذلك وكل الذي أريده وأطلبه هو الحكم بالإسلام). ويقال أنه كتب له الجواب على خلف ورقة رسالته

=ثلاثاً، وتجرد من متعها المباحة، ومنها الزواج الذي آثر تركه، بعد أن عقد على زوج له صمم أن لا يدخل بها مع أنها عاشت معه في العمارة التي قبض عليه فيها .ورفع شعار الجهاد ودعا الشباب إليه؛ فاستجاب له ثلة من الشباب اليافع أعمارهم (١٥ ٢٠) أصفياء أنقياء ليست لهم تجربة أو نظرة بعيدة، الأمر الذي سبب حرجاً لتنظيم الإخوان في حماة، ولم يتمكنوا من معالجة هذه الظاهرة، رغم ما بذلوه، ومع أن مروان لم يقل يوماً أنه خارج الجماعة؛ إلا أنه كان يتصرف طبقاً لاجتهاده وحماسته، وكان بعض أعضاء التنظيم يتعاطف معه، ... وكنت أتحدث معه بشيء من الشدة لثنيه عن برنامجه بحكم الصلة التي ربطتني به خمسة عشر عاماً، وأخيراً توارى عن الأنظار، وغادر إلى دمشق، وأرسل لي من مخبئه يسأل الدعم، فأرسلت له أخوين نقلا له رأيي الصريح فيما هو فيه، وخلاصته: أن برنامجه لن يؤدي إلى نتيجة، بل هو ضار به وبغيره، فإذا أراد دعماً مادياً لتغطية النفقة ومطالب العيش لبينا طلبه دون تردد مهما بلغت التكاليف، أما اللجوء إلى الجبال فلن يجديه نفعاً ولسنا معه فيه، ويستطيع العدو بطائرة هيلوكبتر أن يحبطه ويقضي على مجموعته. ثم انقطعت الصلة بيننا حتى قبض عليه وسجن ثم استشهد يرحمه الله.

يقول فيها: الدنيا جيفة وطلابها كلاب، احكم يا رفعت بالإسلام وأنا جندي عندك، فغضب رفعت وأمر بقتله، ولكن الله ألهم مروان ففر من حماة قبل أن يصلوا إلى بيته. ولم يقصر دعوته على المسجد بل كان يزور الناس في عملهم، وفي بيوتهم أحياناً ليدعوهم إلى الالتزام بدين الله عزوجل، وصار يعلن أن (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر). لذلك تم اعتقاله للمرة الأولى (١٩٦٣م)، بعد أن خطب في المسجد وهاجم الحكومة؛ لأنها تعمل على إظهار الفساد ونشره بين الشعب السوري المسلم، وطالبها بالحكم بما أنزل الله. ولم تدم فترة اعتقاله سوى أيام معدودة.

كان مروان يرحمه الله طويلاً جداً قوي البنية، ومع هذا فقد أعفي من الخدمة العسكرية، لذلك سجل في قسم الفلسفة بكلية الآداب في جامعة دمشق وتخرج منها عام ١٩٦٩م، وكان جسمه الفارع ولباسه (الثوب والعباءة والعمامة) يجعلانه شخصية مميزة تشير للناظرين كأن رجلاً من عهد الأمويين مازال يعيش بيننا، لذلك كان طلاب وطالبات الجامعة يقفون مندهشين كلما مر من ممرات الجامعة. وبعد تخرجه من الجامعة كان يعرض نفسه على المدارس الخاصة ليعمل فيها مدرساً للتربية الإسلامية أو الفلسفة بدون راتب، لكن لم يسمح له أحد بتحقيق هذه الرغبة يرحمه الله.

كان مروان يختلف مع جماعة الإخوان المسلمين في معالجة الوضع الراهن في سوريا، فأسلوب الإخوان المسلمين كما هو معروف لدى القاصي والداني الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتربية الفرد المسلم، فالأسرة المسلمة، ثم المجتمع المسلم ثم تقوم عندئذ الدولة المسلمة، وسبيلهم إلى إقامة هذه الدولة العمل التربوي ثم الإعلامي ثم السياسي، من خلال الديموقراطية والمجالس النيابية وصناديق الاقتراع[1]. أما مروان يرحمه الله فقد كان يتفق مع الجماعة قبل ربيع عام (١٩٦٤)، وكان مفعماً بالعمل السياسي، لذلك قرر - بدون موافقة الجماعة - أن يعتصم بمسجد السلطان في حماة، مع مجموعة من الطلاب، ليحث أهالي حماة على الإضراب، ثم ينتشر الإضراب في جميع المحافظات، وتسقط حكومة البعثيين، وشهادة للتاريخ كان مروان يرحمه الله يسميها

---

(١) وأصدق دليل ما شهدت به الأعداء، يقول حافظ الأسد في خطابه المشهور في إذاعة وتلفزيون سوريا يوم (١٩٨٠/٣/٢٣م) وقد سمعت هذا الخطاب من الإذاعة، وأنقله الآن من (نيقولاوس فان دام) يقول حافظ الأسد (أريد أن أوضح أمراً يتعلق بحزب الإخوان المسلمين في سوريا، الإخوان المسلمون في سوريا ليسوا جميعاً مع القتلة، بل كثير منهم، القسم الأكبر منهم ضد القتلة ويدين القتل، وهذا القسم يرى أنه يجب أن يعمل من أجل الدين ورفع شأن الدين لا من أجل أي هدف آخر، هؤلاء أيها الشباب لا خلاف لنا معهم إطلاقاً، بل نحن نشجعهم!!!)، ص ٢٤١.

حكومة (العلويين)[1]، واعتمد على أن الإضراب الستيني زمن الانتداب الفرنسي أسقط الحكومة يومذاك، كما أنه اعتمد على أن الجيش الفرنسي لم يدخل المساجد أبداً، لذلك ظن مروان يرحمه الله أن المسجد يوفر له ملاذاً آمناً يدعو منه الحمويين إلى الإضراب، وهذا كما تعلمون عمل سياسي، لأنه رأى سوريا مهددة من قبل الأقليات، وأن الزمن في صالح أعداء الإسلام، وأنهم سيحاربون الإسلام جهراً عندما يتمكنون، لذلك يرى مروان ضرورة القيام بعمل سياسي عاجل؛ من أجل إسقاط الحكومة، والعودة بالبلاد إلى النظام الديموقراطي، واعتقد مروان أن الإضراب السلبي حيث تتعطل دوائر الحكومة والأسواق والمدارس والجامعات عن العمل؛كفيل بإسقاط الحكومة إذا شاركت فيه معظم محافظات سوريا، كما فعل السوريون خلال الانتداب الفرنسي في إضراب الستين يوماً، وقد غيروا الحكومة المعينة من قبل المستعمر يومذاك بحكومة أخرى شارك الشعب في تكوينها.

أصر مروان على مخططه، ودعا الله أنْ يشرح صدور الإخوان لما شرح له صدره[2]، وقرر أن يعتصم مع مجموعة من الطلاب في مسجد السلطان[3] ويدعو الناس من مذياع المسجد إلى الإضراب، ويبين لهم خطر البعثيين وحقدهم على الإسلام والمسلمين. وفي أحد أيام آذار (١٩٦٤م) انتقل مروان مع مجموعة من طلاب المدارس الإعدادية والثانوية إلى مسجد السلطان واعتصموا به.

وقد وصلت حماة إلى حالة من التوتر بعد أن حصلت مشادات بين الطلاب في ثانوية الصناعة، انتهت إلى اعتقال أحد الطلاب الإسلاميين؛لأنه كتب على السبورة قول الله عزوجل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، وذلك استجابة لتحدي الطلاب

---

(١) أفضلُ أن نقول العلويين بدلاً من النصيريين، مع أن مروان كان يقول (النصيريين) ،لأنني سمعت العلماء يروون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخاطب الناس بأحب الأسماء لهم...

(٢) يقول الدكتور منير الغضبان (١/ ٣٣٦) تحت عنوان: قيادة الإخوان تقرر عدم المواجهة:
في هذه الأثناء رفع مكتب حماة إلى المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في سورية أوضاع حماة. وبعد دراسة مستفيضة قررت قيادة الإخوان المسلمين في سورية تجنب الصدام مع السلطة، وأبلغت هذا القرار لممثل حماة ليقوم بدوره بتبليغ الإخوان في مركز حماة ذلك. واجتمع فرع حماة قبل الأحداث بيومين، ووصله قرار القيادة. وكُلِّف الشيخ سعيد حوّى رحمه الله بحضور الاجتماع الحاشد لرجالات حماة في مسجد الشيخ زين بالشمالية بأمر من قيادة فرع حماة لتهدئة الموقف.

(٣) بناه أحد السلاطين الأيوبيين يرحمه الله، في قلب مدينة حماة، له مئذنة عالية جداً يؤذي منظرها الحاقدين على الإسلام، وفيه درس يومي للشيخ محمد الحامد يرحمه الله الذي تربى على يده معظم أفراد الإخوان من مدينة حماة، كما كانت صلاة العشاء تؤخر فيه لمدة ساعة أو أقل بسبب درس الشيخ محمد الحامد، لذا كان مسجد السلطان الملتقى اليومي لشباب الإخوان.

البعثيين الذين يكتبون كل يوم على السبورة المقولة التي تكررها وسائل الإعلام الأسدية وهي (الرجعية أخطر من إسرائيل)، ويجب القضاء على الرجعية أولاً ثم إسرائيل ثانياً، لذلك كتب الطالب الإسلامي تلك الآية كاستجابة لذلك التحدي. وخرجت المدارس الثانوية بإضراب بدأته ثانوية عثمان الحوراني في الحاضر، حيث يكثر تلاميذ مروان، ضد اعتقال ذلك الطالب، وتدخل الجيش ضد هذه المظاهرة التي كانت تهتف هتافات معادية لحزب البعث مثل (لا إله إلا الله، والبعث عدو الله)، فأطلق الجيش النار على أحد الهتافين وقتله (وهو الطالب سمير جواد يرحمه الله) فتفرقت المظاهرة، والتهبت المشاعر، وطوق الجيش مدينة حماة، وفي اليوم التالي اعتصم مروان في المسجد.

الجيش يهدم مسجد السلطان بالدبابات :

عندما وضع مروان خطته ورأى أن يعتصم بالمسجد؛ ظناً منه أن المسجد مكان آمن يحميه، ولأن الشعب السوري فهم من خلال جهاده ضد الفرنسيين، أن الجيش لا يدخل المساجد، ومن البدهيات المنتشرة بين الشعب قبل حكم البعثيين أن الجيش والشرطة لا يدخلون المساجد إلا للصلاة فيها، ولا يدخلون الجامعات أو المدارس، وإذا أرادت الشرطة القبض على مدرس فإنها تبحث عنه خارج المدرسة، ولا يجوز لها أن تقبض عليه في المدرسة للأثر السيئ الذي يتركه ذلك المنظر في نفوس الناشئة من الطلاب، وقد أثبت البعثيون أن هذا كله غير مقبول في منطقهم.

وكلفت القيادة القطرية اللواء (٤٥) مشاة آلية بقيادة العقيد الدرزي حمد عبيد أن يتحرك إلى مدينة حماة، ليطوقها ثم ينفذ الأوامر التي تعطى له هناك[١].

---

(١) بين الدروز وأديب الشيشكلي (الحموي) حقد كبير، حيث حاصر الجيش السوري مدينة السويداء عاصمة الدروز في عهد أديب الشيشكلي، وآذى أهلها عندما كانوا يخططون لحركة انفصالية يومها فأحبطت محاولتهم بقوة وعنف، لذلك من سياسة الأسد الحاقدة ضرب الفئات السورية بعضها ببعض، وهكذا سلطوا حمد عبيد (الدرزي) الحاقد على الحمويين على أهل مدينة حماة لينتقم منهم. وحدثني من أثق به قال: شاء الله أن أخدم جزءاً من خدمتي العسكرية بعد تخرجي من كلية الضباط الاحتياط في هذا اللواء، امتدت إلى بضعة شهور، لكنهم – وكلهم من الضباط العلويين وأنصارهم – لم يتحملوا وجودي معهم، وكان قائد سريتي يسألني متعجباً: لماذا تصلي ست مرات في اليوم، بدلاً من الخمسة!!؟ (يقصد صلاة الضحى طبعاً)، أي أنه كان يراقبني ويعد مرات الصلاة في اليوم، علماً أنني لم أكن قد أعفيت لحيتي، وكنت أموه عليهم بأنني اشتراكي من جماعة أكرم الحوراني؛ ولكن مجرد المحافظة على الصلاة عندهم تعتبر جريمة لا يمكن السكوت عنها لذلك طلبني قائد اللواء العقيد العلوي يونس يونس، وتعرف علي وعلى شهادتي، وبعد أسابيع قليلة بلغوني نقلي إلى كتيبة ، فيها=

كان الثوار السوريون يضربون الجنود الفرنسيين، ويفرون أمامهم حتى إذا أصر الفرنسي على متابعتهم دخلوا في أول مسجد يقابلهم، فيصل الفرنسي إلى باب المسجد ثم يقف متألماً ليعود من حيث أتى.

تكلم مروان في إذاعة المسجد، ودعا أهالي حماة إلى الإضراب ومقاطعة هذه الحكومة الكافرة، وأقيمت حواجز في الشوارع.

وصل اللواء (٤٥) إلى حماة وفور وصوله دمر مدرسة قريبة من مسجد السلطان ليسهل عليه اقتحام المسجد من جهتها، كما حاول اقتحام المسجد من بابه الغربي (عند سوق الحدادين)، ولما تبين له صعوبة ذلك، توجه نحو الباب الشرقي لاقتحام المسجد، ويتضح من هذا الفعل أنه جاء مصراً على دخول المسجد واعتقال المعتصمين فيه.

عندما رأى المعتصمون الجنود يستعدون لدخول المسجد؛ انطلقت عدة عيارات نارية من مئذنة المسجد صوب الجنود الذين تهيأوا لدخوله من مسدس عيار (٧) ملم كان مع ضابط احتياط حموي، كان يومها في إجازة ودخل المسجد مع مجموعة مروان، وقرر أن لا يسمح للجنود بدخول المسجد، لذلك أطلقت الدبابات ثلاث قذائف من عيار (١٠٠) ملم على المئذنة فهدمتها وتمكن ذلك الضابط الحموي من الفرار، وتأهب الجنود لدخول الباب الشرقي بعد إسقاط المئذنة، ولم تبق أي طلقات تخرج من المسجد نحوهم.

ولما دخل أحدهم كان الشهيد محمود نعيم يرحمه الله ينتظره بالبلط، وأخذ بندقيته ووجهها نحو الجنود وأفرغ مخزنها فيهم. ثم سقط شهيداً عند باب المسجد الشرقي[1]. ولما رأى قائد السرية التي تحاصر المسجد محمود نعيم يرحمه الله يقتل عدداً من جنوده، وأخبر قائد اللواء حمد عبيد، سمح له بتدمير المسجد كله، وبدأ يقصف قبة المسجد وسائر أركانه حتى صار المسجد خرباً لا يحمي أحداً، لذلك اضطر مروان يرحمه الله إلى التسليم مع عشرات الطلاب الموجودين معه. فأخذهم الجيش وصورهم مع أسلحة وضعها الجيش

=الدبابات التي تعطل محركها، وقد وضعت على الخط الأول مع العدو، وسموني مسؤولاً عن دبابات الكتيبة وعددها (٣٣) دبابة (ت ٣٤) بدون محرك، كما يقال مكانك تحمدي أو تموتي، وأكملت خدمتي فيها، لأن معظم عناصر هذه الكتيبة، حتى قائدها من المغضوب عليهم عند الأسد.

(١) كما استشهد منقذ صيادي الذي كتب بدمه وهو في سيارة الإسعاف (في سبيل الله قمنا.... نبتغي رفع اللواء. فليعد للدين مجده... أو ترق منا الدماء). وتوفيق مدني وعبدالله المصري يرحمهم الله جميعاً، وكلهم من طلاب الصف الثالث الثانوي وأولى جامعة.

أمامهم وكتب تحت الصورة في الصحف اليومية (أسلحة إسرائيلية وجدت مع الرجعيين)[1].

شكلت محكمة عسكرية برئاسة الرائد مصطفى طلاس قائد اللواء الخامس المدرع، فحكمت على مروان وبعض رفاقه بالإعدام، بعد محاكمات هزلية سخروا فيها من مروان ومن الإسلام، ثم تدخل الشيخ محمد الحامد يرحمه الله لدى الفريق محمد أمين الحافظ رئيس مجلس الرئاسة فأفرج عنهم بعد بضعة شهور من اعتقالهم.

ثم أعاد الجيش بناء مسجد السلطان خلال مدة عام أو يزيد قليلاً، انتقل خلاله الدرس اليومي للشيخ محمد الحامد يرحمه الله إلى مسجد الأحدب بالسوق الطويل.

ويبد ولي من خلال استقراء الأحداث فيما بعد أن مروان يرحمه الله خلال مدة السجن كان منبهراً ومندهشاً من تدمير الجيش للمسجد، وكيف يفعل السوريون بإخوانهم المواطنين ما لم يفعله الجنود الفرنسيون بهم، وعرف عندئذ أن العلويين سوف يحكمون البلاد ويذيقون المسلمين كأس الهوان والذل، ويصبون حقدهم التاريخي على المسلمين، لذلك قرر مروان أن هؤلاء الحاقدين لا يجدي معهم العمل السياسي ولابد من منازلتهم بالسلاح للقضاء عليهم وطردهم من السلطة.

وقد باشر مروان في تنفيذ ما عزم عليه مذ خرج من السجن، فبدأ بتجميع الشباب المسلم من طلاب المدارس الإعدادية والثانوية، من شباب الإخوان وسائر الحركة الإسلامية وغيرهم، وعقد لهم المخيمات والمعسكرات في (دوار الجاجية) قرب حماة، وعلى الساحل السوري في مكان يسمى (البدروسية)، وبد أيركز على إشباع الناشئة بفكر الجهاد والشهادة والجنة وحور العين، حتى كانت كلمته المأثورة عنه التي يكررها كلما ودع أخاً له يدعو له فيقول (أسأل الله أن يتقبلك شهيداً)، كما استطاع مروان أن يبني خلايا للطليعة في حلب وإدلب ودمشق وبانياس، وكان دائب الحركة والعمل المتواصل خلال الفترتين (تموز ١٩٦٤م) بعد الإفراج عنه من قبل محمد أمين الحافظ، وحتى شباط (١٩٦٦م) حيث اعتقل بعد الحركة التصحيحية الأولى التي قام بها صلاح جديد وطرد محمد أمين الحافظ، ثم أطلق سراحه في (حزيران ١٩٦٧م) عندما أفرج عنه مع جميع

---

(١) روى لي هذه الحقيقة أحد الطلاب الذين كانوا مع مروان في المسجد، أطلقوا سراحه في اليوم الأول لصغر سنه مع مجموعة من أمثاله (١٢ ١٣) عاماً، وقد التقيت به بعد عشرين سنة خارج سوريا، وقال أحضروا أسلحة لم نرها بحياتنا وصورونا معها ونشرتها الصحف في اليوم التالي،وكتب تحتها (الرجعيون استلموا أسلحة من إسرائيل). ولمزيد من التعرف على ذلك الحدث راجعوا رواية (عذراء حماة للدكتور عبد الله الدهامشة ، دار النواعير بيروت ، ٢٠٠٩).

السياسيين خلال نكسة الخامس من حزيران وبقي حراً طليقاً حتى شباط (١٩٧٣م) حيث توارى عن الأنظار بعد محاولة اغتياله من رجال رفعت الأسد، وفي الفترة من حزيران (١٩٦٧م) وحتى شباط (١٩٧٣م) عاش مروان في حماة وتابع عمله بجد ونشاط واستمر يبني ويربي ويخطط للطليعة المقاتلة، وأصدر الإخوان المسلمون تعميماً لقواعدهم عام (١٩٦٨) يحذرونهم من مجاراة مروان في نشاطه، ويطلبون منهم أن يبتعدوا عن جماعة مروان؛ بعد أن يئست الجماعة من إقناعه بعدم الإقدام على مشروعه ذاك. وفي معركة الدستور (١٩٧٣م) جاءت مجموعة من سرايا الدفاع لقتل مروان يرحمه الله بعد أن رفض عرض رفعت الأسد باستلام منصب في السلطة والتعاون معهم، ولكنه أحس بذلك قبل وصولهم ففر إلى دمشق، واختبأ فيها ليدير تنظيم الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين من مخبئه في حي المزرعة بدمشق، حيث تم اعتقاله جريحاً كما قيل بعد معركة جرت بينه وبين الوحدات الخاصة استخدمت فيها طائرة عمودية في صيف (١٩٧٥م)، وقد روى لي شاهد عيان أن المعركة استمرت من الضحى وحتى العصر، بعد أن كشفت المخابرات مكانه بواسطة جاسوس لهم اندس في صفوف الطليعة، واستطاع أن يكشف مكان قائدها؛ وهو الجاسوس المجرم (مصطفى جيرو)، الذي نال جزاءه على يد مجاهدي الطليعة في اللاذقية عام (١٩٨١م)، وفي السجن استخدموا كافة العقاقير والأساليب النفسية والجسدية، وساعدهم في ذلك عدد من الأطباء العلويين مثل الدكتور (محمود شحادة)؛ من أجل الوصول إلى ذاكرته والتعرف على تنظيم الطليعة، وغالب ظني أنهم فشلوا في ذلك، ونقل عنه يرحمه الله أنه قال لأخيه العميد البعثي، الذي سمح له بزيارته في السجن مع شقيقته أيضاً، أنه قال لهم انقلوا عني أنهم لم يحصلوا مني على كلمة واحدة، (ولكن أظن أنهم أخذوا منه من اللاشعور بدون وعيه والله أعلم)، وبعد عام كامل، وبعد أن تراجع وزنه من (١١٠) كلغ إلى (٤٠)كلغ فقط، قتلوه في السجن يرحمه الله، ودفنوا جثته في دمشق، دون معرفة أهله بذلك، وصب الإسمنت فوق قبره وتركت عليه حراسة لعدة أيام.

أحداث الجامع الأموي بدمشق[1] :

كان في دمشق ثلاث مجموعات إسلامية تتحرك في الساحة غير الإخوان المسلمين، وهذه المجموعات هي:

١- جماعة المرابط، وعلى رأسها الدكتور أمين المصري، ومن أهم قياداتها الأساتذة عبدالرحمن الباني وجودت سعيد ومحمد القاسمي، وهي قريبة في فكرها من الإخوان المسلمين، وكانت تقوم بمحاولات مستمرة للتنسيق معهم.

(١) هذا الموضوع نقلته عن كتاب الدكتور منير الغضبان سوريا في قرن (٣٤٢/١) .

٢- جماعة كتائب محمد: وهي جماعة تدعو إلى عمل مسلح لمواجهة النظام، ومن قادتها د. عدنان المصري وعبدالرحيم الطباع ومحمد كمال الخطيب.

٣ - مجموعة العلماء: وعلى رأسهم الشيوخ الأجلاء حسن حنبكة، وعبدالكريم الرفاعي وأحمد الدقر. وكان الجميع مستائين للتحول الكبير في سورية نحو الشيوعية، والانحلال والإباحية، وتحدي مشاعر الناس واستفزازهم من الحرس القومي المسلح، حيث كانت هناك حوادث فردية في الاعتداء على الشباب، والتحدي لمشاعر الشعب المسلم والاستهتار بعقائد الناس ومشاعرهم.

وقبيل أحداث حماة كان علماء دمشق قد اتخذوا قراراً مفاده أن لا يجري أي حدث في سورية إلا بعد قرار جماعي من علمائها. ومضى وفد فأبلغ هذا القرار للعلماء في حمص وحماة وحلب، وتلقى جميع العلماء هذا القرار بالموافقة والتحبيذ. غير أن العلماء كلهم بما فيهم علماء حماة فوجئوا باشتعال الأحداث في حماة. وعندما اتخذ القرار في دمشق بمساندة الإسلاميين في حماة أعلن سقوط حماة واستسلام الناس في الليلة نفسها التي تم فيها اتخاذ القرار.

ووضعت السلطة... خطة لضرب دمشق وإرهاب أهلها بعد أن كسبت معركة حماة. فراحت تعمل بواسطة عملاء لها في صفوف العلماء والسذج من الناس لإثارتهم على السلطة، ومعرفة من يتجاوب مع الحركة الإسلامية. ويحدثني أحد القادة الذين عاشوا هذه المرحلة وشهدوا أحداثها فيقول: كنا نجتمع مع العلماء لاتخاذ القرار المناسب، وبث التوعية الإسلامية في صفوف المسلمين. وحدث أن رسولاً لنا اعتُقل في طريقه إلى بيروت لمقابلة الأستاذ عصام العطار المراقب العام للإخوان المسلمين، ومعه بعض المبادئ الأساسية التي قررها مجلس شورى جماعة المرابط في محاولة توحيد الجماعتين، وتبع ذلك اعتقال قيادة الجماعة في ليلة واحدة في صلاة التراويح وهم د. أمين المصري، وجودت سعيد، وعبدالرحمن الباني. فقمت بإبلاغ ذويهم بعد الاعتقال وعرضت خدماتي عليهم. وفي اليوم الثاني من الاعتقال، فوجئت بإعلانات تدعو إلى محاضرة لي في جامع دنكز، وقد وزعت هذه الإعلانات في الجامعة والشوارع العامة. فتوقعت أن هناك مؤامرة تحاك للإيقاع بالإسلاميين، فكيف يعلن عن محاضرة لي دون علمي؟! ومضيت إلى المسجد متنكراً، فوجدته مزدحماً بالناس ينتظرونني، فأوعزت إلى بعض من أعرفهم بصرف الناس، وخرجت من الباب الآخر. ثم فضحت مؤامرة السلطة أكثر، حيث أعقب

ذلك إعلانات مطبوعة موزعة في أنحاء دمشق باسم العلماء تدعو الناس إلى الاجتماع بالمسجد الأموي في اليوم التالي، فاستغربت ذلك كثيراً، ومضيت إلى بيت الشيخ حسن حنبكة -رحمه الله- لأعرف هل للعلماء علاقة في الأمر أم لا، وكانت صلتي بهم مستمرة، ووصلت إلى بيته بعد المغرب، ومكثت عنده حتى قرابة الفجر، دون أن أتمكن من الخلوص إليه، فالناس يتقاطرون نحوه والمخابرات تعج بينهم. ثم صليت الفجر، واختلست لحظة معه خلوت فيها إليه، وسألته عن اجتماع العلماء في المسجد الأموي. فكان جوابه قاطعاً وحاسماً: لا، وليس هذا هو الطريق. فعدت إلى الحي لأبلغ من أعرفهم بذلك، فقالوا لي إن الدكتور أمين المصري قد أفرج عنه من المعتقل، ومضى إلى بيت الشيخ أحمد القادري الذي لم أكن أعرفه من قبل، وشككت في الوضع أكثر من ذي قبل.

سألت عن بيت الشيخ المذكور ومضيت إليه، ولم يكن لي به سابق معرفة. والتقيت بالدكتور المصري هناك مع بعض العلماء، وبعض النكرات الذين لا أعرفهم، ولا ندري كيف حضروا ومع من. وبعد التداول، تقرر مضي العلماء لبيت الشيخ أحمد الدقر. فانتقلنا إلى هناك، ثم تم الاتفاق على المضي إلى فضيلة الشيخ حسن حنبكة لاتخاذ القرار المناسب حول حضور الاجتماع المقرر في المسجد دون أن ندري من قرّره.

وعرضت على الإخوة العلماء أن أسبقهم إلى المسجد، وأهدئ الناس حتى لا تستغل السلطة هذا الحدث وتضرب الإسلاميين كما خططت، فوافقوا على ذلك. ومضيت للمسجد الأموي، حيث وجدته يعج بالناس والناس لا يزالون يتقاطرون إليه حسب الدعوة الموجهة.

فوجئت بعراك داخل المسجد بين الناس، وبين الحرس القومي وبعض عناصر الجيش. بعض شباب الحرس القومي ينضم للشعب، ويسلم الحرس سلاحه بسهولة. صعدت المنبر، وخطبت بالناس، ودعوتهم إلى الهدوء قائلاً لهم: نحن بانتظار رأي العلماء، وهم مجتمعون الآن ليبلغونا قراراتهم. وحتى لا تحدث أي فوضى وضعت بعض الشباب حول المنبر ليحولوا دون وصول عناصر مشبوهة إليه، وتعود الفوضى ثانية، وأصعد ثانية إلى المنبر، وبينما أنا أخطب، قطعت الكهرباء عن المسجد، ثم عن الحي كله، وأسمعت بصوتي جنبات المسجد كله، ودعوت إلى الهدوء والانشغال بقراءة القرآن.

وبدأت ملامح المؤامرة تتضح، فالشيخ أحمد القادري يصعد المنبر، ويدعو إلى المواجهة وحمل السلاح، وفي حركة مسرحية يتحدث عن ألفي ليرة سورية حاولت المخابرات أن تغريه فيها عندما دخل المسجد وقد أخذها، ويرفعها أمام الجماهير ويضعها

عربوناً لشراء السلاح ومقاومة الثورة. ويدعو الناس إلى التجمع في مسيرة عارمة إلى بيت الشيخ حسن حنبكة. وسألته هل هذا هو قرار العلماء. فقال لي: نعم هم أخبروني بذلك. وببساطة متناهية وافقنا على ذلك، وتداركت الأمر بأن طلبت الاتصال بالقصر والاستئذان من اللواء أمين الحافظ في هذه المسيرة. وخرج القادري وشيخ آخر اسمه جواد المرابط زعماً أنهما اتصلا بالقصر ووافق على ذلك، وفي ساحة المسجد الأموي الكبير رحنا نَصفُّ الناس عشرين عشرين لنتحرك بالمسيرة. ولشدة الإعياء عندي دخلت المسجد لأغفو قليلاً ريثما تتم التعبئة لخمسة آلاف رجل تقريباً قد تجمعوا هناك.

ثم كانت المفاجأة الصاعقة التي صحوت عليها، الدبابة تدك باب المسجد، ويدخل الرائد سليم حاطوم مع مئتين من أتباعه، ويبدأ إطلاق النار من الرشاشات في المسجد على الناس، ويسقط بعض القتلى. فيتقاطر الناس مذعورين داخل المسجد، حتى يحصروهم في إحدى زواياه، ويطالبوهم بالاستسلام الكامل. ولم تُجدِ المقاومة، وقذائف السباب والشتيمة تملأ الأفق، واقتادوا الناس أذلاء إلى السجون، حيث كنت في إحدى الشاحنات التي تكدست بالناس. وقام أحد ضباط الحرس بالمشي فوق رؤوسنا بنعاله الغليظة، ورشاشه بيده، يصرخ بالناس كي يهتفوا للبعث. وعندما تلكأ البعض بدأ الضرب على الرؤوس بأكعبة الرشاشات وأخامص البنادق، من عدد من الحرس القومي حتى راح كل من في الشاحنة يهتف: بعثية، بعثية. وآلمني المنظر فكبّرت، ومع التكبير انهال الضرب عليّ بأخمص البنادق حتى تجلل وجهي وثيابي بالدم، وزدت غضباً واشتعالاً فوقفت. فتوجهت الرشاشات صوبي، فأمسكت بفوهتي الرشاشين بكلتا يدي، وكأني أعطيت قوة ربانية، ورحت أصرخ بالجماهير المحتشدة حولنا والشاحنات تقطع بنا الطريق نحو السجون: لا اله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، لا إله إلا الله، والله أكبر. وعجز الحارسان أن يفلتا رشاشهما من قبضتي، وتابعت التكبير والذكر حتى نزلوا بنا إلى الأقبية. وهناك ثأروا مني بالبصاق علي ومتابعة ضربي وركلي.

ثم تم توزيعنا حسب الأعمار. وقبل المسير بنا إلى المزة. صلينا العصر في هذه الأقبية، وجاءنا اللواء الحافظ واللواء أحمد سويداني يلقون علينا محاضرة عن الاشتراكية والبعث، ووقفت لأتكلم، والدم يغمرني في ثيابي ووجهي، فجذبني الحاضرون ومنعوني عن الكلام، وصرخت بالحافظ أحدثه عن الضرب بالنعال والسلاح المستمر علينا، فأصدر

أوامره بتضميد جراحنا، وساروا بنا إلى المزة. حيث نزلوا بنا إلى أقبية التعذيب تنفيذاً لأوامر الحافظ القاضية بتضميد الجراح.

ويبدأ التعذيب بالكهرباء. وعندما تابعت التكبير والذكر صارخاً في وجوه الزبانية، هددوني بنقل الكهرباء إلى قبلي ودبري، فصحت قابلاً باستعماله في يدي وجسمي كله.

اقتادونا بعد بضعة أيام إلى المحاكمة، والتي كانت في المسرح العسكري بالربوة، وكان قضاة المحكمة هم الجلادون أنفسهم الذين دكوا المسجد بالدبابات، وأطلقوا النار على الآمنين العزل من السلاح. كان القاضيان هما الرائد سليم حاطوم، والمقدم صلاح الضلي. وبعد جولة من المحاكمات الرخيصة قدّر لي أن أجتمع في مهجع واحد مع إخواني في القيادة، الدكتور المصري، والأستاذان عبد الرحمن الباني وجودت سعيد، وقد تهشمت الوجوه، وتورمت من اللكمات والتعذيب المستمر. وكان الزبانية يقومون بنتف اللحى كلما عنّ لهم ذلك، ولقصر لحيتي لم يشفوا غليلهم إلا بالبصاق المستمر في وجهي، وأكثر من مرة كانوا يدخلون الأحذية في أفواهنا لزيادة الإهانة. وكانوا يعودون بنا إلى سجن المزة حيث وزعنا على زنازين منفردة، والبرد القارس يذبحنا، ولا غطاء ولا وطاء إلا بطانية واحدة. وفي إحدى الزنزانات قرأت وصية الشيخ محمد بن كمال الخطيب الذي أبلغ بالحكم عليه بالإعدام مع مجموعة من كتائب محمد التي حوكمت بصفتها تنظيماً مسلحاً.

ثم هدأت المعاملة، وعادوا بنا إلى مهجع كبير نعيش مع بعضنا، حيث أعدنا حياتنا الإسلامية فيها. وطلبوا منا كتابة تاريخ حياتنا في مراحل من التحقيق، ولكن التعذيب كان لا ينقطع كل فترة وفترة. حيث أمضينا اثني عشر يوماً في التعذيب والزنزانات، واثني عشر يوماً أخرى في المهاجع العادية. ولعل بعض الوساطات قد تمت، فأفرج عن تنظيمنا (جماعة المرابط) بالبراءة. بينما حكم على آخرين بالإعدام، ومدد مختلفة بالسجن. غير أن الفريق الحافظ تدخل وأطلق سراح الجميع. بينما رافق هذه المحاكمات عرض قضية كوهين، وقصد من ذلك تلويث سمعة الإسلاميين لإيهام الأمة بتعاملهم مع دولة أجنبية، وكان ذلك في أوائل كانون الثاني ١٩٦٥.

الجاسوس كوهين :

كوهين يهودي مصري هاجر إلى إسرائيل، ثم جندته المخابرات الصهيونية ليكون جاسوساً في سوريا، فبعثته إلى الأرجنتين باسم (كامل أمين ثابت)،كمهاجر عربي ثري وتقدمي قومي علماني (فاجر)، وهناك اتصل بالعميد محمد أمين الحافظ الملحق العسكري

السوري خلال عهد الوحدة ثم الانفصال[1]، وكان كوهين غنياً يدعي أنه يتاجر بالآثار، وتحت يديه أموال كثيرة مما قربه لمحمد أمين الحافظ، ثم زادت المودة بينهما عندما انتسب كوهين لحزب البعث فصار رفيقاً بعثياً من الطراز الأول.

دخل كوهين سوريا على أنه مهاجر عربي غني، ورفيق بعثي تقدمي في (٢٤/٨/ ١٩٦١م)، وادعى أنه مندوب لشركة (ربيمكس البلجيكية)، وخلال فترة الانفصال تعرف على الدرزي (جورج سيف) الذي يعمل في الإذاعة السورية، والذي عرفه بدوره على الضابط معزى زهرالدين؛ ابن شقيقة اللواء عبد الكريم زهر الدين قائد الجيش السوري خلال فترة الانفصال، وخلال فترة قصيرة بعد قيام انقلاب البعثيين، صار صديقاً حميماً لمعظم الضباط البعثيين، وخاصة النقيب سليم حاطوم، والرائد صلاح الضلي، كما كان صديقاً حميماً للواء عبدالكريم زهرالدين، وعشرات غيرهم، وكانت الفنانات والراقصات يقمن ليالي مع رفاقه الضباط في بيته الذي استأجره في دمشق بالقرب من السفارة الروسية، وزود كلاً من أصدقائه من الضباط الكبار بمفتاح خاص له، يدخله متى شاء. وكان الضباط يقضون مع رفيقات كوهين وفي بيته ليالي (تقدمية)، ومازال الرفيق كامل أمين ثابت (كوهين) يتدرج في حزب البعث حتى عرضت عليه وزارة شئون المغتربين فرفضها بناء على تعليمات حكومته. وكان يتصل يومياً بإسرائيل لاسلكياً على موجة اتصال السفارة الروسية أو قريباً منها.كما كان له برنامج يومي في الإذاعة بعد منتصف الليل كان يستفيد منه في إرسال ما يريد – مشفراً – إلى رئيسه في تل أبيب.

وشد انتباه أحد الضباط المصريين من القيادة العربية المشتركة (وأظنه علي علي عامر)، عندما كانوا في زيارة إلى الجبهة السورية عام (١٩٦٥م)، شد انتباهه كثرة الصور التي يلتقطها كامل أمين ثابت (كوهين) للمواقع والتحصينات العسكرية، فالتقط له عدة صور، وأعطاه المخابرات المصرية للبحث عنها، فكشفت هويته ووجدت في ملفاتها حقيقته، ولما أخبروا سوريا أعرضوا ولم يصدقوا أن هذا الرفيق التقدمي المناضل جاسوس يهودي، واعتبروا ذلك حسداً من رفاقهم المصريين.

---

(١) كان عبد الناصر يتعقب الضباط البعثيين، ويبعدهم عن الجيش، وقد أبعد محمد أمين الحافظ وجعله ملحقاً عسكرياً في الأرجنتين. كما أبعد حافظ الأسد وغيره من الإقليم الشمالي (سوريا) إلى الإقليم الجنوبي (مصر).

ثم تقدمت وزارة الخارجية الروسية بطلب إلى سوريا، تؤكد فيه حصول بث لاسلكي في الوقت الذي تبث فيه السفارة الروسية، وعندئذ زودت روسيا سوريا بسيارة مجهزة بتحديد مكان البث اللاسلكي المجهول، وشاهدت تلك السيارة وهي تتجول في حي الشيخ محي الدين بدمشق وحي الأكراد، ولها هوائي طويل جداً، وبعد مدة من البحث تأكد لهم أن المكان الذي يبث منه هو بيت الرفيق المناضل كامل أمين ثابت (كوهين)، وتحمس للقضية ضباط من المخابرات السورية لاصلة لهم بصاحبات كوهين، ويشكلون كتلة أخرى غير كتلة كوهين، يقال على رأسهم العقيد أحمد سويداني، فبحثوا بجد واهتمام، ونصبوا كميناً تمكنوا في نهايته من القبض على كوهين وهو ممسك بجهاز اللاسلكي يتكلم مع إسرائيل.

حوكم كوهين وكان رئيس المحكمة المقدم صلاح الضلي، وكانت المحاكمة أقرب إلى الصورية، وعرضت مشاهد منها على شاشة التلفزيون السوري، وقد لاحظ المشاهدون أن إجابات كوهين تدور حول قضايا تافهة، مثل خرجنا نزهة وعملت (جورجيت) تبولة وكان الزيت كثيراً... ويبدو أن مشاهد المحكمة التي عرضها التلفزيون متفق عليها مع كوهين نفسه، لأنه صديق لهؤلاء الذين يحاكمونه، وكلهم تورطوا معه. وشاهدت وتابعت هذه المحاكمة،كما شاهدها وتابعها معظم المواطنين السوريين، ثم حكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم على الرغم من تدخل الصهيونية العالمية بكامل ثقلها، وعرضت إسرائيل على سوريا – بواسطة محامي فرنسي اسمه (جاك مرسيه)-: أن تفتديه بمليار فرنك فرنسي، وتوسط بابا روما من أجل إنقاذ حياته، ولكن سدنة النظام البعثي أسرعوا في إعدامه لدفن أسرار تورطهم معه، ودفن الجرائم الكبيرة التي ارتكبوها في حق الوطن بمعرفته، وقيل إن السوريين احتفظوا بجثمانه لعدة سنوات حيث استلمته إسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧م، وبادلته بعدد من الأسرى السوريين الأحياء.

الحركة التصحيحية الأولى :

في (٢٣ /٢/١٩٦٦م) زحف النقيب الدرزي سليم حاطوم (قائد كتيبة مغاوير)، يساعده النقيب رفعت الأسد قائد سرايا الدفاع الناشئة يومذاك، على بيت الفريق محمد أمين الحافظ (رئيس مجلس الرئاسة)، ودارت معركة لعدة ساعات، دافع فيها حراس الفريق محمد أمين الحافظ (وبعضهم من الجنود البدو)، حتى سقط معظمهم، كما حاول أن يقاتل بنفسه، لكن الخطة التي نسجها كل من اللواء صلاح جديد واللواء حافظ الأسد وأتباعهما

كانت محكمة، للتخلص من عدد كبير من الضباط البعثيين السنيين، وتتلخص في إبعاد الضباط السنيين البعثيين عن دمشق وما حولها، إلى اللاذقية وحماة وحمص، وتم ذلك عندما ألقي القبض على الفريق الحافظ رئيس مجلس الرئاسة ووضع في السجن، واعتقل عدد من أنصاره الضباط معه،كما سرح مئات الضباط السنيين البعثيين، ليحل مكانهم ضباط علويون، وفر أعضاء القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي إلى العراق، ومنهم ميشيل عفلق (مؤسس الحزب)، ومنيف الرزاز، وشبلي العيسمي... وغيرهم بعد أن سيطرت القيادة القطرية على مقاليد الحكم في سوريا، بعد صراع دام سنتين بين القيادة القومية (غير علوية) والقيادة القطرية (ويسيطر عليها العلويون). يقول الدكتور نيقولاوس فان دام السفير الهولندي في القاهرة وصاحب كتاب الصراع على السلطة في سوريا: [(وبعد ٢٣ شباط ١٩٦٦م) تم إزاحة آخر ضابط سني من حلب من القيادة القطرية، وهو أمين الحافظ، وآخر الضباط الدروز، أي سليم حاطوم وحمد عبيد، وفي عام (١٩٦٨ م) أزيح آخر ضابط سني حوراني (من حوران، وربما يقصد أحمد سويداني) وفي مارس (١٩٦٩م) أزيح آخر ضابط إسماعيلي (وربما يقصد عبدالكريم الجندي الذي قتل عند بوابة اللواء السبعين، وقالوا إنه انتحر).كمالم يبق بعد هذا التاريخ ضباط غير العلويين والسنيين كأعضاء عسكريين، مع تمتع العلويين بالتفوق التام وتمثيلهم لكتل الجيش القوية، ويمكن تفسير انتخاب رفعت الأسد عضواً في القيادة القطرية (١٩٧٥م) بأنه انعكاس لاعتماد الرئيس حافظ الأسد على ضباط من عائلته الشخصية أو عشيرته أو أبناء المناطق المجاورة لقريته.)[1].

---

(١) نيقولاوس فان دام الصراع على السلطة في سوريا، ط ٢، ص ١٣١. ومابين القوسين للباحث الحالي، وقد اتضح مخطط اللجنة العسكرية فيما بعد وهو دفع ضباط وحدويين للانقلاب على الانفصاليين، ثم التخلص من الوحدويين وإبدالهم بالبعثيين من شتى الطوائف، واستمر هذا حتى شباط ١٩٦٦م، حيث بدأت المرحلة الثانية وهي التخلص من البعثيين السنيين المؤثرين وإبدالهم ببعثيين علويين ودروز وإسماعيليين، واستمرت هذه حتى عام ١٩٧٠م، حيث بدأت المرحلة الثالثة وهي طرد الدروز والإسماعيليين وإبدالهم بالعلويين فقط. ثم دام التآلف بين العلويين طوال الصدام المسلح مع الإخوان المسلمين، وبعد أن تغلب النظام الأسدي على الإخوان، بدأ الصراع بين عشيرة الأسد وغيرهم من العلويين، واستطاع حافظ الأسد أن يفرض عشيرته ثم عائلته على الطائفة ثم على سوريا، وخلال التسعينيات صار الصراع بين العائلة الأسدية نفسها، عندما صار حافظ الأسد يهيأ ابنه باسلاً لخلافته، ويبدو أن العائلة الأسدية هي التي اغتالت باسلاً، فتوجه حافظ ليهيأ ولده بشار للخلافة. وصدق المثل العربي القائل (والنار تأكل نفسها عندما لا تجد ما تأكله).

واتضح فيما بعد أن الخلاف الذي نشأ بين القيادة القطرية والقيادة القومية، سببه أن القطرية يسيطر عليها مجموعة من العلويين وتستغل الحزب من أجل فرض مصلحة الطائفة على سوريا، واستخدام الحزب كأداة ووسيلة لتحقيق سيطرة الطائفة العلوية، وقد اتضح ذلك خلال عقد السبعينيات، وقد دمرت هذه المجموعة حزب البعث وصارت هذه الطائفة تعمل من أجل التفرقة وليس الوحدة، والقهر والاستبداد وليس الحرية كما صار أبناء هذه الطائفة من كبار أغنياء العالم فأين (الوحدة والحرية والاشتراكية)؟

واعتقل مروان حديد مجدداً – بعد الحركة التصحيحية الأولى – للمرة الثالثة، على الرغم من العفو الذي صدر بحقه من قبل رئيس مجلس الرئاسة السابق محمد أمين الحافظ، ووضع في سجن المزة العسكري، مع الفريق محمد أمين الحافظ، ووضع الدكتور نورالدين الأتاسي رئيساً للدولة، وشكلت حكومة مدنية يرأسها الدكتور يوسف زعين، وصارت السياسة السورية أكثر ميلاً نحو الماركسية.

حرب (١٩٦٧م) بين الصهاينة والعرب :

نشأنا منذ الصغر على كره الصهاينة، وعلى الاستعداد لطردهم من فلسطين، وتحرير المسجد الأقصى منهم، وكانت حكومات دول المواجهة وخاصة مصر وسوريا والعراق تخطط حياتها على هذا الأساس، فالانقلابات العسكرية تقع بحجة أن الحكومة قصرت في العمل من أجل الإعداد لطرد الصهاينة، وكانت (٦٥-٨٠) بالمائة من الدخل القومي السوري تنفق على وزارة الدفاع من أجل التسلح والإعداد لتحرير فلسطين، وليس هذا كله حباً بفلسطين فقط،وإنما دفاعاً عن النفس أيضاً لأن هدف إسرائيل معلن ومعروف وهو (حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل)، لذلك كانت آمال الجيل الصاعد مرتبطة بهذا الهدف المحوري، وصار للجيش مكانة مرموقة في العالم العربي؛ لأنه يعد من أجل طرد الصهاينة وتحرير فلسطين، وحماية البلد من الصهاينة، وخصصت للجيش أكبر ميزانية من الدخل القومي لهذا الغرض.

ووقع العدوان الثلاثي على مصر، واشتركت فرنسا وبريطانيا وإسرائيل في احتلال سيناء وبعض مدن القناة مثل بور سعيد، وزرع في عقولنا أن عبد الناصر انتصر على الغرب ومازلت أذكر رنين صوته وهو يخطب (إذا استطاع عدونا أن يفرض علينا القتال فلن يستطيع أن يفرض علينا الاستسلام، سنقاتل... سنقاتل... سنقاتل).

في منتصف الستينيات صعَّد البعثيون الحرب الإعلامية على الصهاينة، بعد محاولات إسرائيل تحويل مياه نهر الأردن لتحرم العرب منه، وشكلت قيادة عربية موحدة بين مصر وسوريا والأردن بقيادة الفريق علي علي عامر (مصري)، وارتفعت عاطفة الشباب وصرنا نَعدُّ الأيام لنزور حيفا ويافا والقدس بعد طرد الصهاينة منها.

وفي نيسان أو أيار (١٩٦٧م) نظم اتحاد الطلبة في مدينة حمص محاضرة في سينما الأوبرا حضرها مئات الطلاب، وقد وصف لي شاهد عيان هذه المحاضرة يقول واصفاً المقدم مصطفى طلاس: (دخل المقدم أبو فراس بلباس المغاوير وقفز من أمام المسرح ليصل إلى مكان المحاضر فارتفع التصفيق للبطل المغوار، وبدأت المحاضرة فقال الرائد أبو فراس بعد أن علق خريطة على الجدار وأمسك بيده عصا خاصة بكبار الضباط قال: سوف تتحرك قواتنا باتجاه الجنوب لتدك قصر الرجعية[1] أولاً، ثم نتجه غرباً في اليوم الثاني، وخلال هذين اليومين تكون القوات المصرية اجتازت سيناء ووصلت إلى ساحل فلسطين، وفي اليوم الثالث سوف نطبق فم (الكماشة) على الصهاينة و...)، فصاح الطلاب مرة واحدة (ونرميهم في البحر)، فعلاً الهتاف (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، أهدافنا: وحدة حرية اشتراكية، الخلود لرسالتنا وللجيش العقائدي)..

الخدمة العسكرية في سوريا :

من الإيجابيات نظرياً الخدمة العسكرية في سوريا، وقد نص الدستور السوري على أن الخدمة العسكرية إلزامية على كل مواطن (ذكر) سوري، مدتها سنتان ونصف، ويمضي الجامعيون في زماننا سنة منها في كلية الاحتياط، ولما زادت الأعداد عن طاقة الكلية، صارت تعقد دورات الضباط الاحتياط في الألوية، ويتدرب الجامعي على دور قائد الفصيلة وبعض دور قائد السرية، وتعطى له رتبة ملازم في الجيش العربي السوري، وكل ذلك ممتاز، أما السلبيات فهي:

أ- أسلوب التعامل مع المواطن خلال الأشهر الأولى من الدورة والتي تسمى أحياناً دورة (الأغرار)، حيث تحطم كرامة الشاب ليكون أداة طيعة لتنفيذ الأوامر، وقد أدى هذا التعامل إلى عقد نفسية، وتغير في اتجاه بعض المواطنين نحو الجيش والخدمة الإلزامية؛

---

(١) وهكذا من بدهيات النظام الأسدي أن محاربة الرجعية أهم من محاربة إسرائيل، وكنا نظن ذلك على سبيل الكناية والمبالغة، حتى تأكد لنا أنه على سبيل الحقيقة، فقد حاربوا المسلمين وقتلوا العلماء ودمروا المساجد، ولم يعكروا أمن إسرائيل بعد. وقتلوا عشرات الألوف من أبناء الحركة الإسلامية (الرجعية كما يسمونها)، والصهاينة ينعمون بالأمن في الجولان .

حيث يكره الجيش والقوات المسلحة، والدفاع عن الأرض وتحرير الأرض المغتصبة. وأدت أحياناً قليلة إلى الانتحار عند المجندين (بدون رتبة)، حيث تتحكم فيهم شخصيات سادية أحياناً؛ يتلذذون بتعذيبهم باسم التدريب.

ب- الخدمة الاحتياطية

وهذه مصيبة كبيرة لكثير من المواطنين، ففي آخر الستينيات (بعد حرب ٦٧)، بقي كثير من المواطنين (٥ -٧) سنوات في الخدمة العسكرية والاحتياطية، ويمكث هذه المدة دون أن يعرف متى يسرح من الخدمة، ويعود إلى عمله ووظيفته المدنية، أو مصلحته التي تضررت كثيراً بسبب غيابه عنها. كما لا يعرف المواطن متى يستدعى للخدمة الاحتياطية، لذلك قد تتخرب مصالح كثيرة للمواطنين، عندما يدعون إلى الخدمة الاحتياطية دون سابق علمهم، وقد أقاموا مشروعاً أو مصلحة ما؛ فيتركونها ليلتحقوا بالجيش دون أن يعرفوا المدة التي سيقضونها فيه. كما أن المواطن يبقى مرتبطاً بالجيش حتى الخمسين من عمره، فلا يتمكن من السفر إلا بعد موافقة شعبة التجنيد، ولا يعطى جواز سفر، أو تأشيرة خروج إلا بعد شهر أو أكثر من البحث لمعرفة وضعه وحاله، ثم يمنح موافقة السفر أو يرفض سفره، وقد مزجت هذه الموافقة بحالة المواطن السياسية، فلا يسمح له بالسفر إلا بعد الموافقة الأمنية.

وكانت كل تلك الهموم؛ تفسر من أجل تحرير الأراضي العربية المغتصبة مثل فلسطين ولواء اسكندرون، وعربستان وإريتريا وساقية الذهب وزنجبار... إلخ، أما وقد تأكد المواطن السوري بعد الثمانينيات: أن الجيش العقائدي أسس لقتل الشعب، والمحافظة على كرسي الحكم، ولا يهمه تحرير الأرض العربية المغتصبة، لذلك صارت الخدمة العسكرية سجناً لا يطاق، وأتاوة يدفعها المواطن دون مقابل.

الخدمة العسكرية في عهد النظام الأسدي :

كان السوريون يضربون المثل بطعام الجيش، لكثرته، وكثير من الشرائح الفقيرة السورية قد لا تشبع اللحم والفواكه والحلويات قبل الخدمة العسكرية، ومن عادة الريف في الخمسينيات وحتى السبعينيات أن لا يأكل اللحم يومياً، بل أحياناً في المناسبات فقط، أما اللحم في الجيش فكان يومياً على طعام الغداء، ومعه (الدوسير) فاكهة أو حلويات، وقد رأيت ذلك خلال خدمتي؛ مع ملاحظة أن طلاب الضباط يعتنى بهم، وبطعامهم أكثر من

الآخرين، ومع ذلك كان الطعام فائضاً عن حاجة المجندين، ولا تجد جائعاً في القوات المسلحة السورية... بل كان كثير من طبقة (ضباط الصف)، يطعمون أسرهم من طعام الجيش الفائض والكثير...

وخلال خدمتي كان الضباط يفرزون مرة واحدة خلال الخدمة، للإشراف على استلام الأرزاق من (المقاول)، لمدة أسبوع، وكنت أرى الكميات الهائلة، والنوعيات الراقية، التي يسلمها المقاول لمطبخ اللواء، وكيف كان ضابط الصف يتعجرف على المقاول، فيرفض استلام البرتقال مثلاً لأنه لا يحقق شروط التعاقد، ومنها على أن لا يقل حجم حبة البرتقال مثلاً عن كذا حجم معين، كما شاهدت في مستودع المواد الغذائية، الكميات الهائلة من الأرزاق، ومنها (الصنوبر) و(اللوز) و(الحلويات) و(السمن العربي) وغيرها...

وكان العسكري المجند يتقاضى راتباً في حدود (٢٠ – ٢٥) ليرة سورية شهرياً، تكفيه لمصاريف الجيب (النثريات)، ولم تكن العادة أن تدفع الأسر الريفية أو أسر العمال في المدن لأولادها مصروفاً خلال الخدمة العسكرية... بل كان ضباط الصف، والضباط المجندون يصرفون على أسرهم من رواتبهم التي يتقاضونها خلال الخدمة الإلزامية... وكان الضابط المجند يتسلم راتباً حوالي (٣٠٠) ليرة سورية، في أوائل السبعينيات، كانت تكفي أسرة صغيرة، بل يصرف بعضنا على والديه منها، وقد يساعد إخوانه...

أما اليوم خلال النظام الأسدي فقد سمعت هذه الأسطوانة من كثير من المواطنين السوريين تقول: التحق ولدي بالخدمة العسكرية، ويتطلب مني مائة ألف ليرة سورية على الأقل مصاريف له، فقلت عجباً لهذه المصاريف!! قال: طعام وشراب، يقتله الجوع إن لم أدفع له، قلت: وأين طعام الجيش!!؟ قال: يبيعه قائد الوحدة، قبل أن يطبخ، ثم يفتتح بقالات، واستراحات تبيع (الساندوتش) يعمل فيها (مجندون)، ويمولها قائد الوحدة نفسه، ويستلم أرباحها، وهكذا صار الضابط قائد الوحدة (كالمنشار) يأكل ذهاباً وإياباً، يبيع أرزاق الوحدة، ويضع ثمنها في جيبه، ثم يبيع الطعام للمجندين ويكسب المال لصالح جيبه الخاص... ونقلت هذه المعلومة لي من القادمين من سوريا عدة مرات، وتقاطعت حتى صارت حقيقة قائمة....

الصيدلي أو الطبيب أو المهندس وأمثالهم:

هذه الفئة كانت تسمى (النظام الحديث)، وكانت تقضي فترة دورة الأغرار (أربعة شهور) تتدرب على النظام المنضم والأسلحة الفردية، ثم يفرز كل منهم إلى الإدارة

المناسبة له، فالطبيب إلى الوحدات الطبية، والمهندس إلى وحدات الهندسة للاستفادة منهم في الجيش والقوات المسلحة...

أما اليوم فالطبيب والمهندس والصيدلي وأمثالهم، من أصحاب الأعمال بعد دورة الأغرار، وربما قبل أن تنتهي، يتفاهم مع قائد وحدته، على أن يعود إلى عيادته أو صيدليته، أو مكتبه الهندسي، وآخر الشهر يذهب يوماً واحداً إلى الوحدة العسكرية التي قيد اسمه فيها، فيستلم راتبه العسكري ليؤكد حضوره ومواظبته على الوحدة، كما يسلم قائد الوحدة نصف دخله من عيادته على الأقل، أو ثلاثة أرباعه، - حسب الاتفاق -، ثم يعود إلى العمل في مهنته في الحياة المدنية، وشاع هذا الأسلوب، وانتشر بين الضباط، وصار من البدهي أن قائد السرية عنده (٥ ١٠) عساكر مجندين يعملون لحسابه ويدفعون رواتبهم له، أما قائد الكتيبة فيصل عددهم إلى (٢٠ ٣٠) عسكرياً يدفعون له، وقائد اللواء له (١٠٠) مجند عسكري يعملون لحسابه في الحياة المدنية.

وهكذا في العقد الأخير من القرن العشرين صارت الخدمة العسكرية عبارة عن سخرة، لدى كبار الضباط، كما كانت أيام الفراعنة حيث يقضي مئات الألوف من المصريين القدماء يبنون الهرم ليدفن فيه (فرعون) عند موته، وفي سوريا الأسد ألوف المواطنين يعملون في مزارع كبار الضباط، وعماراتهم، ومشاريعهم، خلال مدة خدمتهم العسكرية....

كثير من الضباط الكبار في الجيش (العقائدي) الأسدي، لهم مشاريع ضخمة مثل مزارع البرتقال، أو الزيتون، التي يعمل فيها عشرات المجندين، طوال مدة خدمتهم الإلزامية، وفي هذه المشاريع يقام فيها مباني حديدها وإسمنتها من مستودعات الجيش السوري، وعمالها (النجار والحداد والباطنجي والبلاط والسباك والكهربائي...) من مجندي الخدمة الإلزامية في الجيش العقائدي الأسدي...

وكثير من الضباط الكبار استصلحوا أراضي وعرة مليئة بالحجارة البازلتية السوداء في أماكن انتشار وحداتهم، والأراضي فيها أملاك للدولة، والضباط الكبار هم أرباب الدولة، والدولة لهم، والمجندون عمال يخدمونهم (سخرة)، وأقاموا في هذه المناطق الوعرة مزارع لأشجار الفاكهة، في أرض بكر بازلتية خصبة..

إجازات وهدايا:

أما الضباط الصغار، فيرسلون أفراداً من وحداتهم في إجازات يقضونها بين أسرهم وذويهم، ويعود المجند محملاً بالهدايا مثل [تنكة سمن عربي ثمنها بضعة آلاف ليرة سورية]، أو خروف (أيضاً ثمنه بضعة آلاف) يذبحه المجند في ريف حماة أو ريف حمص أو حوران، وينظفه، ويضعه في (الفريزر) بضع ساعات كي يجمد، ثم يسافر به إلى بيت الضابط مباشرة في دمشق أو حولها، كي يدخله ثلاجة منزل الضابط الصغير... أو (تنكة جبن عربي من حماة أو حمص يصل ثمنها بضعة آلاف ليرة سورية)، والضابط الصغير يوزع هذه الخيرات على أقاربه المقربين، وقد يبيع بعضها، أو يقايض بها على مواد تموينية أخرى، وفي النهاية يعيش هذا الضابط الصغير وأقاربه حياة مرفهة على خيرات سوريا الطبيعية مجاناً على حساب المجندين الفقراء، الذين يستدينون في بعض الحالات لشراء (الهدية) للضابط الصغير...

ولما صارت (الهدايا) أو (الأتاوات) ملازمة للإجازات، نقصت رغبة المجندين في طلب الإجازات، ليخففوا عن أسرهم مشقة وعبء توفير المال لشراء هذه الهدايا الأتاوات... حتى صار الضباط الصغار يدفعون المجندين ويحثونهم على هذه الإجازات...

وحدثني أكثر من شخص أن الضابط فلان أرسل وراء العسكري فلان وقال: لِمَ لا تطلب إجازة؟ ما عندك أم وأب؟ فيرتبك العسكري الفقير ويحار في الجواب حتى يسبقه الضابط ويقول: لاتبخل علينا يكفي خروف واحد فقط هاته معك مذبوح ومنظف ((ثمن الخروف الواحد (٢٠٠٠ ٤٠٠٠) ليرة سورية (٤٠ ٨٠) دولار. وقد يكون دخل والد هذا العسكري لا يزيد عن ثمن الخروف الواحد في الشهر الواحد)).

مصيبة السائق:

أما السائق في الخدمة العسكرية الأسدية، فصار مكلفاً بإصلاح سيارته العسكرية التي يعمل عليها في الوحدة، يصلحها في ورشة مدنية ويدفع أجرة الإصلاح، وثمن قطع الغيار من جيب والده المسكين، حيث صار الضابط الكبير يبيع قطع الغيار المخصصة لورشات الإصلاح العسكرية، وتبقى هذه الورشات بدون عمل حقيقي...

وصار من الشائع في الخدمة العسكرية في النظام الأسدي؛ فهي محاربة التدين ومحاربة الالتزام بأداء العبادات في الجيش كالصلاة والصوم وإعفاء اللحية... وقد يستغرب القارئ، ولكنها الحقيقة المرة:

تمنع صلاة الجماعة علناً، وقد يحال من يتلبس بها إلى المحكمة العسكرية...

- يضطهد المصلون، ويهزأ منهم، ويضحك على صلاتهم، وقد يؤذون خلال الصلاة... وقد روى لي إمام مسجد خريج كلية الشريعة أدى الخدمة العسكرية في التسعينيات أو آخر الثمانينات، قال: كنت أمشي بعيداً في الأرض حتى أجد حفرة قذيفة (نصف طن)، فأنزل فيها فأجد النجاسات الجافة، فأتحاشاها وأصلي قربها، كي لا يروني أصلي، لأنهم سوف يلفقون لي تهمة الخيانة العظمى، ثم المحكمة الميدانية....

- بل حدث في معسكرات التدريب الجامعي، أن بعض أولاد المهجرين المنتسبين إلى الجامعات السورية، وكان عليهم أداء المعسكر الجامعي في الصيف، وهذا المعسكر تحسب مدته من الخدمة الإلزامية... هؤلاء تعودوا على صلاة الجماعة في السعودية، وهناك أذنوا لصلاة المغرب، وأقيمت الصلاة فالتحق بهم عدد كبير من الطلاب، وما هي إلا لحظات حتى طوقتهم الوحدات الخاصة مدججة بالسلاح، والحمد لله أنهم انتظروهم حتى أكملوا الصلاة، ثم اعتقلوهم وحققوا معهم عدة أيام يبحثون عمن دعا إلى صلاة الجماعة، وهي ممنوعة في الجيش العربي السوري، ولما تأكدوا أنها عفوية، وقعوهم على تعهدات أن لا يكرروا ذلك في المستقبل وأطلقوا سراحهم، وحصلت هذه في بداية عهد بشار... وربما لو كانت في عهد والده، لبقوا في السجن بضع سنين كما حصل لأكثر من خمسة آلاف مواطن سوري مكثوا عشر سنوات من (١٩٨٢ وحتى ١٩٩٢) رهائن عن ذويهم...

- وخلال خدمتي العسكرية، اختلفت مع قائد السرية، وطلبني قائد الكتيبة (المقدم (....)، وكان لطيفاً في تعامله معنا،قال لي: يا ملازم... كمل خدمتك على خير، وارجع إلى حياتك المدنية بسلام، عندي ملف (وأخرج من أحد أدراج مكتبه ملفاً سميكاً)، وفيه قضايا تحاسب عليها، وأنا وضعت هذا الملف عندي ولا أريد أن أضرك، لكن لا تجعلني أضطر إلى إرساله للمخابرات، أرجوك!!! قلت له متعجباً: سيدي ممكن أعرف بعض هذا القضايا التي أحاسب عيها؟ فوافق مشكوراً وصار يقرأ بعض الصفحات:

- في يوم الجمعة (كذا) ذهبت تصلي الجمعة في قرية الحارة (قرية في حوران).

- وفي يوم الجمعة (كذا) ذهبت تصلي الجمعة في (نوى).

- وفي يوم الجمعة (كذا) ذهبت تصلي في قرية (الشيخ مسكين).

- وفي يوم كذا كنت تصلي المغرب (إماماً) بعدد من ضباط الصف المجندين في (الركاد) مقابل تل الفرس..

- وفي يوم كذا سهرت مع مجموعة من ضباط الصف من أبناء محافظتك(...)...

تعجبت جداً، ولم أكن أعرف أن هذه القضايا ممنوعة علي، فقلت له: يا سيدي هل هذه ممنوعة!!؟ قال: نعم يا (فلان): صلاة الجماعة ممنوعة، صل وحدك، في خيمتك، ولا تسهر ولا تجلس مع ضباط الصف...

ثم قال: هذا الملف عندي أرجو أن لا تضطرني إلى إرساله للمخابرات العسكرية... وكان ذلك اللقاء معه قبيل تسريحي بسبب إنهاء الخدمة الإلزامية ببضعة أسابيع... وسرحت وودعته في مكتب قيادة الكتيبة... وتركت الملف بين يديه ليضيع بين الركام بعد أن قصفت إسرائيل مكتبه بعد تسريحي ببضعة شهور...

هذه بعض السلبيات للخدمة العسكرية المعاصرة، في عهد النظام الأسدي، ولا أرى ولا أدعو إلى إلغاء الخدمة العسكرية أبداً، بل أشفق على كل من لم يتح له أداء الخدمة العسكرية، لكن آمل إصلاح هذا القانون بما يخدم قضية المواطن السوري، والمجتمع العربي المسلم في سوريا أيضاً... وكم آلمني إلغاء مادة التربية العسكرية من المدارس الثانوية أخيراً في عهد بشار الأسد، مع أنني كنت أفتخر بأن بلدي سوريا هي البلد العربي الوحيد الذي يدرس مقرر التربية العسكرية في المرحلة الثانوية، ويدرب جميع الطلاب على البندقية والمسدس والأسلحة الفردية، ويقضي الطالب مدة ثلاثة أسابيع معسكراً يعيش فيه الحياة العسكرية بتمامها...

الجيش العقائدي

تقصد المجموعة العسكرية البعثية السرية (اللجنة العسكرية)؛ التي فصلت حزب البعث ثم قامت بالحركة التصحيحية الأولى ثم الثانية؛ تقصد بالجيش العقائدي ما يلي:

١ - أن يخلو من الرجعية، والرجعية في نظرهم كل متمسك بدينه سواء كان من الإخوان المسلمين أو الصوفيين أو السلفيين، فكل من يصلي رجعي، وكل من لا يشرب الخمر رجعي.

٢- أن لا يكون من التنظيمات السياسية الأخرى، حتى البعث القومي الذي صار معادياً لهم. وصار مفهوم الجيش العقائدي واضحاً لدى الشعب السوري، وهو الجيش الذي يحمي النظام الحاكم، لذلك أحيطت دمشق بأفضل القوات وهي الفرقة الأولى والثالثة، ثم شكلت بعد ذلك سرايا الدفاع والوحدات الخاصة؛ لتتدرب على قتال المدن والشوارع كما سنرى. وهكذا كان الجيش العقائدي قبل يوم الخامس من حزيران، بعد أن طرد منه معظم

الضباط الماهرين لأنهم ليسوا بعثيين، أو لأنهم بعثيون غير موالين للنظام، كما طرد منه كل ضابط أو ضابط صف له ميول دينية.

والتحق بالجيش ضباط احتياط كانوا في التعليم أو في وظائف مدنية، من الأقليات، لا يتقنون فنون الحرب ولا يريدونها، ولكنهم مخلصين في المحافظة على ثورة الثامن من آذار البعثية الأسدية.

الساعات الستة الأولى من يوم الخامس من حزيران ١٩٦٧م :

كان عبد الناصر متورطاً في حرب اليمن، التي دامت عدة سنوات ومست المملكة العربية السعودية، وطرح عبد الناصر شعار تحرير فلسطين عن طريق اليمن، كما طرح البعثيون في دمشق شعار تحرير فلسطين عن طريق الأردن. وأنهك الجيش المصري كما أنهك الاقتصاد المصري في حرب اليمن، كما فرّغ عبد الناصر الجيش المصري من الضباط الأكفاء خوفاً من عدم ولائهم له، وترك الضباط المتملقين، والمتسلقين الذين يبحثون عن المناصب السياسية فقط. كما ارتكب من المجازر والمظالم بحق العلماء والدعاة وجماعة الإخوان المسلمين عام (١٩٥٤م) ثم عام (١٩٦٥م)، وزج عشرات الألوف منهم ومن أقاربهم في السجون.

ودخل مصر الجاسوس الصهيوني (باروخ ماندل) منذ عام (١٩٥٤م) تحت اسم (مالك نوير) وزعم أنه تاجر تركي يتاجر بصفقات السلاح، وخاصة السلاح الجوي، وخلال عدة سنوات صار هذا الرجل الذكي الثري الذي ينثر المال على الضباط والفنانات والراقصات، صار مقرباً جداً، حتى وصل إلى مرتبة مفتش في السلاح الجوي المصري، وقد كان برفقة عبد الناصر وكبار القادة المصريين؛ في طائرة نقل عسكرية صغيرة زارت بعض القطعات في سيناء قبل الخامس من حزيران بقليل، وقد أعلم هذا الجاسوس إسرائيل بذلك وانتظر أن تسقط إسرائيل هذه الطائرة ولكنها لم تفعل!!؟ وكان هذا الجاسوس مقرباً جداً من الفريق صدقي محمود قائد سلاح الجو المصري، وتمكن هذا الخبيث من إقامة حفلتين في مكانين أحدهما قاعدة إنشاص الجوية والثانية في مطار بير ثمادة في سيناء، وكانت حفلة ساهرة غنت فيها بعض الفنانات ورقصت الراقصات، وشرب قرابة (٤٠٠) طيار الخمر، بل قصد هذا الخبيث أن يشربوا نوعين من الخمر على الأقل حتى يتبلدوا أكثر، ومتى كانت هذه الحفلة؟ كانت في ليلة الخامس من حزيران (١٩٦٧م)، حيث حضر هذا الجاسوس اجتماعاً مصغراً مع جولدا مائير، ووزير الدفاع

ورئيس الأركان، قبيل الحرب ببضعة أيام، واتفقوا على ساعة الصفر، وبينما كان الفريق صدقي محمود قائد سلاح الجو المصري مخموراً مع الراقصة (...) بعد أن فرقت الحفلة بالقوة مع الفجر، عندها شنت الطائرات الإسَرائيلية غاراتها على السلاح الجوي المصري، وتمكن الصهاينة الخبثاء من تدمير سلاح الجو المصري خلال الساعات الستة الأولى من الحرب، لذلك يسميها بعض الصهاينة حرب الساعات الستة. ودمرت (٦٠٠) طائرة نفاثة عسكرية على مدارجها قبل أن يتمكن الطياريون من الفرار بها، بعد أن باتوا وقد أثقلت الخمر رؤوسهم[١].

وبعد الحادية عشرة، انصرف الطيران الإسرائيلي إلى تدمير المطارات السورية، وشوهدت طائرات الميراج حوالي العاشرة صباحاً من يوم الاثنين الخامس من حزيران، شوهدت تحلق في سماء دمشق ثم تنقض على مطار المزة لتدمر المدرج وتعطل حركة الطيران، وتمكنت من ذلك، وسقطت إحداها بنيران المدفعية المضادة، وأحضرت قطعة كبيرة من الطائرة إلى الجامعة وفيها كتلة من لحم طيارها[٢].

قامت الطائرات السورية بقصف مستودعات النفط في حيفا في أولى مشاركاتها في الثانية عشرة ظهراً، ثم لم نسمع أي نشاط للطائرات السورية بعد ذلك، وعرفنا أن إسرائيل دمرت جميع مدارج الطائرات السورية خلال اليوم الأول من الحرب.

ثم دحرت القوات الصهيونية الجيش المصري، الذي ضاع في سيناء ومات بعضه عطشاً، بعد سيطرة طيرانها على سماء المعركة، وصارت الطائرات تقاتل الدبابات والسيارات وتجمعات الجنود، واحتلت إسرائيل سيناء كلها، حتى وصلت الضفة الشرقية لقناة السويس، وفي اليوم الرابع تركز الجهد الصهيوني على الأردن، فاحتل الصهاينة

---

(١) انظر كتاب باروخ ماندل (تحطمت الطائرات عند الفجر)، لتجد ما يدمي القلب. حيث تجد أن رجلاً يهودياً واحداً معه مال كثير، لذلك تساعده الراقصات والفنانات، وكبار الضباط... استطاع أن يهزم العرب كلهم في ذلك اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما تمكن من ذلك لولا أنهم تقدميون (متحررون من الدين والأخلاق)، وهذه من الثمرات المرة للجيش العقائدي، وفعل كوهين في سوريا كما فعل ماندل في مصر. اقرأ رواية الخامس من حزيران للدكتور عبد الله الدهامشة تجد التفاصيل المؤلمة لذلك الحدث الذي أخزى العرب..

(٢) وكان الطلاب والطالبات في نادي الجامعة يضربون الوعود لإقامة حفلة سكر على شاطئ حيفا مساء الخميس القادم (ليلة الجمعة)، ظناً منهم أن العرب سينتصرون في يومين أو ثلاثة ويحررون فلسطين..

الضفة الغربية كلها، وصار نهر الأردن حدوداً بين الأردن وإسرائيل، وفي اليوم الخامس والسادس تركز الجهد على الجبهة السورية وهي جبهة حصينة جداً، لكن الحكومة السورية آثرت الانسحاب، ولم تزج بقوات أساسية في المعركة، كالفرقة الأولى أو الثالثة التي فرغت لحراسة النظام، وإنما شارك في الحرب لواء من الاحتياط، كما شاركت فيه الفرقة الخامسة والتاسعة المواجهتين أصلاً للعدو.

وأعلن وزير الدفاع السوري يومذاك وهو حافظ الأسد عن سقوط مدينة القنيطرة بيد الصهاينة، قبل وصول الصهاينة إليها، وفر أهالي القنيطرة والجولان إلى دمشق وصار اسمهم (النازحين)، كما غادرت الحكومة دمشق إلى حمص تحسباً من سقوط دمشق[١].

دور النظام السوري في المعركة :

كانت سوريا هي المحرضة على الحرب، فقد أدلى وزير الدفاع السوري وقائد سلاح الطيران اللواء حافظ الأسد بتصريح لصحيفة الثورة السورية يوم (١٩٦٧/٥/٢٠م) جاء فيه: (.. إنه لابد على الأقل من اتخاذ حد أدنى من الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ضربة تأديبية لإسرائيل، تردها إلى صوابها... إن مثل هذه الإجراءات ستجعل إسرائيل تركع ذليلة مدحورة، وتعيش جواً من الرعب والخوف يمنعها من أن تفكر ثانية في العدوان. إن الوقت قد حان لخوض معركة تحرير فلسطين، وإن القوات المسلحة السورية أصبحت جاهزة ومستعدة ليس فقط لرد العدوان، وإنما للمبادرة في عملية التحرير ونسف الوجود الصهيوني من الوطن العربي، إننا أخذنا بالاعتبار تدخل الأسطول السادس الأمريكي!!! وإن معرفتي لإمكانياتنا تجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشلة، وهناك إجماع في الجيش العربي السوري الذي طال استعداده ويده على الزناد، على المطالبة بالتعجيل في المعركة، ونحن الآن في انتظار إشارة من القيادة السياسية. وإن سلاح الجو السوري تطور تطوراً كبيراً بعد (١٩٦٦/٢/٢٣م) من حيث الكمية والنوع والتدريب، وأصبحت لديه زيادة كبيرة في عدد الطائرات، وهي من أحدث الطائرات في العالم، كما ازداد عدد الطيارين وارتفع مستوى التدريب.

وفي (١٩٦٧/٥/٢٣م) أدلى العقيد أحمد المير قائد الجبهة السورية بالتصريح التالي:

---

(١) انظر كتاب سقوط الجولان لمصطفى خليل.

إن الجبهة أصبحت معبأة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، وإن العرب لم يهزموا في معركة ١٩٤٨م من قبل الإسرائيليين، بل من قبل حكامنا الخونة، وهذه المرة لن نسمح لهم أن يفعلوا ذلك[٢].

وفي اجتماع طارئ لاتحاد المحامين العرب بدمشق في (١٩٦٧/٥/٢٩م)، قال الدكتور يوسف زعين رئيس وزراء سوريا: (إن انحناء إسرائيل أمام الرد العربي الحاسم الآن؛ يجب أن لا يفسر بأنه انتصار نهائي عليها، فهو ليس إلا بداية الطريق لتحرير فلسطين، وتدمير إسرائيل... إن الظروف اليوم هي أفضل من أي وقت مضى لخوض معركة المصير العربي، وقال: إن الشعوب العربية ستحاسب كل من يتخاذل عن الواجب، وقال: إن المسيرة إلى فلسطين هي المسيرة إلى إسقاط الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية إلى الأبد)[١].

وعلى الرغم من أن سلاح الجو الإسرائيلي بدأ هجومه على مصر في الصباح، (في السابعة صباحاً تقريباً)، ولم يترك لحماية سماء الأرض المحتلة ومطاراته سوى اثنتي عشرة طائرة فقط، ولو شُنَّ هجومٌ جوي عربي (سوري عراقي أردني)؛ على مطارات العدو بعيد السابعة صباحاً وحتى الحادية عشرة لدمر مطارات العدو، واعترض طائراته عند عودتها من سماء مصر بدون وقود وذخيرة، ومن السهل إسقاطها عندئذ. ولكن الطائرات السورية – وسوريا هي الداعية إلى الحرب – نفذت أول وآخر هجوم في الثانية عشرة ظهراً، أي بعد أن فرغ الطيران الإسرائيلي من تدمير السلاح الجوي المصري وهي ست ساعات!!!!ولم نسمع عن غارة سورية ثانية بعد تلك الغارة على مصافي حيفا. ونجد الجواب في كتاب (حربنا مع إسرائيل) للملك حسين إذ يقول:

كنا ننتظر السوريين فبدون طائرات الميغ لا يمكن قصف مطارات إسرائيل الجوية، ومنذ التاسعة والنصف اتصلت قيادة العمليات الجوية بالسوريين، فكان جوابهم أنهم بوغتوا بالأحداث!!! وأن طائراتهم ليست مستعدة!!! وأن طائراتهم تقوم برحلة تدريبية!!! وطلبوا إمهالهم نصف ساعة، ثم عادوا وطلبوا إمهالهم ساعة، وفي العاشرة والخامسة والأربعين كرروا الطلب نفسه فوافقنا، وفي الحادية عشرة (أي بعد فراغ العدو من القضاء على

---

(٢) محمد عبد الغني النواوي، مؤامرة الدويلات الطائفية، ص ٤٠٠.

(١) مصفى خليل، سقوط الجولان، ص ١٤٤.

سلاح الجو المصري) لم يعد بالإمكان الانتظار!!، فأقلعت الطائرات العراقية وانضمت إلى سلاحنا الجوي لتساهم في المهمة، ولذلك لم تبدأ عملياتنا الجوية إلا بعد الحادية عشرة (أي بعد فراغ الطيران الصهيوني من تدمير الطيران المصري).

يقول الملك حسين: (فوت علينا تأخر الطيران السوري فرصة ذهبية كان يمكن أن ننتهزها لمصلحة العرب، فلولا تردد السوريين!!! لكنا قد بدأنا عمليات القصف الجوي في وقت مبكر، ولا ستطعنا اعتراض القاذفات المعادية، وهي في طريق عودتها إلى قواعدها بعد قصفها للقواعد المصرية، وقد فرغت خزاناتها من الوقود ونفذت ذخيرتها، وكان بإمكاننا حتى مفاجأتها وهي جاثمة على الأرض تملأ خزاناتها استعداداً لشن هجمة جديدة، فلو قيض لنا ذلك لتبدل سير المعركة وتبدلت نتائجها، وتغير مجرى التاريخ العربي، كل ذلك الأمل فوته علينا السوريون.

الزمن وحده سيكشف تفسيراً لأمور عديدة، لكن ما تأكدت منه أن الطيران السوري لم يكن جاهزاً للحرب يوم (٥) حزيران، وكانت حسابات الإسرائيليين صحيحة، عندما لم يتركوا سوى اثنتي عشرة طائرة لحماية سمائهم، بينما استخدموا كل سلاحهم الجوي لضرب مصر). انتهى كلام الملك حسين.

يلاحظ إذن أن سوريا اكتفت بغارة جوية ظهر يوم الاثنين (١٩٦٧/٦/٥م) على مصفاة حيفا، كانت الغارة الأولى والأخيرة التي قام بها سلاح الجو السوري الذي يقوده وزير الدفاع حافظ الأسد. وفي الأيام (٦، ٧، ٨) اكتفت سوريا بقصف مدفعي على الخط الأول الصهيوني، ورمته بآلاف الأطنان من قنابل المدفعية الثقيلة.

يقول باترك سل (ص٢٢٥): [... وطول الأيام الأربعة الأولى من الحرب ظل موقف سوريا سلبياً، فقد اكتفت بقصف المستوطنات الإسرائيلية على الحدود، كما كانت تفعل في الماضي بشكل متكرر، وقد يبدو هذا الجمود مثيراً للدهشة في بلد كان نزاعه الحدودي مع إسرائيل فتيل الاشتعال في الحريق كله، كان الأسد قد تحدى إسرائيل حول المناطق المجردة، وأرسل ضدها الفدائيين الفلسطينيين... وأرغم عبد الناصر على أن يلقي في وجه إسرائيل قفاز التحدي، غير أنه ظل جامداً عندما جاءت الحرب (ويقول مطاراتنا في يوم تدريب عادي)، وكان الجمود السوري سبباً من أسباب المرارة لدى مصر والأردن، وجلب على سوريا تهمة أنها قد تخلت عنهما... وكان لدى الأسد شعور بالارتياع فقوته

الجوية المحببة إلى نفسه مسحت في صباح واحد، ولابد أنه استغرق بعض الوقت قبل أن يفيق من هول الصدمة]. (انتهى كلام سيل).

ويعلق الدكتور منير الغضبان على ذلك (٤٢٦/١) فيقول: إن محاولة التعليل والتضليل التي يقدمها باترك سل لصديقه الأسد، فيحلل بها تأخر سوريا أربعة أيام عن دخول الحرب بسبب ارتياعه وتأخره في الاستفاقة من هول الصدمة، تعليل مضحك، ومزر في الحقيقة، فما هو وزير الدفاع هذا الذي يترك أعداءه يدمرون جيشه أربعة أيام دون أن يحرك ساكناً... أما التفسير المنطقي فهو أن حافظ الأسد حليف لإسرائيل بصفته النصيرية الباطنية، فكانت هذه فرصة سانحة يترك المجال فيها رحباً لإسرائيل دون أن يزعجها بدخول الحرب، حتى تتم مهمتها في احتلال مصر والأردن، والماضي العريق له يجعل هذا هو التعليل الوحيد المقبول...

ونشرت مجلة الحوادث اللبنانية، العدد (٦٠٤) في (١٩٦٨/٦/٧م) ما جاء في كتاب (المسلمون والحرب الرابعة):

رواية الضابط اللبناني :

قال ضابط لبناني في مرصد مشترك مع السوريين: (في الساعة العاشرة من يوم (الجمعة في ١٩٦٧/٦/٩م) تحرك لواء مدرع إسرائيلي - بعد التمهيد من الطيران والمدفعية - بدأ بالتحرك ومعه جرافات بالجنازير وبرج لحماية السدنة إلى (تل قاضي)، المنطقة الأقل تحصيناً لأنه لا يخطر في بال سوري أو لبناني أو عربي دخول القوات منها لوعورتها وارتفاعها الحاد، واستطاعت مدرعات البلدوزر اختراق الصخور، وبعد ذلك أخلت الطريق للدبابات الإسرائيلية التي أخذت تتسلق الطريق في محاولة لتطويق التحصينات السورية وضربها من الخلف، وكانت كل دبابة ترافقها مصفحتان، إحداهما للوقود، والثانية للذخيرة، كما أن السائق وحده في الدبابة حتى اجتازت المنحدر الصخري، ثم ألحق بقية السدنة بالطائرات العمودية...

والأصل في الخطة أن تقوم المدرعات السورية الموجودة بهجوم معاكس، تقضي على الدبابات الصهيونية التي اخترقت خط الدفاع الأول، وكانت الدبابات السورية موجودة، ولم تتأثر بالقصف المدفعي كالعادة، ولكن قامت بهجوم معاكس...كما سنرى.

كان المفروض أن يتصل الضابط السوري الموجود في المرصد المشترك مع اللبناني بقيادته ليعين لها زوايا وجود اللواء المدرع الصهيوني بواسطة المنظار المكبر، لكن سرعان ما تبين أنه لا يعرف استعمال هذا المنظار، لقد كان من أشد المتحمسين للنظام، ولكنه كان معلم مدرسة لم تمض عليه في الخدمة أكثر من ستة شهور في الجيش)... (وعندما وصلت الدبابات الإسرائيلية سفح (تل قاضي) منهكة وفي منتهى الإرهاق، توقعت أن يخرج لها اللواء السوري المدرع الموجود بالقرب منها، في تحصيناته التي لم يؤثر عليها التمهيد المدفعي، ولا الطيران، توقعت أن يقوم بهجوم معاكس عليها- كما تعلمنا في الكلية العسكرية - وفعلاً رأينا الدبابات السورية تخرج من مخابئها، وبدأت أرقص فرحاً وحمية، ولكن المفاجأة أذهلتني، عندما رأيت الدبابات السورية تخرج من تحصيناتها لتتجه نحو القنيطرة هاربة، لا لتقوم بهجوم معاكس[1].

وشاء الله عزوجل أن تتعطل إحدى الدبابات في آخر الرتل، فاضطر قائدها للقتال، ووجه مدفعه نحو العدو وبدأ بالاشتباك، فدمر ست دبابات، وأوقف الهجوم الإسرائيلي حتى وصل الطيران الصهيوني فدمر هذه الدبابة بصاروخ جو أرض.

وتابع الضابط اللبناني: إن كثيراً من الضباط السوريين من رتبة ملازم إلى رتبة نقيب، يتمتعون بمزايا حزبية عالية، ولكنهم لا يتمتعون بمزايا عسكرية مماثلة[2]. ثم يقول مصطفى خليل (ص٩٩):

الانسحاب أو الهروب الكبير:

منذ مساء الخميس (١٩٦٧/٦/٨م) بدأت الشائعات تسري سريان النار في الهشيم، عن أوامر صدرت بالانسحاب، وبدأ قسم من الضباط - وحتى القادة - الانسحاب، وساهموا في نشر تلك الشائعات عن أوامر صدرت من القيادة العامة، تنص على الانسحاب كيفياً. ويا لهول ما حدث!!! قائد الجيش اللواء أحمد سويداني انهزم إلى (نوى) ومنها إلى دمشق،

---

(١) مجلة الحوادث، اللبنانية، العدد رقم (٤٠٦) في (١٩٦٨/٦/٧م) عن كتاب المسلمون والحرب الرابعة ص ١٧٢

(٢) المرجع السابق.

تاركاً وحدات الجبهة ووحدات احتياط الجيش دون قيادة، واقعة في حيرة من أمرها، وقادتها لا يدرون ماذا يفعلون!!! وقائد الجبهة العقيد (أحمد المير) فر على ظهر حمار لأنه لم يجرؤ على الفرار بواسطة آلية عسكرية، خوفاً من الطيران الصهيوني، ثم أكمل الرحلة إلى دمشق ماشياً حتى تورمت قدماه...

واتصل عدد من الضباط بقائد الجبهة قبل فراره فرفض التصرف، وقال لهم بالحرف الواحد: أنا لست قائدَ جبهة، اتصلوا بوزير الدفاع، فأقيمت الاتصالات بين (قمر١) و (قمر٢) فأجاب وزير الدفاع: أنه قد أخذ العلم بالوضع، وأنه اتخذ الإجراءات اللازمة...

لجأ بعض الضباط من وحدات اللواء (٨٠) إلى قيادة موقع القنيطرة بعد فقدان الاتصال بقائد اللواء وأي مسؤول في قيادة اللواء، فوجدوا المقدم (وجيه بدر) ماكثاً في القنيطرة يترقب الأخبار، ولما حاولوا أن يفهموا منه صورة حقيقة عن الوضع، تبين أنه لا يفقه شيئاً، وحاول الجميع الاتصال بقيادة الجبهة، فوجدوها خلواً من أي مسؤول عندها دب الفزع في قلوب عدد كبير منهم، واتخذوا وجهتهم نحو دمشق، طالبين النجاة بأرواحهم، تاركين جنودهم كتلاً لحمية تتدافع على الطرقات، يدوس القوي منها الضعيف، وأزيز الطائرات المعادية وأصوات المكبرات تناديهم: ألقوا سلاحكم، تنجوا بأرواحكم، فيستجيب الفارون للنداء ويتخلصون من هذا السلاح، الذي صار يهددهم بالموت بعد أن كان مدافعاً عنهم...

وانفرط العقد... عقد السيطرة القيادية، وصار القادة الصغار يتصرفون حسب هواهم أو بداهتهم، فالكثيرون هربوا وأمروا جنودهم بالهرب - وقليل جداً - من غير البعثيين- صمدوا وقاتلوا وظهرت بطولات فردية [انظر رواية دم سقى الجولان للدكتور عبد الله الدهامشة]...

إذن بدأ الهرب من العدو ومن القتال مساء الخميس (١٩٦٧/٦/٨)، قبل أن تهجم إسرائيل على الجبهة السورية، لأن هجومها كان صباح الجمعة (١٩٦٧/٦/٩م)... وبلغ الهرب ذروته بعد إذاعة بلاغ سقوط القنيطرة...

حقيقة الأمر بالانسحاب :

يقول مصطفى خليل (ص ١٦٩): [وحتى أوامر الانسحاب المزعومة... لم تصدر بشكل رسمي، ولم تبلغ بصورتها العسكرية الصحيحة إلى الوحدات، وإنما تم إبلاغها

بصورة هامسة إلى الضباط الحزبيين، والقادة الكبار بالتوجه إلى دمشق، وحضور اجتماعات حزبية... الذين ما عتموا أن أداروا ظهورهم لوحداتهم، وولوا أدبارهم للعدو، واتخذوا وجهة الهروب إلى دمشق، ومنها إلى حمص... لأن قيادة الحزب كانت قد عملت حسابها أن دمشق ستسقط بيد العدو الصهيوني...

أما الوحدات... وخاصة الأمامية أو المعزولة أو المطوقة، فلم تبلغ شيئاً من أوامر الانسحاب هذه، ومكث أكثرها في أماكنهم حتى يوم الجمعة (١٩٦٧/٦/٩)، فوجدوا أنفسهم وقد أصبحوا معزولين عن باقي الوحدات... وأخذت أجهزة الهاتف تمارس البكم القاتل... وشعر الذين بقوا في أماكنهم حتى ذلك التاريخ... أنهم قد أصبحوا بقايا قافلة... تخلى عنها قادتها وحادوها وأدلاؤها... بعد أنِ تسللوا ليلاً إلى واحات مجاورة... وتركوها مشتتة في وجه الإعصار المحرق... وهكذا كان الهروب الكبير...

الهجوم المعاكس :

في صباح يوم الجمعة (١٩٦٧/٦/٩م) - بعد الخرق الصهيوني - أمر اللواء أحمد سويداني اللواء السبعين (دبابات ت ٥٤ يومذاك أحدث دبابات الجيش السوري)، أمره أن يقوم بالهجوم المعاكس على القوات الصهيونية التي خرقت قطاع الجبهة، ولكن اللواء (عواد باغ) - أفضل شخصية عسكرية باقية في الجيش يومذاك - وكان يشغل رئيس شعبة عمليات الجيش، عارض اللواء سويداني بقيام هجوم معاكس نهاراً بدون غطاء جوي، وتكفل بتنفيذ الهجوم المعاكس ليلاً، وتراجع السويداني وفوض الأمر للواء عواد باغ... الذي أمر قائد اللواء السبعين (العقيد العلوي عزة جديد)؛ بتنفيذ الهجوم المعاكس والتحرك ليلاً ليكون في الصباح على تماس بالعدو، وينتشر للهجوم عند ذلك، ولا يستطيع طيران العدو التدخل عندما تتداخل القوات ببعضها...

إلا أن (العقيد عزة جديد) حامي الثورة ونظام البعث، رفض الأوامر، بحجة عدم التحرك بدون حماية جوية، واتصل مع صلاح جديد وحافظ الأسد؛ فشجعاه على ذلك... ورفض (العقيد عزة جديد) الأوامر... ورفض أن يشن هجوماً معاكساً على القوات الصهيونية المنهكة من القتال في سيناء، والتي نقلت بعد أربعة أيام للقتال في الجولان، رفض الأوامر العسكرية... وضاعت الجريمة ولم يحاكم... بل استمر حامي حمى الثورة والنظام...

وفي الليل تحرك اللواء السبعون... ليقوم بتحرك معاكس... نحو دمشق... وليس نحو الجولان... ووصل دمشق في الليل نفسه، واستقر في بساتين الغوطة وحدائقها...

ويتذكر الشعب العربي السوري أغنية البعثيين عن طائرة الميغ عندما يقول ذلك الساقط (ميراج طيارك هرب، مهزوم من نسر العرب. والميغ طارت واعتلت بالجو تتحدى القدر)، ويؤكد عبد الناصر أن البعثيين هم الذين ورطوه في الحرب، ثم لم يقدموا شيئاً أبداً، ومن خلال قراءة كتاب سقوط الجولان يلاحظ أن البعثيين لم يسمحوا للجيش أن يقاتل، حتى أن خسائر سوريا كانت حوالي (١٢٠) جندياً فقط، بينما بلغت خسائر مصر كما أعلنها عبد الناصر (١٥٠٠٠) عسكري بينهم (١٠٠٠) ضابط منهم (٣٥) طياراً.

بلاغ سقوط القنيطرة :

القنيطرة بلدة سورية صغيرة تعتبر مركز إداري للجولان، تبعد عن دمشق قرابة أربعين كيلاً، وفي يوم السبت (١٩٦٧/٦/١٠م) أعلن وزير الدفاع حافظ الأسد (الساعة ٣٠ ر٩) عن سقوط القنيطرة بالبلاغ رقم (٦٦) وجاء في البلاغ (... إن قتالاً عنيفاً لا يزال يدور داخل مدينة القنيطرة وعلى مشارفها). ويقول الدكتور سامي الجندي في كتابه كسرة خبز (وهو من قادة البعثيين المنشقين عن الحزب): (إن إعلان سقوط القنيطرة قبل أن يحصل؛ أمر يحار فيه كل تعليل مبني على حسن النية). (إن تداعي الأفكار البسيطة، يربط بين عدم وقف إطلاق النار والحدود سليمة، والإلحاح بل الاستغاثة لوقفه بعد أن توغل الجيش الإسرائيلي في الجولان، ويخلص إلى الاستنتاج بوجود خطة!!؟).

ويتابع سامي الجندي وكان سفيراً لسوريا في باريس (فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون مندوب سوريا في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة، ووصول قوات إسرائيل إلى مشارف دمشق، والمندوب الإسرائيلي يؤكد أن شيئاً من ذلك لم يحصل، وقال لي الدكتور ماخوس فيما بعد أنها كانت خطة ماهرة لإرعاب العالم من أجل إنقاذ دمشق[1].

وروى وزير الصحة السوري عبد الرحمن الأكتع لأحد أصدقائه قال: كنت في جولة تفقدية في الجبهة عند إعلان سقوط القنيطرة، وظننت أن خطأً قد حدث، فاتصلت بوزير الدفاع حافظ الأسد وأخبرته أن القنيطرة لم تسقط، بل ولم يقترب العدو منها، وأنا الآن جنوبها، ولم نرَ العدو أبداً، ودهشت حقاً عندما راح وزير الدفاع يشتمني شتائم مقذعة،

---

(١) سامي الجندي، كسرة خبز، ص١٧ وسامي الجندي من كبار البعثيين القادة الذين انشقوا عن صلاح جديد وحافظ الأسد فأبعدوه إلى باريس سفيراً لسوريا.

ويهددني إن عدت لمثلها، وتدخلت في أمور لا تعنيني، فاعتذرت منه، وعلمت أنها مؤامرة مدبرة[٢].

ومن المفارقات أن قيادة الجيش سحبت طعام الطوارئ من الوحدات العسكرية في الجبهة قبل الحرب بأسبوعين، لاستبداله بطعام جديد، ولم يأت الجديد وبقي الجنود بلا طعام طوارئ خلال الحرب.

والمفارقة الثانية أن أسر الضباط العلويين تم ترحيلها من القنيطرة، مع أثاث بيوتها قبل الحرب، بالشاحنات العسكرية، على الرغم من أوامر عبد الحليم خدام محافظ القنيطرة يومذاك؛ بأنه سيقتل كل من يغادر القنيطرة. ولكن الضباط العلويين لا يردون على الأستاذ خدام، أو أي بعثي غير علوي، ثم تركت السلطة عتاد الجيش ووثائقه، وأموال البلدية، وأموال البنك الحكومي الوحيد، ورحلت عائلات الضباط (العلويين) وحدهم؟.

النظام الأسدي يترك الجولان للصهاينة :

بدأ قادة الجبهة يهربون منذ يوم الخميس (١٩٦٧/٦/٨م) وكان قائد الجيش (فيما بعد) اللواء أحمد سويداني في طليعة الفارين،حيث خلع رتبته، ولبس ثياب راعي غنم ولجأ إلى قريته (نوى)، التي تبعد بضعة أميال عن القنيطرة. وتبعه قائد الجبهة العقيد أحمد المير الذي فر على ظهر حمار، ولحق بهما المقدم رئيف علواني، والعقيد عزت جديد والنقيب رفعت الأسد وسائر الرفاق من مختلف قطاعات الجبهة[١].

كما غادرت الحكومة وكبار الضباط دمشق إلى حمص، وأخذوا معهم أموال البنك المركزي، لأنه كما يبدو من تصريح ماخوس، أنهم توقعوا سقوط دمشق، وتخلوا عنها، يقول ماخوس: (وإننا من جهتنا كنا عاملين حسابنا على أن دمشق ستسقط بيد العدو...)، ولكن إسرائيل جبنت عن المضي إلى دمشق واكتفت بالجولان والقنيطرة.

نتائج نكسة حزيران :

من المؤلم جداً أن وسائل الإعلام البعثية السورية استمرت بعد الحرب تؤكد وتقول: لقد انتصرنا على الصهيونية والرجعية والاستعمار، لأن العدو يريد إسقاط النظام التقدمي في دمشق، يريد القضاء على الثورة العربية الرائدة في قطرنا التقدمي، ولم ولن يتحقق له

---

(٢) عبد الغني النواوي، ص ٤٢.

(١) عبد الغني النواوي، ص ٤٢١.

ذلك، لذلك فقد انتصرنا وفوتنا على العدو ما أراد. وقال وزير خارجية سوريا الدكتور إبراهيم ماخوس: (ليس مهماً أن تسقط دمشق، أو حتى حمص وحلب، فهذه جميعاً أراض يمكن تعويضها، وأبنية يمكن إعادتها، أما إذا قضي على حزب البعث، فكيف يعوض وهو أمل الأمة العربية!! لا تنسوا أن الهدف الأول من الهجوم الإسرائيلي هو إسقاط الحكم التقدمي في سوريا، وكل من يطالب بتبديل حزب البعث هو عميل لإسرائيل. ونظر الشعب العربي في سوريا وغيرها إلى هذا الطرح، وكأن البعثيين يكشفون سوءاتهم أمام الناس جهاراً عمداً، لذلك سقطوا من أعين العرب، وسقطت القيم التقدمية في قلوب الناس، وعاد كثير من العرب إلى إسلامهم يبحثون فيه عن عزتهم وكرامتهم المهدورة والتي مرغها الصهاينة وعملاؤهم. وانتشر التدين بين الشباب،لأنه ضد التقدمية التي انهزمت أمام العدو ولم تصمد ساعات معدودة. وانمسخ مفهوم القومية العربية، وسقط عبدالناصر من قلوب كثير من محبيه. وهكذا كانت حرب (١٩٦٧م) تحولاً هاماً في الفكر العربي والثقافة العربية والناشئة العربية.

ويتفق مؤرخو الصحوة الإسلامية؛ على أنها تلقت دفعة قوية جداً إلى الأمام بعد هزيمة الأنظمة التقدمية القومية في الخامس من حزيران، وصار الشباب يعيدون النظر في كل مقولات التقدميين، وخاصة حول ما يسمونه الرجعية، وزاد إقبال القارئ العربي للكتاب الإسلامي، يبحث عن عزته التي أهدرتها الأنظمة العربية التقدمية.

وبعد (١٩٦٧م) وافق عبد الناصر على مشروع روجز القاضي بالمفاوضات بين العرب وإسرائيل وإقامة حكم ذاتي فلسطيني، فانبرت أبواق البعثيين ضده، وتكرر وعودها الكاذبة في تحرير الأرض العربية المغتصبة. ولكن جرأة عبد الناصر في الموافقة على مشروع روجز فتحت باب قبول التفكير مجرد التفكير فقط بمبدأ التفاوض مع العدو، وهذا يتضمن الاعتراف به كدولة مستقلة ذات سيادة

تمثيلية تسليم الجولان

تفريغ الجيش السوري من المقاتلين[1]:

---

(١) مقابل هذا التفريغ يقول الجنرال هود قائد سلاح الجو الإسرائيلي كما ورد في شهادة سعد جمعة رئيس وزراء الأردن: يقول هود: لقد قضينا ست عشرة سنة نستعد ونخطط لهذه الجولة، وحققنا ثمرة جهدنا في ثمانين دقيقة، (يقصد تدمير سلاح الجو المصري ثم السوري)، لقد عشنا خطتنا، نمنا معها، أفقنا عليها، تمثلناها، هضمناها، وبالتدريج أدخلنا عليها الإصلاحات المتتالية حتى قاربت الكمال.

يقول مصطفى خليل: [بعد وقوع انقلاب الثامن من آذار بخمسة أيام فقط، أي بتاريخ (١٩٦٣/٣/١٣) صدرت نشرة عسكرية أخرجت من الجيش (١٠٤) ضباط يشكلون كبار الضباط في الجيش، افتتحت بالفريق عبد الكريم زهر الدين، واختتمت بالمقدم بسام العسلي.

وفي (١٦ /١٩٦٣/٣) أي بعد ثلاثة أيام فقط من تسريح الدفعة الأولى صدرت نشرة عسكرية أخرى أخرجت من الجيش (١٥٠) ضابطاً هم الطاقة الفعالة في الجيش (قادة الكتائب ورؤساء عمليات الألوية وقادة السرايا)، وكنت واحداً من الذين شملتهم هذه النشرة. ثم تتابعت النشرات، تسرح وتحيل على التقاعد، وتنقل إلى الوظائف المدنية... حتى بلغ مجموع الضباط الذين أخرجوا من الجيش حتى أيار (١٩٦٧م) (أي قبيل حرب العار) لا يقل عن (٢٠٠٠) ضابط مع قرابة (٤٠٠٠) ضابط صف وجنود متطوعين، يشكلون الملاك الحقيقي الفعال لمختلف الاختصاصات في الجيش..

واستبدل هؤلاء المسرحون وخاصة الضباط بأعداد كبيرة جداً من ضباط الاحتياط (الذين سبق وأدوا الخدمة العسكرية) وجميعهم من البعثيين، وأكثريتهم من العلويين...

وحُلت بعض الوحدات المقاتلة، وشكلت وحدات جديدة على أساس طائفي بحت كما فعل الفرنسيون أيام الانتداب .

وقد تميزت تلك المرحلة من تصفية الجيش بصورة من العنف والتنكيل، كان منها القتل، والسجن، والأحكام الاعتباطية والإعدام، ومصادرة الأموال والممتلكات وتضييق سبل العيش على الناس (وخاصة العسكريين)..

وكان أبرز من قتلوا ظلماً: العقيد كمال مقصوصة، والنقيب معروف التغلبي، والنقيب ممدوح رشيد، والملازم نصوح الجابي... والعقيد هشام شبيب، والمساعد بحري كلش، وغيرهم...

وغصت السجون بالمئات من الضباط والآلاف من العسكريين من أبرزهم: اللواء محمد الجراح، واللواء راشد القطيني، والفريق محمد الصوفي، والفريق عبدالكريم زهرالدين، واللواء وديع مقعبري، والعمداء: مصطفى الدواليبي، ونزار غزال، وأكرم الخطيب، وموفق عصاصة، ودرويش الزوني، وممدوح الجبال، والعقداء: هيثم المهايني، ومحيي الدين حجار، وحيدر الكزبري، وغيرهم...].

ثم يقول في وصف الجبهة في الجولان نقلاً عن كتاب (المسلمون والحرب الرابعة):

[... إن الجبهة السورية – الإسرائيلية (خط ماجينو السوري المشهور، الذي كلف البلاد أكثر من ثلاثمائة مليون دولار، لتحصينه وتجهيزه بأحدث المعدات، والذي اشتهر عنه بأنه لا يؤخذ، هذا الخط سقط بأيدي القوات الإسرائيلية خلال (٤٨) ساعة فقط...]...

ونجد في كتاب سقوط الجولان التحصينات العظيمة في (خط ماجينو السوري)، التي جعلت القيادة الصهيونية تسقط من حساباتها مهاجمة هذه التحصينات واقتحامها، لأنها كانت أكثر من مستحيلة...

ماعدا نقطة واحدة من الشمال (تل قاضي) كما يقول الضابط اللبناني لمجلة الحوادث، أو (هضبة المغاوير) كما يقول مصطفى خليل في سقوط الجولان، ومصطفى أدق في معرفة مواقع الجولان... هذه النقطة محصنة طبيعياً، إذ هي انحدار صخري حاد جداً يصعب تسلق الدبابات والسيارات العسكرية منه، لذلك تركته القيادة السورية دون تحصين... (وأظن أن زاوية انحدار ذلك الجبل لاتقل عن (٨٠) درجة، بينما تتمكن الدبابات من تسلق مرتفع بزاوية (٦٠) درجة فقط، وإن حاولت تسلق زوايا أكثر من ذلك تنقلب الدبابة... وهذا شجع الخبراء السوريين على عدم تحصين هذه المنطقة بالأسلحة مثل باقي الجبهة واعتبرت محصنة طبيعياً...

البلاغ رقم (٦٦) عن سقوط القنيطرة :

في اليوم الأول من الحرب الاثنين (١٩٦٧/٦/٥) شنت سوريا غارة جوية الساعة الثانية عشرة ظهراً على مصفاة حيفا، كانت الغارة الأولى والأخيرة للطيران السوري خلال معركة العار والتسليم..

وفي الأيام الثاني والثالث والرابع (٦/٦ ٦/٧ ٦/٨) اكتفت سوريا بقصف مدفعي عنيف على الخط الأول الصهيوني... [ومن الناحية الأكاديمية العسكرية يتم هذا القصف قبيل الهجوم بدقائق ويسمى التمهيد المدفعي، يسبقه تمهيد جوي، وكلاهما لا تزيد مدتهما مجتمعة عن نصف ساعة، تكون القوات المهاجمة على أهبة الاستعداد للانقضاض على دفاعات العدو بعدها مباشرة]..

وفي يوم الجمعة (٦/٩) قامت القوات الصهيونية بتمهيد جوي ثم مدفعي على تل قاضي (هضبة المغاوير) ثم تقدمت (البلدزورات) على المنحدر الصخري وشقت فيه طريقاً للدبابات، دخلت منه بضع عشرة دبابة صهيونية وتم خرق الجبهة السورية...

وانهزمت الدبابات السورية الموجودة في المنطقة، بدلاً من أن تقوم بهجوم معاكس على دبابات العدو الصهيوني...

وسبق أن قلنا إن القيادة البعثية السورية أبلغت ضباطها البعثيين همساً بالانسحاب بأشخاصهم، والحضور إلى دمشق لاجتماع حزبي هام (كما يقول مصطفى خليل)... ومن نزول هؤلاء القادة الكبار وأولهم اللواء أحمد سويداني، قائد الجيش، والعقيد أحمد المير قائد الجبهة، وغيرهم وتركهم لأماكنهم، وصارت الهواتف صامتة، يتصل قادة الوحدات ولا أحد يرد عليهم... مما قوى إشاعة الانسحاب التي انتشرت منذ الخميس (٦/٨)...

وفي صباح يوم السبت (١٩٦٧/٦/١٠م)، وقد انتشر خبر خرق القوات الصهيونية للجبهة السورية، وتعاظم إشاعات الانسحاب... وعدم تلقي قادة الوحدات أية أوامر من قائد الجيش ومن قائد الجبهة، وغيرهم من القادة البعثيين، الذين تركوا أماكنهم ونزلوا فارين إلى دمشق... في هذا الجو المشؤوم أذيع بلاغ سقوط القنيطرة...

وفي التاسعة والنصف من صباح يوم السبت (١٩٦٧/٦/١٠م) أذيع نبأ سقوط القنيطرة وهي عاصمة الجولان: يقول مصطفى خليل ص (١٥٥):

[بلاغ صادر من راديو دمشق صباح يوم السبت: يقول البلاغ: بالرغم من تأكيد إسرائيل لمجلس الأمن الدولي أنها أوقفت القتال فإنها لم تنفذ ما تعهدت به وبدأت قوات العدو صباح اليوم الضرب بكثافة من الجو والمدفعية والدبابات... وإن القوات الإسرائيلية استولت على مدينة القنيطرة، بعد قتال عنيف دار منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة، ضمن ظروف غير متكافئة، وكان العدو يغطي سماء المعركة بإمكانات لا تملكها غير دولة كبرى... واستولى على مدينة القنيطرة، على الرغم من صمود جنودنا البواسل، ولا يزال الجيش يخوض معركة قاسية للدفاع عن كل شبر من أرض الوطن... كما أن وحدات لم تشترك في القتال بعد قد أخذت مراكزها..]...

[وفي الساعة (١٢،٠٥) صدر بلاغ عسكري يقول: إن قتالاً عنيفاً لا يزال يدور داخل مدينة القنيطرة وعلى مشارفها، ومازالت القوات السورية تقاتل داخل المدينة تساندها قوات الجيش الشعبي بكل ضراوة وصمود...]

ويقول الدكتور سامي الجندي في كتابه (كسرة خبز) ص ١٧ (٣٠)[1]: (... أسئلة كثيرة ترد إلى الأذهان: لماذا لم يطلب الحكم السوري وقف إطلاق النار مع مصر والأردن مادام الاستمرار في القتال مستحيلاً!!!؟ كما يقول الجندي: إن إعلان سقوط القنيطرة قبل وصول العدو لها بأكثر من يوم، أمر لا يمكن فهمه بتأويل حسن. ويتابع الجندي قوله:

فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون مندوب سوريا في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة ووصول قوات إسرائيل إلى مشارف دمشق، والمندوب الإسرائيلي يؤكد أن شيئاً من ذلك لم يحصل..

قال لي الدكتور إبراهيم ماخوس (وزير خارجية البعثيين يومذاك) أنها كانت خطة ماهرة ل (إرهاب) العالم من أجل إنقاذ دمشق.. انتهى كلام الجندي..

وفي كلام الجندي (وهو وزير إعلام البعثيين، ثم سفيرهم في باريز خلال الحرب) في هذا الكلام اعتراف من ماخوس (وزير الخارجية) أن إعلان سقوط القنيطرة خطة مدبرة، واعتراف من مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة بأن دولته لم تحتل القنيطرة..

ويقول خليل مصطفى في هامش الطبعة الثانية (ص ١٧٧): سئل اللواء أحمد سويداني بعد الحرب بمدة، في أحد الاجتماعات الحزبية في دمشق؛ عن بلاغ سقوط القنيطرة، فكان جوابه: [أنا كمسئول؛ لم أستشر في البلاغ الذي أعلن سقوط القنيطرة، وكمواطن سمعته من الإذاعة كغيري !!!]... أقول ولذلك قضى عليه حافظ الأسد فيما بعد، لأنه كان يشغل منصب قائد الجيش، ويذاع مثل هذا البلاغ دون علمه..!!!

يقول محمد عبد الغني النواوي: كان أحد أقربائي ضابطاً في الجيش السوري خلال حرب حزيران، وكان مقر عمله مدينة القنيطرة قال لي: في يوم السبت (٦/١٠) كنت أتناول طعام الفطور مع بعض الجنود الساعة (٩.٣٠) صباحاً وسمعنا بلاغ سقوط القنيطرة، فتركنا طعامنا وقمنا مذعورين إلى شوارع المدينة نستطلع الخبر، وذهلنا عندما لم نجد أثراً للعدو داخل المدينة، والقنيطرة ليست من المدن الكبيرة التي ربما يسقط فيها حي من الأحياء دون أن تعلم بقية الأحياء... ولما عدت إلى قطعتي وجدت الرفاق

---

(١) نقلاً عن عبد الغني النواوي في مؤامرة الدويلات الطائفية ص ٤١٩.

البعثيين الرئيس ونائبه ولوا هاربين، وكذلك كان حال سائر الوحدات العسكرية، فدب الرعب في قلوب المدنيين والعسكريين، وانتشرت الفوضى، ولم نجد بداً من الفرار.

ويقول خليل مصطفى (ص ١٨٨): إن الذي ثبت لدينا حتى الآن... أن القوات الإسرائيلية لم تطأ أرض القنيطرة (رغم كل تلك المخازي والجرائم التي شرحناها)، إلا بعد إعلان سقوطها بما لا يقل عن سبع عشرة ساعة...

فقد خرقت قوات العدو الجبهة يوم الجمعة (٦/٩) حوالي الظهر، بقوة لواءي دبابات، ولكن العدو لم يستطع التقدم بحرية بسبب المقاومة الفردية، ولاقى مقاومات فردية شرسة وعنيفة في المقاومة، لذلك كان تقدمه في حذر شديد، يتوقف عند أول بادرة مقاومة ولو كانت طلقة من بندقية... وينتظر الطيران أن يدمرها...

وعندما أذيع بيان سقوط القنيطرة كانت أقرب وحدات للعدو تشتبك مع مقاومات بطولية فردية انبعثت من نقطة القلع، وتل العزيزيات... (انظر رواية دم سقى الجولان)..

وكان البلاغ المذكور، بلاغ سقوط القنيطرة، والمقاومات الفردية على أشدها، فانهارت القوى الجبارة، التي أظهرت بطولات الرجال الأوفياء لدينهم ولأرضهم وبلدهم، ودخل في روعهم أن مقاومتهم لم تعد مجدية، وذلك بعد انقطاع الاتصالات معهم، وهروب القادة المسؤولين، لذا قرر هؤلاء الأبطال الانسحاب ليلتحقوا بوحداتهم ويتابعوا القتال معها..

وبعد أن انسحبوا، ووجدوا القنيطرة مازالت سليمة، أسقط في أيديهم، وحاروا في فهم ذلك الواقع المخزي...

وخلاصة القول في حرب (١٩٦٧م) أنها كانت مسرحية، هدفها كسر شوكة عبدالناصر، وتسليم الجولان للصهاينة، واحتلال الضفة الغربية والقدس، وقد تم ذلك كله. ومما يؤكد ذلك أن خسائر الجيش السوري التي أذاعتها الحكومة كانت (١٢٠) عسكرياً

فقط[١]، وهم الذين لم يتقيدوا بأمر الانسحاب، فضلوا أن تمر الدبابات الإسرائيلية على أجسادهم ؛ كما حصل في تل العزيزيات[٢].

روايات الدكتور سامي الجندي:

أما الدكتور الرفيق سامي الجندي [وزير الإعلام] في أول حكومة بعثية، وخلال الحرب كان سفيراً في باريس، فيقول في كتاب (عرب ويهود) واصفاً اجتماعاً لمجلس قيادة الثورة بعد الثامن من آذار (١٩٦٣):

(ألقينا على أنفسنا أسئلة كثيرة وناقشنا كل القضايا، ومن بينها القضية الفلسطينية التي كانت محور السياسة العربية، وخاصة دول المواجهة،... ولأعطي فكرة عن موقف سوريا تجاهها يكفي أن أقول أن (٦٣ %) من الميزانية مكرس للتسليح، مما يشكل نسبة ضخمة بالقياس إلى بلد في طريق التنمية... سألنا أنفسنا هذا السؤال الدقيق:

ماذا نفعل لو هاجمتنا إسرائيل!؟ طلبنا أدق المعلومات السرية لنستطيع تقييم قوة العدو وقوتنا، وفوجئنا بالفرق الشاسع بين القوتين، وقدرنا أن الجيش السوري، رغم تسلحه الجيد، وتمرسه وشجاعته، ليس في وضع يسمح له أن يصمد أكثر من ساعات أمام أي هجوم إسرائيلي!!).

وعن اجتماع قمة الدار البيضاء قال الجندي:

(حضر الزعماء العرب عدة مؤتمرات قمة، بقصد مواجهة قضية فلسطين متحدين، ومنها مؤتمر قمة الدار البيضاء.. تحدثوا عن تحويل نهر الأردن، وعن عزم إسرائيل على إعلان الحرب ضدنا، أبدى كثيرون حماسة عظيمة، ثم جاء دور العسكريين، فقدم الجنرال (علي علي عامر) تقريره (وكان قائداً للجبهة العربية)... فنظر الزعماء العرب إلى بعضهم، في خيبة أمل كبرى، ثم قال الجنرال علي علي عامر:

إذا تحملت الدول العربية مسؤولياتها كاملة، فستصبح قواتنا معادلة لقوات إسرائيل خلال ثلاث سنوات.. فإذا شئنا التفوق عليها لزمنا ثلاث سنوات أخرى،لأن تعادل قواتنا

---

(١) في (٢٣ شباط ١٩٦٦) قاد سليم حاطوم مغاويره وهجم على منزل الرئيس محمد أمين الحـــافظ، فدافع الجنود (حرس الرئيس) وكثير منهم من البدو، دافعوا حتى الموت، وكان عدد القتلى أكثر مـــن (٢٠٠) عسكري، أي أكثر من خسائر سوريا في حرب حزيران.

(٢) انظر رواية دم سقى الجولان، للدكتور عبد الله الدهامشة. ومعظمها أخبار واقعية جمعها الكاتب ممن اشتركوا في حرب (١٩٦٧م).

لايعني النصر حتماً...لأن التدريب الإسرائيلي متفوق على تدريب جيوشنا، وثمة عوامل عدة في صالح إسرائيل، وحدة الأرض، ووحدة القيادة،...).

صدق الزعماء العرب على تقرير علي علي عامر، ووقعوه ونفذ المخطط حرفياً خلال ستة أشهر، ثم نجم خلاف جديد بين الزعماء وعبور الإذاعات، وتوقف المخطط حتى هذه الساعة... إذن لم يكن العرب مستعدين للمعركة) انتهى كلام الجندي من كتاب (عرب ويهود، ص ٦٣ وبعد)...

ويعلق عبد الغني النواوي فيقول (ص ٤٠٥):

وخلاصة رأي الدكتور سامي الجندي أن النظام السوري الذي يقرع طبول الحرب، وهو يعلم ضعف إعداد الجيش إنما يهدف من وراء ذلك إلى تسليم العدو الصهيوني قطعة من الأراضي السورية...

ثم يقول الدكتور سامي الجندي في كتابه (كسرة خبز):

(كنت أعارض دائماً في حرب مع إسرائيل أعرف أننا خاسرون... التقارير التي كنت أحملها من لجان (المتابعة) سنة (١٩٦٤) يوم كنت ممثلاً لسورية فيها ما كانت تدع مجالاً للشك في الهزيمة إذا قامت حرب، كلها تؤكد أن القوة العربية لم تصل إلى نصف قوة إسرائيل... وقد دخلنا في حرب (١٩٦٧) بأقل من نصف قواها وما كان أحد من المسؤولين يجهل ذلك.. فكيف إذن يعود الجولان... آرائي كلها كانت ضد الحرب، لم أخف أبداً أن الحكم يعد لهزيمة، لا لاسترداد فلسطين، لم يكن هناك أي بادرة للنصر، ولا أعني أنه كان يعد لهزيمته نفسه، وإنما لهزيمة العرب الآخرين كي يبقى الثوري الوحيد سيد المناخ الثوري العربي...[أقول: بل كان ينفذ مخططاً، وكان بطلاً صهيونياً من الطراز الأول، قلب موازين الفكر العربي كلها...]

وذكر موقع أخبار الشرق (٢٠٠٨/٤/١٥) يقول الكاتب سالم أحمد،تحت عنوان دور حافظ الأسد في تسليم القنيطرة: (رواية سعد جمعة رئيس وزراء الأردن آنذاك في كتابه المؤامرة ومعركة المصير صفحة ٤٥ يقول: (اتصل سفير دولة كبرى في دمشق في الخامس من حزيران بمسئول حزبي كبير ودعاه إلى منزله لأمر هام في الحال ونقل له في اللقاء أنه تلقى برقية عاجلة من حكومته تؤكد قضاء الطيران الإسرائيلي على سلاح الجو المصري. وأن المعركة بين العرب وإسرائيل قد اتضحت نتائجها وأن كل مقاومة

ستورث خسائر فادحة وأن إسرائيل لا تنوي مهاجمة النظام السوري بعد أن يستتب لها تأديب جمال عبد الناصر، وبانتهاء الزعيم المصري تفتح الآفاق العربية أمام الثورية البعثية وأن إسرائيل بلد اشتراكي يعطف على التجربة الاشتراكية البعثية وخاصة العلوية إذ يمكنها أن تتعايش وتتفاعل معها لمصلحة الكادحين في البلدين، واتصل الوسيط بقيادات البعث والعلويين وأعلم السفير الوسيط بتجاوب كافة القيادات مع هذا التطلع.

رواية دريد مفتي الوزير المفوض في مدريد:

جاء إلى "سعد جمعة" بمكتبه في لندن وعرفه على نفسه قائلاً قرأت كتابك المؤامرة ومعركة المصير عن جريمة تسليم مرتفعات الجولان المنيعة دون قتال والتي اقترفها (جديد أسد ماخوس)، وأحب أن أزيدك بياناً فقال: يوم كنت وزيراً مفوضاً لسورية في مدريد استدعاني وزير خارجية إسبانيا لمقابلته صباح ١٩٦٧/٧/٢٨م وأعلمني ووجهه يطفح سروراً أن مساعيه الطيبة أثمرت لدى أصدقائه الأمريكان بناء على تكليف السيد "ماخوس" البعثي، ثم سلمني مذكرة تتضمن ما يلي: تهدي وزارة الخارجية الإسبانية تحياتها إلى السفارة السورية عبر وسيطها، وتعلمها أنها نقلت رغبة الخارجية السورية إلى الجهات الأمريكية المختصة بأنها ترغب بالمحافظة على الحالة الناجمة عن حرب حزيران ١٩٦٧ –أي بقاء الجولان تحت الاحتلال الإسرائيلي– وأنه ينقل رأي الأمريكان بأن ذلك ممكن إذا حافظت سورية على هدوء المنطقة وسمحت لسكان الجولان بالهجرة من موطنهم والاستيطان في بقية أجزاء الوطن السوري وتعهدت بعدم القيام بنشاطات تخريبية من جهتها تعكر الوضع الراهن (عن مجتمع الكراهية لسعد جمعة صفحة ١٣٠).

ثم إن مخابرات حافظ أسد تابعوا دريد مفتي إلى لبنان وقتلوه لأنه أذاع هذا السر ولم يرض الخيانة. ودريد ضابط بعثي سني من أريحا السورية.

وأضيف على ذلك بأن المتأمل في نتائج حرب (١٩٦٧) يرى أن الهزيمة حولت الفكر العربي من فكر مقاتل ومجاهد من أجل تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، إلى فكر يقبل مشروع روجرز، ويقبل بوجود دولة إسرائيل، والمطالبة بعودة إسرائيل إلى حدودها قبل حرب حزيران (١٩٦٧)... هذا الاعتراف الذي كان جريمة لمن ينطقه فقط،

فقد أضربت المدارس في سوريا ومصر والعراق ولبنان عام (١٩٥٩) يوم قال الحبيب بورقيبة لماذا لا نفاوض إسرائيل!!!؟ كان الفكر العربي لا يقبل التفاوض لأنه اعتراف...

أما اليوم... فقد أوصلتنا الهزيمة النكراء التي ساق العرب إليها حافظ الأسد وأزلامه، أوصلتنا إلى (سلام الشجعان) المصطلح الذي أطلقه حافظ الأسد عندما فاوض الصهاينة، وإلى أن نعلن قبولنا متابعة التفاوض بدون قيد أو شرط... وصرنا نتذلل أمام إسرائيل كي ترضى وتتفاوض معنا...

الفصل الثالث

ماذا تعرف عن حافظ الأسد؟!!

وافد على القرداحة:

جده سليمان، سليمان الوحش، وقد منح هذا اللقب بعد أن تغلب على المصارع التركي، ولم نعرف له لقباً قبل لقب الوحش، الذي منحه إياه المتفرجون حول حلبة المصارعة[1].

وأستنتج من هذا الخبر أنه كان وافداً على المنطقة، ولم يكن معروفاً لدى الجمهور، لذلك لم يعرفوا له لقباً، فلقبوه ب (الوحش) لأنه كان قوي البنية جداً، حتى غلب ذلك المصارع التركي الذي لم يكن يقهر قبل ذلك. وعجبي من (باترك سيل) كيف فاته أن العرب يعتزون بأنسابهم؛ فلم يذكر لنا سليمان مَن، وابن مَن..!!؟

وسكن سليمان الوحش عند مدخل القرداحة، وكان معروفاً أنه ليس من أهل القرداحة، وسميت أسرته ببيت (الحسنة) أي الصدقة، لأن أهل القرداحة كانوا يتصدقون عليهم، لأنهم أفقر سكان القرية، حيث لا أرض لهم[2].

(وكان سليمان رجلاً ذا قوة وبسالة خارقتين، وقد أكسبته هاتان الصفتان في القرية مكانة جعلته وأسرته في مصاف الأسر القوية البارزة، وبمرور الزمن أصبح يمارس السلطة التي كسبها بقوته الجسدية، فصار (وسيطاً) للمصالحة بين المتخاصمين)[3].

---

(١) باترك سيل، الصراع على الشرق الأوسط. وكل معلومة في هذا البحث لا يذكر مرجعها فإنها منقولة من هذا الكتاب، أو من كتاب (فان دام) الصراع على السلطة في سوريا، لأن المادة الأساسية لهذا البحث هي خلاصة لكتاب باترك سيل.

(٢) هذه المعلومة قالها لي من أثق به نقلاً عن الدكتورة سلمى بنت الشيخ عبدالرحمن الخير، من كبار شيوخ الطائفة العلوية، ومن سكان القرداحة، مسقط رأس حافظ الأسد، وكانت زميلته في العمل عام (١٩٧٥).

(٣) باترك سيل، ص١٤.

علي سليمان الأسد:

ورث علي سليمان المولود عام (١٨٧٥م) ؛ كثيراً من صفات أبيه، فكان قوياً وشجاعاً، واستمرت مكانته كوسيط لفض المنازعات، وساعد اللاجئين الأرمن المعدمين الذين انتشروا إلى الجنوب بأعداد كبيرة عندما سلمت فرنسا اسكندرون لتركيا.

وصار عنده عدة حقول لأن الأرض يومذاك لمن يصلحها، فيرفع الحجارة ويمهد سطحها ويزرعها، وساعدته قوته الجسدية، وساعده في ذلك أخوه (عزيز) وأخواته (جنينة، وغالية، وسعدى)، والمرأة في الريف السوري يومذاك تعمل كالرجل.

تزوج علي سليمان مرتين أنجب من الأولى ثلاثة أولاد وبنتين، ثم أنجب من الثانية خمسة أولاد وبنت واحدة. وكانت الثانية (ناعسة) تصغره بعشرين عاماً. واستطاع علي سليمان أن يتحول من فلاح بسيط إلى أحد الوجهاء، وكافأه أهل القرداحة بأن طلبوا منه تغيير اللقب من الوحش إلى الأسد في عام (١٩٢٧). كان علي سليمان الأسد من القلة المتعلمة (!!!) وكان مشتركاً في جريدة تصل إليه متأخرة عدة أيام، فكان الرجل الوحيد في القرداحة الذي تابع أخبار الحرب العالمية الثانية في مدها وجزرها محدداً بدقة أماكن المعارك على خريطة جدارية (!!!) في الغرفة التي كان حافظ ينام فيها وهو صبي. وكان علي يحترم التعليم والكتب[1]، وصمم على أن يتيح لأبنائه الصغار فرصة التحصيل الثقافي، إذ أن أولاده الثمانية الأول لم يحصلوا على أي تعليم يذكر لعدم وجوده في القرداحة يومذاك.

حافظ علي سليمان الأسد:

ولد حافظ في (١٩٣٠/١١/٦)، وهو الولد الرابع لأبيه[2]، والثالث لأمه، وكان أبوه في الخامسة والخمسين من عمره، أما أمه فكانت في الخامسة والثلاثين، وعاش حافظ في

---

(١) والعجب كذلك أن باترك سيل فاته أن يذكر أين تعلم علي سليمان الوحش (الأسد)، وقد ذكر فيما بعد أن أول مدرسة ابتدائية افتتحت في القرداحة كان ذلك في الثلاثينات، وبسبب ذلك حرم أولاد علي سليمان الثمانية الأول من التعليم، أما حافظ فقد تأخر مدة سنتين حتى افتتحت المدرسة في القرداحة، فكان يكبر أقرانه في الفصل في العمر لهذا السبب، وهذا يؤكد أن علي سليمان لم يتعلم في القرداحة، فأين تعلم إذن!!!؟ وهو ليس فقط يقرأ ويكتب، بل يشترك في جريدة تصله في البريد إلى القرداحة، كما أنه يحب الكتب، وفي بيته خريطة، يشرح فيها لجلسائه تطورات الحرب العالمية الثانية...!!!

(٢) يروي ضابط متقاعد أنه كان له زميل في الكلية العسكرية يسمى (غسان علي سليمان الأسد)، شقيق لحافظ الأسد، وهو شبيه بحافظ بشكل كبير في جسمه، ورآه ثانية عندما كان برتبة (مقدم).. ولا أحد في

صخب عائلة كبيرة، فلم يكن تاسع أولاد علي سليمان فحسب، بل إن عمه (عزيز) كان يعيش بجوارهم على الطريق. ومعه أولاده السبعة، كما أن إخوته الخمسة الأوائل غير الأشقاء الذين ولدوا قبل الحرب العالمية الأولى، فقد كانوا بمثابة الأعمام والعمات بسبب فارق السن، وكان أولادهم المتكاثرون يضيفون وجوهاً جديدة لعائلة الأسد المتنامية[١].

عمل حافظ في طفولته في القرية وساعد في إرواء المحاصيل أو قطف الفواكه، وفاته سنتان من سن التعليم حيث لم تكن في القرداحة أية مدرسة.

وفي الثلاثينات أدخل الفرنسيون التعليم إلى القرى النائية للمرة الأولى[٢]، وفتحت ابتدائية في القرداحة، وتمكن علي سليمان من إدخال أولاده حافظ وجميل ورفعت فيها، لأن علي صار من وجهاء القرية. ويبدو أن هذه المدرسة كانت تدرس الصفوف الثلاثة الأولى فقط، لذلك أرسل حافظ إلى اللاذقية في العام الدراسي (١٩٣٩-١٩٤٠) للدراسة، عاش مع أخته المتزوجة ثلاثة شهور، ولما نقل زوجها، استأجر له أبوه غرفة في منزل متواضع لأحد معارفه، وفي ذلك الحين كان ثلاثة أرباع سكان اللاذقية من السنة، والربع الباقي من المسيحيين، وكان عدد العلويين لا يتجاوز بضع مئات، وهذه المدة جعلته يكبر بسرعة ويعتمد على نفسه.

عاد حافظ وأكمل دراسته في القرية حتى حصل على الابتدائية عام (١٩٤٢م) (أي أن المدرسة في القرية تطورت حتى نهاية الابتدائية)، وكان معه ثلاثة من القرداحة فقط، ولم تكن سوى ثانوية واحدة في الساحل السوري كله، وكان دخولها بشق الأنفس، ولا يدخلها إلا الطلاب المهرة مثل حافظ الذي كان متفوقاً في المدرسة.

سوريا يعرف هذا الشخص!!؟ أين هو!! وماذا فعل!!! وهذا غموض آخر يضاف إلى عدة أمور غامضة سابقة.

(١) باترك سيل، ص ١٩، ولاحظ المتنامية أي التي بدأت من سليمان، وصار التكاثر مرغوباً جداً عندهم، وهذا يفسر لنا الرغبة المحمومة عند رفعت بالتكاثر.

(٢) ليس صحيحاً ما يقوله باترك سيل، ويبدو أن الفرنسيين اهتموا بالقرداحة وأمثالها بشكل خاص، أما في قرى السنة، فأول مدرسة في ريف حماة (السني) كانت عام (١٩٤٨) وكان مختار القرية من أصدقاء كبار الإقطاعيين، حتى تمكن من الفوز بهذه المكرمة، أما في القرى الصغيرة الفقيرة النائية فقد فتحت فيها المدرسة الابتدائية للمرة الأولى عام (١٩٦٦)م.

(لقد ورث حافظ تراثاً هاماً عن جده وأبيه، فقد ولد في عائلة كانت تعمل جاهدة لتحسين أحوالها، على الرغم من أن عشيرتهم كانت أصغر وأفقر من غيرها كانوا يغتنمون كل فرصة من أجل تحسين مكانتهم)[٣].

ولما كان حافظ في الخامسة والعشرين، كان والده في الثمانين، لذا أخذ حافظ على عاتقه بعض المسؤوليات العائلية، ومنها مساعدة والدته في تربية أخوية الصغيرين (جميل ورفعت)، وهكذا صار جميل ورفعت ينظران لحافظ كالوالد الصارم المطاع الذي أخذا يطلبان موافقته، ولكنهما كانا يحبان أن يتحديا سلطته، وكان حافظ أول فرد من العائلة يخلف عالم القرداحة وراء ظهره، وخرج إلى معترك الحياة.

دخلت الحامية الفرنسية اللاذقية في (١٩١٨/١١/٦) أي بعد شهر من رحيل العثمانيين، أما المناطق الداخلية فلم تدخلها إلا بعد سنتين كاملتين، وفي هذا مؤشر واضح على اهتمام فرنسا بالأقليات عامة وبالعلويين خاصة، ولا غرابة في ذلك فقد عرفت فرنسا أن الأتراك كانوا قاسين في تعاملهم مع العلويين، وهذا يجعلها تتصرف ليكون العلويون أنصاراً لها، ويساعدونها في حكم البلاد.وكانت إحدى أدوات الإغراء الفرنسية الكبرى تجنيد شباب العلويين في قوات المشرق الخاصة، وهي قوة محلية أنشئت عام (١٩٢١) تحت إمرة ضباط فرنسيين، ليخدم فيها العلويون والشركس والأرمن، ووصل عدد المجندين إلى (١٤٠٠٠) في منتصف الثلاثينيات، وكانت مهمتها قمع الاضطرابات في أي مكان من البلاد، وأدت الخدمة العسكرية مع الفرنسيين إلى بداية تأسيس تقليد عسكري علوي سبب صعود الطائفة فيما بعد. وكان القليل من العلويين ممن أيد الفرنسيين مثل أسرة (كنج)[١]. لذلك ارتقت هذه الأسرة وارتقى زعيمها إبراهيم كنج (زعيم قبيلة الحدادين) ليصبح من كبار أثرياء الجبل وملاكه.

أما معظم العلويين في الجبال، فقد ظلوا يعانون الفقر المدقع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وأدى الفقر إلى أعمال وممارسات قدر لها أن تجلب العار على العلويين، فبناتهم كنّ يؤجرن كخادمات في البيوت من سن السادسة أو السابعة، ولمدة عشر سنوات، أو مدى الحياة، ولعل هذه التجارة بدأت عام (١٩٢١) عندما فرض الفرنسيون غرامات جماعية على

---

(٣) باترك سيل، ص ٢٨. وفي كشف أعده ضابط بريطاني عام (١٩٤٢) يوضح أن عائلة علي سليمان تترأس عشيرة (العيلة) الفرعية من قبيلة (الكلبية)، بينما يقول (فان دام) أنهم فرع من عشيرة المتاورة، وهو مركز متواضع ولكنه حقيقي، ذلك أن آل الأسد كانوا قد حققوا لأنفسهم منزلة في قريتهم، ولكنهم كانوا لا يزالون أقل تأثيراً من أسر القرداحة البارزة مثل: آل حسون، وعثمان، والخير.

(١) باترك سيل، ص ٣٨ .

القرى الثائرة، ولكي يدفعوها باع الفلاحون خرافهم وأراضيهم أو بناتهم، ولم يبق في اللاذقية كلها عائلة ثرية بدون خادمة علوية صغيرة، وحتى عام (١٩٥٠)، كان هناك حوالي عشرة آلاف بنت علوية، يعملن كخادمات في المنازل بدمشق. غير أن ما لا يعترف به أحد إلا نادراً هو أن الخدمة في البيوت كانت نوعاً من التعليم، إذ أنها فتحت آفاقاً أوسع، فقد اتضح أن بنات الجبل أخذن يتأقلمن بسرعة مع حياة المدينة؛ فتعلمن التكلم بالفرنسية، وظلت سرعة التكيف خاصة علوية[٢].

حافظ في المدرسة الثانوية[١] :

كان الظلم في المدرسة يعكس الظلم في العالم الخارجي من حولها، فكان أولاد الوجهاء يسيطرون على فناء المدرسة ويضربون الأولاد الذين لا يعجبونهم، وكانت ثياب الفقراء رثة بالية، وقد يعجزون أحياناً عن دفع ثمن الكتب.

وكان حافظ فتى مفتول العضل في الرابعة عشرة من عمره، كان يكبر معظم زملائه بسنتين، وأعطاه ذلك بعض المزايا، وكانت المدارس يومها مرتعاً للفكر والعمل والجدل السياسي، وكانت الأحزاب: القومي السوري، والشيوعي، والبعثي، والإخوان المسلمون؛ تتنافس على عقول الطلاب.

أمضى حافظ سبع سنوات في ثانوية اللاذقية، وحصل على البكالوريا عام (١٩٥١م)، وهو في العشرين من عمره، وفي السادسة عشرة انضم إلى حزب البعث، وكان من المؤثرين فيه الطبيب وهيب الغانم، تلميذ زكي الأرسوزي.

كان حافظ علوياً غير عادي، واثقاً من نفسه، مستعداً للقتال، لايخجله انتماؤه إلى طبقته، ذا بنية قوية ورثها عن جده، لذلك كان قادراً على الصمود في مجابهات فناء المدرسة الخشنة، يقول عنه وهيب الغانم: (كان واحداً من فدائيينا، فقد كنا بحاجة إلى شباب شجعان يقاتلون من أجل الحزب). وفي عام (١٩٤٩) انتقلت أسرته كلها إلى اللاذقية لمدة سنة من أجل الإشراف على أصغر أولادها (رفعت) الذي سيبدأ الدراسة الثانوية.

الطالب حافظ الأسد ضد الإخوان المسلمين :

دخل حزب البعث في مواجهة مع الإخوان المسلمين، بعد أن تجاوز الحزب الشيوعي، والحزب القومي السوري[٢]، فالبعث في نظر الإخوان المسلمين لا ديني

---

(٢) باترك سيل، ص ٤٤ . والذي لم يذكره الكاتب هو أن هذه الخادمات قمن بمنعطف تاريخي كبير جداً، وهو التوسط لأقربائهن في دخول الجيش عامة، والكليات العسكرية خاصة.

(١) والثانوية آنذاك يقصد بها المرحلتين الإعدادية والثانوية معاً.

وعلماني وعدواني يمثل الأقليات لذلك كان العدو الطبيعي للإخوان المسلمين الذين استهدفوا حافظ الأسد في وقت مبكر باعتباره زعيماً طلابياً بعثياً، وحاولوا عدة مرات أن يضربوه، ولكن صديقاً له قوياً هو (محمود عجيل) حماه من لكماتهم في أكثر من مناسبة، (أصبح عجيل فيما بعد عضواً في مجلس الشعب)، ولكن الإخوان اختلوا بحافظ مرة في عام (١٩٤٨) وطعنوه بسكين في ظهره مما أقلق والديه كثيراً، واستغرق التئام الجرح عدة أسابيع(١).

وكان وهيب الغانم يرى أن أكثر البعثيين من العلويين، ولا يريد أن يظهر ذلك، لذا كان يوجه البعثيين العلويين بالابتعاد عن الشارع عندما يحصل نزاع مع الإخوان المسلمين كي يفسحوا المجال أمام البعثيين السنة في الاشتباك مع الإخوان المسلمين، وكان حافظ يرفض هذا التوجيه. ولهذا كان يتصدر المظاهرات ويبحث عن حليف بين السنة الأشداء، وصار البحث عن حلفاء طبقيين من السنة من صفات حياته السياسية فيما بعد. وفي السنتين الأخيرتين عقد الصداقة مع طالب بعثي سني هو عبدالحليم خدام من (بانياس)، كما تعرف على عبد الرؤف الكسم البعثي المنحدر من أسرة دينية دمشقية.

---

(٢) الحزبُ القومي السوري الاجتماعي

أسسه أنطون سعادة، وكان حزباً فاشياً، هدفه الرئيسي إحياء سوريا في حدودها التاريخية، وتتضمن سوريا ولبنان والأردن والعراق وسيناء وقبرص. والسوريون - في نظر سعادة - هم ورثة الحضارات القديمة، وليسوا جزءاً من الأمة العربية. وقد شددت مبادئ الحزب على تبني العلمانية وإجراء التحديث وكانت أوامر الزعيم مقدسة، كما كان أنصاره يتميزون بالروح الفدائية والطاعة العمياء، ولم تكن لهم شعبية تذكر في بلاد الشام، ولذلك كان أسلوب المؤامرات والاغتيالات هو السائد لدى الحزب. وقد قام أعضاء الحزب باغتيال عدنان المالكي، أحد كبار الضباط البعثيين في دمشق ١٩٥٥م، ورياض الصلح رئيس وزراء لبنان خلال زيارته للملك عبد الله ١٩٥١م، وحاول الحزب تدبير انقلاب في لبنان، لكنه فشل، فصفي الحزب في كل من سوريا ولبنان.=

=وكانت حكومة سوريا أيام حسني الزعيم، قد اعتقلته وسلمته إلى لبنان، حيث اتهم بالتآمر على سلامة لبنان الخارجية وحكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم فيه رمياً بالرصاص في الثامن من شهر تموز لعام ١٩٤٩م. وسعادة في الأصل من مواليد لبنان، وينتمي إلى النصرانية (تاريخ سوريا الحديث للأنصاري).

(١) باترك سيل، ص ٥٦، وقد نقلها في مقابلة مع الدكتور وهيب غانم في اللاذقية (١٥/٤/١٩٨٥).

الطيار حافظ الأسد :

أراد حافظ بعد الثانوية أن يصبح طبيباً لتأثره بوهيب غانم، لكن الجامعة اليسوعية طلبت منه الحضور شخصياً إلى بيروت للتسجيل والمقابلة الشخصية، ويقال أن الفقر منعه من الوصول إلى بيروت، وقد ألغيت أقساط الكلية العسكرية منذ الاستقلال (١٩٤٦)، ولذلك تشجع طلاب الأقليات للالتحاق بها، وهكذا كان حافظ واحداً من تسعين طالباً دخلوا الكلية العسكرية في حمص (١٩٥٢) وهناك التقى وصادق مصطفى طلاس، ثم نقل مع (خمسة عشر طالباً فقط) إلى مدرسة الطيران في حلب، عام (١٩٥٣) وفي العام نفسه حولت مدرسة الطيران إلى كلية جوية، وحلق حافظ بطائرته فوق القرداحة، يلوح لأصدقائه فيها، ثم يعود إلى حلب بعد أن يصبح فوق البحر المتوسط.

وعشية تخرجه (١٩٥٥) نجا من الموت بأعجوبة أثناء استعراض الطيران، عندما دخل في غيمة فوق حلب، وبعد خروجه من الغيمة وجد أنه يتجه نحو الأرض، فتدارك الأمر في الثواني الأخيرة، واحتكت طائرته بقمم أشجار الزيتون.

بعد التخرج فرز الملازم الطيار حافظ الأسد إلى مطار المزة، وانغمس كلية في العمل السياسي، ويحدثنا أحد زملائه[١] عن رحلة سرية لحافظ رافقه بها إلى بريطانيا، حيث كان التقرير أن لديه بعض التحليلات الطبية هناك، فمضى مع مرافقين إلى بريطانيا. ولكن المذهل في الأمر أنهم وجدوا وزير الدفاع البريطاني ينتظرهم مستقبلاً في المطار، أما المرافقان فقد مضيا إلى أحد فنادق العاصمة تروح وتجيء عليهما وجبات الطعام. وأما حافظ أسد فلا يدرون أين ذهب، حيث أمضى ثلاثة أيام دون أن يروه بحجة إجراء التحليلات الطبية، والمعالجة، وبعد ثلاثة أيام عاد إليهم، وتوجهوا بعدها عائدين إلى دمشق بوداع وزير الدفاع البريطاني.

لقد كان حافظ أسد يعد الإعداد المناسب ليؤدي دوراً في تاريخ سورية منذ أن كان في أوائل العشرينات من عمره. ولا شك أن له مواهب وطاقات فائقة، ولذلك وقع الاختيار عليه لتأدية هذا الدور. ويكاد سيل يلمس هذا الموضوع لمساً مباشراً، ثم يخفيه. فيقول: "وكان لاغتيال المالكي نتائج حاسمة في تاريخ سورية الحديث، فبعد إزاحة خصمه الرئيسي والحزب القومي" وجد حزب البعث نفسه أكبر قوة في القوات المسلحة مما خدم

---

(١) منير الغضبان، سوريا في قرن (٣٨٢/١).

بالتالي مستقبل الأسد وبعثيين آخرين، إذ وقع عليه الاختيار وحده من أجل الترفيع، كما تقرر أن يعطى تدريباً إضافياً. وقد أتاحت قاعدة المزة مجالاً واسعاً لإبراز روح المنافسة الطبيعية لديه.

وأدى اغتيال العقيد عدنان المالكي علي يد القوميين السوريين إلى هرب كثير من القوميين السوريين، وفسح المجال أمام البعثيين، وصار ضباط البعث أكبر كتلة في الجيش السوري، مما خدم مستقبل حافظ الأسد وبعثيين آخرين، وكان له مدرب ألماني يعلمه الطيران على طائرة مقاتلة ذات محرك (فيات ٥٩)، ثم زاد سروره عندما وقع عليه الاختيار عام (١٩٥٥) للذهاب إلى مصر للتدرب على الطيران النفاث، (الميتيور ٨) البريطانية، في دورة مدتها ستة أشهر.

وبعد عودته من الدورة، كلف بمطاردة طائرة بريطانية دخلت المجال الجوي السوري، فطاردها بطائرة غير مجهزة تماماً (الكوابح ضعيفة)، ورجع ليلاً وهبط، وخرج عن المدرج وأنقذه طول الأجل، حيث قفز بعد هبوطها على بطنها وألقى بنفسه في حفرة قريبة. وعوقب بالتوبيخ لأنه طار بطائرة غير جاهزة. وهذه الحادثة جعلها باترك سيل بالتفاهم مع حافظ الأسد سبباً لإقامته في لندن مدة ثلاثة شهور انتهت يوم الحركة التصحيحية الأولى يوم (١٩٦٦/٢/٢٣)، حيث عاد من بريطانيا إلى قيادة القوى الجوية، وعمل على دعم الانقلاب بالهاتف، وشجع الوحدات العسكرية على تأييد صلاح جديد ضد محمد أمين الحافظ. وسترى أنني فسرت ذلك بدورة مكثفة لحافظ الأسد الذي انتهى من مرحلة العمل السري من وراء ستار، ليبدأ بالمواجهة العلنية كما حصل، بعد (١٩٦٦) مع صلاح جديد.

الزواج :

في عام (١٩٥٨) كان الملازم الطيار حافظ الأسد مصمماً على الزواج من أنيسة مخلوف، التي عرفها بواسطة عمته سعدى، التي تزوجت واحداً من آل مخلوف في (بستان الباشا)، كانت أنيسة مدرسة ذات سلوك رزين محتشم، وكانت شابة رشيقة ذات شعر بني تقاربه في العمر، وقد تلقت ثقافة محترمة في دير راهبات القلب الأقدس الفرنسي (!!!؟؟؟) في بانياس، إلا أن عقبات كثيرة تحول دون زواجه منها:

١ الفرق الشاسع بين العائلتين، فأسرته صغيرة (قليلة العدد !!!)، وفقيرة، أما آل مخلوف فقد أخذوا هذا اللقب من إطعام الجائعين في منزل جد أنيسة الغني، واستمر عند والد أنيسة وأعمامها بيوت مفتوحة لإطعام الفقراء تفرد فيها غرف لإيواء المعوزين.

٢ الخلاف السياسي، فآل مخلوف من الحزب القومي السوري، وحافظ الأسد من البعثيين، وابن عم أنيسة هو الذي قتل قاتل عدنان المالكي، بتعليمات الحزب القومي السوري، وقد حكم عليه بالإعدام وشنق، واعتبرته الأسرة شهيداً.

لذلك صمم أحمد مخلوف- والد أنيسة- على معارضة هذا الزواج، وكانت أمها معجبة بصفات حافظ الأسد، فقد كان شاباً يوحي بالثقة، ولم يعرف عنه ارتكابه لمغامرات طائشة أو غلظة في السلوك أو بذاءة في اللسان، كما لم تسمع عنه أية علاقة نسائية، أو أنه كان يرتاد المقاهي والملاهي، وحتى خلال وجوده في مصر،كان معروفاً بأنه طالب مثالي، ويبدو أنه لم يكن مهتماً بالانخراط في تجارب جنسية، فمنذ سن مبكرة كان يتطلع إلى زواج مستقر يتيح له أن يتفرغ للانجاز(!!!؟؟) في حياته المهنية.

وأخيراً حملها الأسد إلى دمشق (خطفها)[١] وتزوجها أمام القاضي، وأقاما بيت الزوجية على أطراف المزة. وكان ذلك هبوطاً في منزلتها الاجتماعية كابنة لأحد وجهاء العلويين. وقد عاد عليه هذا الزواج بفوائد دنيوية، حيث أكد انتقاله إلى طبقة اجتماعية أرقى، وأكسبته بعض النقاط في المجتمع العلوي، وبعد أسابيع من الزواج افترقا أحد عشر شهراً، عندما بعث إلى روسيا للتدرب على الطيران الليلي بالميغ ١٥، و١٧. وعادت أنيسة الحامل إلى بيت ذويها في بستان الباشا.

وفي عهد الوحدة حلت الأحزاب، وعاد حافظ من موسكو ليجد مكتب الحزب مغلقاً بالشمع الأحمر، فوجد أن سلم طموحاته أزيح من تحته[٢]. وفي أواخر عام (١٩٥٩) نقل سرب الطيران الليلي كله إلى مصر وكان حافظ معه.

اللجنة العسكرية :

---

(١) يبدو أن الخطف عند العلويين أمر عادي، لذلك عادت أنيسة إلى أهلها بعد أسابيع من زواجها، ونفس القصة تكررت في زواج بشرى بنت حافظ الأسد من آصف شوكت، عندما عارض باسل زواجهما لأن آصف متزوج، وبعد موت باسل، خطف آصف بشرى، وتزوجها وأسكنها في حي المزة أيضاً، وبعد مدة أرسل حافظ الأسد مفرزة من الجنود لحماية بيت ابنته وصهره.

(٢) وهذه لفتة مهمة من باترك سيل حيث يقول : وجد أن سلم طموحاته قد أزيل من تحته، وهذه ألفاظ صريحة من سيل تؤكد أن حافظ الأسد اتخذ حزب البعث أول سلم يصعد عليه إلى هدفه المرسوم والمقرر له، ثم اتخذ الأقليات سلماً ثانياً، ثم اتخذ الطائفة العلوية سلماً ثالثاً كبيراً استخدمه وتسلق عليه حتى وصل هدفه وهو ملك سوريا كي ينفذ مهمته التي أسندت له.

تواجد خلال سنوات الوحدة في مصر قرابة ألف ضابط سوري، معظمهم بغير إرادته، كما تخرج ألف ضابط سوري من المدارس العسكرية المصرية، معظمهم كانوا راضين لأن لهم راتباً مضاعفاً، وشقة حكومية، وسيارة في الغالب.

إلا أن ذوي التفكير السياسي كانوا ساخطين، وأقصد البعثيين بل فريق منهم فقط، وانتابهم شعور بالصدمة وحتى بالخطر، وحنقوا على عفلق والبيطار الذين حلوا الحزب، دون استشارة قواعده، وفي سنة (١٩٦٠) أقام الضباط البعثيون في مصر تنظيماً سرياً سموه (اللجنة العسكرية)، وكان حافظ في الثلاثين من عمره، ومنذ ذلك الحين نهج حافظ أسد طريق العمل السياسي السري، وكانت اللجنة العسكرية تتكون من النقيبين حافظ الأسد وعبد الكريم الجندي، والرائدين صلاح جديد وأحمد المير، والمقدم محمد عمران. وهو أكبرهم سناً، مولود (١٩٢٢) ينتمي إلى عشيرة الخياطين العلوية من قرية المخرم شرقي حمص، مولع بالقراءة والنقاش، يفضل المكتبة العامة بدلاً من الحانات والمقاهي، أما صلاح جديد فكان مناقضاً لعمران، يابساً صموتاً، يؤثر الاستماع على الكلام، ذكي يساري واضح، ولد (١٩٢٦) من عشيرة الحدادين، كان في الحزب القومي السوري ثم بدله إلى البعث، وهؤلاء الثلاثة عمران أكثرهم ثقافة، وجديد أكثرهم مكراً، وحافظ أشدهم حذراً[1]. وكان هدف اللجنة العسكرية هو إعادة بناء حزبهم المشتت، كانوا يخرجون في رحلة خارج القاهرة، أو يجتمعون في بيت أحدهم. وبعد فترة وجيزة كان في اللجنة عام (١٩٦٣) خمسة عشر عضواً: سليم حاطوم وحمد عبيد الدرزيان، وسليمان حداد العلوي،

---

(١) وربما استفاد من تكوينه كطيار وغرست فيه صفة الحذر، فالطيار لا يطير بطائرته إلا إذا كانت جاهزة (سليمة) مائة بالمائة، وإذا كان يعلم عن نقص فيها وطار بها وحصل له حادث وبقي حياً يحاسب على ذلك، واستفاد حافظ من سلوك الحذر في الطيران وطبقه في العمل السياسي، لذلك أقدم على إعفاء ضباط علويين من قيادة الألوية عندما شك بولائهم لشقيقه رفعت في حدود (واحد بالمائة فقط)، ومنهم قائد

لواء الاستطلاع الذي استبدله بعميد بدوي هو العميد محمد خير محيميد يرحمه الله فطلبه حافظ الأسد وقابله بعد دراسة مستفيضة لملفه، ثم سلمه قيادة لواء الاستطلاع بدلاً من عميد علوي شك فيه حافظ أنه من أنصار رفعت ، وكان العميد محمد خير في ثلاجة الأركان...

وعدد من السنة منهم عثمان كنعان، وموسى الزعبي، ومصطفى الحاج علي، وأحمد سويداني، ومحمد رباح الطويل ومصطفى طلاس(٢). بالإضافة إلى الخمسة السابقين.

وبعد انقلاب الانفصال أودع حافظ الأسد السجن في مصر مدة أربعة وأربعين يوماً، فأوكل إلى مصطفى طلاس مهمة مرافقة زوجته وابنته إلى سوريا عن طريق البحر، وكانت هذه البنت (بشرى) الثانية، بعد مرض (بشرى) الأولى التي ولدت في سوريا، وتوفيت في مصر. ثم تم تبادل الضباط السوريين بالضباط المصريين وعادوا إلى دمشق وأعطي الأسد إجازة مفتوحة، وعلم أن (٦٣) ضابطاً بمن فيهم الخمسة (اللجنة العسكرية) قد سرحوا من الجيش، وتعيينهم في وظائف مدنية في وزارات الدولة. وأرسل الأسد إلى مديرية النقل البحري، وكان يحضر في آخر الشهر لاستلام راتبه فقط. وكان يتقاضى (٥٠٠) ليرة سورية فقط، وكان تقاعده كطيار لو أحيل على التقاعد (٦٠٠) ليرة، وكان حانقاً على هذه المعاملة، وأسكن أسرته في شقة من ثلاث غرف بأجرة (١٦٨) ليرة في الشهر(١) (وبعد ١٩٦٣) حصل على فروقات رواتبه)، وراح أعضاء اللجنة على توسيع تنظيمهم السري، وقرروا إسقاط الحكومة الانفصالية، واستهدفوا في تنظيمهم الملازمين والنقباء، وراحوا يطلبون مساعدة الضباط الناصريين مثل (جاسم علوان).

وفي (٢٨ /١٩٦٢/٣) غاصت سوريا في حلقة مفرغة من الانقلاب والانقلاب المضاد، وانتهى الأمر إلى اقتحام قلعة حلب وقتلوا آمرها، وانضم الأسد وجديد وعمران وأعطاهم المتمردون لباساً عسكرياً ورشاشاً، إلا أن الضباط المتمردين أعلنوا الوحدة، وطلبوا مظليين من مصر. فانسحب البعثيون من التمرد وتخلص الأسد من رشاشه وبذلته العسكرية، وهرب الأسد إلى لبنان، لكنهم قبضوا عليه وأعادوه إلى سوريا حيث أودع في سجن المزة بضعة أيام ثم أخلي سبيله [وهذا سر أيضاً عَصِيٌّ على الفهم].

يوم الثامن من آذار (١٩٦٣م):

كان من الواضح أنه على اللجنة العسكرية أن تجد حلفاء مناسبين، لأن شبكتها تتألف من ضباط صغار، وكان في الجيش خمس تكتلات من الضباط: الدمشقيون، وكتلة أكرم

---

(٢) فان دام، الصراع على السلطة في سوريا، لندن،١٩٧٩، ص ٤٩.

(١) لما صار رئيساً نهب من أموال السوريين والعرب والإيرانيين مليارات الدولارات، وصار من أغنياء العالم، واشترى أسوة بغيره من كبار أثرياء العالم جزيرة صغيرة في بحر إيجه، وبنى فيها قصراً ليسكنه في يوم ما، وحده، ولكن ذلك لم يتحقق.

الحوراني، والناصريون، والمستقلون، وأخيراً البعثيون. وقررت اللجنة الاستفادة من الناصريين، وربما المستقلين أيضاً، واتصلت بالعقيد راشد القطيني رئيس المخابرات العسكرية، والعقيد محمد الصوفي آمر لواء حمص (من الناصريين)، واتصلت بالعقيد زياد الحريري آمر قطاع الجبهة مع العدو الصهيوني وهو من المستقلين، وعرضوا عليه قيادة حركتهم، وهكذا تجمعت عصبة من ستة رجال وهم: الأسد وعمران وجديد والحريري وقطيني والصوفي، وتقرر القيام بالانقلاب يوم (٧/٣/١٩٦٣م) وقبيل ساعة الصفر داهمت قوة من المخابرات العسكرية الشقة التي كان المخططون يجتمعون فيها، فألقي القبض على بعضهم، واختبأ البعض الآخر، وتمكن الأسد بوسائل اتصال هزيلة من إبلاغ الوحدات التي كانت على أهبة التحرك بأن الانقلاب أرجئ يوماً واحداً[٢].

وفي ليلة (٧-٨) آذار بدأت الدبابات والمشاة من الجبهة تتحرك بأمر العقيد زياد الحريري نحو دمشق،كما تحرك لواء من السويداء باتجاه العاصمة، وانحصر اللواء الخطير السبعين بين فكي كماشة فاستسلم قائده المقدم عبد الكريم عبيد، واستولى محمد عمران على اللواء السبعين. وهكذا استثمرت الكسوة، وحُيِّدت قطنا بتعاون وداد بشير من مركز اتصالات الجيش، وهذا مكن قوات الحريري من الوصول إلى دمشق وأقامت حواجز في المدينة، واستولى سليم حاطوم على الإذاعة، واعتقل اللواء زهرالدين، وسيطر الانقلابيون على قيادة الجيش، وفي الصباح وصل صلاح جديد على دراجة هوائية لتسلم مكتب شئون الضباط.

وكانت اللحظة المظفرة للأسد هي استيلاؤه على قاعدة الضمير الجوية، وقد أرسلت بعض الطائرات لقصف الانقلابيين، وقاد الأسد سرية دبابات أوقفها على بعد ثلاثة كيلومترات عن القاعدة الجوية، ولا يزال الأسد بالملابس المدنية، وبعد أن هددهم بالقصف جاء ضابطان للتفاوض يقول الأسد: فذهبت معهما إلى آمر القاعدة وقلت له: انتهى كل شيء لكم، ولا نريد أن نقتل أحداً، وكانوا جبناء فاستسلموا.

وفي البلاغ التاسع أعيد ضباط (اللجنة العسكرية) إلى الخدمة، مع ثلاثين ضابطاً آخرين، ورفع النقيب حافظ الأسد إلى رتبة مقدم وعين آمراً لقاعدة الضمير الجوية.

---

(٢) وهذا دليل لدي على أن حافظ الأسد هو لولب انقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣، لكن من وراء ستار، كان يدفع الآخرين، ويختبأ خلفهم، واستمر على هذه الحال حتى (١٩٦٦)، وصدق عليه المثل: الثورة يفجرها المفكرون، ويشعل فتيلها الشجعان المتهورون، ويقطف ثمارها الجبناء الحذرون.

شكل مجلس قيادة الثورة من عشرين عضواً منهم إثنا عشر بعثياً وثمانية من الناصريين والمستقلين، ثم ضمت مجموعة من المدنيين منهم (عفلق والبيطار ومنصور الأطرش، وقادة مجموعات ناصرية)، وكانت السلطة الحقيقية بيد العسكر فقط.

رفع العقيد لؤي الأتاسي (ناصري) وأطلق من السجن وعين قائداً عاماً، كما رفع العقيد زياد الحريري إلى رتبة فريق أيضاً وحصل على رئاسة الأركان. وأعطي محمد الصوفي وزارة الدفاع، وراشد القطيني نائب رئيس الأركان، أما البعثيون فكانوا يمسكون المفاصل الحقيقة للقوة، ووسعت اللجنة العسكرية فصارت (١٥) عضواً، وصارت (مجلساً داخل المجلس).

حصل عمران على قيادة اللواء الخامس في حمص، ومن ثم انتقل إلى قيادة اللواء السبعين، وشرع صلاح جديد في مكتب شئون الضباط في تطهير الأعداء، وترفيع الأصدقاء، وأعاد إلى الخدمة الفعلية أعداداً كبيرة من ضباط الاحتياط البعثيين، وسرحت الدورة من الكلية العسكرية ودعيت دورة سميت دورة البعث الأولى كان رفعت الأسد أحد أفرادها.

أما حافظ الأسد فصار القائد الفعلي للقوة الجوية. كما بحثوا عن واجهة كبيرة فوجدوا محمد أمين الحافظ، وسلموه وزارة الداخلية.

الصراع مع الناصريين :

في (١٩٦٣/٥/٢) سرحت اللجنة العسكرية أكثر من خمسين ضابطاً ناصرياً (سنياً)، لأن صلاح جديد مدير مكتب شئون الضباط، مما حدا بوزير الدفاع الصوفي والقطيني إلى الاستقالة من مجلس قيادة الثورة، ولحق بهما خمسة وزراء ناصريين، وقام الناصريون بمظاهرات يوم ١٩٦٣/٥/٨ فقام وزير الداخلية محمد أمين الحافظ بقمعها وقتل خمسين شخصاً بالرصاص.

انقلاب (١٨) تموز الفاشل:

قام جاسم علوان يدعمه القوميون العرب والمخابرات المصرية بهجوم على إذاعة دمشق في وضح النهار، فخرج محمد أمين الحافظ ورشاشه في يده ليقتل ويجرح المئات وكثير من الأبرياء من المارة، وبعد وصول دبابات البعثيين (اللواء السبعين) هرب جاسم علوان، وحوكم سبعة وعشرون ضابطاً ناصرياً (سنياً طبعاً)، وأعدموا فوراً، كما حكم على جاسم علوان بالإعدام غيابياً، ثم أعفي عنه (٢٠٠٥) ورجع إلى وطنه، وصرح بأنه لن يشتغل في السياسة.

التخلص من زياد الحريري :

في (١٩٦٣/٦/٢٣) قام الفريق زياد الحريري بزيارة الجزائر، وفي غيابه، قامت اللجنة العسكرية بتطهير ونقل خمسة وعشرين ضابطاً من أهم مؤيديه، وعرضت عليه وظيفة ملحق عسكري في واشنطن، ولم يسمحوا له بدخول سوريا فاختار التخلي عن السياسة والتقاعد في باريز، (ورجع قبل سنوات إلى بلده حماة (٢٠٠٢) تقريباً، ومازال عازباً).

وأنشئ الحر س القومي، وهو تنظيم شبه عسكري وأوكلت قيادته إلى حمد عبيد عضو اللجنة العسكرية. وعندئذ أصر اللواء الأتاسي على الاستقالة، رُفع محمد أمين الحافظ، وسلم قائداً للجيش وعضواً في اللجنة العسكرية.

وفي غضون أربعة شهور حافلة ودموية، بدءاً من آذار استطاعت اللجنة العسكرية أن تقضي على كل مقاومة منظمة لحكمهم الذي كانوا يمارسونه من وراء ستار.

التخلص من محمد عمران :

كان محمد عمران يريد المصالحة مع الناصريين، وعارض استخدام الدبابات في حماة (١٩٦٤)، وساءه بروز محمد أمين الحافظ كثيراً، وكان محمد عمران يرى أنه أكثر معرفة بأهالي حماة، وكان يعتقد أنه يمكن كسب أهالي حماة بدلاً من إخضاعهم بالقوة، وكان عمران يحجم عن سفك الدماء[١]، وكان حافظ الأسد ينصت لعمران وجديد عندما يتجادلان، وتحالف فيما بعد مع جديد، (ويرى فيما بعد أن هذا التحالف مع جديد كان إلهاماً)[٢] ، وفي كانون الأول رفع حافظ الأسد إلى رتبة لواء وعين قائداً للسلاح الجوي[٣].

---

(١) أستطيع أن أقول إن محمد عمران مثال للعلويين الشرفاء، لذلك تخلص منه حافظ الأسد في وقت مبكر جداً، ورأى حافظ أن العلويين الشرفاء لا يقل خطرهم عليه من خطر أهل السنة.

(٢) يقصد أنه كان عليه أن يقف مع الأقوى، كي يبقى ويستمر حتى تصل له الغنيمة باردة بعد أن يتخلص من جميع زملائه. ولو أنه وقف مع عمران ضد جديد لانتهى مع عمران، وليته فعل ذلك...

(٣) رفع المرة الأولى من نقيب إلى مقدم، في (١٩٦٣/٣/٨) والمرة الثانية من مقدم إلى لواء (١٩٦٥)، والثالثة من لواء إلى فريق، ويلاحظ أنها كلها ترفيعات استثنائية، بدون حق. وكانوا يومها فيهم بقايا حياء، أما زمن بشار الأسد فقد رفع من طبيب (نقيب) إلى فريق مرة واحدة.

وعندما شعر عمران بالعزلة في اللجنة العسكرية اتجه إلى القيادة القومية للحزب، وعندئذ خالف عمران العهد وباح لعفلق بسر اللجنة العسكرية، وعاقبته اللجنة بتجريده من كل مناصبه، وإرساله سفيراً في إسبانيا. وقد استفاد حافظ الأسد حيث حل شقيقه رفعت مكان عمران في رئاسة القوة التي تحمي النظام،والتي صارت فيما بعد (سرايا الدفاع).

ولما اشتد الصراع بين القيادة القومية والقطرية، واللجنة العسكرية، حصل حافظ الأسد على إجازة في الصيف من مهمته كآمر للقوة الجوية، وذهب إلى لندن لمدة ثلاثة شهور!!!![٤]

وكانت هذه أول وآخر زيارة لبريطانيا، وكان السبب الظاهري لهذه الزيارة هو تلقي العلاج لألم في ظهره وفي رقبته نتج عن هبوط اضطراري عندما كان طياراً متدرباً (سبق ذكره)، إلا أن أوجاع الأسد ربما كانت من نوع المرض الدبلوماسي.

يقول سيل: "ومع اقتراب بوادر البت في النزاع القائم بين الضباط وبين القيادة القومية بقي الأسد بعيداً، إما بداعي النفور، أو بداعي الحذر. ولمثل هذه الأسباب أخذ في ذلك الصيف إجازة من مهماته كآمر للقوة الجوية، وذهب إلى لندن لمدة ثلاثة أشهر، واصطحب معه أحد كبار ضباط السلاح الجوي ناجي جميل، وآمر الشرطة العسكرية حسين ملحم، والطبيب يوسف صايغ.... [ويدعي سيل أن هذه زيارته الأولى والأخيرة لبريطانيا]، وأقام الرجال الأربعة في شقة بمنطقة (كنزنغتون). والذي عرف حتى الآن أن اتصال الأسد الوحيد بالرسميين البريطانيين كانت زيارة لوزير الدولة للشؤون الخارجية – جورج طومسون– في مكتبه بالوزارة. وقد كان لبريطانيا علاقة قصيرة الأمد مع السلاح الجوي السوري حين زودته بطائرات وتدريبات فيما بين ١٩٥٣ و١٩٥٥، إلا أن هذه العلاقة انقطعت بعد تحالف سورية مع مصر عبد الناصر.

ولا يكشف لنا سيل إلا زيارته لوزير الدولة للشؤون الخارجية البريطاني. وهذا الذي يكشفه على ندرته هو عجيب حقاً، فما علاقة قائد السلاح الجوي في سورية بوزير الخارجية في بريطانيا، إلا أن يكون ذلك الإعداد السري ليكون رجل سورية الأول، وأن يبقى لمدة ثلاثة أشهر في لندن ببريطانيا أمر مثير حقاً. وسورية تعج بأخطر التطورات والصراعات وهو الرجل الثاني في الدولة لأن الجيش حقيقة هو الدولة في عالمنا الثالث.

---

(٤) باترك سيل، ص ١٦٧.

ولا ينسى سيل أن يؤكد أن المرض الذي مضى الأسد ليتعالج منه هو صورة ظاهرية، وحقيقته مرض دبلوماسي. فهو يرى أن هذه الزيارة غامضة مليئة بالأسرار. ولذلك يكتفي بالقول "والذي عرف حتى الآن". فلم يئن الأوان بعد لكشف الأسرار السياسية، ووزارة الخارجية لبريطانية لا تفصح عن وثائقها إلا بعد مرور ثلاثين عاماً على الأحداث الغامضة.

ولسنا نبالغ في الأمر، بل يمكن القول إن الأمر أكبر من تصوراتنا، فإعداد رجل مثل أسد ليس قضية بسيطة، وليس إعداد زعيم عادي لدولة متخلفة فقط، فقد فشلت خطط الإعداد كلها التي رسمت لقيادات سورية، لأن الانقلابات العسكرية والتقلبات السياسية، لم تبق زعيماً في سدة الحكم في سورية أكثر من خمس سنوات على أبعد تقدير، بينما كان بعض زعمائها يسقطون بعد بضعة أشهر. وكيف تستطيع أن تعمل لتنفيذ مخططاتها فيها.

وحين نكتب هذا الكلام بعد أن حكم حافظ أسد سوريا ثلاثين عاماً أو أكثر ندرك أن حافظ أسد هو أكثر من نصف تاريخ سوريا. فبعد زيارته هذه للندن، عاد ليتسلم منصب وزير الدفاع، ويرقى منه إلى رئاسة الدولة، فقد غدا عملياً بعد هذه الزيارة الشخص الأول في سورية، رغم أنه لم يستلم ذلك رسمياً إلا بعد سنوات من هذا التاريخ. فإذا كانت سورية قد نالت استقلالها عام ١٩٤٦. فهو قد استلم سورية عام ١٩٦٦، أي بعد عشرين عاماً من الاستقلال والقيادات المتغيرة المتقلبة، وقد تربع على عرش سورية بعد أن سيطر العلويون على الحكم في سورية، وصاروا السادة الوحيدين فيها في العام نفسه.

يقول سيل: "وكان من أول أعمال النظام الجديد (بعد ثورة ٢٣ شباط ١٩٦٦)، تعيين الأسد وزيراً للدفاع [انتهى النقل من الغضبان].

انقلاب ٢٣ /٢/ (١٩٦٦م) :

بدأت المصادمات بين عفلق والضباط في (١٩٦٦/٢/٢١) عندما حاول اللواء محمد عمران (وقد أعاده عفلق) وجعله وزيراً للدفاع، حاول عمران **نقل كل من** سويداني وعزت جديد وسليم حاطوم من أماكنهم، وفي (١٩٦٦/٢/٢٢) **قامت اللجنة العسكرية** بالرد على الضربة، إلا أنها قامت أولاً بحركة تمويهية وهي أن **الضابط العلوي** عبد الغني إبراهيم قائد الجبهة، اتصل بقيادة الجيش مدعياً أن شجاراً نشب بين **ضباط الجبهة**، وأنهم سحبوا السلاح على بعضهم، فذهل أمين الحافظ وعمران ورئيس الأركان، **وبعد** أن طافوا على الوحدات عادوا منهكين في الثالثة ليلاً، وبعد نوم ساعتين **فقط أي في** الخامسة قام

مغاوير سليم حاطوم، تعززهم قوة رفعت الأسد الضاربة وكتيبة دبابات يقودها عزت جديد، بشن هجوم على منزل الفريق محمد أمين الحافظ، ومن داخل البيت قام الفريق وحراسه بالدفاع الشجاع، واستمر إطلاق النار حتى الظهيرة، وأخيراً نفدت ذخيرة المدافعين، وقتل الحراس، وتهدم المنزل، وجرح أطفال أمين الحافظ، (وفقدت إحدى بناته عينها)، استسلم الفريق، ونقل قائد حرسه الملازم محمود موسى جريحاً إلى المستشفى وكانت حصيلة القتال خمسين عسكرياً[1].

وصمد في حماة النقيب (مصطفى العبدو) من كرناز، وكان قائداً للحامية موالياً لمحمد أمين الحافظ، حتى وصلت قوة من حمص يقودها مصطفى طلاس وأخضعته باعتقاله، كما سيطر الموالون لعفلق في حلب على الإذاعة فترة قصيرة.

كان حافظ الأسد قد عاد من لندن في وقت المعركة، إلا أن سلاحه الجوي لم يتدخل، وقضى الأسد ذلك الصباح على الهاتف يرغب أو يرهب ضباط الوحدات في سائر أنحاء البلاد يكسبهم إلى صف اللجنة العسكرية.

وتبع القتال تطهير كامل للجيش والحزب والحكومة من حوالي (٤٠٠) ضابط وموظف (طبعاً معظمهم أو كلهم من السنة)، واقتيد محمد أمين الحافظ، ومحمد عمران، والموالين لهما إلى سجن المزة. كما اعتقل في دار الضيافة كل من صلاح الدين البيطار، ومنصور الأطرش وشبلي العيسمي، وأعضاء القيادة القومية اللبنانيون والسعوديون والأردنيون، وظل منيف الرزاز مختفياً من مخبأ إلى آخر لم يستطع الهرب إلى لبنان- مثل عفلق- بسبب عرج في رجله[1].

---

(١) الذي شاع يومها أن حصيلة القتال (٢٠٠) عسكري. مع العلم أن حصيلة خسائر سوريا في تمثيلية حرب الخامس من حزيران (١٩٦٧) كانت (١٢٥) عسكرياً حسب مصادر الجيش السوري.

(١) يقول منيف الرزاز الأمين العام السابق لحزب البعث، تحت عنوان: (من هذه الفئة)؟! يقول: "هذا هو حاكم سوريا الآن وهؤلاء هم حكامها... فئة صغيرة من ضباط الجيش، هدفت هذه الفئة إلى الاستيلاء على الجيش، فباسم الحزب تخلصت أولاً من جميع العناصر الحزبية: انفصالية ووحدوية، فلما تم لها الأمر، انطلقت تتخلص من الحزبيين الآخرين، وباسم تكوين جيش عقائدي، كونت الجيش العشائري، هدفها من ذلك إنهاء حزب البعث وأنهته، وأحلت محله تنظيماً انتهازياً تابعاً للسلطة، خاضعاً للأوامر... ثم انتهت بوضع البعثيين في السجون، واتهامهم بالخيانة والتحالف مع الاستعمار والرجعية". ويصف الرزاز مأساة الرفاق في ذلك الانقلاب فيقول: "منذ الدقائق الأولى لانقلاب ٢٣/شباط/١٩٦٦م، أعلن الانقلابيون أنهم ألقوا القبض على الفريق أمين الحافظ رئيس

وكان أول عمل للنظام الجديد ترفيع حافظ الأسد إلى رتبة لواء وتعيينه وزيراً للدفاع، وهو في الخامسة والثلاثين من العمر. وبعد أن فاز الأسد بالسلطة صمم على الاحتفاظ بها. وصعد صلاح جديد ليصبح حاكم سوريا من خلال منصب الأمين المساعد للقيادة القطرية لحزب البعث، وصارت الهوة تتسع بينه وبين حافظ الأسد.

إلا أن انغماس جديد في تسيير شئون البلد أعطت الأسد مجالاً واسعاً لإدارة شؤون القوات المسلحة. كما أن جديد كان واثقاً من رفيقه الأسد (!؟). وكان جديد غير مهتم بالتنعم، يعيش في شقة بسيطة قيل إن أثاثها لا يزيد عن مائة جنيه استرليني، كان يأتي إلى مكتبه مبكراً ويعود منه متأخراً، وكانت نزعة جديد أكثر يسارية من الأسد.

خفض جديد رواتب رئيس الدولة والوزراء وكبار الضباط والموظفين الكبار، واستبدل سيارات المرسيدس بسيارات الفولكس والبيجو (٤٠٤).

مؤامرة حاطوم :

ولد سليم حاطوم (١٩٢٨) في قرية (دبين) الدرزية، وشق طريقه ليلعب دوراً يوم الثامن من آذار، ثم غامر برقبته عام (١٩٦٦) ومع ذلك لم ينتخب عضواً للقيادة القطرية، ولم يرفع مثل غيره، وبقي حارساً للإذاعة والتلفزيون، وكان شعوره بالظلم مشتركاً مع الدروز، وخاصة بعد اعتقال حمد عبيد وإيداعه سجن المزة. وراح حاطوم ينحاز إلى البعثيين القدامى مثل منيف الرزاز، واللواء فهد الشاعر.

الدولة، وعلى قائد الحزب ومؤسسة الأستاذ ميشيل عفلق وعلى أمينه العام منيف الرزاز، والأمين العام المساعد شبلي العيسمي، وعلى عضو القيادة القومية منصور الأطرش، وعلى رئيس الوزراء صلاح البيطار وآخرين من أعضاء القيادة القومية، ونقل معظمهم إلى سجن تدمر"(٥٠) .

ويقول زهير المارديني وهو بعثي قديم (٥١) مصوراً حادث الانقلاب صباح ذلك اليوم، وكان معه أحد قياديي الحزب، وكان هذا القيادي البعثي يقول له : " أتسمع الرصاص، أتسمع صوت المدافع ؟! إنهم الرفاق يقتتلون "، " ماذا سيقول الناس عنا، ماذا سيقول العرب ؟! لقد أشبعناهم صياحاً بأن الجيش السوري لن يقاتل إلا أعداء الأمة العربية، وها نحن نتذابح ... "، " أنت تعلم أن جميع الحلول السلمية لم تجد نفعاً، لقد حاولنا تجنب الصدام، لكنهم أرادوها مضمخة بالدم، دم الرفاق(٥٢) فهذه هي أخلاقيات هذاالحزب الهجين، وهذه هي الاتهامات الموجهة إلى بعضهم :

(دكتاتورية – انتهازية – خيانة – يمين – يسار – تنكر لمبادئ الحزب – طائفية وعشائرية...).

إذا كانت هذه مواقفهم ضد بعضهم، فما بالك بتعاملهم مع الآخرين؟! (تاريخ سوريا الحديث للأنصاري)

وفي أيلول جمعت حفلة سكر العقيد طلال أبو عسلي (درزي) مع حفنة من الضباط وبعد سكرهم شتموا الأسد وجديد، وهب آخرون للدفاع عنهم، وحصل الشجار وجاء رئيس الأركان سويداني للتحقيق، وعين جديد لجنة ثانية برئاسة عبد الكريم الجندي، وضرب ضابط شاب حتى اعترف في (١٩٦٦/٨/٢٠) وهو الرائد محمد النعيمي (البدوي) فأعطى أسماء عشرة ضباط، حتى وصل المجموع (مائتين) أكثرهم من الدروز، واختفى اللواء فهد الشاعر، كما هرب البعثيون المدنيون مثل البيطار والرزاز.

احتج فرع الحزب في السويداء وطلب عودة الضباط، فسافر جديد مع الأتاسي مع جميل شيا (عضو قيادة قطرية درزي)، وتحرك حاطوم فدخل عليهم وبيده مدفع رشاش، هددهم بالقتل، واعتقل جديد والآخرين في منزل أحد الحزبيين، بينما ألقى حاطوم القبض على الضباط العلويين في السويداء.

ولكن حاطوم لم يدخل في حساباته حافظ الأسد، الذي أرسل النفاثات تحوم فوق السويداء، وأمر اللواء السبعين التوجه إلى جبل الدروز، وفي مكالمة هاتفية غاضبة بين حاطوم والأسد، أخذ بعدها حاطوم طريقه إلى الأردن، وتقول الروايات إن سائق جديد بحجة جلب علبة سجائر من السيارة هرب بها ثم وصل دمشق ونبه إلى ما جرى، وتقول رواية أخرى إن مصطفى الحاج علي خان المتآمرين ونبه الأسد، وقام الرفيقان جديد والأسد بطرد (تسعة وثمانين ضابطاً بعثياً معظمهم من الدروز). وجاءت حرب (١٩٦٧) بدون هيئة ضباط سورية بعد أن تم تسريح معظمها.

وفي اليوم السادس من حرب (حزيران ١٩٦٧) دخل حاطوم وبعض أنصاره سوريا، فاعتقل واقتيد إلى المحكمة التي أكدت حكم الإعدام، وقام عبد الكريم الجندي بتكسير أضلاعه قبل إعدامه (١٩٦٧/٦/٢٦)، لأن حاطوم في الأردن اتصل بالجندي يطلب منه إرسال زوجته؛ (زوجة الجندي)، لأنها متفقة معهم، وكان آخر طلب لحاطوم أن تبقى زوجته المعلمة في وظيفتها لتربي أولادهم، وقد نفذ الأسد هذه الوصية، وحدد لها راتباً تقاعدياً.

خلاصة حرب (١٩٦٧) :

كان الجيش الذي ورثه وزير الدفاع (حافظ الأسد) غير مؤهل للحرب تماماً، كما كان الأسد نفسه غير مؤهل (انظر التناقض مع تصريحات الأسد الصحفية)[1]. فقد كان الجيش

---

(١) كانت سوريا هي المحرضة على الحرب، فقد أدلى وزير الدفاع السوري وقائد سلاح الطيران اللواء حافظ الأسد بتصريح لصحيفة الثورة السورية يوم (١٩٦٧/٥/٢٠م) جاء فيه: (..إنه لابد على

(٥٠) ألف رجل، مجهز بأسلحة روسية رخيصة، وفي الجيش (٥٠٠) دبابة، نصفها صالح للاستعمال، تدعمها (١٠٠) طائرة ميغ- ١٧) بدون قذائف (اقرأ الهامش ولاحظ التناقض)، والأخطر من ذلك كله الفقر بالضباط. وهكذا استخدمت سوريا من قبل إسرائيل كسمكة صغيرة لاصطياد سمكة كبيرة هي مصر وعبد الناصر.

حين قامت إسرائيل بتدمير سلاح الجو المصري صباح (١٩٦٧/٦/٥) تبين أن السلاح الجوي المصري لم يكن مستعداً للقتال، فالطائرات جاثمة في أنساق مما جعلها أهدافاً ثابتة سهلة المنال. وكانت نتيجة المعركة بعد أربعة أيام عجاف عشرة آلاف قتيل وثلاثة عشر ألف أسير، وعدة مئات من الدبابات والمدافع المدمرة.

وفي الضحى المتأخر (!!!)[١] حاولت طائرات الملك حسين (هوكر هنتر) أن تقصف المطارات الإسرائيلية غير أن هذه الطائرات تم مسحها عند الظهيرة وسحقت بالميراج،

الأقل من اتخاذ حد أدنى من الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ضربة تأديبية لإسرائيل تردها إلى صوابها... إن مثل هذه الإجراءات ستجعل إسرائيل تركع ذليلة مدحورة، وتعيش جواً من الرعب والخوف يمنعها من أن تفكر ثانية في العدوان، إن الوقت قد حان لخوض معركة تحرير فلسطين، وإن القوات المسلحة السورية أصبحت جاهزة ومستعدة ليس فقط لرد العدوان، وإنما للمبادرة في عملية التحرير ونسف الوجود الصهيوني من الوطن العربي إننا أخذنا بالاعتبار تدخل الأسطول السادس الأمريكي وإن معرفتي لإمكانياتنا تجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشلة، وهناك إجماع في الجيش العربي السوري الذي طال استعداده ويده على الزناد، على المطالبة بالتعجيل في المعركة، ونحن الآن في انتظار إشارة من القيادة السياسية. وإن سلاح الجو السوري تطور تطور كبيراً بعد (٢/٢٣ /١٩٦٦م) من حيث الكمية والنوع والتدريب، وأصبحت لديه زيادة كبيرة في عدد الطائرات، وهي من أحدث الطائرات في العالم، كما ازداد عدد الطيارين وارتفع مستوى التدريب.

(١) لماذا لم تبدأ هذه الطائرات منذ الصباح، لما بدأت الحرب في السابعة، ونجد الجواب في كتاب (حربنا مع إسرائيل) للملك حسين إذ يقول:

كنا ننتظر السوريين فبدون طائرات الميغ لا يمكن قصف مطارات إسرائيل الجوية، ومنذ التاسعة والنصف اتصلت قيادة العمليات الجوية بالسوريين، فكان جوابهم أنهم بوغتوا بالأحداث!!! وأن طائراتهم ليست مستعدة!!! وأن مطاراتهم تقوم برحلة تدريبية!!! وطلبوا إمهالهم نصف ساعة، ثم عادوا وطلبوا إمهالهم ساعة، وفي العاشرة والخامسة والأربعين كرروا الطلب نفسه فوافقنا، وفي الحادية عشرة (أي بعد ست ساعات) لم يعد بالإمكان الانتظار!!، فأقلعت الطائرات العراقية وانضمت إلى سلاحنا الجوي لتساهم في المهمة، ولذلك لم تبدأ عملياتنا الجوية إلا بعد الحادية عشرة (أي بعد فراغ الطيران الصهيوني من تدمير الطيران المصري).

وبعد ربع ساعة لقيت نفس المصير القوة الجوية السورية ومعها سربان عراقيان بعد طلعة غير مؤثرة فوق إسرائيل.

وطوال الأيام الأربعة الأولى من الحرب كان موقف سوريا سلبياً فقد اكتفت بقصف المستوطنات على الحدود، وقد عبرت دوريتان الحدود ردتا بعنف. والحقيقة هي أن حجم ومدى وسرعة الحرب قد فاجأت القادة السوريين، ولم يكن الأسد وزملاؤه مهيئين ذهنياً للهجوم الإسرائيلي الصاعق، ولم يكن لديهم تصور لقوة إسرائيل، والقوات السورية دربت على الدفاع فقط، ولم تدرب على الهجوم.

يقول اسحق رابين في مذكراته: صوت المجلس الوزاري للدفاع يوم (١٩٦٧/٦/٨) ضد مهاجمة سوريا (!!!)، إلا أنه يوم (٩حزيران) وبعد بضع ساعات من طلب سوريا وقف إطلاق النار، أصدر دايان أمراً بالهجوم على سوريا، وجلب الصهاينة لواءين مدرعين من سيناء (!!!) وقرر دايان مهاجمة سوريا مخالفاً رابين (رئيس الأركان) واشكول (رئيس الوزراء).

قاوم السوريون ببسالة في قتال بالأيدي أحياناً، وفقدت إسرائيل (١٦٠) دبابة مقابل (٨٦) دبابة سورية، واستشهد (٦٠٠) جندي سوري في مواقعهم ولم يتركوها (وهم الذين

يقول الملك حسين في هذا المعنى (فوت علينا تأخر الطيران السوري فرصة ذهبية كان يمكن أن ننتهزها لمصلحة العرب، فلولا تردد السوريين!!! لكنا قد بدأنا عمليات القصف الجوي في وقت مبكر، ولاستطعنا اعتراض القاذفات المعادية وهي في طريق عودتها إلى قواعدها بعد قصفها للقواعد المصرية، وقد فرغت خزاناتها من الوقود ونفذت ذخيرتها، وكان بإمكاننا حتى مفاجأتها وهي جاثمة على الأرض تملأ خزاناتها استعداداً لشن هجمة جديدة، فلو قيض لنا ذلك لتبدل سير المعركة وتبدلت نتائجها.

الزمن وحده سيكشف تفسيراً لأمور عديدة، لكن ما تأكدت منه أن الطيران السوري لم يكن جاهزاً للحرب يوم (٥) حزيران، وكانت حسابات الإسرائيليين صحيحة عندما لم يتركوا سوى اثنتي عشرة طائرة لحماية سمائهم، بينما استخدموا كل سلاحهم الجوي لضرب مصر). انتهى كلام الملك حسين.

ويتذكر الشعب العربي السوري أغنية الأسد عن طائرة الميغ عندما يقول ذلك الساقط (ميراج طيارك هرب، مهزوم من نسر العرب. والميغ طارت واعتلت بالجو تتحدى القدر)، ويؤكد عبد الناصر أن النظام الأسدي هو الذين ورطوه في الحرب، ثم لم يقدموا شيئاً أبداً، ومن خلال قراءة كتاب سقوط الجولان يلاحظ أن الأسد لم يسمح للجيش أن يقاتل، حتى أن خسائر سوريا كانت حوالي (١٢٠) جندياً فقط، بينما بلغت خسائر مصركما أعلنها عبد الناصر (١٥٠٠٠) عسكري بينهم (١٠٠٠) ضابط منهم (٣٥) طياراً .

خالفوا أمر الانسحاب الكيفي، وآثروا أن يمر الصهاينة على أجسادهم). وبعد أن تعبت قوات الصهاينة ومالت إلى وقف التقدم، صدر أمر أحمد سويداني بالانسحاب بعد اقتراح أحمد المير الذي فر على ظهر حصان (والأصح حمار).

ويوم (٦/١٠) أذيع بيان سقوط القنيطرة ومهما كان مصدر هذا البلاغ فقد كان غير صحيح، وتحول الانسحاب إلى هزيمة منكرة. وبعد سريان وقف إطلاق النار؛ احتلت إسرائيل مرصد جبل الشيخ.

ولا يفسر بلاغ سقوط القنيطرة سوى الذعر والفوضى التي دبت في صفوف (القادة) السورية، ويقع على الأسد النصيب الأكبر من ذلك الفشل.

وخلاصة القول في حرب (١٩٦٧م) أنها كانت مسرحية، هدفها كسر شوكة عبدالناصر، واحتلال الجولان من قبل الصهاينة، واحتلال الضفة الغربية والقدس، وقدتم ذلك كله. ومما يؤكد ذلك أن خسائر الجيش السوري التي أذاعتها الحكومة كانت (١١٥) عسكرياً (وليس ٦٠٠ كما يقول باترك سيل) فقط، وهم الذين لم يتقيدوا بأمر الانسحاب، فضلوا أن تمر الدبابات الإسرائيلية على أجسادهم؛ كما حصل في تل العزيزيات.

كان أسبوع حرب حزيران بمثابة كابوس جثم على صدر وزير الدفاع السوري، الذي فقد سلاحه الجوي، والجولان، وجبل الشيخ، ولم يكن الأسد قادراً على النوم فوقع مغشياً عليه من التعب في وزارة الدفاع، ثم ذهب إلى بيته ليمعن التفكير في الكارثة لمدة ثلاثة أيام امتنع فيها عن رؤية أحد من الناس[1].

---

(١) مما يفسر لنا بعض الغموض في حرب حزيران الرواية التالية: روى الأخ أبو بدر من اللاذقية أنه اجتمع مع محمد رباح الطويل في سجن المزة بعد حرب (٦٧) بعد أن اعتقل محمد رباح الطويل (وزير الداخلية) وأودع في المزة. وكلاهما كانا زملاء في المرحلة الثانوية، قال الطويل يوصي زميله الإخواني أن يسلم على أمه عندما يخرج من السجن، ويطمنها عن صحته، فقال له الإخواني: عجباً منك كيف تفكر!! هل تتوقع أن أخرج قبلك من السجن، وأنت بعثي، ووزير، ومن زملاء حافظ الأسد !!!؟ قال محمد رباح الطويل: نعم أنت سوف تخرج قبلي، وأنا لن أخرج من السجن إلا إلى القبر، فأنا أحد شهود جريمة العصر، ولن يسمح لي بالعيش، سوف يقتلني حافظ الأسد، لأنني شاهد على جريمة العصر!!! فقال الإخواني: ما هي جريمة العصر؟ فقال محمد رباح الطويل: في عام (٦٦) جاء إلى دمشق وفد من الصهاينة الأمريكيين، يطلب من القيادة القطرية لحزب البعث تأجير الجولان لهم ثلاثين سنة، وكان جواب القيادة القطرية الرفض، فعاد الوفد إلى بيروت ليتابع سفره من هناك، وفي بيروت لحقهم حافظ الأسد (وزير الدفاع) وعقد معهم الصفقة، وتعهد لهم بذلك.

وطالب عدد من أعضاء الحزب أن يستقيل الأسد من وزارة الدفاع، وجرت محاولة لطرده من القيادة القطرية، فشلت بفارق صوت واحد هو صوت عبدالكريم الجندي.

ومما لاشك فيه أن الهزيمة كانت النقطة الحاسمة في حياة الأسد، التي ألقته فجأة في مرحلة النضج السياسي، وحفزت فيه الطموح ليحكم سوريا، بعيداً عن قيود زملائه ومنافسيه الذين قادوا البلاد إلى الكارثة. (استفاد من النكسة عندما رماها على رفاقه وتخلص منهم ومن خطهم اليساري). فمادام أن اللوم سيلقى عليه، فليكن له صنع القرارات. وبدأ الأسد يتحرك نحو اليمين ليفترق عن رفاقه جديد والأطباء الثلاثة اليساريين.

سرعان ما أصبح الخلاف المتزايد بين جديد والأسد مدار الحديث في الجيش والحزب، وراح الأسد يخرج رجال جديد مثل أحمد سويداني (شباط ١٩٦٨)، وتعيين صديق الأسد مصطفى طلاس بدلاً منه، ثم اعتقل (١٩٧٩) وأودع المزة. وصار طلاس ينتزع الرجال الموالين لصلاح جديد من الجيش.

وكانت آخر ضربة هي إزاحة عزة جديد قائد اللواء السبعين المدرع في الكسوة، قبيل (١٩٧٠/٢/١٦) بأيام.

وتمكن الأسد من فصل التنظيم البعثي العسكري عن التنظيم المدني، لإبعاد الضباط عن صلاح جديد. وتوقف الأسد عن حضور اجتماعات القيادة القطرية من تلقاء نفسه، وقد لاحظ أن قرار الحزب يقف ضده.

إسقاط عبد الكريم الجندي

كان الجندي من أنصار جديد، وهو قائد المخابرات، وكان رفعت[1] قد اكتشف أن جديد يخطط لاغتيال شقيقه حافظ، وفي الأيام (٢٥ ٢٨ شباط ١٩٦٩) وقع شبه انقلاب قام

انتهى كلام الطويل... وأذكر بكلمة سامي الجندي عندما قال: إن بلاغ سقوط القنيطرة تحار في فهمه العقول. وينتبه إلى أن حافظ الأسد في عام (١٩٩٧) أي بعد ثلاثين سنة على ضياع الجولان أو تأجير الجولان، اجتمع مع كلينتون في جنيف وأكدت وسائل الإعلام على محادثات سرية بينهما (ثنائية) لم يحضر غيرهما.. وقد اجتهدت وسائل الإعلام بأن حافظ طلب جلاء الصهاينة عن الجولان بعد انقضاء مدة التأجير (٣٠) سنة، ولكن الصهاينة أخبروه بواسطة (كلينتون) أنهم وفوا شرطهم وهو تثبيت حكمه في سوريا، واليوم يطلبون تمديد العقد إلى أجل غير مسمى ليثبتوا حكم ولده بشار من بعده!!!! والله أعلم... والعرب في نومهم يشخرون...

(١) انضم رفعت للحزب في الخامسة عشر (١٩٥٢)، وسيق للخدمة العسكرية (١٩٥٩) ونقل بعد الانفصال إلى وزارة الداخلية (الجمارك)، وفي (١٩٦٥) عين نائباً لوحدة عسكرية كلها من الحزبيين

به حافظ ورفعت، حركت الدبابات إلى مفاصل العاصمة، وتمكن رفعت من اعتقال سائقي الجندي. وأدرك الجندي عندما فقد أسطول سياراته أنه انتهى، وبعد مشادة كلامية مع علي ظاظا مدير المخابرات العسكرية قتل الجندي نفسه بإطلاق النار على رأسه. (هكذا قالوا ويقال أنه قتل عند مدخل اللواء السبعين). وبعد أسبوعين انتحرت زوجته أيضاً. وتعززت مكانة رفعت، كذراع الأسد اليمنى، وجزع أتباع جديد، وكسب الأسد جولة هامة.

وهكذا من بين الأعضاء الخمسة المؤسسين للجنة العسكرية: كان عمران منفياً في لبنان (ثم اغتيل من قبل الأسد)، وكان أحمد المير قد طرد إلى إسبانيا، والجندي قد مات، وبقي الأسد وجديد يتصارعان من أجل الوصول إلى قمة السلطة[٢].

أيلول الأسود :

كان أيلول أسود على الفلسطينيين وعلى صلاح جديد أيضاً، فقد كان الخلاف محتدماً بين الأسد وجديد حول مشكلتي السلام والمقاومة. أما السلام فجديد بعثي عقائدي يؤمن بحرب التحرير الشعبية، ولا يخطر في ذهنه في يوم ما السلام مع إسرائيل، وهو بذلك يعكس رغبة الأغلبية الساحقة من السوريين والعرب، وأما حافظ الأسد فهو رجل حكم، يهمه بقاء حكمه قبل كل شيء، وغير ذلك يقبل المساومة،كالجولان، وفلسطين، وغيرها.

وفي تموز (١٩٧٠) عقد مؤتمر قومي وقطري معاً وتقرر رفض أفكار روجرز ورفض قرار مجلس الأمن (٢٤٢) وسمته صحيفة الحزب (سلام القبور).

ولم يقف حافظ الأسد ضد التسوية من حيث المبدأ، ولكنه ضد أي تسوية منحازة وغير مشرفة. وكان الخلاف على أشده مع جديد حول الفدائيين الفلسطينيين، وخاصة أن منظمة الصاعقة الفلسطينية البعثية (خمسة آلاف عنصر) تتبع جديد، لذلك أصدر حافظ الأسد باعتباره وزير الدفاع؛ في (أيار ١٩٦٩) أمراً يقضي:

١ السماح لمجموعات فلسطينية معينة فقط بالدخول إلى القطر.

٢ لا يجوز حمل السلاح علناً في القطر من قبل أحد، حتى المقاومة الفلسطينية.

٣ لا يجوز إقامة معسكرات تدريب إلا في مناطق محددة من قبل الدولة.

كانت بقيادة محمد عمران، وسيطر عليها رفعت بعده، ولعبت دوراً في (٢٣ شباط ١٩٦٦)، واكتشف رفعت أن جديد يخطط لاغتيال شقيقه حافظ، وفي المدة (٢٥ ٢٨ شباط ١٩٦٩) قام حافظ ورفعت بشبه انقلاب.

(٢) هذا كان مخطط الأسد، أما صلاح جديد فلم يكن طامعاً في الانفراد بالسلطة، لأنه كان حزبياً حتى العظم.

٤ـ لا تجوز الإغارة على المناطق المحتلة إلا بإذن خطي من وزارة الدفاع. وهكذا عاش الجنود الإسرائيليون على خطوط التماس مع سوريا ينامون ملء جفونهم، من حزيران (١٩٦٧) وحتى (٦/١٠/١٩٧٣)[١].

أزمة الأردن :

عندما اندلع القتال بين الفلسطينيين والأردنيين، طلب الفلسطينيون مساعدتهم، والجيش والقرار بيد حافظ الأسد، فأرسل لهم بنادق، ثم أمر (اللواء المدرع ٦٧) من الفرقة الأولى بدخول الأردن، (١٨ /٩ /١٩٧٠)، دون إشراك السلاح الجوي معه، فدخلت إربد، وكان الأسد يقود العمليات من نادي الضباط في درعا. ويقول الأسد هدفه حماية المقاومة من الذبح وليس الإطاحة بالملك حسين. لذلك كان تدخله محدوداً وعلى مضض.

---

(١) نشر موقع (كلنا شركاء) موضوعاً عن الجولان في (١٢/٦/٢٠٠٥) لذلك أحببت أن ألخص بعضه ليتبين مدى الإهمال المقصود من قبل النظام السوري للجولان.

وهذه أهم العناوين:

حملة جديدة استيطانية في الجولان لجلب مئات العائلات الصهاينة.

استقطاب (٣٠٠) عائلة يهودية ضمن عام (٢٠٠٥).

عنوان الحملة: الجولان مشرع أبوابه لكم وهو مفعم بالحياة.

وجاء في الحملة: الجولان يتميز بالهدوء الأمني، ومستوى المعيشة المرتفع لدى المستوطنين.

الطبيعة الخلابة والهدوء والأمان ينتظرونكم في الجولان.

(٢١) مستوطنة ممتدة من جبل الشيخ وحتى بحيرة طبريا؛ فتحت أبوابها لاستقبال القادمين الجدد.

ازداد الاستيطان في الجولان في السنوات الأخيرة بنسبة (٤٠٠ %).

(٧٠٠) عائلة يهودية استوطنت الجولان في السنوات الأربع الماضية.

(٩٧ %) من القادمين للجولان من أراضي (٤٨) و (٣ %) قادمون جدد.=

=وهذا يبين عظم هذه الجريمة، التي جعلت الجولان ملاذاً آمناً للصهاينة الذين يهربون من انتفاضة حماس والجهاد الإسلامي، بينما يوفر الأسد لهم ملاذاً آمناً في الجولان.

ارتفعت نسبة السياحة عام (٢٠٠٢) بنسبة (٧ %)، وفي عام (٢٠٠٣) ارتفعت بنسبة (١٥ %) ويبلغ متوسط السياح الذين يزورون الجولان سنوياً (٣) ملايين سائح.

وهذه العناوين لا تحتاج إلى تعليق، سوى أن نذكر بما كررته إذاعة دمشق بعد نكسة (١٩٦٧م)، حيث أجبرت الشعب العربي على أن يفهم أن الصهيونية لم تنتصر، صحيح أنها احتلت سيناء، والضفة الغربية، والجولان، ولكنها كانت تهدف إلى إسقاط ثورة الثامن من آذار التقدمية، ولم تستطع، ولذلك لم تنتصر، أما الأرض فإعادتها أمر هين.

قام اللواء الأربعون الأردني بهجوم على القوات السورية التي لم تعزم القتال(١). وفي (٩/٢٢) انسحب الجيش السوري من الأردن.

بعد أسبوع من مغادرة الدبابات السورية الأردن، مات جمال عبدالناصر، وكانت سوريا بلا حكومة، والأسد وجديد لا يتبادلان الكلام. كان الأسد معروفاً من الجيش، وجديد مسيطر على الحزب، ودعا إلى مؤتمر استثنائي للقيادة القومية في (١٩٧٠/١٠/٣٠) وأول قرار كان هو إيقاف وزير الدفاع عن إجراء تنقلات في الجيش طيلة فترة المؤتمر. ولكن الأسد رفض هذا الأمر بشكل قاطع، واتهم جديد حافظ الأسد أنه قبل التسويات الاستسلامية ورضخ للامبرياليين، وصدر القرار النهائي بإعفاء حافظ الأسد من وزارة الدفاع، ومصطفى طلاس من قيادة الأركان، إلا أن الأسد كان قد نشر قواته حول قاعة المؤتمر. وفي (١٩٧٠/١١/١٢) انتهى المؤتمر، وفي اليوم التالي اعتقل الأسد خصومه، وعرض عليهم مناصب في السفارات الخارجية، ويقال إن صلاح جديد رفضها وقال له بنبرة التحدي: إذا قيض لي أن أستلم السلطة منك فسوف أسحلك في الشارع حتى تموت. لذا أرسله حافظ إلى سجن المزة، ليبقى فيه أكثر من عشرين سنة ويخرج منه على فراش الموت، أما ماخوس فقد هرب إلى الجزائر ليعمل جراحاً في مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة، وزعين هرب ثم قبض عليه وسجن عشر سنوات ثم هاجر إلى هنغاريا حيث شقيقه هناك. وبقي الأتاسي كذلك في المزة حتى خرج على فراش الموت.

وكان الدور الأكبر في هذه الحركة التصحيحية لرفعت الأسد الذي كان مسؤولاً عن دمشق العاصمة، وسهر طلاس وناجي جميل على عدم وجود مقاومة في القوات المسلحة، أما العقيد محمد الخولي فقد أوكلت إليه مهمة اعتقال جماعة صلاح جديد في الحزب والجيش والحكومة، وأعطي مهلة ثمان ساعات، فنفذ الأمر خلال ساعتين فقط بدون سفك دماء وقال الخولي: لقد أمسكنا بهم كالأرانب في فراشهم.

---

(١) كما يقول الملازم أول حسين النواف قائد إحدى السرايا المدرعة يومذاك في اللواء (٦٧)، يقول أطلق علينا النار رامي (اربجي) ولم يلحق بنا ضرراً، وهرب من أمامنا على بعد مئات الأمتار، فأمرت الجنود أن يتركوه ينجو بروحه. وهذا يدلني على أن إرادة القتال لم تكن مبيتة عند جيشنا. أو أن الأوامر أعطيت لهم بذلك.

وفي يوم (١٦/١١/١٩٧٠) أنهى حافظ الأسد وضع اللمسات الأخيرة على البيان الذي أذيع ليفتح العهد الجديد، وفي خضم الحدث وصل العقيد القذافي (!!!)، فاستقبله الأسد في المطار، وداعبه بقوله: إنك طيب الحظ أنك لم تصل قبل نصف ساعة [وبين حافظ الأسد والقذافي سر آمل أن يكشف فيما بعد]..

دولة الأسد:

كان الأسد أكثر تحرراً من صلاح جديد، وكان الناس مشتاقين إلى التنفس بحرية، وركز على الحاجة إلى الوحدة الوطنية، وقام بجولة في المحافظات، أكرم فيها غاية الإكرام، ومنها حماة، لأنه خلص البلاد من الماركسي صلاح جديد.

وفي (١٩٦٣) كان الأسد يعمل على تحطيم سيطرة المدينة على الريف، وفي (١٩٧٠) صار يعمل لكسب تأييد أهل المدن، وانقلب من (ثوري) إلى (رجل حكم).

وبنى حكمه على ركيزتين:

١ لا يسمح بأي تحد لحكمه. ٢ الدعم الشعبي لسياسته.

وفي (١٢/٣/١٩٧١) بعد استفتاء شعبي صار حافظ الأسد رئيساً للجمهورية لمدة سبعة أعوام، وبقيت تتكرر حتى وفاته عام (٢٠٠٠)[١].

---

(١) يقول منير الغضبان في سوريا في قرن (٢٥٣/١) كلاماً خطيراً ينقله من وثائق تاريخية أثبته كما هو في كتابه بدون تعليق، [مع تبديل مصطلح النصيريين بالعلويين]، ويقول الغضبان (وغضبان الباحث التاريخي يختلف عن غضبان السياسي، فالباحث يهمه معرفة الحقيقة ولو كانت مرة)، أنه موجود في وثائق الخارجية الفرنسية، وفي سجلات الحزب الاشتراكي الفرنسي يقول الغضبان: (لماذا انتصر حافظ الأسد بحكم البلد:

قدمنا المبررات الكافية السابقة للامتحانات التي خاضها في موقفه مع إسرائيل، وحتى تتجلى الحقيقة، لا بد أن نعيد إلى الذاكرة حقيقة موقف العلويين من اليهود ورأيهم فيهم، فبذلك يتضح الاتساق والتكامل في الدور العلوي في الساحة السورية، وقد كنا ذكرنا هذه الوثيقة من قبل، ونذكر طرفاً منها: هذه الوثيقة رفعها زعماء العلويين لرئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم محفوظة تحت رقم ٣٥٤٧ بتاريخ ١٥/٦/١٩٣٦ في سجلات وزارة الخارجية الفرنسية وفي سجلات الحزب الاشتراكي الفرنسي صورة عنها، وهذه فقرة منها ننقلها حرفياً:

"٤- إن روح الحقد والتعصب التي غرزت جذورها في صدور المسلمين العرب نحو كل ما هو غير مسلم هي روح يغذيها الدين الإسلامي على الدوام، فليس هناك أمل أن تتبدل الوضعية. لذلك فإن

الأقليات في سورية تصبح في حال إلغاء الانتداب معرضة لخطر الموت والفناء، بغض النظر عن كون هذا الإلغاء يقضي على حرية الفكر والمعتقد. وها إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق المسلمين يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على توقيع وثيقة يتعهدون فيها بعدم إرسال المواد الغذائية إلى إخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين، وحالة اليهود في فلسطين هي أقوى الأدلة الواضحة الملموسة على عنف القضية الدينية التي عند العرب والمسلمين لكل من لا ينتمي إلى الإسلام. فإن أولئك اليهود الطيبين الذين جاؤوا إلى العرب والمسلمين بالحضارة والسلام، ونثروا فوق أرض فلسطين الذهب والرفاه ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة. ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة، ولم يترددوا في أن يذبحوا أطفالهم ونساءهم بالرغم من وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سورية، لذلك فإن مصيراً أسود ينتظر اليهود والأقليات الأخرى في حالة إلغاء الانتداب وتوحيد سورية المسلمة مع فسطين المسلمة، هذا التوحيد هو الهدف الأعلى للعربي المسلم.

الموقعون: عزيز آغا الهواش، محمد بك جنيد، سليمان المرشد، محمود آغا جديد، سليمان أسد؛ محمد سليمان أحمد"

١- فهم يكشفون عن حقيقة هويتهم حين يتمكنون في ظل العدو، ويتحدثون للحكام الفرنسيين يستنجيرون بهم من التعصب الإسلامي، فهم غير مسلمين.

٢- وما يجمعهم في خندق واحد مع اليهود هو أن العلويين واليهود من الأقليات غير المسلمة، وتصبح هذه الأقليات في خطر الموت والفناء إن انتهى الانتداب الفرنسي وعاد الحكم للأكثرية المسلمة السنية في سورية.=

= ٣- ولا يجد زعماء العلويين دليلاً على صحة وجهة نظرهم إلا الاستشهاد بموقف مسلمي دمشق من منع اليهود من تقديم المعونات لإخوانهم في إسرائيل.

٤- واليهود مضطهدون في رأي العلويين، والحرب ضدهم يمثلها روح التعصب والحقد الإسلامي، فهم لا يذكرون أن اليهود مغتصبون جاؤوا لأخذ هذه الأرض من أصحابها الشرعيين، وهذه مشاعر موحدة ومتطابقة تمام التطابق بين اليهود والعلويين."فاليهود طيبون. جاؤوا للعرب والمسلمين بالحضارة والسلام، ونثروا فوق ارض فلسطين الذهب والرفاه" أما العرب المسلمون فمتأخرون متخلفون فقراء، واليهود هم الطبقة الواعية المثقفة المضحية العاملة.

والمسلمون معتدون طغاة، ينقضون على اليهود، ويشعلون عليهم الحرب المقدسة، والمسلمون طغاة يذبحون الأطفال والنساء لأولئك اليهود حملة مشعل الحضارة ودعاة الطهر والسلام في الأرض.

والمسلمون في حقدهم وقهرهم لليهود رغم وجود إنكلترا وفرنسا، يعني أنهم سيحولونهم إلى جثث وكتل من الدمار والفناء حين يرتفع الانتداب الإنكليزي والفرنسي من البلاد، وسيلقون المصير الأسود المحتوم على يديهم.

وشكل قيادة قطرية من (١٤) عضواً، ثم زادهم إلى (٢١)، ومع ذلك كانت الكلمة الأخيرة في الحزب والدولة والجيش لحافظ الأسد فقط.

وشكل حافظ الأسد مجلساً للشعب من (١٧٣) عضواً في البداية. كما أسس اللجنة المركزية للحزب من نخبة أعضاء الحزب والمحافظين وأمناء الفروع، وكبار الضباط، والوزراء، وكبار الجامعيين... كما شكل الجبهة التقدمية الوطنية، في آذار (١٩٧٢). وانتخبت المجالس المحلية من البعثيين ومن الجبهة التقدمية.

واهتم الأسد أن يظهر أنه ليس طائفياً، فرئيس وزرائه، ووزير دفاعه، ووزير خارجيته، وأمين سره الخاص، وكاتب خطاباته، وحارسه الشخصي، كانوا من غير العلويين. إلا أنه كان يعتمد على العلويين في وحدات الأمن وفي الجيش.

وصار الأسد يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم. وكان في الأربعين من عمره، وعنده خمسة أطفال، لم يترك لهم عطلات، ولا نزهات، أو رحلات، وحرم نفسه الطعام معهم، يقول عنه ولده بشار: لا أذكر صورة والدي إلا وهو مكب على مكتبه يقرأ التقارير.

وفي (١٩٧٢/٣/٤)، اغتيل اللواء محمد عمران، الرئيس الأسبق للجنة العسكرية، والتي لم يبق منها في الحكم سوى حافظ الأسد.

حرب تشرين ١٩٧٣

هذه هي النظرة الحقيقية للعلويين نحو اليهود، فكلاهما في خندق واحد لمواجهة التعصب الإسلامي السني، وقد تبنى هذه الوثيقة زعماء العلويين بما فيهم أجداد صلاح جديد وحافظ أسد، وهذه هي الفرصة السانحة وقد حكم جديد والأسد سورية المسلمة المتعصبة السنية، وعليهم أن يؤدوا دورهم التاريخي في نصرة حلفائهم وإخوانهم اليهود، فكان أن قدّموا لهم الجولان، وغدروا بالفدائيين، وعملوا أقل ما يجب عليهم عمله تجاه اليهود الطيبين الذين جاؤوا بالحضارة والسلام ونثروا فوق الأرض الذهب والفضة. إنها رسالة تاريخية يقدمها جديد والأسد، تحقيقاً لحلم أجدادهم محمود آغا جديد وسليمان بك الأسد، فيعطون الجولان ومرتفعاتها لإسرائيل، حتى تبقى دمشق عاصمة المسلمين السنيين تحت رحمة مدافعهم إلى الأبد. ليس المرء بحاجة إلى أن يبحث ما بين السطور إذا كانت السطور تنطق بحقيقة الحقد والضغينة على المسلمين، وتطفح بذلك الحب والتفاني لليهود والصليبيين.

[أقول بعض المسلمين السنة جاهلون ومتعصبون ضد الطوائف الأخرى مثل هذا التعصب المقيت الذي لا يقره الإسلام، أما حقيقة الإسلام فتتلخص في قوله تعالى {لا إكراه في الدين}، وحقيقة الواقع أن سوريا هي البلد الوحيد الذي مازالت لغة السيد المسيح عليه السلام حية ويتكلم بها حوالي ستين ألفاً بعضهم في قرية معلولا، انظر مقالة للدكتور خالد أحمد الشنتوت في موقع سوريا الحرة آب ٢٠٠٩، وهذا أكبر دليل على قبول المسلمين السوريين للتعددية الدينية].

يرى (باترك سيل) وربما هذه هي وجهة نظر الأسد نفسه أن السادات أراد من الحرب (التحريك)، بينما أراد الأسد التحرير[1]. أما السادات فقد بذل جهوداً خلال عام (١٩٧١) من أجل انسحاب إسرائيل، والتطبيع معها بعد ذلك، وطرد السادات الخبراء السوفيات بناء على طلب كيسنجر الذي قال له لن يقع السلام في الشرق الأوسط إلا بعد مغادرة السوفيات له. وكرر السادات محاولة السلام في شباط (١٩٧٣)، وكان الملك حسين حريصاً مثل السادات على السلام، وقد عرف الأسد بمحاولات السادات التي بذلها من أجل انسحاب إسرائيل مقابل التطبيع معها[2] وتأكد له أن السلام لا يمكن بدون حرب[3]. ووضح هدف الحرب العسكري (الظاهري للشعب العربي)-كما يقول الأسد- وهو استعادة الجولان في سوريا، والوصول إلى ممرات سيناء في المرحلة الأولى في مصر، ثم إعادة الاحتشاد لتحرير سيناء كلها[4].

وفي (١٩٧٣/٤/٢٣) جلس الأسد والسادات وحسني مبارك يومين اتفقا على الخطوط العريضة للمعركة. وكان في سوريا يومها (٣٠٠) طائرة مقاتلة، وأكثر من (١٠٠) بطارية صواريخ سام، و(٥٠٠) منصة إطلاق، و(٤٠٠) مدفع مضاد للطائرات. هذا في القوة الجوية فقط.

وقد عرف السوفيات أن مصر وسوريا تريدان الحرب، ولكن لم يعرفوا متى؟ حتى أخبروا رسمياً يوم (١٩٧٣/١٠/٤). بيوم الحرب.

وقد وصلت هذه الأخبار من عدة طرق لإسرائيل[1]، ولكن الجبروت والغرور الذي وصل له الصهاينة عام (١٩٦٧) جعلهم لا يصدقون أن العرب سيفكرون ثانية بالحرب، وفسروا كل هذه الإشارات أنها تسريب مقصود من العرب لزعزعة أمن العدو.

---

(١) أما الذي ساد وانتشر في المنطقة كلها يومذاك هو التحريك وليس التحرير. لأنه يتفق مع نتائج الحرب التي لم تحرر، وإنما أدت إلى فك الاشتباك...

(٢) وهذا يفسر لنا أيضاً الغاية من حرب (١٩٦٧) . وهو احتلال أرض العرب، ثم التفاوض عليها من أجل السلام مع الصهاينة .

(٣) وهذا يؤكد أن هدف الأسد من الحرب، حرب تشرين هو الحصول على السلام. فهي حرب تحريك عند الأسد كماهي عند السادات.

(٤) باترك سيل، ص ٣١٦ .

(١) وأحد هذه الطرق من عميل سوري وهو (لواء) في الجيش (!!) كانت مخابرات دولة عربية قد جندته لصالحها، فأوصل لها خطط حرب تشرين، ونقلت نسخاً منها على الفور وبيد مبعوثين موثوقين

وحدد تشرين الأول (أكتوبر). ثم تقررت ساعة الصفر بعد أن طلب المصريون أن تكون مساء لعبور القناة دون تدخل طيران الصهاينة، بينما أراد السوريون الفجر لتكون الشمس خلفهم، وأخيراً أخذ حل وسط وهو (الثانية ظهراً)[٢].

وكان عدم التفاهم جلياً لأن الشاذلي (رئيس الأركان المصري) مقتنع منذ البداية أن طاقة مصر هي اجتياز القناة، واحتلال شريط من الأرض شرقها، والقدرة على الاحتفاظ به. ويعتقد أنه ليس في طاقة مصر شن هجوم واسع لطرد إسرائيل من سيناء، إلى ما بعد الممرات، لأن سلاح الجو المصري أضعف من أن يدعم تقدماً برياً في سيناء. لأنه سيكون خارج مظلة الصواريخ (سام) المنصوبة غرب القناة. وهذا هو ما أخفته قيادة مصر على الأسد، ويقول باترك سيل: (إن السادات قد كذب على الأسد وتعمد خداعه حول نواياه، واستدرجه إلى الاعتقاد بأن الهجوم الذي ستشنه مصر سيكون أوسع نطاقاً مما كان ينويه فعلاً[١]. وقد اضطر السادات إلى ذلك عندما عرف أن الأسد لن يحارب معه إلا من أجل تحرير سيناء والجولان كلهما.

إلى هنري كيسنجر، وموشي دايان. ولكنهما لم يصدقا ذلك. وقد اتصل (دايان) بهذا الجاسوس العربي يقول له: (إنني أدرك بأنني تحت رحمتك، إنك إذا كشفت ما تعرف فسينتهي مستقبلي المهني وحياتي العملية، وفي غضون ذلك أرجو أن تتكرم بأن تتسلم مع أعمق امتناننا أعلى وسام عسكري تستطيع إسرائيل أن تمنحه لمواطن أجنبي (انظر باترك سيل ص ٣٢٠).

(٢) وكان هذا من التوفيق الرباني، ومن أسباب مباغتة العدو الصهيوني، الذي بوغت فعلاً، لأنه لم تجر العادة الهجوم في الظهيرة، وأغلب معارك الهجوم تبدأ في الفجر، أو في آخر الليل لنجاح المباغتة عند نوم العدو... وحدثني ضابط مدفعي سوري من أصدقائي في الجبهة السورية، وكانت خدمتي الإلزامية في الجبهة، أعرف الأماكن التي دار فيها القتال، قال النقيب فايز أبو عذاب يرحمه الله: الساعة الثانية إلا ربع دعانا قائد الكتيبة وأعطانا أمر القتال، حيث تكون ساعة الصفر الثانية تماماً، فعدت إلى السرية وجهزنا المدافع- وهي جاهزة أصلاً -وفي الثانية قلت للعساكر (نار) فلم ينفذ العساكر، وإنما نظروا إلي مشدوهين وقالوا: هل أنت جاد يا سيدي!!؟ فغضبت وكررت بصوت عال، وفي تلك اللحظة مرت فوقنا طائرات السوخوي راجعة من التمهيد الذي قامت به، فبادر العساكر يكبرون ويهللون ويسارعون إلى رمي قذائف المدفعية حسب المعطيات المحددة سابقاً على الخرائط.. وانقلب الحال خلال خمس دقائق من هدوء إلى صخب المعركة.

(١) باترك سيل، ص ٣١٦ .

كانت حرب تشرين أكبر مشروع عسكري عربي في العصر الحديث، وبدلاً من أن يحقق الآمال الزاهية كان كارثة سياسية وضعت العرب على طريق التفكك والتمزق. ففي اليوم الأول نقل المصريون مائة ألف جندي وأكثر من ألف دبابة عبر قناة السويس وحطموا خط بارليف بسرعة وأنشاوا خمسة مواقع دفاعية كنقاط انطلاق جديدة. وزجت سوريا خمسة وثلاثين ألف جندي وثمانمائة دبابة واجتاحت الحدود وكادت أن تصل إلى طبريا. وقد تحقق في اليوم الأول تحطيم أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر.

وفي صباح اليوم السابع كانت إسرائيل قد خسرت (٣٠٠) دبابة، وفي يوم الثامن خسروا في الهجوم المعاكس الذي قاده شارون (٢٦٠) دبابة أخرى، وكانت هذه أكبر خسائر في تاريخ الجيش الإسرائيلي.

وفي اليوم الأول في الجولان تكبدت الفرقة التاسعة والسابعة في القطاعين الشمالي والأوسط؛ تكبدتا خسائر فادحة في خندق الدبابات الذي حفره الصهاينة، والسوريون يتفرجون عليهم، وحصلتا على مكاسب متواضعة، بينما تقدمت الفرقة الخامسة من الجنوب وطردت الصهاينة من أجزاء كبيرة من الجولان الجنوبي والأوسط، وفي اليوم الثاني زجت الفرقة الأولى في القطاع الأوسط، وهي من أقوى الفرق للجيش السوري ولديها دبابات (ت ٦٢).

وفي اليوم الأول والثاني للحرب فقط، نفذت خطة إجبار الصهاينة على القتال في جبهتين معاً.

ثم لم تتقدم مصر بعد تجاوز القناة كما توقع السوريون، بل قاتلت سوريا أسبوعاً كاملاً وحدها، وهكذا تغلبت إسرائيل كعادتها على الجبهتين واحدة بعد الأخرى.

وعندما تنبهت إسرائيل إلى أن أهداف مصر متواضعة، عندما رأت القوات المصرية تحفر وتستحكم في مكانها شرقي القناة، لذلك أمر ديان سلاحه الجوي بالعمل فوراً ضد السوريين، وبدأ الطيران الصهيوني يواجه الدروع السورية، وخطوط الإمداد والتموين، وواجهت القوات السورية في يوم (٨، ٩) نيران سلاح الطيران الصهيوني بكامله، وسيطر العدو على سماء المعركة، وكانت عدد طلعاته تتراوح يومياً بين (٥٠٠ ٦٠٠)

طلعة ضد القوات السورية[١]. وأقل من خمسين طلعة في سيناء. وهكذا أوقف التقدم السوري، ثم أعيد القهقرى. في مساء اليوم التاسع.

وفي يوم (١٠/١١) اخترق العدو الدفاعات السورية، وكان قد فقد السوريون (٨٠٠) دبابة أي كامل قوتهم المدرعة، وستة آلاف رجل، ومئات السيارات المصفحة، وأضرار بثلاثة مليارات ونصف دولار.

وفي يوم الأحد (١٤ / ١٠) قام السادات مخالفاً كل العسكريين عنده بالهجوم المصري، وهدد بعض قادة الجيوش بالاستقالة، أو التمرد، أو الانهيار العصبي، ولكن بناء على إلحاح وطلب من حافظ الأسد، كان الهجوم المصري بعد أن انتهت إسرائيل من الجبهة السورية، وتفرغت للمصرية، وكانت النهاية فشل هذا الهجوم من يومه الأول، وخسرت مصر (٢٥٠) دبابة، ثم كان الخرق عند الدفرسوار، وكانت هذه الطامة على مصر، حيث وقف الجنود الصهاينة عند لوحة تقول (القاهرة ١٠١ كلم). وحوصر الجيش الثالث (٤٥٠٠٠) جندي، وسبق أن وقف الجنود الصهاينة عند لوحة في الجبهة الشمالية كتب عليها (دمشق ٤٠ كلم)، أي في مرمى المدفعية الصهيونية.

الجيش العراقي يحمي دمشق :

دخل العراق الحرب يوم (١٠/١٠)(٤٣) فأرسل (١٠٠) طائرة، وأكثر من (٣٠٠) دبابة، وحوالي (١٨٠٠٠) جندي، وكان أول اشتباك لهم يوم (١٠/١٣) تكبد فيه العراقيون خسائر فادحة فإنهم بالاشتراك مع لواء أردني دخل يوم (١٠/١٤) ساهموا في تقوية الطوق حول الممر الناتئ المستطيل الذي احتلته إسرائيل في الطريق إلى دمشق، كما أرسل الملك فيصل ألفي جندي كمشاركة أخوية ورمز للتضامن،كما وصل لواء مغربي وساهم في الدفاع عن جبل الشيخ. ويوم (١٠/٢٠) كان الصهاينة يقصفون مطار المزة العسكري بالمدافع .

وقف إطلاق النار:

في يوم (١٠/١٦) وجه السادات رسالة مفتوحة إلى نيكسون في خطابه لمجلس الشعب، وفي (١٠/١٨) وصل (كوسيجين) من روسيا ومعه صور جوية تبين وجود (٣٠٠) دبابة صهيونية غرب القناة، وكان الجسر الجوي الأمريكي ينزل الدبابات في

---

(١) الكولونيل تريفورن دوبوي: النص المراوغ، الحروب العربية الإسرائيلية، ص ٤١٧.

سيناء مباشرة، وأبرق السادات للأسد يقول (... نحن نقاتل الولايات المتحدة الأمريكية، ولا أستطيع ذلك).

واتفق كيسنجر مع بريجنيف على أن يصدر مجلس الأمن قراراً في الساعة الواحدة بتوقيت نيويورك يوم (١٠/٢٢) يطلب وقف إطلاق النار، باسم القرار (٣٣٨) . وقبلت مصر وإسرائيل وقف إطلاق النار على الفور. وبعد محادثات بين الأسد والسادات وعدد من القادة العرب، واجتماعات الحزب والجبهة وافقت سوريا على وقف إطلاق النار في وقت متأخر من يوم (١٠/٢٣).

وقد لمح كيسنجر فرصة وضع مصر على الطريق نحو سلام منفصل فيما بعد الحرب، وهذا كان أكبر كابوس للأسد. كان الأسد يلقي باللوم على السادات لأنه لم ينفذ خطة إجبار العدو الصهيوني على القتال في جبهتين معاً، ولكنه لم يعلن ذلك للصحافة، وكان يتكلم في مجالسه الخاصة فقط، وكان السادات يلوم سوريا التي أجبرته على تطوير الهجوم مما ساعد العدو على الاختراق غرب القناة.

مؤتمر جنيف[١] :

(١٩٧٣/١٢/٢١) حضرت مصر والأردن وإسرائيل، ووضعوا يافطة تمثل سوريا، ولم ينعقد المؤتمر بعد خطب الافتتاح. وفي (١٩٧٤/١/١٨) وقعت مصر مع إسرائيل اتفاقية فصل القوات في سيناء القاضي بأن تترك مصر (٧٠٠) جندي و(٣٠) دبابة فقط شرق القناة، وتسحب بطاريات الصواريخ إلى العمق (٣٠) كلم بعيداً عن خط فصل القوات. ويفتح باب المندب، وقناة السويس أمام الملاحة الصهيونية، ولما وصل السادات يوم (٧٤/١/١٩) إلى دمشق قابله الأسد بوجه مقطب كالصخر، واستمر اللقاء في المطار تسع ساعات، ثم اقترح السادات أن يبقى مع الأسد وحيدين وادعى السادات أنه لن يسمح بالعبور في القناة وأن ما فعله ليس إلا مناورة.

واستمر حظر تصدير النفط في الأسابيع الأولى من عام (١٩٧٤)، وكان له أكبر أثر في جر الغرب عامة وأمريكا خاصة إلى البحث عن حل لمشكلة الشرق الأوسط. وكان

---

(١) ومن هذا المؤتمر يتضح أن حرب تشرين حرب تحريك على الجبهتين السورية والمصرية (وكنت يومها أدرس في الثانوية بعد انتهائي من الخدمة العسكرية، فسألني الطلاب: ماذا عن حرب تشرين، فقلت خسر فيها السوريون أرضاً وجيشاً، خسروا جميع دباباتهم - وقد رأيت ضباط الدبابات يسافرون إلى اللاذقية يستلمون دبابات جديدة في نهاية الحرب - وستة آلاف جندي، بينما في حزيران خسروا أرضاً فقط... وبعد يومين وصل عضو فرع الحزب وطلبني للإدارة وخلاصة طلبه أن أقول حرب تشرين التحريرية، كما جاء في التعليمات، ولا أقول إنها هزيمة...

هو الموضوع الرئيسي لقمة الجزائر، ولكن كيسنجر بدهائه دفع العرب إلى إلغاء الحظر في (٧٤/٣/١٨).

وفي (٧٤/٢/٢٠) قدم صباح القباني لكيسنجر قائمة بأسماء الأسرى الصهاينة في سوريا، وقال: على الإسرائيليين أن يدركوا بأن حرب تشرين قد خلقت وضعاً جديداً جعل سوريا قادرة على اتخاذ خطوات إيجابية تجاه تسوية سلمية[1].

وقام كيسنجر برمي كذبة عند السوفيات فقال أمام بريجينيف: أن سوريا طلبت منه أن تساهم أمريكا في بناء الجيش السوري وأن تمده بالسلاح، ولكن أمريكا رفضت لأنها لا تريد تأجيج نار الحرب في المنطقة. وأصلها أن كيسنجر يقول: أمريكا مدت إسرائيل بجسر جوي لأنها لا تريد أن تتغلب الأسلحة السوفياتية على الأميركية، فقال الأسد: ماذا لو عندنا أسلحة أميركية أيضاً، ماذا تفعل أمريكا عندئذ!؟ وهذه النقطة حورها كيسنجر إلى تلك الكذبة ليعكر صداقة سوريا مع الروس.

اتفاقية فك الاشتباك بين سوريا وإسرائيل (٧٤/٥/٣١)

استغرقت رحلات كيسنجر المكوكية شهراً كاملاً من (٤/٢٩ / ٢٩ /٥ /٧٤)، ونشأ ود بينه وبين حافظ الأسد (!!!)، بعد أن أعجب كل منهما بالآخر، ودار ذلك وسط دائرة ضوء إعلامية عالمية دفعت اسم الأسد نحو قمة الأحداث العالمية، واكتسب سمعة البطل الصامد المدافع عن المصالح السورية، غير أن المكاسب على الأرض كانت ضئيلة جداً. وكانت هذه أهم ملامح فك الاشتباك:

١ انسحاب إسرائيل من الشريط المحتل في حرب تشرين، ومن جزء مما احتلته عام (١٩٦٧) ولو كان بسيطاً فيسمى انسحاب، وتم ذلك بالانسحاب عن مدينة القنيطرة بعد أن دمر الصهاينة كل منازلها وبنيتها التحتية،كما فعلوا ذلك في مدينة السويس، وصارت القنيطرة في المنطقة العازلة تحت إشراف الشرطة السورية والأمم المتحدة ولا يدخلها الجيش السوري.

٢ تتعهد سوريا بمنع الفدائيين الفلسطينيين من الدخول إلى إسرائيل.

٣ يحتفظ الصهاينة بمرصد جبل الشيخ.

ولدى زيارة نيكسون إلى دمشق (١٩٧٤/٦/١٦) وكانت بداية الغزل بين أمريكا والأسد، سحب الأسد نيكسون إلى غرفة في مكتبه وقال: نقبل القرارين (٢٤٢) و(٣٣٨) ومستعدون للسلام مع إسرائيل شريطة أن تنسحب إلى حدود ما قبل (٦٧/٦/٥) وتعيد

---

(١) أي أن حرب تشرين كانت حرب تحريك نحو التسوية السلمية (الاستسلام).

للفلسطينيين حقوقهم.. وكان الأسد يلح على كيسنجر في جولاته المكوكية أن يحصل على تعهد خطي منه بهذا الوعد، ولكن دون جدوى، ولما اقترب نيكسون أكثر من موقف الأسد تدخل كيسنجر صارخاً: سيدي الرئيس، إننا مضطرون للمغادرة، لقد انتهى الوقت، إن الطائرة تنتظرنا. ومرة أخرى حاول نيكسون الاقتراب من موقف الأسد ولكن هنري قاطعه، حتى قال نيكسون: يا هنري ألا تريد أن أتكلم!!؟ ولكن هنري لم يهتز، بل أجاب بلهجة ناعمة دمثة أن من الأفضل ترك معالجة هذه القضية إلى حين عودة الرئيس إلى واشنطن، وبذلك ختم كيسنجر الاجتماع، وسحب رئيسه إلى الخارج[١].

وفي (١٩٧٥/٣/٢٥) اغتيل الملك فيصل يرحمه الله، وخسر الأسد واحداً من أكبر مؤيديه ومساعديه العرب الذي ضخ في خزانة سوريا أكثر من (٣٥٠) مليون دولار مرة واحدة، وخلال بضع سنوات جعل سوريا تتجاوز محنتها المادية بسبب حرب تشرين.

عودة وتحليل لحرب تشرين ١٩٧٣م بين الصهاينة والعرب :

سقطت هيبة الأنظمة العربية التقدمية بعد حرب (١٩٦٧م)، واتسعت المعارضة الشعبية بعد أن سقطت شعارات تحرير فلسطين والأراضي العربية المحتلة، ووصل أنور السادات وحافظ الأسد إلى سدة الحكم في عام واحد!! (١٩٧١م)، وخططا معاً لخوض حرب تشرين، التي مازال سرها غامضاً، إذ أن كل مثقف يتساءل متعجباً كيف لم تكشف المخابرات الأمريكية توقيت الحرب[٢]؟ والمعروف لدينا أن إسرائيل بوغتت وفوجئت على

---

(١) باترك سيل ص ٤٠١

(٢) ينقل محمد عبد الغني النواوي عن نايف حواتمة (الزعيم الفلسطيني اليساري) يقول: تأكد لدينا أن السادات بدأ اتصالاته السرية مع إسرائيل منذ عام (١٩٧١م) وأنه طرح مشروعه الشهير لفتح قناة السويس، وكشفت الوقائع بأن السادات كانت له خطة خاصة في حرب تشرين تقوم على عبور القناة وتحرير (٥ – ١٥) كلم فقط، ثم الذهاب إلى مائدة المفاوضات، لذلك عرض علينا السادات في المجلس الوطني الفلسطيني تشكيل حكومة منفى؛ ليأتي بها إلى مائدة المفاوضات، وقبل حرب تشرين بعشرة أيام حمل إلينا أبو إياد رسالة من السادات تقول الحرب قادمة قريباً، وعلى الفلسطينيين أن يجهزوا أنفسهم لحضور مائدة المفاوضات من خلال مؤتمر دولي (جريدة السفير اللبنانية ١٩٨١/٣/٤م). وعلم حافظ الأسد بمضمون هذه الرسالة لأن زهير محسن من أعضاء القيادة الفلسطينية، ويقول أبو إياد إنه كلم الأسد شخصياً؛ فزعم أن السادات لم يطلعه على مثل هذه الخطة (المفاوضات مع العدو)، وأكد الأسد أن سوريا عندها خطة لمتابعة النضال!! حتى تحرير ما يمكن من الأراضي العربية المحتلة. ويقول السادات في عيد العمال أول أيار (١٩٧٥): بعد مضي (٦) ساعات فقط من حرب (١٩٧٣م) جاءني السفير السوفياتي يطلب وقف إطلاق النار بناء على طلب حافظ الأسد!!؟

حين غرة، وحققت هذه المباغتة انتصاراً جزئياً للجيش العربي المصري، عندما سمح له أن يقاتل فعلاً، فاجتاز قناة السويس، وخط بارليف وهما أكبر موانع عسكرية في العالم[1]. واحتل الجيش العربي المصري مسافة بضعة عشر كيلو شرق قناة السويس، ثم صار السادات يعلن من الإذاعة استعداده للسلام والمفاوضات.

وكانت المباغتة السبب الأول في انتصار الجيش العري المصري الذي كان يردد (الله أكبر) وهو يجتاز القناة، أما السبب الثاني فهي وحدات الصواريخ الروسية التي نصبها المصريون غرب القناة،والتي تمكنت من صد الطيران الإسرائيلي من الدخول إلى السماء العربية المصرية، وكانت عدة وحدات باسلة تحمي وحدات الصواريخ غرب القناة.

وبإلحاح من حافظ الأسد، الذي يريد تطوير الهجوم المصري لتخفيف الضغط عن الجبهة السورية، وبعد أن انفرد السادات بقراره عن مجلس الحرب العربي المصري، وخالف قرار العسكريين وخاصة الفريق الشاذلي القاضي بعدم تحريك هذه الوحدات من غرب القناة لأنها تحمي وحدات الصواريخ، وأمر السادات بتحريكها شرق القناة لتطوير الهجوم، فأتاح الفرصة للمجرم الصهيوني (أريل شارون) من عبور القناة بمدرعاته إلى وحدات الصواريخ والقضاء عليها، واحتلال جيب كبير غرب القناة ومحاصرة الجيش الثالث العربي المصري، ووقوف القوات الإسرائيلية عند اللوحة (١٠١) كلم شرق القاهرة. وعندها نصبت خيمة فك الاشتباك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية.

المباغتة :

المباغتة أهم عنصر لنجاح الحرب، وقد استفاد منها الصهاينة في حرب (١٩٦٧م)، أما في تشرين (١٩٧٣م) فقد استطاع الجيش العربي في مصر والجيش العربي في سوريا مباغتة الصهاينة في عيد الغفران الصهيوني، حيث يصوم الصهاينة ثلاثة أيام متتالية وكان يوم السادس من تشرين (أكتوبر) آخرها؛ الموافق العاشر من رمضان.

---

(١) خلال خدمتي في الجيش العربي السوري ؛ سمعت من ضباط كبار مرات عديدة بأنه يستحيل اجتياز قناة السويس، لأن العدو الصهيوني أقام أنبوباً من النابالم على ضفتها الشرقية، وسوف يشعل فيه النار حالما شعر بتقدم القوات المعادية من القناة، كما أقام جبلاً من الرمال سماه خط بارليف (قائد يهودي)، يتعذر على الآليات الصعود عليه، وحتى المشاة يصعب عليهم تسلقه، وتحت هذا التل من الرمال أقام تحصيناته، وأسلحته وأسكن قواته المدافعة عن خط بارليف. ومما يؤسف له أن الضباط السوريين الكفرة صرحوا مراراً أمامنا نحن الضباط الصغار بأنه يستحيل حتى على ربنا سبحانه وتعالى وحاشاه عزوجل أن يجتاز قناة السويس؛ وقد بين الواقع أن هؤلاء الضباط الكبار السوريين الأسديين جبناء وجهلة؛ فقد اجتازه الجنود المصريون وهم يهتفون (الله أكبر).

وإذا كانت الحروب تبدأ مع الفجر عادة، فقد حدد الأسد والسادات الساعة الثانية ظهراً لتكون الساعة (س) أو ساعة الصفر، ويروي لي أحد ضباط المدفعية السوريين يقول استلمت الأمر في الثانية إلاربعاً، فجهزت وحدتي، ووضعت الذخيرة في المدافع وحددت الزوايا المطلوبة وفي تمام الثانية قلت بمكبر الصوت الذي تسمعه الوحدة جيداً (نار) أي أطلقوا نيران المدافع، فلم يطلق أي عنصر نيران مدفعه، وإنما نظروا إلي وقالوا هل أنت جاد يا سيدي!!؟، يقول فصرت أصرخ بهم وأكرر (نار، نار، نار) هيا أسرع ونفذ، وعندها صدق الجنود وبدأنا بالتمهيد المدفعي، ومما أكد لهم صدقي مرور طائراتنا (السوخوي) القاذفة من فوقنا لتقذف تحصينات العدو ومراكز قياداته.

إذن كانت مفاجأة للجندي العربي،كما كانت مفاجأة للجندي الإسرائيلي، فقد الصهاينة صوابهم وراحوا يتخبطون، ولم يستيقظوا من المباغتة إلا بعد اليوم الثاني. وقد وجد المصريون بعض الجنود الإسرائيليين نياماً في المخابئ تحت خط بارليف.

سير العمليات على الجبهة السورية :

اعتمدت سياسة الصهاينة في الدفاع عن الجولان على إقامة نقاط استناد قوية (قرى محصنة) وهي عبارة عن تل من الأرض يفرغ من داخله ويدعم بالاسمنت المسلح بالحديد، ثم تتمركز فيه عدة أسلحة مقاومة للدروع وللمشاة، وحتى الدبابات، ومن سوء حظ السوريين أن الجولان كله تلال مناسبة لهذا الغرض، وصنعوا خطوط مواصلات تحت الأرض بين هذه القرى المحصنة، ومهمة هذه القرى المحصنة إعاقة الهجوم لمدة يوم أو يومين، وتكبيده أكبر قدر من الخسائر، ليتمكن الهجوم المعاكس الذي يأتي من داخل الأرض المحتلة، يتمكن من دحر الهجوم والقضاء عليه. ثم دعمت هذه القرى المحصنة بخندق مضاد للدبابات سموه خط (آلون)(١). وهو أحد قادتهم كي تعيق تقدم أي

---

(١) قال لي أحد الأخوة الذين أثق بهم: لما كنت في الخدمة العسكرية، مواجهاً لتل الفرس، وكان الصهاينة يحفرون هذا الخندق (خندق ضد الدبابات والسيارات)، وتحمس عناصر إحدى الدبابات المواجهة لتل الفرس، وأخبروني أنهم سيرمون قذائفهم على الآليات الصهيونية التي تحفر هذا الخندق أمامهم على مسافة أقل من ألف متر (وهو أقل من الصفر التعبوي للدبابة)، حيث تتأكد إصابة الهدف، ورجوني أن أتأكد من سلامة أسلحة الدبابة التي ستقوم بهذا الاشتباك، أما أمر إطلاق النار فلا أملك منه شيئاً، لأنه بيد قائد سرية المشاة، والدبابة ملحقة على المشاة، فوصلت سيراً على الأقدام إلى مربض الدبابة، ورأيت الجرافات الصهيونية تحفر الخندق، وتأكدت أنها في مدى الصفر التعبوي، كما تأكدت من سلامة أجهزة الرمي في الدبابة، وقائدها رقيب حموي، ثم تركتهم على أن ينفذوا ما بيتوه صباح الغد، وعرفت بعد ذلك أن وصولي إلى المربض جعل قائد سرية المشاة الملازم (أنطون)=

هجوم سوري محتمل ريثما تتمكن قوات الجيش المتمركزة في داخل الأرض المحتلة من شن الهجوم المعاكس.

تمكنت وحدات النسق الأول من اجتياز خط (ألون) الذي حفرته إسرائيل على حدود الجولان مع سوريا، لتمنع اجتياز الدبابات والآليات العسكرية، وتكبدت هذه الوحدات قرابة (٦٠%) من آلياتها، ثم وصل بعضها إلى بحيرة طبريا المحتلة منذ عام (١٩٤٨م) ولكن هذه القوات السورية لم تنظف نقاط المقاومة الإسرائيلية، وهو من مهمة النسق الثاني الذي دخل المعركة الساعة (٢٣) ليلاً، واحتل عمق (٤) كلم في القطاع الشمالي، و(١٢) كلم في القطاع الأوسط، واحتل الجيش السوري جبل الشيخ منذ اليوم الأول .

ثم ركز الصهاينة هجومهم المعاكس على القطاع الشمالي بسبب الدور الخياني الذي قام به المقدم الدرزي رفيق حلاوة، الذي أمر الكتيبة المتقدمة والتي احتلت عمق (٤) كلم بالتراجع، وتكررت أوامره السلبية، ثم ضبط يتصل مع العدو، فشكلت محكمة ميدانية وأعدم في ميدان الحرب. ولهذا سهل على الجيش الإسرائيلي خرق الدفاعات السورية، بعد أن استرد ما حرره السوريون خلال يومي (٦، ٧) واحتل منطقة مساحتها (٢٠ مضروبة في ٢٣) كلم، فيها (٣٩) قرية سورية[1].

القوات العراقية :

أما القوات العراقية التي دعمت القطاع الشمالي فقد قامت على الفور بهجوم معاكس، تمكنت من طرد الصهاينة من تل عنتر حتى أم باطنة، وطلبت من السوريين إرسال قوات مشاة للتمسك بالمنطقة، لأن القوات العراقية مدرعات، ولكن القيادة السورية تجاهلت الطلب ولم تتسلم مواقعها المحررة.

كما قام لواء جبلي عراقي بمهمة إنزال على جبل الشيخ أسفر عن دحر الصهاينة وتحرير الجبل، وطلب من القوات السورية استلام الجبل، فصارت تسوف إلى أن أذيع وقف إطلاق النار، فعادت القوات الصهيونية إلى الجبل (المرجع نفسه).

=يكتشف ما يبيته الرقيب (زهير) فأخبر قائد الكتيبة الرائد أحمد الحسين (العلوي) الذي حضر في الحال وهدد الرقيب بالمحاكمة الميدانية، ومما قاله (أرضهم يحفرون فيها ما شاءوا). ومما لا أنساه أنني لما عدت إلى قيادة اللواء في (نوى) ليلاً وجدت فرقة موسيقية تغني للضباط، ومعهم راقصات ومطربات، وصوت الموسيقى يصل إلى تل الفرس، حيث صنع منه الصهاينة أكبر قرية محصنة وأكبر مرصد يرصد الفرقة الخامسة كلها.

(١) محمد عبد الغني النواوي، ص ٤٥٠ .

من غرائب الجيش العقائدي :

أصر المقدم الدرزي (شامل مصطفى) على أن يستطلع قوات العدو بنفسه، ومر يوم (٧) ولم يعد رئيس قسم الاستطلاع، وتبين أنه هرب إلى العدو الصهيوني بلباسه العسكري، وما يملكه من أسرار الحرب.كما قام عدد غير قليل من قادة الدبابات العلويين والنصارى باقتحام حقول ألغام صديقة، لأنها تقطع سلاسل الدبابة وتخرجها مع طاقمها من الحرب، كما اختلق أحدهم (النقيب إبراهيم بشارة) أمر انسحاب من عنده، وهو قائد سرية هندسة اللواء (٢٥) ثم كشف أمره، وحكم عليه بالسجن المؤبد، لكن أهله تمكنوا من رفعت الأسد وعرفوا كيف يجعلونه يتدخل للإفراج عنه.

نتائج حرب تشرين :

١ ترسخ في أذهان الضباط غير المسلمين أن إسرائيل لا تقهر، وأنه لا حل معها إلا الصلح والسلام، وهذا ما يريده الصهاينة وعملاؤهم.

٢ أدى رفض الجندي العربي للهزيمة إلى حرب الاستنزاف التي دامت (٨١) يوماً، وكانت ثقيلة جداً على الصهاينة الذين لا يقدرون على حروب طويلة الأمد.

٣ وساطة كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة(يهودي ألماني الأصل) التي أسفرت عن فك الاشتباك باتفاقية فصل القوات التي أقرها المؤتمر القطري في(٣٠/ ٥ / ١٩٧٤م) وزعمت إذاعة دمشق أنها انتصار لسوريا، وفي (٥/١٣) تم التوقيع عليها في جنيف.

٤ أصبحت العلاقات بين سوريا والولايات المتحدة علنية مكشوفة، وزار كيسنجر سوريا في شهر واحد (١٢) زيارة، وعاد السفير الأمريكي إلى دمشق بعد قطع العلاقات عام (١٩٦٧م)، وأخيراً زار نيكسون دمشق في (١٥/٤/ ١٩٧٤م) وقبلته إحدى الطالبات علناً في شوارع دمشق عند استقباله.

٥ – دافع (ساندوز) مساعد وزير الخارجية الأمريكي عن سوريا وطلب لها مساعدة أمريكية قدرها(٩٠) مليون دولار، وقال: إن سوريا لم تستبعد اشتراكها في عملية السلام، ولعبت دوراً خفياً في جنوب لبنان، ولكنه بالغ الإيجابية.

وفي الخامس والعشرين من شهر شباط عام ١٩٧٤م، أصدر (حافظ أسد) المرسوم الجمهوريّ رقم (٣٨٥)، القاضي بالعفو عن ثلاثةِ وعشرين جاسوساً كانوا يعملون لصالح

الكيان الصهيونيّ ضد سورية، بعد أن تغلغلوا في أنحاء البلاد.. وقد نصَّ المرسوم المذكور الموقَّع من قبل رئيس النظام في ذلك الوقت على ما يلي: مرسوم رقم (٣٨٥)

[بناءً على أحكام قانون العقوبات وأصول المحاكمات الجزائية، وعلى المرسوم التشريعي رقم (٤٣) بتاريخ ١٩٧١/٩/١، وعلى الأحكام المكتسبة قوة القضية المقضية، الصادرة عن المحكمة العسكرية بدمشق بالأرقام (١١٥٤/١١٣٢ تاريخ ١٩٥١/١٠/٢٩) و(١١٠١/٦٩ لعام ١٩٥٢) و(٢١٤/٢ تاريخ ٩٥٥/١٢/٢١) و(١٩/١٨ تاريخ ١٩٥٩/١٠/١٢) و(١٠/٩ تاريخ ١٩٥٩/٥/٢) و(٢٢/١٠ تاريخ ٩/٥ /١٩٥٩) و(١١/١١/أ.ر.ح تاريخ ١٩٦٠/١٢/١٠).. والمتضمن الحكم بالأشغال الشاقة المؤبّدة، على ثلاثةٍ وعشرين مجرماً، لارتكابهم جرم العمل لصالح المخابرات الإسرائيلية، ومَدّها بالمعلومات، وذهاب البعض منهم إلى إسرائيل، والاتصال بالمسؤولين فيها، وتناول المال من إسرائيل لقاء عمليات التجسس.. يرسم ما يلي:

المادة (١): يمنح المحكومون المذكورون عفواً خاصاً، عن المدة المتبقية المحكومون بها من قبل المحكمة العسكرية، بقراراتها رقم (١١٥٤/١١٣٢) و(٢٠/٢١٤) و(١/٩) و(١٩/١٨) و(٢٢/١٠) و(١١/١١).

المادة (٢): لا يُنشَر هذا المرسوم، ويبلَّغ مَن يلزم لتنفيذه.

١٩٧٤/٢/٢٥ رئيس الجمهورية: [توقيع حافظ الأسد]

حافظ الأسد في لبنان :

في عام (١٩٧٥) اتخذت سوريا الأسد أولى خطواتها لتكون قوة إقليمية، أو خصم إسرائيل الذي له وزن وحجم. وكانت زيارة الأسد لبنان في مطلع (١٩٧٥) أول خطوة، واندلعت الحرب الأهلية في لبنان، بعد زيارة الأسد بأربعة شهور !!؟)، ولبنان هو البلد العربي الوحيد الذي يتمتع فيه الفلسطينيون بحرية الحركة وزاد عددهم على نصف مليون، وكان حلفاؤهم بشكل بدهي هم المسلمون (سنة أو شيعة)، وكلما نفذ الفلسطينيون عملية في الأرض المحتلة ردت عليهم إسرائيل بعملية كوماندوز في قلب بيروت، كررتها إسرائيل عدة مرات، وبلغ مجموع عملياتها من (٦٨- ١٩٧٤) أربعة وأربعين هجوماً أدت إلى مصرع قرابة ألف فلسطيني ولبناني.

كان الخط المألوف لدى أمريكا وإسرائيل هو تخويف الأسد كي يبقى في خارج الحلبة اللبنانية، بينما يترك الفلسطينيون واللبنانيون يتصارعون حتى النهاية، وكانت هذه

هي غريزة إسرائيل. لكن كيسنجر استطاع أن يغير هذه القناعة لدى أمريكا وإسرائيل معاً،ويقنعهم أن الحكمة هي دخول سوريا إلى لبنان، وقد توصل كيسنجر لموقف يضطر فيه الأسد إلى سحق الفلسطينيين بدلاً من حمايتهم، وإن الفوائد لأميركا وإسرائيل يمكن أن تكون عظيمة جداً، فالفلسطينيون سيتم قهرهم، واليسار يقهر، والأسد تتلوث سمعته عند العرب، وجادل كيسنجر كعادته وهو يؤكد أنه يعرف مصلحة إسرائيل أكثر من إسرائيل نفسها، ودفعها إلى قبول هذا التوجه، والموافقة على دخول القوات السورية إلى لبنان، وأن هذا سيبعد الأسد عن الاهتمام بالجولان. [وقد صرح الأستاذ عبد الحليم خدام أن حافظ الأسد أكد مفهوم تحرير الجولان من بيروت].

اتفاقية الخط الأحمر :

وهي اتفاقية شفوية مؤداها أن تقبل إسرائيل وجود قوات سورية في لبنان، بدون صواريخ سام، جنوب طريق دمشق بيروت، وأن يكون الانتشار السوري في البحر والجو محدوداً، وفي (١٩٧٦/٥/٣١) أرسل الأسد جيشاً إلى لبنان، وعلى الفور فك حصار الفلسطينيين اليساريين عن المعاقل المسيحية بالقوة العسكرية ضد الفلسطينيين.

في البداية كان الأسد يبعث نداءات للفلسطينيين كي يلقوا سلاحهم، ولكن عندما رفضت القيادة الفلسطينية إنذاراته أرسل المدفعية والطيران لدعم تحرك قواته في العمق اللبناني. وفي أواخر حزيران (٧٦) كانت القوات السورية تحاصر المعاقل الفلسطينية واليسارية.

مكن التدخل السوري المسيحيين التحول من الدفاع إلى الهجوم، ولاسيما ضد مخيم (تل الزعتر) في ضواحي بيروت الشرقية، فحاصروه وفيه (٣٠٠٠٠) فلسطيني، وبعد (٥٢) يوماً من الحصار بعد أن مات فيه أكثر من (٣٠٠٠) فلسطيني، وقال رابين يومها: إنه لا يرى حاجة للتشويش على الجيش السوري وهو يقتل إرهابيي عرفات. وقد أثبتت حسابات كيسنجر صحتها.

واهتز العالم العربي ضد الأسد، وقطع السادات علاقاته معه، وأرسل صدام حسين قوات إلى الحدود السورية، وهاجم جنبلاط الحكومة السورية، وقالت بعض الصحف

العربية أن الأسد متواطئ مع أمريكا لسحق المقاومة الفلسطينية لتمهيد الطريق أمام مشاريع التسوية. حتى الاتحاد السوفياتي لم يرض عن تدخله في لبنان[١].

وانقضى صيف (١٩٧٦) بعمليات عسكرية صغيرة هادئة تخللتها بالتناوب نداءات ومناشدات وإنذارات متجددة، ثم شن في أواخر أيلول (٧٦) عدداً من الهجمات الكبرى انتهت بما يقرب من الدحر الكامل للفلسطينيين وحلفائهم. وعندئذ أصبح الأسد مستعداً لقبول الدعوة السعودية إلى مؤتمر مصالحة في الرياض (١٦/١٠/١٩٧٦) أضفت الشرعية على وجوده في لبنان باسم قوات الردع العربية، ووافقت السعودية والكويت على دفع نفقات الجيش السوري في لبنان وفي نوفمبر (٧٦) دخلت القوات السورية غرب بيروت وأعلن عن انتهاء الحرب الأهلية[٢].

---

(١) وأهم تفسير لدخول الأسد لبنان، كما سبق هو سحق المقاومة ليقبل العرب بالتسوية، ولحماية الحدود الشمالية للصهاينة، ومن ثم، تضييق الخناق على المعارضة السورية وخاصة الإخوان المسلمين، وقد كانت المعارضة السورية تتنفس الحرية من الرئة اللبنانية، وكل مطلوب للأمن السوري خلال ساعتين فقط يكون داخل لبنان لينجو بريشه من بطش الأمن السوري، وعرف الأسد أنه لا يستطيع كبح الشعب السوري بدون السيطرة على لبنان لتكون تابعة له. بل استطاع الأسد أن يحكم الخناق على العرب جميعاً بعد دخوله لبنان، واستمر يبتز أموالهم، ليوزعها على أزلامه وعشيرته.

(٢) عمليات جيش الأسد في لبنان:

هب المسلمون صفاً واحداً بعد مجزرة (الكارنتينا) التي دبرها حزب الكتائب ضد المسلمين، وانضم المسلمون يقاتلون في إطار منظمة التحرير أو الحركة الوطنية أو جيش لبنان العربي، وتمكنت القوات الوطنية من احتلال شتورا، وزحلة، وزغرتا، والدامور، والسعديات، ودارت الدائرة على الموارنة وسائر المسيحيين، وأخذت مدفعية جيش لبنان العربي تدك قصر الرئاسة في بعبدا، فهرب رئيس الجمهورية سليمان فرنجية إلى زغرتا، وسيطر الجيش العربي على معظم لبنان بقيادة الضابط أحمد الخطيب، وبات مؤكداً أن الوضع سينتهي لمصلحة الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية، وفي هذا الظرف الحرج تحرك حافظ الأسد لينفذ الأوامر التي صدرت إليه من تل أبيب وواشنطن .

وبمجرد وصول القوات السورية بعد موافقة جامعة الدول العربية التي تكفلت بتغطية نفقات قوات الردع السورية، تخلت الصاعقة عن منظمة التحرير، كما تخلى حزب البعث اللبناني عن الحركة الوطنية، وهكذا شق الأسد المنظمة والحركة منذ اليوم الأول، كما تخلت أمل الشيعية عن جيش لبنان العربي والحركة الوطنية، بعد أوامر موسى الصدر لهم، ووقف الدروز على الحياد يتفرجون على ذبح المسلمين، وهاهي النتائج العسكرية:

١ انتصرت القوات السورية انتصاراً ساحقاً على القوات المشتركة في سهل البقاع وعكار والجبل وصيدا، وفرضت حصاراً في البر والبحر والجو، ومنعت وصول المؤن والذخائر إلى المقاومة الفلسطينية=

الأسد والعدو الداخلي (الإخوان المسلمون) :

في (١٩٧٩/٦/١٦) وقعت مذبحة المدفعية في حلب، وقتل فيها النقيب إبراهيم اليوسف، وهو ضابط بعثي، مسؤول أمن المدرسة، بمساعدة الطليعة المقاتلة قرابة ثلاثة وثمانين طالب ضابط من العلويين (وقيل مائتان)، وكانت بمثابة إعلان الحرب بين حافظ الأسد والطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين[1]. وكانت الحوادث (الإرهابية) كما يسميها سيل من نوع (اضرب واهرب) تهز حياة المدن السورية منذ تدخل الأسد في لبنان صيف (١٩٧٦)[2]. وقتل عدد من رجالات الحكم: مثل العميد عبد الكريم رزوق قائد مدرسة المدفعية (١٩٧٧)، والدكتور إبراهيم نعامة (١٩٧٨)، والطبيب محمد شحادة طبيب الأسد الخاص، وغيرهم كثير [وقد أسهم هذان الطبيبان في محاولة الوصول إلى لاشعور مروان حديد وهو في السجن بواسطة العقاقير]، ويرى سيل أن هذه الأحداث لم تنشأ من فراغ، وإنما يشير إلى: (... وبدأ عدد من الواصلين في الحكومة يجمعون ثروات طائلة لم يعرف مثلها السوريون من قبل، وكان الأسد منشغلاً بالشئون الخارجية وأهمل الداخل. وبينما كانت المساعدات الخارجية إلى سوريا لا تزيد عن خمسين مليون دولار سنوياً، قفزت عام (١٨٧٤) على ستمائة مليون، معظمها من دول الخليج، وحتى من الولايات المتحدة الأمريكية، أما صادرات سوريا النفطية فقد كانت سبعين مليون دولار (١٩٧٣)

=والحركة الوطنية، واستولت القوات السورية على مواد غذائية أرسلت من الفلسطينيين في الخليج إلى القوات المشتركة .

٢ تركت القوات السورية ميناء جونية الذي يسيطر عليه حزب الكتائب، ليتنفس منه الموارنة والنصارى، والتجار من الضباط السوريين الكبار .

٣ طارد الجيش السوري كل معارض سوري أو لبناني، واعتقله أو قتله إن لم يتمكن من الفرار.

٤ ساهمت القوات السورية في حصار تل الزعتر، بالتعاون مع الكتائب، وبدأ الحصار في أواخر حزيران، وسقط المخيم في (١٩٧٦/٨/١٤م) بعد حصار أكثر من شهر ونصف، ومنعت القوات السورية وصول الطعام والماء والذخيرة إلى المخيم، كما شاركت في الإعدامات وهتك الأعراض والنهب تحت قيادة العقيد علي مدني [قائد الشرطة العسكرية، ومن رجال الحركة التصحيحية ١٩٧١م، ومما يؤسف له أنه حموي].

٥ فعلت منظمة الصاعقة وقوات الردع السورية الأفاعيل في لبنان من نهب المصارف، والسيارات والمخازن والمستودعات.

(١) في هذا الفصل غيرت كثيراً من مصطلحات (باتريك سيل) التي تدل على جهله بالواقع. وفي ص ٥١٤ أخطاء شنيعة منها أن العقيد علي حيدر آمر حامية حماة (!!!) قتل عام (١٩٧٦)..

(٢) وهذا غير صحيح، لأن الرصاصة الأولى للطليعة المقاتلة كانت يوم (١٩٧٦/٢/١٦) في رأس الرائد محمد غرة قائد الأمن القومي في حماة.

قفزت إلى (٧٠٠) مليون دولار (١٩٧٤*)، وزادت على عائدات القطن المحصول التقليدي في البلد.

وبدأت تنحصر الثروة في يد فئة قليلة، وتهبط الطبقة الوسطى لتصبح فقيرة، فقد كان في سوريا (٥٥) مليونيراً بالليرات السورية عام (١٩٦٣)، أما عام (١٩٧٦) فقد قفز العدد إلى (٢٥٠٠) مليونير، وقد أثرى كثيرون منهم من العمولات التي يأخذونها على مشاريع الدولة (مثل السيد محمد حيدر الذي سمي السيد ٥%) ويقال (١٠%). ونمت شراكات بين كبار رجال الأعمال وكبار موظفي النظام العسكريين والسياسيين.

وفي ذلك الوقت أنشأ (رفعت الأسد) الذي كان يرى نفسه درع نظام أخيه، أنشأ سرايا الدفاع، كأفضل وحدات في الجيش من حيث الرواتب (العسكري ١٥٠٠ليرة في حين كان المدرس المتخرج من الجامعة ٥٠٠ليرة فقط). وفي المؤتمر القطري الخامس (١٩٧٥) انتخب رفعت عضواً في القيادة القطرية، وكان رفعت فوق القانون(١). وارتفع مستوى المعيشة بشكل مخيف، فالشقة التي كان ثمنها خمسين ألف ليرة صار نصف مليون أي ارتفع عشرة أضعاف.

شكل الأسد لجنة الكسب غير المشروع (١٩٧٧) التي قبضت على عشرين من كبار التجار والموظفين، لكنها تراجعت عندما وجدت نفسها مشتبكة مع شخصيات مقربة من النظام. وكان رفعت الأسد المثال النموذجي للإثراء غير المشروع، ولا أحد يستطيع أن يمس شقيق الرئيس وحامي نظامه، ولأن الحاجة كانت ماسة له في الحرب مع الإسلاميين.

وقام رفعت بطبع مليارات الليرات السورية من فئة (٥٠٠) ليرة ، وقد شاهد جبلي توقيع رفعت عليها ، بعد أن رفض مدير المصرف المركزي من التوقيع ، واشترى بها رفعت الذهب في سوريا، وأودعه في بنوك الغرب تحت اسمه.

توفي مروان حديد في السجن عام (١٩٧٦) في مستشفى حرستا العسكري، وأقسم أتباعه على الثأر له. وبعد ثلاثة أعوام وقعت مذبحة المدفعية في حلب، ومن منتصف (١٩٧٩) وحتى منتصف (١٩٨٠) كان التنظيم السري (يقصد الطليعة المقاتلة) يمسك بزمام المبادرة، وبدا الأسد معرضاً لأعظم الأخطار، وكان المقاتلون يختبئون في الأحياء القديمة التي يصعب على السيارات الدخول فيها، ومنها ينطلقون لتنفيذ عملياتهم في قتل أعوان النظام. ففي حلب قتلوا أكثر من (٣٠٠) شخص معظمهم من البعثيين والعلويين.

---

(١) باترك سيل، ص ٥١٨ .

وفي عام (١٩٧٩) أعدم (حسني عابو) صهر الشيخ طاهر خيرالله، بعد أن عرف أنه قائد التنظيم العسكري في حلب، فخلفه (عدنان عقلة)، بينما قتلت قوات النظام حوالي ألفين من المعارضين المسلمين، بالإضافة إلى اعتقال الألوف.

وفي آذار(١٩٨٠) حاول الإخوان المسلمون، (يقصد الطليعة المقاتلة)؛ القيام بإضراب تجاري، سرى في كافة المدن ماعدا دمشق التي وجد الأسد فيها حليفاً في شخص (بدر الدين الشلاح)، رئيس اتحاد الغرف التجارية وصاحب النفوذ الكبير، ومع أنه في الثمانينيات جمع أصحاب المحلات التجارية وحثهم على عدم الإضراب. وقد استفاد تجار دمشق من الثراء الجديد، أكثر من زملائهم في المدن الأخرى، وقد تبين للأسد، منذ استلامه الحكم؛ أنه يجب عليه أن يتصالح مع طبقة التجار الدمشقيين ليستقر له الحكم.

وفي المؤتمر القطري السابع تولى رفعت الأسد الدعوة إلى شن حرب شاملة ضد (الإرهابيين يقصد الإخوان المسلمين) وقال: إن ستالين ضحى بعشرة ملايين للمحافظة على الثورة البلشفية، ويجب أن تفعل سوريا مثل ذلك، وقد شهد ذلك المؤتمر صعود رفعت إلى مستوى لا تتفوق عليه سوى منزلة أخيه حافظ. ولعل أساليب القبضة الحديدية التي مارسها قد أنقذت الدولة، غير أنه غيرت طابعها أيضاً.

وفي (١٩٨٠/٣/٩) أرسلت قوات محمولة جواً إلى جسر الشغور وأدى ذلك إلى (٢٠٠) قتيل من المواطنين وسيق مئات آخرون إلى المحاكم الميدانية. وأرسلت الفرقة الثالثة بأكملها أي عشرة آلاف رجل و(٢٥٠) دبابة إلى حلب يقودها شفيق فياض، وانضم إليها رجال من سرايا الدفاع، وقامت بعمليات التفتيش (التمشيط) الذي ساد في الربع الثاني من عام (١٩٨٠). وبقيت الفرقة الثالثة عاماً كاملاً في حلب، لها دبابة في كل شارع، وتعرضت حماة للقصة نفسها من التمشيط في سنوات (١٩٨٠ ١٩٨١). وحلت النقابات ووضعت مكاتبها تحت الوصاية، ولم تظهر بعد ذلك.

وفي (١٩٨٠/٦/٢٦) كان الأسد يودع أحد ضيوفه الأفارقة، عندما نجا من الموت بأعجوبة على يد خصومه الإسلاميين، فقد ألقيت عليه قنبلتان، فرفس إحدى القنبلتين بعيداً، بينما ألقى أحد الحراس بنفسه على الثانية، وقام حارسه خالد الحسين (الفلسطيني) بإلقاء الرئيس على الأرض وجعل جسمه درعاً لحمايته.

وفي الساعة الثالثة من صباح يوم (١٩٨٠/٦/٢٧) شحنت وحدتان من سرايا الدفاع بالطائرات إلى سجن تدمر، وأطلقت النار من الأسلحة الرشاشة على المساجين في زنزاناتهم، فقتل حوالي خمسمائة سجين [الواقع أنهم ألف] كلهم من الإخوان المسلمين [١].

---

(١) الحقيقة ألف وليس خمسمائة كما يقول نزار نيوف.

وصدر المرسوم (٤٩) الذي يجرم بالإعدام على كل من انتسب للإخوان المسلمين، وأعطيت فرصة شهر واحد لمن ينسحب من التنظيم، فتقدم مئات من صغار الأعضاء ولكن المتشددين في قلب الحركة لم يهتزوا.

وفي عام (١٩٨١) قتلت المخابرات السورية الصحفي سليم اللوزي، ورياض طه نقيب الصحفيين في بيروت، وقتلوا بنان الطنطاوي زوجة عصام العطار، كما اغتالوا صلاح الدين البيطار في باريز، الذي أصدر في باريز مجلة (الإحياء العربي) بدعم من الخليج، ونشر فيها مطالبة المحامين السوريين بإعادة سيطرة القانون، وجرح قاعدة الحكم السوري الطائفية العلوية. وشنع على الأسد قتله للفلسطينيين في لبنان.

وفي خريف ١٩٨٠ شكلت الجبهة الإسلامية التي حاولت تجميع المعارضة السورية في تحالف وطني وكانت قيادتها مكونة من عدنان سعد الدين من (حماة) (!!)، ومحمد البيانوني (!!) من حلب وسعيد حوا من مواليد حماة. ونقل العمليات إلى دمشق في مكتب رئيس الوزراء (آب ١٩٨١)، وخارج الآمرية الجوية (أيلول ١٩٨١)، وخارج مقر الخبراء السوفيات (أكتوبر ١٩٨١)، وأكثرها دموية الأزبكية (١٩٨١/١٠/٢٩). وتحولت دمشق إلى معسكر مسلح. وحصل الأسد على سيارة كذلك مصفحة عام (١٩٧٦)، وفي عام (١٩٨١) كان الأسد من أفضل الرجال حراسة في العالم.

انتفاضة حماة (كما يقول سيل)[1] :

في (١٩٨٢/٢/٢) كانت وحدة من الجيش تمشط المدينة القديمة، فوقعت في كمين وقتل فيه عشرون جندياً، بعد أن عثر الجنود على وكر القائد المحلي للمقاتلين (عمر جواد المسمى أبو بكر). وعندما طوق أعطى الأوامر بالانتفاضة، فانطلقت المساجد بنداءات

---

(١) في آذار عام (١٩٨٠م) أجمع المثقفون ورجال الفكر والأطباء والمهندسون والصيادلة وجميع أصحاب المهن في حماة وحلب وإدلب وجسر الشغور على تقديم المطالب التالية لحافظ الأسد وهي:

١ رفع حالة الطوارئ، وإلغاء المحاكم العرفية.

٢ إعادة جميع صلاحيات التقاضي إلى القضاء المدني. بعد استقلال السلطة القضائية عن التنفيذية.

٣ احترام حقوق الإنسان فعلاً وممارسة.

٤ إجراء انتخابات حرة يختار الشعب فيها رجال السلطة التشريعية.

وخرجت عدة مظاهرات ومسيرات شعبية في حماة وحلب وإدلب وجسر الشغور تندد بالسلطة الأسدية، وتم الاتفاق على أن يكون يوم (١٩٨٠/٣/٣١م) إضراباً عاماً تأييداً لهذه المطالب. ونفذ الإضراب ووزعت عشرات الآلاف من النشرات تبين المطالب المتفق عليها من قبل الشعب.

وكان رد السلطة الأسدية حل النقابات ومجالسها وفروعها، واعتقل أعضاؤها، واعتقل عدد كبير من أساتذة الجامعات والمحامين والأطباء والصيادلة والمدرسين والعلماء، وآلاف من طلاب الجامعات والمدارس الثانوية، وبدأت السلطة بتمشيط المدن والقرى، فكانت المجازر الجماعية. ومنها مجازر حماة.

الجهاد ضد البعثيين من مكبرات الصوت، وخرج مئات المقاتلين من مخابئهم يقتلون وينهبون السلاح، ويهاجمون بيوت المسؤولين، وبحلول صباح الثالث من شباط قتل سبعون من كبار المسؤولين، وأعلن المقاتلون سيطرتهم على مدينة حماة.

واستمرت المعركة ثلاثة أسابيع مدلهمة ضارية، كانت الحكومة تحاول إعادة السيطرة في الأسبوع الأول، وفي الأسبوعين الآخرين كانت تقتل المتمردين[١]، وتراجع المتمردون إلى الأحياء القديمة التي لا تدخلها السيارات، مثل البارودية والكيلانية، فقصفتها السلطة بالمدفعية وقتل عدد كبير من المدنيين الأبرياء قبل القضاء على المقاومة وبعدها. ودمرت الحكومة ثلث المدينة.

وأزيحت الأحياء القديمة المتهدمة بالجرافات، وأقيمت حدائق وساحات، ونوادي وبركة سباحة مختلطة (!!!)، وكانت هذه السباحة المختلطة من أهم التغييرات الثورية عام (١٩٨٣).

يقول باترك سيل: وهؤلاء المقاتلون الذين يملكون أموالاً وأسلحة ومعدات متطورة كانوا سذجاً في السياسة، فقد تحدثوا عن إقامة جمهورية إسلامية في سوريا، ولكنهم لم يقدموا أي برنامج منطقي متماسك، ورغم ذلك تعاطف معهم كل من يكره البعثيين وهم أغلبية الشعب.

انزوى الأسد بعد القضاء على الإخوان المسلمين، وصار شعبه يراه في التلفزيون فقط، وبدأ يهرم خلال سنوات الأزمة، إذ كان يأكل بشكل غير منتظم، ونادراً ما كان يخرج لاستنشاق الهواء الطبيعي، بل يعمل في مكتبه المغلق بستائر ثقيلة أربع عشرة ساعة بلا توقف؛ حتى أضر ذلك بصحته، فأصابه الضنى والهزال، ولم يعد ينام إلا غراراً، ونشأت لديه عادة مقلقة وهي استدعاء أحد مساعدية أو السفراء إلى منزله في منتصف الليل من أجل حديث حتى الثالثة صباحاً[٢].

ولم تكن الخشية من الاغتيال هي السبب الوحيد لهذه العزلة، بل وجدها من حكم مكيافللي (كي تقود الرجال أدر لهم ظهرك)...أي لا تجلس معهم فيهابونك. ولم يعد الوزراء يرونه سوى مرتين، الأولى عند قسم اليمين، والثانية عندما يغادر المنصب، وصار من يحظى بمقابلة الأسد هم أصحاب النفوذ الكبير في سوريا فقط.

---

(١) والصحيح أنها كانت تقتل الحمويين من كل الفئات،حتى المسيحيين والبعثيين، ومعظم القتلى من النساء والأطفال

(٢) متى كان يتهجد (!!!!) كما يقول الشيخ (...)، ومتى كان يصلي الصبح (!!!)؟؟؟

كان لديه مكتب في بيته وآخر في القصر الجمهوري، ولا أحد يعرف أين يداوم غداً، ومتى يصل؟ ولا توجد عنده عطلة أسبوعية، وكان السفراء الأجانب ينتظرون شهوراً لتقديم أوراق اعتمادهم له. ولم تعد عنده عطل ولا زيارات لأقارب أو أصدقاء، وكانت أداته المفضلة في الحكم هي الهاتف. في السبعينيات كان يحكم بترأس الاجتماعات، وفي الثمانينيات كان يحكم بالهاتف، يبدأ الاتصال منه دائماً ولا أحد يجرؤ على الاتصال به ماعدا ثلاثة أو أربعة وهم قادة الأجهزة الأمنية، وبقية الوزراء ورئيسهم وغيرهم يتصلون بمدير مكتبه (أبي سليم).

وكان يقرأ كل يوم ثلاثة خلاصات للأخبار تجهز له بعناية، ويرأس ذلك القسم (جبران كورية) المسيحي البروتستانتي، وكل شيء كان يدار حسب الطريقة القديمة، لا كمبيوتر، ولا أرشيف، وكان العثور على وثيقة قد يستغرق ثلاثة أيام.

في الثمانينيات صار في البيت الأسدي طباخة وخادمة، وقد أصر الأسد على أن يتعلم أولاده في سوريا (!!!) وكانوا مثلاً للالتزام والمثالية في تعاملهم مع المدرسين، ويرتدون اللباس الجامعي المقرر على الطلاب والطالبات. وكانت الروح السائدة في البيت هي الخجل والتمسك بالخلق القويم، وشدة الولاء للأسد، وعندما كبروا لم يعد يرونه إلا نادراً، يقول بشار: (كنا نرى والدنا في البيت، ولكنه كان مشغولاً إلى درجة أن ثلاثة أيام تمر أحياناً دون أن نتمكن من التحدث معه، فلم نتناول الإفطار أو العشاء سوية، ولا أذكر أننا تغدينا كعائلة واحدة إلا مرة أو مرتين في مناسبات رسمية، كنا نقضي يوماً أو يومين في اللاذقية في الصيف، ولكن حتى هناك كان والدي ينهمك في العمل في مكتبه فلا نراه كثيراً.

الأسد يقف مع إيران[1]

يقول باترك سيل ص ٥٧١: أجرأ ملامح سياسة الأسد الخارجية... كانت بلا شك وقوفه مع إيران الثورة، وها هو الأسد بطل القضية العربية المعاصر؛ يتحالف مع قوة

---

(١) في عام (١٩٧٩) والثورة الإيرانية على أشدها، وبداية صراع الإسلاميين المسلح مع الأسد في سوريا، كنت بعيداً عن سوريا، وكان زميلي العلوي نائب الملحق الثقافي في السفارة السورية هناك، يرسل لي- مشكوراً - الصحف السورية في البريد، حيث كنت بعيداً جداً عن العاصمة، وكنت أطالع الصحف السورية بشغف، وأتعجب من وقوف الإعلام العربي السوري الذي يحارب الإسلاميين في سوريا، وقوفه مع الثورة الإسلامية الإيرانية، خاصة وأن تصريحات الخميني ورجاله يومذاك كانت تنم عن ثورة إسلامية، لا تختلف عما يطلبه الإخوان المسلمون، وكان هذا سراً غامضاً عسير الفهم يومذاك، لكنه اتضح فيما بعد بأن الأسد كان علوياً يدعي أنه من الشيعة، قبل أن يكون عربياً، كما يتضح من كتاب باترك سيل وإذا تنازع هذان الخطان لديه: خط العروبة وخط الشيعة، فالشيعة أولاً حتى لو كانوا فرساً، وضد الأمة العربية.

كبرى غير عربية، بل كانت- ومازالت- تهدد الدول العربية عبر الخليج. وبالنسبة للعالم العربي، وحتى المحلي، كان قرار الأسد بدعم إيران محيراً ومثيراً للجدل والخصومة، وقد خلق هذا التيار نزاعات مع العالم العربي، وأبرز الطابع الشاذ والخطر نوعاً ما للنظام السوري. وبدا الأسد وكأنه يخطو خارج المسار الأساسي العربي القومي، ومع ذلك فقد تمسك برأيه هذا خلال جميع تقلبات حرب الخليج، ولم يتأثر بقلق الآخرين.

كانت هناك أسباب استراتيجية هامة لتحركه، وقد تشبث بها مثل كامب ديفيد، وخروج مصر من الصف العربي، ويدعي أنه يعوض مصر بإيران ضد إسرائيل... ولكن لها جذور في خلفيته كأحد أبناء الطائفة العلوية.

وكانت صلته مع الإمام موسى الصدر وثيقة الذي استقر في لبنان (١٩٥٩)، وأفتى بأن العلوية فرقة من المسلمين الشيعة.كما أبقى الشيعة في لبنان خارج ائتلاف كمال جنبلاط اليساري الذي دمره الأسد فيما بعد.

عرض الأسد على الخميني الإقامة في سوريا، بعد أن أخرجه صدام حسين من النجف عام (١٩٧٨)، ولكنه فضل (باريز)، ويرى الأسد أن من أسباب دعمه للثورة الإيرانية أنها ضد الشاه الحليف الأول لإسرائيل. [مع أن الشاه نفسه كان صديقاً لحافظ الأسد!!!]. وفي الحقيقة وجد الأسد في التحالف مع إيران أفضل وسيلة لكبح جماح جاره وعدوه (صدام حسين) مع أنهما أبناء حزب البعث كلاهما.

ومنذ دخول القوات العراقية إيران وبداية حرب الخليج الأولى، شجبها الأسد باعتبارها حرباً خاطئة غير مناسبة، من حيث زمانها ومكانها واختيار العدو، لأن محاربة إيران حماقة فهي ستنهك العرب، وتشغلهم عن المعركة المقدسة في فلسطين، وحاول الأسد عن طريق السعودية والأردن إيقاف الحرب، ولما يئس من إيقافها صار يعمل على عدم انتصار العراق[١].

وكان السوفيات مسرورين لأن إيران تخلت عن أمريكا، ورخصوا لسوريا وليبيا بيع أسلحة سوفيتية لإيران، وكانت هناك تقارير فورية عن جسر جوي من سوريا عبر اليونان وبلغاريا والاتحاد السوفياتي، ومن ليبيا عن طريق البحر الأسود، وكان هذا الجسر يستخدم أسطول الشاه الضخم من طائرات البوينغ (٧٤٧) و(٧٢٧) و(٧٠٧). وفي كانون الثاني (١٩٨١) أقامت إيران خطوطاً جوية منتظمة مع دمشق وطرابلس والجزائر.

---

(١) باترك سيل، ص ٥٨١ .

وفي عام (١٩٧٩) بدأ متطوعون إيرانيون يعبرون من خلال سوريا في طريقهم إلى لبنان، كي يقاتلوا إسرائيل، وراحت مخابرات الأسد تنضم إلى إيران في القيام بمهمات تخريبية في العراق، أو بالتجهيز بالسلاح، أو التعاون المخابراتي، أو الدعاية، وسرعان ما وجدت سوريا نفسها منغمسة في حرب الخليج.

ورد صدام بإغلاق السفارة السورية في بغداد في آب (١٩٨٠)، وصار الإعلام العراقي يكيل الشتائم للأسد الذي سلم القنيطرة بدون قتال (١٩٦٧)، وطلب وقف إطلاق النار بجبن في اليوم الثاني لحرب تشرين (١٩٧٣)، وتدخل في لبنان بالتواطؤ مع إسرائيل وأمريكا لذبح الفلسطينيين[1].

ومع استمرار الحرب صرت تشاهد في دمشق أعداداً كبيرة من النساء الإيرانيات بعباءاتهن السود، من أرامل وأمهات القتلى، يتوجهن إلى قبر السيدة زينب حفيدة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما قام علي أكبر ولايتي وزير خارجية إيران بزيارة دمشق في رأس السنة (١٩٨١)، وفي الفندق كان يتابع التلفزيون السوري، فأصيب بصدمة وهو يرى الملاهي الليلية التي تحتفل في آخر السنة بالعربدة والمرح الصاخب، وشعر المسؤولون السوريون بالحرج الخفيف، عندما افتتح ولايتي جلسة المحادثات في صباح اليوم التالي بشن حملة عنيفة ضد الراقصات شبه العاريات، اللواتي شاهدهن على شاشة التلفزيون السوري.

ومع استمرار الحرب رأت إسرائيل في تجارة السلاح مع إيران فرصة لإقامة علاقة سرية مع المشايخ، وفي (١٩٨٠) استأنف بيجن بصمت وهدوء بيع معدات عسكرية لإيران، بدءاً من قطع غيار الطائرات (ف ٤) المقاتلة.

وتبين أن كثيراً من المعلومات المخابراتية التي شجعت صدام على غزو إيران، كانت تأتي من إسرائيل، وخلاصتها أن إيران في حالة فوضى، وقد أعدمت مائة ضابط، وسرحت ألوفاً، والجيش الباقي مشتبك مع الحرس الثوري الجديد، وظن صدام أنه يستطيع الإطاحة بالخميني خلال أسبوع واحد فقط، نتيجة المعلومات التي سربتها له إسرائيل، كي تشغل أكبر عدوين لها ببعضهما، وكان ذلك، وكنا نلاحظ أن أمريكا (يعني إسرائيل)كانت تريد أن تستمر الحرب ويبقى الوضع (لا غالب ولا مغلوب).

---

(١) باترك سيل، ص ٥٨٢ .

واستمرت سوريا الأسد وإسرائيل تتسابقان على كسب ود ثورة إيران، وبذلك امتد الصراع العربي الإسرائيلي إلى الخليج، فإسرائيل تأمل أن تؤدي مبيعات الأسلحة لإيران إلى إقامة تماثل واتفاق في المصالح بينهما، أما سوريا فترى أنه يجب احتضان الثورة الإيرانية كحليف - رغم الضغط العربي - والمؤسسات السنية وخاصة في الجزيرة العربية والدول الخليجية.

حرب الأخوين حافظ ورفعت[١]:

---

(١) يقول مصطفى طلاس في كتابه (ثلاثة شهور هزت سوريا): محاولة انقلاب رفعت على حافظ (شباط: ١٩٨٤م): يظهر مما سبق، كما سبق أن عرفناه من الواقع السوري في عقد السبعينيات، أن رفعت أسد كان الساعد الأيمن لشقيقه حافظ وكان عونه في ذبح الشعب، ونهب خيراته وثرواته، وكان ينتظر موت أخيه ليتسلم الرئاسة بدلاً منه، لأنه كما قيل [طالبان لا يشبعان طالب علم وطالب مال]، ورفعت طالب مال، والجاه وسيلة للمال أيضاً، لذلك لم يكتف أن يكون نائباً لرئيس الجمهورية لشئون الأمن، ولم يقبل أن يتسلم الحكم ابن أخيه باسل حافظ الأسد بعد موت أبيه، وقد شاهد أخاه حافظاً يهيئ ولده البكر (باسل) ليخلفه في الرئاسة، وبناء عليه قرر رفعت أن ينقلب على أخيه ويتسلم الحكم بالقوة، فحرك الدبابات وهمّ بذلك لولا أن أخاه عرف بنوايا شقيقه مسبقاً من جواسيسه في سرايا الدفاع، فأحبط الانقلاب بمساعدة مصطفى طلاس وعلي دوبا ومحمد حيدر، الذين يكرهون رفعت كثيراً لتجبره وتكبره عليهم. كما يتضح من كتاب مصطفى طلاس [ثلاثة شهور هزت سوريا]. وانتهت هذه المحاولة بنفي رفعت خارج سوريا، بعد أن دفع له أخوه ملايين الدولارات التي أتت على الخزينة السورية كلها وأكمل له الباقي من القذافي (!!!). يقول العماد طلاس في كتابه:

رفعت يعد أتباعه بالدولة العلوية:

يكشف طلاس أن رفعت كان "يدغدغ أحلام المتعصبين طائفياً بأن وعدهم أنه سيقيم الدولة العلوية هناك،كما أقام الصهاينة الدولة العبرية في فلسطين، وكما كان غلاة المتعصبين من الموارنة يحلمون بإقامة الدويلات الطائفية التي ستدور في فلك إسرائيل قولاً واحداً ". ويبدو أن رفعت تشجع في مشروعه لعلمه أن "أميركا سوف ترحب بالفكرة لأنها مع أي تفكك للأمة العربية".

وبدأت تظهر على جدران اللاذقية عبارات تمجد شخص رفعت مثل "رفعت الأسد الشمس التي لا تغيب". وبدأ أنصاره ينصبون "الحواجز الطيارة لإشعار المواطنين أنهم موجودون بقوة على الساحة". ويبدو أن قصد رفعت من السيطرة على مسقط رأس الرئيس، بحسب العماد طلاس، أن يقول للعالم: "إذا كان أخي لا يستطيع السيطرة على المحافظة التي ولد فيها، فهو بالأحرى غير قادر على السيطرة على باقي المحافظات.

حافظ ينفي أخاه رفعت:

في أواخر نيسان (١٩٨٤م) تيقن العميد رفعت أن ميزان القوى قد مال لصالح شقيقه (حافظ)، فاتصل بشقيقه جميل الأسد ليمهد له المصالحة مع أخيه الرئيس. ومع أن الرئيس الأسد معروف عربياً ودولياً بأنه سيد من أتقن فن لعبة عض الأصابع، فقد كان ينتظر بفارغ الصبر انهيار رفعت، وهذا لأن الأخير سيد من ابتز أخاه وغير أخيه. إذ ما إن وافق على الخروج من سوريا، حتى بدأ يساوم على المبلغ الذي=

في (١٩٨٣/١١/١٨) نقل الأسد إلى العناية المشددة لاضطراب في نبضات قلبه، كان يشكو من السكري منذ زمن طويل، وتفاقم بسبب حبه للحلوى، وقد أضر بصحته عدم انتظام الغذاء، ونقص في الهواء الطلق، وطول الجلوس على الكرسي، وبالإجمال السبب الحقيقي هو الإرهاق. وأعطاه الأطباء مسكنات قوية ليجبروه على الراحة. وأصيب المقربون منه بالذعر لأنهم فجأة أصبحوا بلا قائد[١].

وأعلنت الصحف أنه يجري عملية زائدة دودية، لكن سرعان مانبش الصحفيون أنه أزالها منذ عشرين عاماً، واتضح كذب الإعلام السوري سافراً.

وافترض أنه استهدف بهجوم غادر خفي، فبدل جميع طاقم الخدمة معه: الطباخون والخدم والممرضات، بل غير أثاث المنزل أيضاً. وفي (١٩٨٣/١١/٢٧) ظهر على التلفزيون يفتتح جسراً في دمشق.

أمضى رفعت ثلاثة أيام في المشفى مع أخيه بلا نوم، وقد صعق لمرض أخيه، ومن سريره أرسل حافظ الأسد أمراً بتشكيل لجنة سداسية من: مشارقة، خدام، الأحمر، الشهابي، الكسم، وطلاس. لتدير البلد في غيابه، والغريب أنه لم يجعل أخاه رفعت واحداً منهم.

=يحتاج إليه للإقامة شهوراً عدة خارج البلاد حتى تهدأ العاصفة. هذا مع أن (...) كان يدفع له شهرياً (٥) ملايين دولار، كما لم يقصّر معه الشيخ (...) ومثله ياسر عرفات والشيخ (...) إلخ.

طلب رفعت مبلغاً كبيراً بالقطع النادر، لم يكن متوافراً في المصرف المركزي، فخطر للرئيس الأسد أن العقيد القذافي يمكن أن يكون الشخص الذي يحل المشكلة، ويؤمّن المال اللازم لإشباع فم أخيه وحين التقاه موفد الرئيس، كان القذافي والحمد لله بمزاج حسن، وتذكر مواقف الأسد القومية في دعم الثورة الليبية ومؤازرتها، ورد على رسالة الأسد رداً جميلاً، وتم تحويل المبلغ بكامله إلى المصرف المركزي، وأعطى الرئيس شقيقه جزءاً منه، وبقي الجزء الآخر احتياطاً للطوارئ الاقتصادية التي كانت تعصف بنا.

وتم تحجيم سرايا الدفاع وعُيِّن رفعت نائباً لرئيس الجمهورية مسؤولاً عن شؤون الأمن. واستمر في هذا المنصب حتى عام (١٩٩٨م) . غير أن تعيينه كان نظرياً لأن الرئيس الأسد أحرص من أن يسلّم أمنه الشخصي وأمن البلاد لرجل لا يتقي الله بوطنه ولا بأهله.

وتضمن الاتفاق أن يسافر رفعت إلى موسكو، ومعه اللواءان شفيق فياض وعلي حيدر، وليطمئن رفعت أن الطائرة لن تنفجر في الجو طلب أن يسافر معهم رئيس إدارة المخابرات الجوية اللواء محمد الخولي، ووافق رفعت الذي اختار أن يقبل تعهد حافظ بأن مصالحه وأرصدته سوف تحترم في حالة سحب قواته من العاصمة ومغادرة البلاد عام ١٩٨٤م (انتهى كلام طلاس).

(١) وهذه ملازمة للحكم الفردي، الذي لا يقوم على مؤسسة، بل على فرد. فقد دخل عدة رؤساء أميركان المستشفى لإجراء عمليات جراحية، ولم يسبب غيابهم أي ارتباك في البيت الأبيض.

واتجه قادة البلد العسكريون إلى رفعت بحثاً عن قيادة، لأنهم رأوا أنه أفضل من يحمي النظام، باعتباره شقيق الأسد، وقد انتصر على الإخوان المسلمين، أكبر خطر داخلي، ورأوا فيه أنه سوف يخلف أخاه، ويبقى كل منهم في مكانه.

ولم يوافق كبار الضباط على هؤلاء الستة، الذين لم يروا فيهم سوى موظفين تنفيذيين موهوبين، وليسوا دعائم للنظام. وبناء على تحريضهم قام الشهابي وخدام بزيارة رفعت، ليخبروه أن رجلاً مثله لا يمكن إبعاده في مثل تلك اللحظات، عن المجالس الحاكمة في البلد، أما رفعت فقال إنه يمتثل لرغبات الرئيس الذي لم يجعله أحد الستة.

ولكن سرعان ما اقتنع رفعت معهم، ثم عقد اجتماعاً كاملاً للقيادة القطرية لم يغب عنه سوى حافظ الأسد ووزير إعلامه أحمد اسكندر الذي كان على فراش الموت. وقررت القيادة القطرية أن تجعل من نفسها بديلاً عن اللجنة السداسية، وكانت هذه طريقة أنيقة متقنة لجلب رفعت.

ولما علم الأسد وهو في النقاهة سخط سخطاً شديداً، لأن أي انحراف عن الطاعة الكاملة الخالية من أي تساؤل كان يثير شكوكه[1]. فاستدعى كبار ضباطه ووبخهم على الابتعاد عن تنفيذ رغباته الصريحة، وبذلك فتحوا الباب لأخطار غير متوقعة: أولم يروا أن دفع رفعت إلى المقدمة كان خطة أميركية سعودية لإزاحته عن الحكم[2]؟

ولما مرض حافظ في نوفمبر (١٩٨٣)، وتجمع الضباط حول رفعت، فجأة ظهرت في كل مكان في العاصمة دمشق، صورة لرفعت تظهره في أوضاع قيادية آمرة وقد ارتدى زي المظليين.

يكبر حافظ رفعت بسبع سنين، وكان يرغم أخاه المتمرد الأصغر على احترامه، وكان رفعت يشبه حافظ في البنية الجسدية القوية، والذكاء اللامع، ولكنه يختلف في أنه أكثر ضحكاً من حافظ، وميال للمتع ومندفع، وكريم إلى حد الإفراط، وبينما انهمك حافظ بكرسيه مشغولاً في شؤون الدولة كلياً، انهمك رفعت في بناء سرايا الدفاع، كجنود

---

(١) وهذا من أوضح الأدلة على أنه فردي ديكتاتوري مستبد، فالتصرف الذي سار عليه أخوه كان منطقياً تماماً، ومتمشياً مع العمل الجماعي المؤسساتي، ولكن حافظ كبح الحزب منذ السبعينيات وهمشه ولم يعد له مكانة عنده.

(٢) هذا التبرير لا يستند إلى أساس من المنطق، وإنما حافظ كان ينوي ويخطط من ذلك الوقت لتوريث الحكم لولده باسل.

مخلصين له، وكان رفعت يمارس سلطات مطلقة، وقد أثرى هو وأصدقاؤه الحميمون، كما كان يذهب في مهمات سرية إلى الأصدقاء والأعداء على السواء، ويشترك في مشاريع أخرى يحيط بها الظلام والضباب في عالم السياسة والتجارة في البلاد العربية.

أما دور رفعت في تثبيت نظام أخيه حافظ فيعرفه القاصي والداني، منذ شباط (١٩٦٦) في إزاحة أمين الحافظ وعمران، وفي (١٩٦٩) في التخلص من عبدالكريم الجندي، والتخلص من صلاح جديد وزمرته القوية (١٩٧٠)، ثم سحق التمرد الإسلامي (١٩٨١ ١٩٨٢). وأصبحت سراياه جيشاً قوامه خمسة وخمسون ألفاً معظمهم من العلويين، وعنده أحدث الدبابات (ت-٧٢)، وأسطول من المروحيات، ولهم رواتب متميزة عن الجيش السوري. وتزوج أربع نساء وأنجب سبعة عشر ولداً، ماعدا البنات.

كان حافظ الأسد وزوجته (أم باسل) المتحفظة والمؤثرة، يكرهان طريقة أخيه رفعت في الحياة، وكان ينتقد أخاه الذي اشترى بيتاً في أمريكا بمليون دولار أمريكي[١]. وكان لا يثق بصداقات رفعت مع ياسر عرفات والملك الحسن ملك المغرب، وغيرهما.

وقعت مهمة (احتواء رفعت) على عاتق الجنرالات الذين أتوه في مرض حافظ يبايعونه، ولكنهم بدلوا ولاءهم ورجعوا لما شفي حافظ[٢]، ومن الواضح أنهم يرون رفعت خلفاً لحافظ وليس بديلاً عنه، ولما وبخهم حافظ وفهموا قصده انقلبوا على أنفسهم، ومعظمهم من العلويين وهم (علي دوبا، ومحمد الخولي، وفؤاد عبسي، ومحمد ناصيف (وهو من القليلين الذين يتصلون هاتفياً بحافظ الأسد)، وبشكل عام كان منافسو رفعت بالإضافة لمن ذكر: علي حيدر قائد الوحدات الخاصة، وعدنان مخلوف من قادة الحرس الجمهوري، وعدنان الأسد (ابن عم حافظ) قائد سرايا الصراع، والجنرال شفيق فياض، والجنرال إبراهيم صافي، والجنرال علي أصلان، كان هؤلاء هم الجنرالات الذين تجمعوا حول رفعت أول الأمر، ثم انقلبوا ضده، والذين بدأوا في مطلع عام (١٩٨٤) يناورون لإيقافه عند حده.

وفي (٢٣شباط ١٩٨٤) بعد استقبال أحد الأمراء في مطار دمشق، من قبل أنصار رفعت استقبالاً يفوق الترحيب الرسمي للكسم رئيس الوزراء؛ أمر الأسد رئيس الأركان

---

(١) هل سأل حافظ نفسه: من أين حصل رفعت على هذه الملايين كي يشتري بيتاً في آخر الدنيا، بهذا المبلغ!!!؟؟

(٢) وهذا دليل على أنهم جنرالات جبناء!!!

حكمت الشهابي أن يقوم بتسريح العقيد سليم بركات مدير أمن رفعت، وكان الأسد يريد أن يتم خروجه في نصف ساعة، وناشد بركات رفعت أن يحميه، وتحدث رفعت مع الشهابي هاتفياً ليطلب مهلة قدرها (٤٨) ساعة، ولكن الشهابي رفض وقال: أوامر الرئيس واضحة جداً. ولكن بركات رفض التخلي عن منصبه، وهنا سارع علي دوبا إلى ثكنة بركات فاقتحمها بمفرده ودونما سلاح، وانقض على بركات وجرده من مسدسه الذي كان يلوح به، ثم صفعه على وجهه واقتاده بعيداً. وبعد بضع ساعات تمكن رفعت من الوصول إلى الأسد على الهاتف، فسأله:

ماذا فعلتم (بزلمتي) بركات!!؟ فرد الأسد باقتضاب:

أعتقد أننا أعدمناه. ولماذا تفعلون ذلك؟

لقد أمرت بنقله، ولكنه رفض أن يذهب.

وبعد لأي عثر رفعت على بركات في السجن، فأمن إطلاق سراحه ودبر له وظيفة مدنية.

وأرسل رفعت أخاه جميلاً ليشفع له عند حافظ، ولكن حافظ قال: أنا أخوكم الأكبر الذي أنتم مدينون له بالطاعة، لا تنسوا أنني أنا الذي صنعتكم جميعاً.

وفي (١٩٨٤/٢/٢٩) عقدت القيادة القطرية جلسة طارئة، وتقرر تعيين ثلاثة نواب لرئيس الجمهورية وهم: عبدالحليم خدام (عدو رفعت)، والدكتور رفعتِ نفسه[١]، وزهير مشارقة، ونقلت إمرة سرايا الدفاع بموجب مرسوم جمهوري إلى العقيد محمد غانم، ولكن رفعت جمع الضباط وطلب منهم انتخاب خلف له فاختاروا معين ناصيف (زوج تماضر رفعت الأسد)، أما غانم فقد تنازل من تلقاء نفسه.

وهكذا استمر الضغط على رفعت من أواخر عام (١٩٨٣)، وحتى آذار (١٩٨٤) حيث تم نقل واعتقال العديدين من أنصاره الموالين له، وقيل أعدم بعضهم. [ويدخل هذا في موضوع حافظ الأسد ضد العلويين].

---

(١) ويلاحظ الإشارة بالدكتور إشارة إلى الدكتوراة من جامعة موسكو على أطروحة عن الصراع الطبقي في سوريا، ويعتقد أنها من تأليف أحمد داود العلوي الذي يجيد اللغة الروسية.. أما الليسانس في التاريخ ثم الحقوق فكان رفعت وولده وزوجته يجلسون في مكتب رئيس الجامعة، وتحضر لهم الأسئلة والكتب، وعندئذ قال رفعت: العمى هاتوا لنا أستاذ يدلنا على الأجوبة في هذه الكتب، فأحضروه لهم. وبسبب ذلك ترك عدد من الأساتذة الكبار جامعة دمشق مثل الدكتور عمر الحكيم وغيره. انظر كتاب مصطفى طلاس (ثلاثة شهور هزت سوريا).

وفي (١٩٨٤/٣/٣٠) لم يستطع رفعت أن يتحمل أكثر فأمر سرايا دفاعه بالتحرك نحو دمشق، والاستيلاء على السلطة، فتحركت دباباته إلى داخل العاصمة، وتمركزت سرية دبابات عند دوار كفر سوسة خارج مبنى قيادة المخابرات العامة، حيث كان بإمكانها قصف المدينة، واحتلت دبابات أخرى الحدائق عند الشيراتون وقصر الضيافة الجديد، وزرعت الألغام أيضاً، وطوقت فرقة مشاة القيادة القطرية.

وبسرعة حشد شفيق فياض دباباته على طول النهر في المعرض، وانتشرت قوات المغاوير التابعة لعلي حيدر، وأخرج المدنيون من بيوتهم الواقعة في مناطق الاقتتال المحتملة، وصعد الملحقون العسكريون على الأسطح يراقبون بالمناظير التحركات.

في اليوم الذي سبق زحف رفعت أحضر حافظ أمه (تجاوزت الثمانين)، من القرداحة بطائرة خاصة، لتبقى في منزل رفعت، وكان يعرف أنها لا تزال تمارس تأثيراً قاهراً على طفلها الأصغر.

ولبس الأسد الزي العسكري الكامل، واتجه بالسيارة مع ولده باسل فقط، بدون حرس ولا مرافقين [على ذمة طلاس]، عبر الشوارع الفارغة الموحشة، إلى مواقع أخيه المحصنة جيداً في ضاحية المزة السكنية، حيث يقع منزل رفعت ومقر قيادة سرايا الدفاع. وكان رفعت قد وضع دبابات في البساتين المجاورة وعلى طول الطريق الرئيسي، ونصب مدفعية على جبل قاسيون المطل على المدينة. وفي الطريق لتحدي هذه القوة المركزة توقف حافظ الأسد عند دوار كفر سوسة المليء بدبابات رفعت، وأمر الضابط المسؤول أن يعود إلى ثكنته.

وفي منزل رفعت في المزة وقف الأخوان آخر الأمر وجهاً لوجه فقال حافظ:

أتريد أن تقلب النظام!!؟ ها أنذا. أنا النظام.

ودار بينهما جدال عاصف طيلة ساعة. ولكن الأسد في دوره كأخ أكبر، ومع وجود والدته في البيت، لم يكن ليفشل في كسب النزاع، فاختار رفعت أن يقبل تعهد أخيه بأن مصالحه وأرصدته سوف تحترم. وأذعن لأخيه كما كان يفعل أيام شبابهما. ونقل أصدقاء رفعت فيما بعد أنه قال: إن قراره بترك القتال كان أعظم غلطة ارتكبها في حياته.

وبعد.. طاف حافظ الأسد على وحدات رفعت المنتشرة في منطقة المزة وأمرها بالانصراف. وبعد يوم أو يومين تنفس الناس الصعداء. وهم يرون اختفاء الدبابات من شوارع دمشق.

وفي حفلة عشاء صنعها رفعت لحوالي خمسمائة من رابطة الخريجين، التي حلها حافظ الأسد قال رفعت (إن أخي لم يعد يحبني، وعندما يراني يكشر، وأنا لست عميلاً أمريكياً أو (...)، ولما اتصلت بالأمير (...) كان ذلك من أجل الحصول على المال، وكنت أعمل من أجل سوريا. لو كنت أحمقاً لكان باستطاعتي أن أدمر دمشق كلها، ولكنني أحب هذا المكان، لقد كان رجالي هنا طيلة ثمانية عشر عاماً، وقد اعتاد الناس علينا، وهم يحبوننا (!!!!) والآن يريد هؤلاء (يقصد وحدات علي حيدر) أن يطرودنا إلى الخارج[1].

وكان رفعت يعارض سياسات أخيه حافظ في عدة أمور منها:

١ اعتماد سوريا أكثر من اللازم على السوفيات، وبُعدها عن أمريكا.

٢ تورط سوريا في لبنان.

٣ يعارض دعم المنشقين عن فتح مثل أبي موسى وأبي نضال.

٤ ويعارض التحالف مع إيران ويقول ماذا يختلف هؤلاء عن الإخوان الذين قاتلناهم في سوريا، كيف يمكن للنظام أن يتبع سياسة في حماة وأخرى مختلفة عنها في طهران!!؟ هل كان الصراع ضد الإخوان المسلمين صورياً أم عقائدياً !!!؟

ويقول رفعت: إننا نتحدث عن الحرية، ولسنا أحراراً إلا في أن نأكل ونتزوج فقط. وفي (١٩٨٤/٥/٢٨) أرسلت طائرة محملة بسبعين من كبار الضباط (!!!) إلى موسكو لفترة تهدأ فيها النفوس، وكان من بينهم رفعت الأسد، ولما أعلن بعضهم خوفه على النظام قال له حافظ: لا تخافوا على النظام بل خافوا على أنفسكم.

ثم تم استدعاؤهم جميعاً ماعدا رفعت، وفي (٦/٥) وصل رفعت إلى جنيف، وكان يرافقه أكثر من مائة، وقيل مائتين من حراسه ومساعديه، وهذه حاشية باهظة التكاليف تكفل القذافي بتمويلها كي يبقى رفعت في الخارج.

وفي أيلول (١٩٨٤) انتقل رفعت مع بقية طاقمه- بعد أن عاد الكثير منهم إلى سوريا -إلى فرنسا. وظل رفعت محتفظاً بلقب (نائب رئيس الجمهورية)، وفي (١١/٢٦) زار رفعت دمشق، وزار القصر الجمهوري، وركع وقبل يد أخيه، ولكن أخاه لم يسامحه[2].

---

(١) باترك سيل، ص ٧٠٥. وفي الحقيقة لا يحبهم أحد من دمشق إلا العلويون وأمثالهم الذين جاءوا بهم إلى دمشق ليكونوا سنداً لهم.

(٢) تبين هذا كله فيما بعد أنه من أجل توريث الحكم إلى ولده باسل.

ومنع من زيارة سرايا الدفاع، وفي المؤتمر القطري (يناير ١٩٨٥)، وحضره رفعت لأنه عضو قيادة قطرية، تعرض رفعت لكثير من النقد والهجوم، وكان بمثابة من يقف في قفص الاتهام، وفي هذا المؤتمر منحت الصلاحية لحافظ الأسد كي يعين اللجنة المركزية كيفما يريد، التي تنتخب القيادة القطرية. وبعد ثلاثة أسابيع انتخب حافظ رئيساً للجمهورية للمرة الثالثة بنسبة (٩٩.٩٧).

وفي مايو (١٩٨٦) قام رفعت بزيارة غير معلنة لبريطانيا، وقد سبقه أربعة من حراسه الشخصيين مسلحين يحملون جوازات سفر مغربية، وهبطت بعدهم طائرتان خاصتان تحملان رفعت وأفراد عائلته (زوجاته وأولاده الصغار)، والخدم والحشم ورجال الأمن وكان مجموعهم أربعين شخصاً معظمهم يحمل جوازات سفر مغربية.

باسل حافظ الأسد: ولد باسل في (١٩٦٢/٣/٢٣)، وهو المولود الثاني بعد بشرى، درس الهندسة، ثم تطوع في الجيش ووصل إلى رتبة رائد، وجمع عدة مهارات كما يتضح من الهامش المرافق، وكان ضابطاً في الحرس الجمهوري، وقد وضح أن والده يعده للخلافة بعده، فصار يسلمه بعض الملفات مثل ملف مكافحة الفساد، وكان أباطرة الفساد هم أعمامه رفعت وجميل وأولادهم، وقطع شوطاً في مكافحة هؤلاء الذين كانوا يتاجرون بالمخدرات على مستوى دولي، وفجأة أعلن في دمشق عن وفاته في حادث سيارة، ولكن بعض الأنباء أشارت إلى موته في لبنان على يد أولاد عمه رفعت أو جميل الذين ناصبوه العداء لأنه أخذ مكان رفعت. ولأنه كافحهم في حملة مكافحة الفساد، وملاحقتهم في تهريب المخدرات.

ويروي أحد أطباء الأسد أنهم أحضروه إلى جثمان باسل، فبكى بكاء مراً وقال: حسبنا كل الحسابات، إلا الموت لم نحسب حسابه.

وفاة الأسد :

منذ أن دخل المستشفى في أواخر (١٩٨٣)، تتالت الإشاعات عن موت حافظ الأسد، وعن مرضه سرطان الدم، وأنه بحاجة إلى تغيير دمه بين الحين والآخر، وصار يزداد عزلة وانطواء على نفسه، وخاصة بعد موت ولده باسل الذي كان يعده ليخلفه في الرئاسة.

وأخيراً وفي (٢٠٠٠/٦/١٠م) توفي حافظ الأسد، وأزيح عن سوريا كابوس كبير جداً، وقد مهد الخلافة لولده بشار الذي قطع دراسته في طب العيون ببريطانيا، بعد موت

باسل وجيء به إلى دمشق، وأدخل في الكلية العسكرية، وخلال سنة أو سنتين صار رائداً في الحرس الجمهوري، ثم عدل الدستور السوري خلال ربع ساعة من قبل مجلس الشعب ليصبح عمر رئيس الجمهورية لا يقل عن أربع وثلاثين سنة.

وبويع بشار، ليخلف والده، ونشأ نوع جديد من الأنظمة الحاكمة وهو الجمهوري الوراثي كما حصل في سوريا، وقد يحصل في غيرها من الجمهوريات العربية.

خاتمة:

بعد أن لخصت معظم كتاب (باترك سيل) الصراع على الشرق الأوسط، وهو بمثابة ترجمة لحياة حافظ الأسد، أقول معظمه وليس كله، حيث كنت أتجنب التحليلات السياسية التي شغلت أكثر من ثلث الكتاب، وكنت أقلب حتى إذا وجدت اسم (الأسد) بدأت أقرأ بالتفصيل وأضع الخطوط تحت ما أراه هاماً.

بعد هذه الرحلة مع الكتاب، تولد في ذهني بعض الأسئلة والأجوبة وهاهي:

١ حافظ الأسد شخص أعطاه الله بسطة في الجسم، وفي الذهن، واستطاع أن ينهب من أموال السوريين والعرب والإيرانيين، حتى صار من أثرياء العالم، وقاد سوريا ولبنان والفلسطينيين إلى التهلكة، وترك آثاراً سوف تبقى إلى ما شاء الله حيث لا يقدر على إزالتها إلا الله .

٢ يتضح مبدأ (غمِّز على اليسار واذهب يمين) بشكل جلي في مسيرته، وهذه بعض الأمثلة:

١. يعتقد ويصرح بأنه حريص على مصلحة الفلاحين، ولكنه عندما استلم الرئاسة حرص على مصلحة بعض التجار، بعد أن أدرك أن استقرار الحكم يلزمه رضى التجار.

٢. هو وجميع الحكام أمثاله تاجروا بقضية فلسطين، وبعد استلامه الرئاسة دخل لبنان وذبح الفلسطينيين.

٣. أمضى عمره ينادي ضد الإمبريالية وضد أمريكا،ونشأ ود بينه وبين كيسنجر، ودخل لبنان بهندسة كيسنجر، وموافقة أمريكا وإسرائيل.

٤. يظهر أمام العلويين أنه يناضل من أجلهم، ولا أحد يصدق أنه عمل ضدهم.

٣ يتضح أن جده سليمان مجهول، ولا يعرفون لقبه، لذلك لم يقل لنا (باترك سيل) سليمان مَن، بل حصل على لقب (الوحش) من حلبة المصارعة.

٤ تعلم والده علي سليمان الأسد، وكان مشتركاً في جريدة تصله بالبريد إلى القرداحة، وكان الشخص الوحيد الذي يملك (خارطة للعالم) يعلقها في غرفة النوم، وكان يشرح عليها سير الحرب العالمية الثانية، أين تعلم !!؟؟ ومتى !!؟؟ علماً أن أولاده الثمانية الأول فاتهم التعليم لعدم وجود مدرسة في القرداحة، حتى حافظ نفسه فاتته سنتان، ودخل المدرسة في الثامنة وليس السادسة لعدم وجود مدرسة في القرداحة، فأين تعلم علي سليمان الأسد؟ ومتى؟ وهذا جعله يقفز السلّم الاجتماعي من رجل ابن لاجئ، إلى وجيه من وجهاء القرداحة، حيث طلب منه وجهاء القرداحة تغيير لقب (الوحش) الذي اكتسبه أبوه من حلبة المصارعة إلى لقب (الأسد).

٥ سافر حافظ الأسد ثلاثة أيام وهو في رتبة ملازم إلى لندن، استقبله فيها وزير الدفاع البريطاني، برفقة اثنين من زملائه، بحجة تحليلات طبية، وقد فارق زملاءه ثلاثة أيام كاملة، وتركهم في الفندق، كما ودعه وزير الدفاع البريطاني إلى المطار[1]. ثم زار بريطانيا – كما يقول سيل- في ديسمبر ١٩٦٥ ومكث فيها ثلاثة أشهر، رجع يوم (٢/٢٣/ ١٩٦٦)، خلال المعركة، وكان السبب الظاهر هو العلاج من آلام في الظهر وفي الرقبة، وهذا التبرير غير مقنع، فقد ترك البلاد في مرجل يغلي، والصراع قائم بين القيادة القومية والقطرية، ومن يصدق أن العلاج يتطلب ذلك السفر، وكان قائداً للقوى الجوية، وبعد شباط – أي بعد عودته من لندن مباشرة ؛ رفع إلى رتبة لواء وصار وزيراً للدفاع، وكان بإمكانه وهو قائد القوى الجوية إحضار الطبيب والجهاز الذي يلزمه إلى مكتب عمله، ولكن هذا السفر والإقامة هناك من أسرار حياته المكتومة.

٦ روى أحد زملاء محمد رباح الطويل، وهو الأخ أبو بدر الذي توفي في الرياض (٢٠٠٩) يرحمه الله ،مدرس من جماعة الإخوان المسلمين، التقى مع محمد رباح الطويل في سجن المزة العسكري، وكلاهما معتقل، في السبعينات، وتحدث الزميلان القديمان مع بعضهما وقال محمد رباح الطويل موصياً زميله الإخواني: سلم لي على والدتي، لما تخرج، وطمنها عني، وقل لها صحتي جيدة والحمد لله، ولاتقلق علي. فأجابه الإخواني: سبحان الله، أنا وأنت في السجن، وأنت البعثي الوزير، تظن أن يفرج عني قبلك !!!؟ فأجاب محمد رباح الطويل: أنا لن يفرج عني، وسوف أموت في السجن، وسوف أشرح

---

(١) أنظر كتاب سوريا في قرن للدكتور منير محمد الغضبان (١/٣٢٨).

لك لماذا؟ كي تصدق، وكي تحفظ هذه الشهادة للتاريخ، أنا شاهد على جريمة العصر، وسوف أموت في السجن، وهؤلاء الرفاق معي، كلنا سنموت في السجن، لأننا شهداء على جريمة العصر!!!؟

قال المدرس الإخواني: وما هي جريمة العصر!!؟ أجاب محمد رباح الطويل: في عام (١٩٦٦) حضر من الولايات المتحدة الأمريكية وفد من اليهود الصهاينة الأمريكان، ووصلوا إلى دمشق لأنهم يحملون جوازات سفر أمريكية، وجنسياتهم أمريكية أيضاً، وكلهم من كبار أثرياء العالم، جاءوا يعرضون علينا في القيادة القطرية أن نؤجرهم هضبة الجولان، أو نبيعها ونطلب الثمن الذي نريد !!!ورفض هذا الطلب بالإجماع من القيادة القطرية، وسافر الوفد إلى بيروت تمهيداً لعودته إلى واشنطن، وفي بيروت لحقهم، وزير الدفاع يومذاك حافظ الأسد، وتعهد لهم بتسليمهم الجولان، وتعاقدوا على أن يساعدوه بواسطة المخابرات المركزية الأمريكية على استلام الحكم في سوريا، ثم تثبيت حكمه فيها، وتعهد لهم بتسليم الجولان، وحصل على سلفة مقدماً، وبقية الدفع عند الاستلام...وهكذا كانت حرب (١٩٦٧) كما عرف العالم كله أنها (استلام وتسليم). وكلكم تعرفون إذاعة بيان سقوط القنيطرة، وكلكم تعرفون مجرى الحرب.. الحرب الخيانة، التي اعتقلنا نحن عندما قررت القيادة القطرية تنحية حافظ الأسد عن وزارة الدفاع، ومصطفى طلاس عن رئاسة الأركان، وهذا أقل ما يجب فعله لنحفظ ماء وجه الحزب، فكانت النتيجة كما ترى، الحركة التصحيحية التي اعتقل فيها حافظ الأسد رفاقه أعضاء القيادة وزجهم في السجن، ولن يخرجوا إلا أمواتاً كما أعتقد. (انتهى كلام رباح الطويل).

[والأغلب أنه أجرها للصهاينة لمدة ثلاثين عاماً]. وقد لاحظنا في عام (١٩٩٧) أي بعد ثلاثين عاماً على حرب حزيران حيث سلمت الجولان للصهاينة، لاحظنا حافظ الأسد يجتمع وحده مع كلينتون في جنيف، مدة ساعات، ويخمن بعض السياسيين أن الصهاينة ممثلين بكلينتون عرضوا عليه تمديد المدة ثلاثين سنة أخرى، أو حتى إشعار آخر مقابل مساعدة حافظ الأسد على توريث الحكم الجمهوري لولده بشار.

وقد لاحظنا (مادلين أولبرايت) وزيرة الخارجية الأمريكية يومذاك؛ تحضر جنازة حافظ الأسد، وتجتمع ببشار بضع ساعات على انفراد كذلك، ولا تغادر دمشق إلا بعد أن اطمأنت على تثبيت بشار خلفاً لحافظ الأسد، كما ظهر في المؤتمر القطري العاشر لحزب البعث (٢٠٠٥) أن مصطلح الجولان لم يذكر في هذا المؤتمر البتة.

٧ آخر تحليل لشخصية حافظ الأسد عندي أنه متمركز جداً حول عبادة الذات، يعشق ذاته حتى العبادة، أي يجعل من نفسه إلهاً. ولم يصرح لأحد بذلك ولكن هذه أدلتي:

١. كان يعتقد أنه يقوم بعمل مشروع وأخلاقي عندما أزاح العقيد زياد الحريري، والصوفي، والأتاسي، بل مئات الضباط، وهو يدمر الجيش السوري، حتى دخل حرب (٦٧) بدون ضباط، جمع بعض المعلمين العلويين الذين سبق لهم الخدمة في الجيش، وأعطاهم رتباً عسكرية، ومراتب بعثية، وهم لا يفقهون شيئاً في العسكرية... وهو يعلم أن هذا سيمهد له الوصول إلى إحلال ذاته على العرش. ولا يهم إذا كان سيضيع الجولان، أو يسلمها للصهاينة.

٢. أزاح رفاق السلاح والحزب الدروز والإسماعيليين، بين قتيل وسجين ومشرد، من أجل تعبيد الطريق كي يصل إلى العرش.

٣. أزاح مؤسسي حزب البعث، عفلق والبيطار، والحوراني، والرزاز، والعيسمي، والجندي، غيرهم كثير.... مع أن حزب البعث هو أول درجات السلم التي صعد عليها. وكل ذلك سيحقق له الوصول إلى العرش.

٤. أزاح كثيراً من العلويين (رفاق السلاح والحزب والعقيدة)، مثل عمران وجديد، ومئات من أنصارهم الضباط، وغيرهم ليصل إلى العرش.

٥. أزاح أخاه، كي يمهد الطريق لخلافة ولده. على الرغم من أن كل منصف يعرف أن أخاه كان اليد اليمنى له، وإن رفعت ارتكب آلاف الجرائم كي يثبت حكم أخيه، وسيبقى منبوذاً في سوريا والعالم أجمع بسبب هذه الجرائم.

٦. وظني أن حافظ لو عاش طويلاً، وشعر أن ولده باسل ينافسه في الحكم لتخلص منه كما تخلص من جديد وعمران ورفعت.

إنها (عبادة الذات) فقد عبد حافظ الأسد نفسه.

وقد لاحظنا عندما مرض وشكل اللجنة السداسية لتسيير الأمور في غيابه، ولاحظ هؤلاء المختارون في اللجنة مع كبار الضباط أيضاً مثل (دوبا، وأصلان، وفياض...) الذين يمسكون البلد أن رفعت لا يصح أن يغيب عن هذه اللجنة، ولما تحدثوا في ذلك، ورأوا دعوة القيادة القطرية لاجتماع طارئ، وقد حضر الجميع ماعدا حافظ الأسد تغيب لمرضه، وأحمد اسكندر أحمد كان يصارع سكرات الموت، وقررت القيادة القطرية (المفروض أنها أعلى مستوى في السلطة من حافظ نفسه)، قررت أن تهتم هي نفسها

بتسيير شئون البلد، وليس اللجنة السداسية، وكان هذا القرار منطقياً جداً، وهو خطوة انتقالية لتكليف رفعت لأن كل الضباط الأقوياء، - مع كراهتهم لرفعت - يرونه الوريث الشرعي لأخيه، نظراً لخدماته الكثيرة والكبيرة (الإجرامية بحق الشعب)، التي قدمها رفعت لتثبيت حكم أخيه، ولكن حافظ الأسد لما شفي من مرضه، وبخ كبار الضباط (دوبا، وأصلان ،...) لماذا لم يتقيدوا بأمره!!؟ فقراره أعلى من قرار القيادة القطرية -كما يفهم حافظ الأسد- وتعليل ذلك أنه قرر من يومها على خلافة ولده باسل له، وليس رفعت، والولد مقدم على الأخ في الإرث كما هو معلوم.

ويختم الدكتور منير محمد الغضبان حديثه عن حافظ الأسد في كتابه سوريا في قرن فيقول (١/٤٤٦): (لم يكن لحافظ الأسد أن تفتح له الأبواب، وتهيأ له السبل، وتذلل أمامه العقبات إلا ضمن خطة مدروسة... فتسليم الجولان كان الامتحان الأول، والتخلي عن الفدائيين كان الامتحان الثاني، وكان حظر الفدائيين عن العمل خلال الحدود السورية لمهاجمة إسرائيل الامتحان الثالث، هذه الامتحانات جعلته محط أنظار العالم ليؤدي دوراً جديداً في المنطقة، والتعامل مع إسرائيل هو الميزان لاستقرار أي حاكم في المنطقة، وقد فعل خلال عامين ما عجزت إسرائيل عن تحقيقه خلال قرن، فلم تعرف إسرائيل الاستقرار كما في عهد أسد، حيث صارت حدودها آمنة مستقرة لا تتعرض لطلقة رصاص واحدة من أحد

وعند وفاة حافظ الأسد وخلال مقابلة لحبر اليهود السوري (إبراهيم الحمرا) في القدس مع: (بي. بي. سي) قال فيها: "صلَّت هذه الطائفة في الكنيس اليهودي ودعت للأسد"، وعندما سئل عن علاقات اليهود بالأسد في سوريا أجاب بقوله: "لقد زرته مع وفد يهودي عام ١٩٧٢م، للمباركة له في رئاسته الأولى، وطلبنا منه بعض التسهيلات للطائفة، فبعد أن كنا لا نستطيع التجول في سوريا أكثر من (٤كم) والختم الأحمر على هوياتنا، تمكنا من التجول في أنحاء سوريا كلها. وسمح بعد ذلك في عام ١٩٧٩م، بسفر عدة فتيات وصل عددهن إلى (٣٥٠) فتاة يهودية للزواج من أهل الطائفة في الخارج، وسمح لمن يشاء السفر إلى أوربا وأمريكا للعلاج أو التجارة، بشرط ألا تسافر العائلة كلها (بي بي سي - لندن - بمناسبة مراسم جنازة حافظ الأسد). لقد وجد اليهود كل عناية من الأسد، حتى إنه سمح لليهود ببيع ممتلكاتهم واستلام جوازات سفر[1] يسافرون بها، أما المسلمون

---

(١) في الوقت الذي كان يحرم المواطنين السوريين من جواز السفر السوري، فيضطرون إلى شرائه بآلاف الدولارات.

فهم محرومون من جوازات السفر، ومن بيع ممتلكاتهم والتصرف بها، ومن أبسط حقوقهم المدنية تحت أي ذريعة.

(نقلاً عن تاريخ سوريا الحديث للأنصاري).... وأخيراً: ينبغي الاستفادة من هذه الدراسة في مايلي:

١ أن لا ينخدع المسلمون بالظواهر (وحدة، حرية، اشتراكية)، ثم يقودهم هذا الطاغية بهذا الشعار، ويسخرهم ليصعد فوق رؤوسهم، وجماجمهم، إلى عرش ذاته.

٢ أن لا يتساهل المسلمون بالعمل الفردي، وكل من ينحو نحو العمل الفردي، يسقط من الحركة، ولا ينقاد له الآخرون، يجب أن يرسخ في أجيالنا العمل المؤسساتي. وقد لاحظنا أن حافظ الأسد وبخ الضباط الذين التزموا بقرار القيادة القطرية عندما كان حافظ في العناية المركزة، وهو يرى أن قراره أهم من قرار القيادة... ومن المؤسف أن كبار الضباط صدقوا، وانقلبوا على رفعت بعد أن كانوا معه.

خلاصة لترجمة حافظ الأسد:

ولد حافظ الأسد في قرية القرداحة[١]، ونشأ ودرس في اللاذقية، وصار ضابطاً طياراً في الجيش العربي السوري، وفي خلال فترة الوحدة كان واحداً من المجموعة[٢] التي أعادت تشكيل حزب البعث بعد حله خلال الوحدة، ثم فصلت الحزب عن أكرم الحوراني،

---

(١) حدثني من أثق به قال: حدثتني الدكتورة سلمى بنت الشيخ عبد الرحمن الخير – وكانت زميلتي عام ١٩٧٥ (وأبوها من زعماء الطائفة العلوية ومن وجهاء قرية القرداحة) قالت: من المعروف في قرية القرداحة أن سليمان (الوحش) جاء إلى القرداحة من جهة ما، وسكن عند مدخل القرية، وكان هو وأولاده فقراء جداً لا أملاك لهم، وكان أهل القرية يتصدقون عليهم حتى عرفت هذه الأسرة باسم (سليمان حسنة)، كما عرف عن سليمان وأولاده الشراسة والقوة الجسدية والفتوة حتى صار اسمه (سليمان الوحش) . ويرى الباحث تناقضاً في هذه الرواية من حيث أن سليمان الأسد من الموقعين على وثيقة قدمها بعض العلويين للفرنسيين يطلبون منهم البقاء في سوريا وعدم الجلاء عنها، ووقع على الوثيقة باعتباره من وجهاء الطائفة، (انظر سوريا في قرن للغضبان (١/٢٥٥)، ومما يدعم هذه الرواية أن سليمان الأسد لا يوجد له أشقاء مطلقاً. والله أعلم. ومن اللافت للنظر أن حافظ الأسد كان زعيماً طلابياً في المدرسة الثانوية كما روى زملاؤه من أبناء اللاذقية!!.

(٢) يقول فان دام ص ٥٩: تكونت القيادة العليا للجنة العسكرية البعثية عام ١٩٥٩ خلال الوحدة من الضباط المنقولين لمصر وهم: محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد (علويون)، وعبد الكريم الجندي وأحمد المير (إسماعيليان).

وكان مع رفيقه صلاح جديد الركنين القويين في هذه المجموعة، التي دفعت زياد الحريري لتنفيذ انقلاب الثامن من آذار، ثم طردته من سوريا كما طردت عشرات الضباط الكبار الذين وضعوا في الواجهة خلال العام الأول مثل الفريق لؤي الأتاسي، واللواء راشد القطيني، ومن بعد قامت بالحركة التصحيحية الأولى وتخلصوا من أمين الحافظ والقيادة القومية وكثير من الضباط السنيين، وقد وصلت هذه المجموعة إلى إقامة الجيش العقائدي كما أسلفنا. وأما هزيمة حزيران فلا تعني شيئاً بالنسبة لهم لأنها لا تمس مخططهم وأهدافهم.

ومنذ (١٩٦٦) صار حافظ الأسد وزيراً للدفاع وقائداً للقوى الجوية، وكان صلاح جديد الأمين العام لحزب البعث، ورئيساً للأركان، وكان صلاح جديد الرجل القوي في سوريا، وكانت السياسة منحازة علناً إلى المعسكر الشيوعي، ومحاربة علناً للرجعية العربية، وحصل قتال بين الفلسطينيين والأردنيين في أيلول (١٩٧٠م)، وقفت سوريا إلى جانب الفلسطينيين في الظاهر، وبعثت اللواء (٧٦) من الفرقة الأولى لدعم الفلسطينيين، ولكن بعض وحدات اللواء الأربعين الأردني دحرته وهزمته شر هزيمة.

وأراد صلاح جديد استخدام الطائرات السورية ضد الأردنيين، لكن حافظ الأسد رفض ذلك، واحتدم الصراع حتى قام حافظ الأسد بدعم من قوات الشرطة العسكرية بقيادة المقدم (الحموي) علي المدني، باعتقال أعضاء الحكومة بمن فيهم رفيقه صلاح جديد، وأعلن عن قيام الحركة التصحيحية في (١٦/١١/١٩٧٠م).

وفي آذار(١٩٧١م) انتخب حافظ الأسد رئيساً للجمهورية العربية السورية، بعد أن قام بجولة في محافظات القطر، قابله الشعب بالترحيب لأنه خلصهم من زمرة الماركسيين، وانفتح حافظ الأسد على الشعب، وعين جميع خريجي الجامعات، وكان أكثر من مائة خريج من كلية الشريعة ترفض الحكومة السابقة تعيينهم لأنهم رجعيون في نظرها،كما أصدر حافظ الأسد قانوناً يقضي بقبول جميع خريجي الثانوية في الجامعات والمعاهد. كما أمر بقبول كل معلمي الابتدائي ممن يحملون مؤهلاً جامعياً في التعليم الثانوي (عام ١٩٧٢).

كما أظهر حافظ الأسد ود اً نحو الدول العربية المحافظة مثل الأردن والسعودية على غير عادة البعثيين، كما شاع لدى الناس أن حافظ الأسد يميل إلى الغرب أكثر من الشرق.

قابل الشعب العربي السوري حافظ الأسد بالترحاب لأنه خلصه من زمرة البعثيين اليساريين، ولأن الشعب شم عنده رائحة التوجه نحو الغرب، ونهاية النظام الاشتراكي على يده، كما كان حافظ الأسد ذكياً جداً في تصرفاته المنفتحة على الشعب، وفي أحد الأيام، حيث كنت ملازماً مجنداً، وأحمل المسدس،كنت واقفاً عند مفرق الشيخ مسكين، أنتظر سيارة عابرة للنزول إلى دمشق،حيث مر موكب الرئيس حافظ الأسد،يقف في سيارة مكشوفة إلى جانب محمود الأيوبي رئيس مجلس الوزراء، ولم تكن هناك حماية كبيرة، وكان أي واحد من الواقفين على المفرق يستطيع اغتياله بمسدس بسيط أو خنجر، لكن لم يكن أحد يفكر في ذلك لأنه جاء كمخلص من زمرة صلاح جديد الماركسية، أما الحمويون فقد نبح له أهل الحاضر بالذات بعيراً مبالغة منهم في إكرامه والاحتفال به، عندما زار حماة.

وفي العام الأول والثاني من عهد حافظ الأسد انفتح الإخوان المسلمون في أنشطتهم، وطرح الشيخ سعيد حوى يرحمه الله استراتيجية؛ تقول يجب أن يكون خمس وتسعون بالمائة من عملنا علنياً، في المساجد ومع العلماء، وازدهر العمل المسجدي وخاصة في شهر ربيع الأول؛ حيث الاحتفالات في عيد المولد النبوي الشريف، وأحيى المنشد أحمد بربور يحفظه الله ليلة تاريخية في المسجد الكبير بحماة، وكان المسجد يغص برجال وشباب الإخوان المسلمين، وكانوا يرددون بناء على طلبه (شباب الجيل للإسلام عودوا فأنتم روحه وبكم يسود)، ثم ينفرد المنشد أبو عبدالله بربور بصوته العذب القوي قائلاً (من جانب المحراب يبدأ سيرنا للمجد لا من جانب الماخور)، وتحدث الأستاذ الفاضل عبد الرزاق شيخ بكرو (أبو أيمن حفظه الله) عن صفات الحاكم المسلم كما هي عند الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي الختام تحدث قائد المجاهدين الشيخ مروان حديد يرحمه الله، ولم يكن له دور في البرنامج، وإنما أخذ مكبر الصوت عندما بدأ الناس ينصرفون، فاستمع له الناس ودعا إلى ترك الاشتراكية لأنها كفر، وعلى المسلم أن يتوب ويعود إلى الإسلام. وبدا الحال للمراقب الحذر: كأنه لا توجد مخابرات في حماة!!؟ وهذه

حالهم منذ سنتين، وهذا ردهم على احتفال البعثيين بعيد ميلاد الحزب، وفرصتهم لدعوة الناس الى الإسلام، والله هو الستار[١].

وفي بداية عهد حافظ الأسد صار معظم ضباط الجيش من العلويين الموالين له، وقل الاعتماد على الدروز والإسماعيليين، وسرحت منهم أعداد كبيرة على أنهم من أنصار صلاح جديد، كما سرحت أعداد قليلة من الضباط العلويين أيضاً، واضطر حافظ الأسد إلى الاعتماد جزئياً على بعض الضباط البعثيين من ذراري السنة من الأقليات القومية كالأكراد أو الشركس. ومن المهم أن حافظ الأسد أول رئيس للجمهورية من غير المسلمين السنة، وقد نشرت المخابرات إشاعة مفادها أنه شركسي سكن بين العلويين [وهذا يؤكد أنه وافد على القرداحة]، ثم صارت سلطات الأمن تعلن وتفاخر بأنه علوي، وأحياناً يقولون إنه أول رئيس عربي يحكم سوريا.

واعتمد حافظ الأسد على أسرته وأقاربه، فصار أخوه العقيد الركن رفعت الأسد قائداً لسرايا الدفاع التي صارت من أفضل قوات حماية النظام، وتفوقت على قوات الفرقة الأولى المدرعة المعسكرة حول دمشق. كماصار الرائد عدنان الأسد قائداً لسرايا الصراع... أما أخوه جميل الأسد فقد شكل حزباً سياسياً سماه جمعية المرتضى وكان له هدف طائفي واضح. كما جمع أقاربه السلطة والتجارة الخارجية بيدهم حتى صاروا من أكبر أغنياء العالم العربي خلال عشر سنوات فقط.

أحداث الدستور (١٩٧٣م) :

وضع الدستور السوري بعد الاستقلال، وساهم فيه الدكتور مصطفى السباعي يرحمه الله، وكان فيه بعض الفقرات التي تؤكد انتماء سوريا الإسلامي مثل

١ دين رئيس الجمهورية الإسلام. ودين الدولة الإسلام.

٢ هدف التعليم إنشاء جيل يؤمن بدينه ويعمل من أجل أمته ووطنه. وأثناء تعديل الدستور عام (١٩٧٣) تم تغيير هاتين الفقرتين إلى:

١ رئيس الجمهورية عربي سوري عمره أكثر من أربعين سنة.

٢ يهدف التعليم إلى إنشاء جيل علمي التفكير.

---

(١) تبين فيما بعد أن مهمة حافظ الأسد القضاء على الإخوان المسلمين في سوريا، وأن هذا الانفتاح خلال السنتين الأوليتين، مكنه ومكن رجال مخابراته من معرفة الكثير عن تنظيمهم.

وقد أعلن الشعب العربي السوري معارضته لهذا التغيير، وتمثلت هذه المعارضة بما يلي:

١ مظاهرات قام بها طلاب المدارس المتوسطة أعلنوا فيها معارضتهم لهذا الدستور. وأشهرها مظاهرات حماة كما سأبين.

٢ بعض الخطب يوم الجمعة وأشهرها خطبة الجمعة في جامع جورة الشياح بحمص التي قدمها فضيلة الشيخ محمد علي مشعل، وبين فيها رفض الشعب لهذا الدستور، بعد مناقشة بنوده وإظهار أخطارها، وقد انتشرت أشرطة الكاسيت التي نشرت هذه الخطبة في أرجاء سوريا والعالم العربي.

أما المظاهرات التي تمت في حماة، فقد خطط منظموها لخروج طلاب المدارس المتوسطة للإعلان عن رفض هذا الدستور، فخرجت معظم أو جميع المدارس، وهتفت هتافات معادية لحزب البعث، ورفعت شعارات إسلامية، ولكن كما هي عادة الحمويين دخل في المظاهرة عناصر غير معروفة، ووجهوا المظاهرة إلى مقصف الغزالة الذي أقيم قبل سنوات قليلة جداً فوق جسر على نهر العاصي، يقدم الخمر لزبائنه، فدمرت المظاهرة المقصف، ورموا أدواته ومقاعده في النهر، بينما هرب صاحبه بدفتر الحسابات ناجياً بروحه، كما دمرت المظاهرة بضعة محلات تبيع الخمر في مدينة حماة، وأخيراً هتف بعض المتظاهرين بأعلى صوته (إلى قيادة الحزب)، فتوجهت المظاهرة كالسيل الغاضب إلى قيادة حزب البعثيين في الباشورة، ففر أعضاء الفرع وعلى رأسهم يوسف الأسعد (أمين فرع الحزب)، بينما أشعلت النيران وأحرقت مكاتب الحزب.

ومع الظهر دخلت السيارات العسكرية المصفحة شوارع حماة، وفتحت نيرانها بغزارة في الهواء.

أصيبت حكومة البعثيين بصدمة عنيفة؛ عندما رأت تلاميذ المرحلة الإعدادية يهتفون ضدها، وقد ولدوا وتربوا خلال حكم البعثيين، لذلك كشروا عن أنيابهم واعتقلت السلطة عشرات المدرسين والمعلمين من الإخوان المسلمين في حماة، ومثل ذلك من سائر المحافظات، وهكذا بدأت المعركة بين الإخوان المسلمين وحافظ الأسد التي استمرت طويلاً وجرت على البلاد ويلات وخيمة.

بدأت الحكومة باعتقال المدرسين والمعلمين خاصة، واتخذت القيادة القطرية قرار التعليم العقائدي، فبدأوا بنقل المدرسين والمدرسات الإسلاميين من التعليم إلى وظائف كتابية في البريد أو المواصلات وغيرها(١).

وفي حماة خاصة تصرف يوسف الأسعد أمين فرع حزب البعثيين وهو علوي من قرية سلحب تصرفاً متطرفاً جداً عندما لم يسمح لنقابة المعلمين بدفع نصف راتب المدرسين المعتقلين لأسرهم، وقال: نريد أن تخرج هؤلاء المحجبات إلى الشوارع يمتهن الدعارة لإعالة أولادهن(٢).

كما كشر حافظ الأسد عن أنيابه وقال للشيخ خالد الشقفة يرحمه الله وهو عالم فاضل صوفي ليست له صلة تنظيمية بالإخوان المسلمين قال له عندما ذهب باسم جمعية العلماء للتوسط بين الحكومة وأهالي حماة كما كانت الحال أيام الشيخ محمد الحامد والفريق أمين الحافظ قال له: لأقطعنّ اليد التي لم يستطع عبد الناصر أن يقطعها(٣).

وذهبت عناصر مسلحة من سرايا الدفاع بأمر رفعت الأسد إلى منزل مروان حديد لقتله في البيت. ولكن الله حماه منهم حيث غادر حماة إلى دمشق ليختبأ فيها ويدير منها قيادة الطليعة حتى اعتقاله ثم استشهاده يرحمه الله.

وبدأت سلطات الأمن بتنظيم ملفات لكل مواطن متدين، وذلك خلال السنوات (٧٥-٧٦)، وركزت على المدرسين؛ كي تحقق مبدأ التعليم العقائدي. وقد سارت حكومة البعثيين على رفض كل مدرس متقدم إلى مسابقة انتقاء المدرسين إذا لم يكن بعثياً أو صديقاً لهم، وصار التقرير السياسي أهم من الشهادة الجامعية، وأدى هذا المبدأ الذي فرضه البعثيون إلى انتشار الانتهازية والنفعية في صفوف الحزب، وبين الشعب أيضاً

---

(١) وكانوا جادين في علمنة التعليم، حيث نقلوا معلمة ابتدائي للصف الأول الابتدائي من آل العظم في حماة من التعليم إلى البريد؛ لأنها كانت تهتم بتعليم الوضوء للأطفال بشكل عملي ورغبة ذاتية عندها.

(٢) وفات هذا النذل أن تنظيم الإخوان ضاعف من اشتراكات الأعضاء وقدم الرواتب لهذه الأسر، واستمر التنظيم على هذا أكثر من ربع قرن بعون الله وفضله.

(٣) وهكذا اكشف حافظ الأسد عن هويته، ومهمته التي جيء به إلى السلطة من أجلها، وقد ناضل طوال ربع قرن من أجل تنفيذ هذه المهمة وهي القضاء على الإخوان المسلمين، وحتى كتابة هذه الكلمات لم يتمكن من ذلك.

عندما دخل في الحزب مئات الألوف بحثاً عن الوظيفة والخبز، لأن الحزب منع الوظيفة الحكومية عن غير البعثيين، وكانت الوظيفة الحكومية ذات دخل كاف للمعيشة الكريمة خلال الستينيات والسبعينيات، ثم أذل الله الوظيفة ومسخها، بعد أن صار الناس يذلون أنفسهم من أجلها. وتكدس الجامعيون الإسلاميون بدون عمل، وربما تعطى لبعضهم ساعات إضافية في التعليم من خارج الملاك عند الضرورة لسد العجز في شواغر المدرسين. وبقي مئات من الجامعيين الإسلاميين من خريجي كلية الشريعة والآداب بدون وظائف حتى وصول حافظ الأسد إلى السلطة وانفتح على الشعب في بداية حكمه فعين جميع الجامعيين؛ دون النظر إلى التقرير السياسي في الأعوام (٧١ ٧٢ ٧٣)، وكان آخرها تعيين كل من شارك في حرب تشرين التحريرية!!؟.

وأدت محاربة الناس في لقمة عيشها وخبزها إلى نقمة واسعة بين المواطنين، كانت عاملاً مشجعاً لما قامت به الطليعة المقاتلة.

الطليعة المقاتلة

لابد من الإشارة إلى أن الطليعة المقاتلة، وكل المجازر في سوريا، إفراز طبيعي لسياسة حافظ الأسد، فمنذ (١٩٦٣م) وهو يدفع حسب خطة مرسومة الشباب المسلم إلى الاصطدام معه، ورفع السلاح ضده، كي يتخذ ذلك مبرراً لضرب الحركة الإسلامية في بلاد الشام، وهي المهمة التي وظف من أجلها ملكاً على سوريا...

وليس جميع أبناء الطليعة من شباب الإخوان المسلمين، بل هم من بعض شباب الإخوان الذين استطاع مروان يرحمه الله جذبهم من الإخوان، أو ممن كان لهم ولاء مزدوج، مع مروان، ومع الإخوان، ومنهم من شباب الحركات الإسلامية الأخرى من غير الإخوان، وقد مر معنا أن الفصائل الإسلامية الأخرى (غير الإخوان) رفعوا السلاح ضد النظام الأسدي قبل الإخوان، ومنهم من الشباب المسلم السوري العادي، الذي دفعه ظلم حافظ الأسد إلى رفع السلاح (ومنهم البعثي النقيب إبراهيم اليوسف يرحمه الله)، لقد كان الشباب السوري يتسابق إلى اللحاق بركب الطليعة، بشكل متوالية هندسية، وخاصة في الأعوام (١٩٧٩، ١٩٨٠، ١٩٨١) ؛ وبعد أن اعتقل مروان حديد يرحمه الله من مسجد السلطان الذي اعتصم فيه عام (١٩٦٤) ليقوم بعمل سياسي، وهو الاعتصام، ليشجع على الإضراب، ولكن هدمته دبابات الأسديين، وبعد أن رأى بعينيه مالم يخطر على بال مواطن سوري، عندما رأى الجيش العقائدي يهدم المسجد، وهناك في الزنزانة المنفردة فكر مروان ملياً، ووصل إلى قناعة مؤداها أن هذا العدو لايجدي معه الجهاد السياسي،كما هو منهج الإخوان المسلمين الحالي، بل لابد من الجهاد المسلح، وحاولت جماعة الإخوان تغيير هذه القناعة عنده، ولكنها أخفقت[1]، وشاء الله عزوجل أن يفرج عن مروان ويظل

---

(١) انظر منير الغضبان، سوريا في قرن (٥٠٨/٢). يقول: [أخيراً اقتنع الشيخ مروان بعدم جـدوى محاولاته لحمل قيادة التنظيم – جماعة الإخوان – على أن تنتهج نهجاً عسكرياً، فقرر إنشاء جماعـة خاصـة من شباب المسلمين... سماه (الطليعة)] والدكتور منير من قيادات الجماعة آنذاك ومازال...

طليقاً من (صيف ١٩٦٤م)، (وحتى شتاء ١٩٦٦م) ثم من (صيف ١٩٦٧وحتى شتاء ١٩٧٣م)، ثم اختبأ في دمشق حتى اعتقاله بعد معركة شرسة شاركت فيها طائرة عمودية في صيف (١٩٧٥م)، ثم استشهاده في صيف (١٩٧٦م) في السجن يرحمه الله. وكانت هذه الفترات كافية لبناء الطليعة المقاتلة، وقيل إن مروان أراد تشكيل ألف مجموعة، تتكون المجموعة من ثلاثة عناصر مقاتلة، منتشرة في سائر أرجاء سوريا، وتقوم هذه المجموعات بحرب عصابات ترهق النظام الأسدي، وتشجع الشعب على الثورة ضده في النهاية. وتمكن مروان يرحمه الله من استثمار الشباب الصغار، الذين رباهم الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية الأخرى،كجماعة زيد في دمشق وكثير من تلاميذ العلماء في حلب، فهؤلاء الشباب زرع في عقولهم أن الجهاد في سبيل الله طريقنا، وأن الموت في سبيل الله أسمى أمانينا، وها هو مروان يحقق لهم ما تربوا عليه نظرياً.

وقد أقام مروان يرحمه الله عدة مخيمات للشباب على الساحل السوري في البدروسية، وعند دوار الجاجية قرب حماة، كانت تهدف إلى تربية الناشئة على الخشونة وشظف العيش وتقوية أرواحهم وأبدانهم، كما كان المخيم الدائم على شاطئ العاصي قبل دخول النهر مدينة حماة بالقرب من قرية (الجاجية). فقد كان يرحمه الله مهتماً بتربية الناشئة، وكان الناس يعجبون من ذلك المنظر الغريب عندما يرون مروان يرحمه الله وحوله مجموعة من الأشبال الصغار يمشون حونه ذاهبين إلى المسجد أو عائدين منه.

أما التدريب العسكري فقد نفذ بعضه في بساتين حماة، وأما الأهم فقد دُرب عددٌ من شباب الإخوان في معسكرات فتح في الضفة الغربية عام (١٩٦٩م)، وشاركوا في معركة الكرامة واستشهد عدد منهم يرحمهم الله تعالى، وقد اشتهرت قاعدة الشيوخ التي ضمت مروان يرحمه الله مع عبد الستار الزعيم، وهشام جنباظ وغيرهم، مع الشيخ الشهيد عبد الله عزام يرحمهم الله رحمة واسعة، وخاضوا عدة معارك ضد الصهاينة، وقد أحاط الإخوان ذلك بسرية بالغة، وبعد عودتهم كان لهم صلة قوية بمروان، وكان مروان لا يزال (من الناحية الشكلية) عضواً في جماعة الإخوان المسلمين، وبعد انتهاء مدة التدريب وعودة المجموعة، أوفد مروان بعضها إلى حلب (ليؤسس نواة لتنظيمه الذي سماه

(الطليعة) كما أبقى بعضه في مدينة حماة، وتوجه بنفسه إلى دمشق ليبدأ هناك تأسيس نواة تنظيمه الجهادي).

وقد أعلن رسمياً عن التسمية، ولأول مرة فيما يبدو لي بعد مجزرة مدرسة المدفعية في حلب، التي نفذها النقيب إبراهيم اليوسف يرحمه الله (البعثي)، حيث أعلنت الطليعة بيانها الأول على جدار مدرسة المدفعية باسم (الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين)،كتيبة الشهيد مروان حديد.

السلطة تبدأ مسلسل الدم :

في عام (١٩٧٥م) كانت المخابرات السورية تتابع الموضوع بجد، وتمكنت من إلقاء القبض على بعض الشباب الحمويين في بساتين حماة، معهم أسلحة وقد حفروا خنادق دفاعية، وإزاء ذلك استخدمت المخابرات أقسى أنواع التعذيب وحشية لمعرفة أسرار ذلك، واستشهد الأخ (حسن عصفور والأخ زلف يرحمهما الله)، تحت التعذيب وسلموا جثثهم لأهلهم، وشاع الخبر في حماة عن استشهاد الأخوين: عصفور وزلف تحت التعذيب، وفهم الشباب الذين لهم صلة بالأخ عصفور أنهم اكتشفوا، وأن المخابرات ستلقي عليهم القبض وسيحقق معهم بنفس الطريقة ليموتوا تحت التعذيب، أو يصبحوا عملاء للمخابرات ويعطونها كل ما يعرفون، ومن أجل ذلك قرر هؤلاء الأخوة أن يتواروا عن الأنظار، وأن لا يفارقوا سلاحهم (الكلاشن)، حتى إذا ما داهمتهم سلطات الأمن قاتلوها، وماتوا في ميدان المعركة لأنه أشرف وأسهل من الموت تحت سياط التعذيب[١].

وهكذا بدأت المعركة المسلحة بين النظام الأسدي والحركة الإسلامية ممثلة بشباب الطليعة ثم امتد الأمر ليشمل الإخوان المسلمين، ودامت هذه المأساة حتى (١٩٨٦م) عندما نفذت عملية الباصات المشهورة، وخسرت سوريا آلاف الشباب من الأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات والضباط وطلاب الضباط والجنود، وشردت آلاف الأسر من خيرة أبناء سوريا في دول الخليج العربي واليمن والعراق والأردن وأوربا وأمريكا وأفغانستان وغيرها. وكان السبب الأول والأهم هو تطرف أجهزة المخابرات في تعذيب الشباب بأصناف من العذاب لا تخطر على ذهن الإنسان العادي، أساليب تنم عن حقد تاريخي

---

(١) وهذا يدعم نظرية أن النظام الأسدي دفع الشباب المسلم لحمل السلاح، كي يجعل ذلك مبرراً له للقضاء على الحركة الإسلامية في بلاد الشام... وقد نفذ ذلك.

دفين، مما جعل الشباب يضطرون إلى الدفاع عن أنفسهم عندما تطلبهم قوات الأمن ليموتوا في الميدان قبل أن يصلوا إلى أقبية المخابرات. واتضح الآن غباء وحقد الرائد العلوي محمد غــرة، الذي قتل اثنين من شباب الإخوان (عصفور و زلف) أثناء التعذيب، ومن غبائه أنه ســلم الجثث لذويهم، وآثار الضرب والحرق بالسجاير والصعق الكهربائي واضحة في أجسادهم، (أو كان ذلك ضمن مخطط بالتفاهم مع حافظ الأسد لدفع الشباب المسلم إلى حمل السلاح)، ولو لم يكن غبياً؛ لما ســلم الجثث إلى ذويهم، ولو أخفى هذه الجثث كما أخفوا بعد ذلك بضعة عشر ألف جثة من جثث الإخوة الذين أعدموهم في تـــدمر، لما وقعت الكارثة. والله أعلم.

ويبدو لي أن الرصاصة الأولى التي أطلقتها الطليعة المقاتلة؛كانت تلك الرصاصة التي قتلت الرائد محمد غرة قائد الأمن القومي في حماة يوم (١٦/٢/١٩٧٦م)، عندما مرت دراجة نارية بالقرب منه وهو خارج من بيته صباحاً، وعلى الدراجة شابان من شباب الطليعة، الأول يقود الدراجة والثاني يده في جيبه على زناد المسدس عيار (٧ملم)، ولما صاروا على بعد متر واحد منه أطلقوا عليه رصاصة واحدة في قلبه. ثم فرت الدراجة ومن عليها، لذلك قررت الدولة منع ركوب الدراجات النارية داخل المدن من ذلك الحين وربما لازال القرار ساري المفعول حتى الآن.

الـــــسلطة تتــهــم العــــراق :

ومرت عدة اغتيالات لشخصيات بعثية علويـــة في الغالب خلال الأعوام (٧٦، ٧٧، ٧٨) وتفجيرات بعض مواقع قوات الأمن،كانت السلطة تتهم البعث اليميني المساند من قبل العراق بها، حتى أنها أعدمت مواطنين أحدهما من آل تركاوي من حماة بعد محاكمات صورية، واتهم بالصلة مع العراق وتنفيذ بعض هذه الحوادث. وفي حقيقة الأمر كانت الطليعة المقاتلة هي التي تنفذ هذه العمليات، ولم تشأ السلطة أن تعلن ذلك، إما لجهلها بتنظيم الطليعة، وإما لهدف أمني كانت تراه كي تتابع أفراد الطليعة وتعتقلهم قبل أن يفروا ــ وهو الأرجح ــ.

كما أن السلطة ما كانت تصدق بسهولة أن الشباب المسلم الذي عاش في المسجد؛ ينفذ مثل هذه العمليات المتقنة من حرب العصابات، وما أرادت أن تعلن ذلك للشعب لأنه يرفع من شأن الحركة الإسلامية في قلوب المواطنين، خاصة وأن هذه العمليات تشــفي غليل

الشـــعب المضطهد والمظلوم، وهذا ما حصل فعلاً بعد انكشـــاف الأمر وبعد أن عرف أن هذه العمليات نفذها الشباب المسلم.

حتى المعركة الأخيرة التي خاضها مروان حديد يرحمه الله في (٢٩/٥/١٩٧٥م) في حي المزرعة بدمشق، بعد أن كشف أحد عملاء المخابرات مكانه وهو (مصطفى جيرو) الذي كانوا يحضرونه من إدلب ليحلق له لأنه من الثقات، ويبدو أن الأمن استطاع الوصول إليه، أو أنه أصلاً من رجال المخابرات، وبعد انكشاف العمارة التي يقيم فيها مروان يرحمه الله، حاصرتها كتيبة من قوات الجيش، ودارت معركة استمرت معظم النهار، وانتهت المعركة بعد أن هبطت طائرة عمودية على سطوح العمارة، ونزل منها عدة مغاوير، في حين انتهت الذخيرة الموجودة عند مروان ومرافقيه، وكلهم جرحى، بعد استشهاد الأخ زكي الصفدي يرحمه الله، فألقت السلطة القبض على البطل الشيخ مروان حديد يرحمه الله، وهو جريح وفي غيبوبة، وتمكن أحد مرافقيه من الفرار[١].

مرحلة المجد العسكري للطليعة المقاتلة :

كانت الطليعة المقاتلة تحت إمرة مؤسسها الشيخ مروان حديد يرحمه الله حتى اعتقاله في صيف (١٩٧٥م)، فانتقلت إلى الدكتور عبدالستار الزعيم يرحمه الله، من الأسر المعروفة في حماة، ومن الرعيل الأول الذين تربوا في مدرسة الإخوان المسلمين، طبيب أسنان لم يعمل في مهنته، وإنما لازم الشيخ مروان يرحمه الله، وتدرب معه مع فدائيي فتح، وكان الرجل الثاني في الطليعة المقاتلة، وأكثر صلة وتفاهماً مع الإخوان المسلمين.

كان عبدالستار حكيماً شجاعاً تقياً ورعاً يرحمه الله، لذلك بدأت العمليات خلال فترته منذ الرصاصة الأولى في قلب الرائد محمد غرة، واستمرت خلال عام (٧٦-٧٧-٧٨-٧٩) بإيقاع منتظم، وانتقاء جيد، ومركزية إلى حد بعيد، وتنفيذ دقيق، حتى استشهاده يرحمه الله في صيف (١٩٧٩م)، بعد مجزرة مدرسة المدفعية التي نفذها عدنان عقلة نائبه في حلب دون موافقته يرحمه الله، وبعد مجزرة المدفعية بقليل نصبت المخابرات له كميناً على الطريق العام دمشق – حمص، واضطر إلى الاشتباك مع كمين المخابرات، بعد أن

---

(١) حتى هذه المعركة التي سمعت بها دمشق كلها، أذاعت وسائل الإعلام الحكومية أنها من صنع عملاء النظام اليميني في العراق. وهذا يؤكد أن السلطة كانت تعرف الحقيقة ولكنها كانت تخفيها للمصلحة الأمنية والسياسية، ولم تعترف السلطة بذلك حتى وزعت الطليعة بيانها الأول بعد مجزرة مدرسة المدفعية.

نزل من الباص وابتعد عن المدنيين ونال الشهادة يرحمه الله. وبعد وفاته ساءت أحوال الطليعة كثيراً. وصارت عبارة عن عدة تنظيمات محلية، وعجزت عن التعاون أو التنسيق بينها.

وخلال فترته لم تستطع السلطة أن تعلن عن المنفذ الحقيقي لعمليات الاغتيال، التي أوجعت السلطة جداً، مع أنها تعلم الحقيقة، واستطاع يرحمه الله أن يزرع الرعب والهلع في قلوب المسؤولين، من العسكريين والحزبيين ورجال المخابرات، واضطرت الدولة إلى تأمين حماية كبيرة جداً، لكل مسؤول كبير مثل قادة فروع الحزب، وقادة فروع المخابرات، وقادة ألوية الجيش، ناهيك عن قادة الفرق، وأعضاء القيادتين القطرية والقومية، حماية لهم في العمل وفي البيت، وعند التنقل والسفر. وكان شباب الطليعة يتقنون التمويه، وراء الشعور الطويلة والشوارب المفتولة، وحلق اللحى، والسراويل الحديثة...إلخ.

وقد رأيت مرة أمين فرع الحزب في محافظة (...) يخرج من بيته في الثامنة صباحاً، وكي يجتاز المسافة التي تفصل باب العمارة إلى موقف السيارة، التي لا تزيد على خمسين متراً، يُقطَع السيرُ في الشارع فتقف سيارتا أمن (لاندروفر) فيهما مسلحون لإيقاف السير في الشارع، كما يقف بضعة عناصر مسلحين في هذه الأمتار الخمسين، ومع ذلك يخرج ويده على زناد المسدس يتلفت يمنة ويسرة، والرعب يلمح منه على مسافة مائة متر أو تزيد، حتى يدخل في السيارة فيتنفس الصعداء ويطمئن إلى سلامته هذا اليوم. وهو يعلم أن معظم الاغتيالات تمت عند خروج المسؤول من بيته إلى وظيفته.

مجزرة مدرســـة المدفعيـــة بحلب :

تعتبر مجزرة مدرسة المدفعية بحلب بداية الفوضى في الطليعة المقاتلة، وقد نفذها عدنان عقلة بالتعاون مع النقيب البعثي إبراهيم اليوسف ضابط الأمن في المدرسة، دون موافقة الدكتور عبدالستار الزعيم وهو القائد العام لمجاهدي الطليعة يومذاك، كما أن حسني عابو في حلب لم يوافق عليها، ومما لاشك فيه أن حكومة البعثيين صارت طائفية إلى درجـــة (٩٠) بالمائة، ويؤكد ذلك أن عدد طلاب مدرسة المدفعية حوالي (٣٠٠) طالب بينهم (٣٠) فقط من غير العلويين فقط أي (١٠) بالمائة، كانت اغتيالات الطليعة لعناصر النظام ناجحة.ويرحب بها الشعب لأن المغتالين من عملاء المخابرات، أو ضباط المخابرات وكلهم ممقوتون لأنهم يذبحون الشعب ويدنسون كرامته أمثال الرائد المجرم

محمد غرة، واللواء عميل إسرائيل المكشوف عبد الكريم رزوق[1]، لذلك كان الشعب بجميع فئاته حتى بعض العلويين يفرحون لسقوط هؤلاء الرموز الذين باعوا أنفسهم للشيطان. وصارت السلطة تقتل المواطنين على الهوية، فقتلت الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع عدداً من الحمويين البعثيين عام (١٩٨٢م)، بعد أن أظهروا بطاقاتهم الحزبية التي لم تنفعهم. مما دل على كره وحقد دفين على الحمويين، حتى لو كانوا بعثيين. وهذا هو أسلوب السلطة الذي رفضه الشعب عندما بارك الثورة الجهادية المسلمة.

وشاء الله أن يقدم النقيب إبراهيم اليوسف بالتنسيق مع عدنان عقلة، فجمع طلاب المدرسة في النادي بحجة إلقاء محاضرة عليهم، بعد إخراج غير العلويين وهم ثلاثون طالباً فقط، وضع بعضهم في السجن وأجاز بعضهم الآخر، ثم وصل شباب الطليعة فطوقو النادي وفتحوا نيران أسلحتهم الرشاشة من النوافذ، وقذفوا رماناتهم اليدوية داخل النادي، فسقط (٢٥٥) طالب ضابط علوي كما يقول عمر عبد الحكيم (ص٣٣). ووزعت الطليعة يومئذ بيانها الأول باسم الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين كتيبة الشهيد مروان حديد، ولأول مرة يعلن التلفزيون السوري هذا النبأ وتعترف السلطة السورية بأن الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين ارتكبت هذه المجزرة. وهذا اعتراف أيضاً بأن مسلسل الاغتيالات الذي تعيشه البلاد منذ أربع سنوات من تنفيذها.

السلطة تعدم (١٧) أخـــاً من قياديي الإخوان المسلمين :

طاشت السلطة وفقدت صوابها، وقابلت مجزرة مدرسة المدفعية بإعدام سبعة عشر أخاً من قياديي جماعة الإخوان المسلمين، سبق وأن اعتقلتهم خلال العامين الماضيين.

---

(١) كان عبد الكريم رزوق قائد مدرسة المدفعية عندما كانت في قطنا (وكانت في المعسكر الخامس) ـ ومن عادته إقامة عرض عسكري كل خميس، تشارك فيه المدرسة كلها (ضباط عاملون، وطلاب ضباط عاملون، وطلاب ضباط احتياط، وتلاميذ ضباط صف كثيرون)، ومن الدورات المشاركة يومذاك أول دورة صواريخ (مالوتكا) ضد الدبابات؛ وهي أحدث سلاح في الجيش السوري يومذاك ضد الدبابات، وحين العرض ذلك اليوم في بداية صيف ١٩٧٠م، شوهدت طائرات في سماء منطقة قطنا؛ فأخبروا العميد رزوق قائد المدرسة فقال لهم: طائرت صديقة، واستمر العرض، وقد تجمع جميع الضباط وطلاب الضباط وتلاميذ الرقباء في ســاحة المدرسة للعرض وعندئذ انقضت عليهم الطائرات الإسرائيلية ترميهم بالقنابل والصواريخ وتحصدهم بالرشاشات، وخلال دقائق معدودة قتل مئات الضباط ومعظم أفراد دورة صواريخ (مالوتكا) يرحمهم الله تعالى، هذا المجرم عبد الكريم رزوق اغتاله مجاهدو الطليعة قبل عام (١٩٧٩م).

منهم الدكتور حسين خلوف يرحمه الله، بعد أن توقعت السلطة أنهم من قيادة التنظيم، ويلاحظ أن النظام لم يفرق بين شباب الإخوان والطليعة المقاتلة، لأن حقد السلطة على الحركة الإسلامية أعماها عن التوصل إلى حقيقة الموقف،ولأنها تهدف إلى القضاء على الحركة الإسلامية، فأعلنت حربها على الإخوان المسلمين قاطبة، ومن ثم على سائر الحركات الإسلامية، وتجمعات العلماء وتلاميذهم، وحلقات المتصوفة ومريديهم، ثم طوروها حتى صارت حرباً على الإسلام عندما دمرت المساجد في مدينة حماة، وذبح العلماء وذبح الحمويون حتى البعثيون منهم.

على الرغم من أن قيادة الإخوان المسلمين سارعت إلى نفي علاقتها بمجزرة مدرسة المدفعية بحلب، ببيان نشرته مجلة المجتمع في العدد (٤٥٢، شعبان ١٣٩٩هـ، الموافق تموز ١٩٧٩م). ونص البيان على أن الجماعة لا علاقة لها بحادثة مدرسة المدفعية، ونفت كذلك علاقتها بالأحداث الجارية، ونفت أنها حملت السلاح ضد الدولة. ورغم ذلك كله فقد اعتقلت السلطة أعداداً من قيادات الإخوان، وفر من تمكن إلى الأردن، وزجت السلطة بمئات وربما ألوف الإخوان في السجون. ومن الملاحظ أن الطليعة تركت منشوراً تنسب حادثة المدفعية لها، ووزير الداخلية يعلن الحرب ضد الإخوان المسلمين وهذا يؤيد النظرية القائلة أن حافظ الأسد يريد القضاء على الحركة الإسلامية في بلاد الشام.

ذروة الهلـــع عنـد السـلطة :

استمر العمل الجهادي بعد استشهاد القائد العام الدكتور عبدالستار الزعيم يرحمه الله، استمر بشكل لا مركزي، حيث صارت حلب تحت قيادة المهندس عدنان عقلة، وحماة تحت قيادة الأخ هشام جنباظ يرحمه الله، وحمص تحت قيادة الأخ عبدالمعين السيد يرحمه الله، ودمشق تحت قيادة الأخ أيمن شوربجي، وتشكلت خلايا صغيرة أيضاً في الساحل وجسر الشغور وإدلب ودير الزور ودرعا، وارتفعت وتيرة الاغتيالات حتى وصلت في حلب أوائل عام (١٩٨٠م) إلى عشرة أشخاص يومياً أحياناً، من أزلام السلطة وأعوانها، وفي حماة كان بسام الأرناؤوط يرحمه الله يقتل عميلاً للسلطة يومياً على مدار أكثر من شهر ونصف، حتى استشهد على يد شرطي مرور يرحمه الله، فخرجت المدينـــة ممثلة بطلاب وطالبات المدارس يهتفون بحياة الشهيد بسام الأرناؤوط وموت أعدائه، وبيعت صوره لدى محلات التصوير.

وفي (أواخر ١٩٧٩، وأوائل ١٩٨٠م) سيطرت قيادة الطليعة في حلب وحماة تقريباً على الوضع، وصارت تبعث رسائل إلى بعض الحزبيين تطلب منهم إعلان براءتهم من الحزب والتوبة إلى الله في مسجد يعين له، ومعظم هؤلاء كانوا ينفذون ما يؤمرون به، حيث يقف بعد تسليمة الإمام من صلاة الجمعة ويقول: أنا فلان ابن فلان أشهد الله وأشهدكم أني انسحبت من حزب البعث وأتوب إلى الله من ذلك.

وكانت قيادة المجاهدين تأمر المدارس بإقامة صلاة الظهر والعصر جماعة في المدرسة، وتخصيص قاعة مناسبة للصلاة، ومنعت المدارس من ترديد شعار الحزب في الصباح، وقد نفذت المدارس في حلب وحماة هذه التعليمات ومئات السوريين يشهدون على ذلك.

ومثل عجز السلطة أصدق تمثيل خطاب الرئيس حافظ الأسد في عيد ثورة الثامن من آذار عام (١٩٨٠م) ومما قاله بعد أن ترك المكتوب على الورق وصار يتكلم بلهجة شبه عامية ويقول:

أتمنى أن أعرف ماذا يريد الإخوان المسلمون[١]، لو يأتوا إلي ويقولون ماذا يريدون، أنا والله مسلم وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله، وأنا مواظب على الصلاة منذ ثلاثين عاماً، وأنا أعرف أنه يوجد ناس عاقلون في الإخوان المسلمين، يأتوا إلي ويقولوا ماذا يريدون، هل يجوز قتل المسلم؟ هل يجوز قتل المواطن البريء؟ من هو المستفيد من حوادث القتل هذه؟ إنهم أعداء هذا البلد وأولهم الإمبريالية والصهيونية وإسرائيل[٢].

---

(١) إبراهيم اليوسف مسلم بعثي سني من تادف محافظة حلب، ومثل غيره من أبناء المسلمين السنة إذا أراد أحدهم دخول الكلية العسكرية؛ لابد أن يكون بعثياً، لذلك ينتسب عشرات الألوف من أبناء المسلمين السنة لحزب البعث العربي الاشتراكي، من أجل الخبز كالوظيفة أو المنصب، وفيه جذور إسلامية عميقة من التربية البيتية أو البيئة المحلية، وإيمان عميق جعله يكره أزلام السلطة، ويبدو أن فيه من الذكاء ما مكنه من الوصول إلى منصب ضابط أمن مدرسة المدفعية، ولا يصل هذا المنصب إلا الحزبيون الثقات، وقد عرفت الطليعة كرهه للسلطة فاتصلت به، ونفذ تلك المجزرة الرهيبة.

(٢) لم يذكر الطليعة البتة في خطابه الهام هذا وكأنه لا يفرق الإخوان عن الطليعة.

الفصل الخامس

الإخوان المسلمون يدافعون عن دمهم وعرضهم

يقول فضيلة الأستاذ عدنان سعد الدين المراقب العام للإخوان المسلمين في سوريا خلال الفترة (١٩٧٥ــ١٩٨٠) في كتابه (مسيرة جماعة الإخوان المسلمين في سورية من عام (١٩٧٥ــ١٩٨٢م) ط١، ص ١٠٧: (لا أعلم حكماً أشد قسوة وأكثر جوراً على جماعة الإخوان المسلمين في سورية (من القول) إن الإخوان قد اتخذوا قراراً بدخول المعركة ومواجهة قوات النظام في سورية... ولامناص من الشرح الوافي للقضية إذ جعل نظام حافظ الأسد من أهدافه الأساسية أن يقضي على الإخوان المسلمين[1] والمتدينين

---

(١) من الأدلة على أن مهمة حافظ الأسد هي القضاء على الحركة الإسلامية:

١- من البدهي أن حافظ الأسد هو المحرك لانقلاب (١٩٦٣) وكان يحرك الآخرين من وراء ستار، ومنذ (١٩٦٣/٣/٨) كان الإعلان صباح مساء في وسائل الإعلام جميعها أن الرجعية أخطر من إسرائيل، ويجب القضاء عليها قبل إسرائيل.

٢- في المؤتمر القطري لحزب البعث عام (١٩٦٥) يقول حافظ الأسد: أما الإخوان المسلمون فلا ينفع معهم غير الاستئصال، وهذا موجود في مقررات ذلك المؤتمر...

٣- في عام ١٩٧٣م خلال معركة الدستور ذهب الشيخ خالد الشقفة يرحمه الله وقابل حافظ الأسد ــ كما كان يفعل الشيخ محمد الحامد يرحمه الله ــ ليتوسط للمعتقلين فتهدد حافظ الأسد أمامه وتوعد وقال: لأقطعن اليد التي لم يستطع جمال عبد الناصر أن يقطعها.

٤- تدمير مسجد السلطان في حماة (١٩٦٤)، مما دفع مروان حديد إلى تغيير قناعته ومنهجه من العمل السياسي إلى العمل العسكري.

٥- استنكر الإخوان المسلمون مجزرة المدفعية، كما أعلن منفذوها عن أنفسهم بأنهم الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، وبعد سنة يقول حافظ الأسد: كما يقول فان دام في ص١٤٢ ط ٢ نقلاً عن إذاعة دمشق في (١٩٨٠/٣/٢٣):

قال الرئيس حافظ الأسد كما جاء عند فان دام:

(أريد أن أوضح أمراً يتعلق بحزب الإخوان المسلمين في سوريا، الإخوان المسلمون في سوريا ليسوا جميعاً مع القتلة، بل كثير منهم، القسم الأكبر منهم ضد القتلة ويدين القتل، وهذا القسم يرى أنه=

قضاء مبرماً، بالسجن أو الإعدام والتعذيب وغسل الأدمغة، أو شراء الذمم والضمائر، أو الطرد من سوريا... وبعد حادثة مدرسة المدفعية، سوغت السلطة لنفسها الإعلان الصريح عن عزمها على إبادة الإخوان المسلمين؛ بالرغم من استنكار الإخوان للحادثة، فقامت بما يلي:

١ـ أعدمت ثمانية عشر أخاً من الإخوة الكرام الأطهار في صيف ١٩٧٩م.

٢ ـ أصدرت قرارها بتصفية الإخوان المسلمين وقتلهم داخل سوريا وخارجها، وجاء ذلك على لسان نائب الحاكم العرفي؛ وزير الداخلية عدنان دباغ، ووزير الإعلام أحمد اسكندر ومصطفى طلاس والشهابي وغيرهم.

ودارت طاحونة القتل، وبعد عام كانت مذبحة تدمر التي راح ضحيتها أكثر من ألف أخ من خيرة أبناء سوريا، واستمرت سياسة الإبادة طوال صيف (١٩٧٩م)؛ حتى يسر الله لمجلس شورى الإخوان أن يجتمع في أيلول خارج سوريا، ولم أكن حاضراً ذلك الاجتماع، [مازال كلام الأخ عدنان، وكان في كوالالامبور يومها]، وبعد المناقشات رأى الإخوة أن الأخ المطارد مستهدف في دمه، وإذا سلم نفسه فإن مصيره أشد قسوة من قتله، فتكون أمنيته التي ضاعت؛ لو أنه قتل بالرصاص قبل اعتقاله، بعدما يلاقي من أصناف العذاب التي لا تخطر بقلب بشر، وإزاء ذلك رأى الإخوة أعضاء مجلس الشورى؛ أنه

=يجب أن يعمل من أجل الدين ورفع شأن الدين لا من أجل أي هدف آخر . هؤلاء أيها الشباب لا خلاف لنا معهم إطلاقاً، بل نحن نشجعهم، نحن نشجع كل امرئ يعمل من أجل الدين ومن أجل تعزيز القيم الدينية ولهؤلاء الحق بل وعليهم واجب أن يقترحوا علينا وأن يطالبونا بكل ما من شأنه خدمة الدين ورفع شأن الدين ونحن لن نقصر بل لن نسمح لأحد أن يسبقنا في هذا المجال). ومع ذلك يعلن عدنان دباغ وزير الداخلية في حزيران ١٩٧٩ يقول بالإذاعة والتلفزة: اقتلوا الإخوان المسلمين أينما تجدونهم!!!

٦- وكل من تتبع أحداث الثمانينات يجد أن السلطة كانت تدفع الشباب المسلم إلى حمل السلاح، لتبرر ضرب الحركة الإسلامية...

٧- في أحداث مسجد السلطان كان بالإمكان تطويق المسجد وقطع الماء والكهرباء وإجبار المعتصمين على التسليم،كما تفعل الحكومات العادلة.

٨- وفي عام (١٩٨٢) كان بإمكانها حصار حماة، لمدة شهور، والتفاوض مع المقاتلين للخروج من المدينة، وتدخل جهة ثالثة عربية أو دولية، وبذلك تحقن دماء عشرات الألوف من الشعب معظمهم من النساء والأطفال.

لا سبيل أمامهم سوى الدفاع عن النفس وعدم الاستسلام؛ كيلا يجلسهم الجلادون على قضيب الفولاذ المحمي بالنار ليمزق أحشاءهم وأمعاءهم، ولم يكن أمامهم من خيار إلا الدفاع عن النفس، فهم لم يتخذوا قرار الحرب؛ بل اتخذه عدوهم، ولم يقرروا الهجوم على الدولة بل السلطة هي التي قررت الهجوم عليهم وإبادتهم، ولا أظن عاقلاً يقرر غير هذا القرار، ولو كنت حاضراً لما خالفتهم، بل لوقفت معهم ورأيت رأيهم. إن الإخوان لم يتخذوا قرار الحرب والمواجهة، بل كان موقفهم دفاعياً أمام موت يأتيهم من كل مكان، ومن الظلم أن يقال للجماعة التي لاقت ما لاقاه الحسين رضي الله عنه في كربلاء؛ أن يقال: لقد أخطأت الجماعة باتخاذ قرار الدفاع عن النفس) انتهى كلام الأستاذ عدنان حفظه الله.

إن موقف الجماعة تماماً مثل موقف زملاء ورفاق الأخوين(عصفور وزلف)، اللذين استشهدا تحت التعذيب، على يدي الرائد محمد غرة مدير الأمن القومي في حماة، زملاء هؤلاء الإخوة قرروا: أن لا يسلموا أنفسهم لسلطات الأمن؛ التي ستقتلهم تحت التعذيب كما قتلت هذين الشهيدين؛ لذلك قرروا أن يدافعوا عن أنفسهم؛ عندما تصل إليهم سيارات الأمن لاعتقالهم.

والسلطة هي التي أعلنت الحرب على جميع الإسلاميين، ولم تكن تفرق بين الطليعة والإخوان، ثم شملت في حربها جميع الحركة الإسلامية؛ثم توسعت فقتلت أبناء حماة حتى من البعثيين والنصارى، مما دفع الإخوان المسلمين في سوريا إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، ومع أن الإخوان استنكروا مجزرة مدرسة المدفعية وتبرأوا منها؛ ومع ذلك أعدمت السلطة بعد اثني عشر يوماً فقط أي في(٢٨/٦/١٩٧٩م) ثمانية عشر أخاً من قيادات الإخوان المسلمون يرحمهم الله تعالى.

ومن المؤكد أن بعض الفصائل الإسلامية من غير الإخوان حملوا السلاح ضد السلطة قبل الإخوان مثل جماعة الهدى وبعض تلاميذ العلماء في حلب، وجماعة زيد في دمشق، وقد حملوا السلاح للدفاع عن أنفسهم أيضاً، لأن السلطة استهدفت جميع أبناء الحركة الإسلامية، (إخوان وغير إخوان فكلهم رجعيون، والقضاء على الرجعية مقدم على القضاء على إسرائيل)، وهذا من الحقد التاريخي الدفين عند عناصر السلطة، مثل حافظ ورفعت أسد وعلي حيدر وغازي كنعان وشفيق فياض وغيرهم من القتلة السفاكين، فقد كانوا متشوقين إلى قتل المسلمين عامة وأبناء الصحوة الإسلامية والحمويين خاصة.

ويذكرنا هذا بتدمير مسجد السلطان في حماة (١٩٦٤)، فقد أراد مروان حديد يرحمه الله القيام بعمل سياسي متحضر (الإضراب)، وأراد أن يعتصم بمسجد السلطان ويحث الناس على الإضراب، فما كان من السلطة إلا أن أمرت الجيش العقائدي فدمر المسجد والمئذنة، وقتل حوالي مائة مواطن من حماة، واعتقل مروان الذي عاهد الله لئن أطال عمره ليناز لنهم بالسلاح لأنه اقتنع أن هؤلاء لا يفهمون سوى لغة السلاح.

وقيل إن الإخوان أنشأوا جهازاً عسكرياً؛ أسندت قيادته إلى الشهيد الأستاذ (...) يرحمه الله، ويدعي الطليعيون أن الإخوان أنشأوا هذا التنظيم ليحفظوا شبابهم من الالتحاق بالطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، بعد أن أجبرتهم السلطة التي أعلنت على الملأ في وسائل الإعلام؛ أنها ستقتل الإخوان المسلمين داخل البلاد وخارجها، والله أعلم.

التمـــشيط :

منذ ربيع عام (١٩٨٠م) بعد سيطرة الحركة الجهادية على حلب وحماة، حتى كان المقاومون في حلب يوزعون مجلة النذير علناً، وعلى مرأى من رجال المخابرات بلا خوف منهم، وكانوا يمشون في شوارع حلب بأسلحتهم، كما كانوا يعطون التعليمات للشعب لينفذها في حماة، كالانسحاب من الحزب وإقامة الصلاة في المدارس، ومنع ترديد شعار حزب البعث في المدارس...إلخ، وبعد خطاب الرئيس في آذار عام (١٩٨٠م) الذي أظهر مدى ضعف السلطة في مواجهة الحركة الجهادية، بدأت السلطة تستخدم الجيش بكثافة، وبشكل مباشر في قمع الحركة الجهادية، وكانت المعركة فيما سبق تدور بين أجهزة الأمن كالمخابرات العسكرية، والأمن السياسي، والأمن القومي، وأمن القوى الجوية، وفصائل الحزب والعمال والفلاحين المسلحة، وبين المقاومين المسلمين.

وتقدمت ألوية من الوحدات الخاصة، بعد فرز عناصرها، وطوقت مدينة حماة في نهاية آذار (١٩٨٠م)، وعزلت المدينة عن العالم، وعزلت الأحياء بعد ذلك بعضها عن بعض، وفتشت بيوت حماة بيتاً بيتاً على مدى أسبوع تقريباً، وكانت تبحث عن السلاح، وعن أسماء أعضاء من الحركة الجهادية، توصلت إليها سلطات الأمن بواسطة التحقيق مع المعتقلين، وتعذيبهم بشكل وحشي، وأغلب ظني أن هذا التمشيط لم تعثر السلطة من خلاله على أي عنصر ممن تريدهم، كما لم تعثر على أية قاعدة للمقاومين، إلا أن بعض الضباط أهانوا الأهالي وعاملوهم بقسوة ونذالة، كما فعل الرائد خالد الأحمد - (وهو من

ذراري السنة، من قرية تل قرطل قرب حماة) ـ بأهالي حي الشريعة بحماة[١]. وهكذا مُشِّطت حلب وإدلب وجسرالشغور عدة مرات، ولم يجد ذلك التمشيط نفعاً، واستمرت الكفة راجحة في جانب الحركة الجهادية.

تلاحم الشعب مع الحركة الجهاديـــة سر نجاحهـــا :

عندما كادت السلطة أن تنهار؛ استنجدت بخبراء روس متخصصين في ملاحقة المطلوبين، وقالت السلطة يوجد مائتا مجرم في حماة، يقاتلوننا منذ أكثر من ثلاثة أعوام، وقد مشطنا المدينة عدة مرات ولم نعثر عليهم، كما وضعنا دوريات من الجيش في شوارع المدينة بشكل دائم، ولم نستطع إيقاف هجماتهم على رجالنا، وأخذ الخبراء الروس إلى عدة أماكن؛ تم فيها اغتيال أنصار السلطة ورووا لهم الحادث كما جرى:

في الساعة السابعة والنصف، أو السابعة وخمس وأربعين صباحاً، يخرج الموظفون وطلاب المدارس إلى أعمالهم، وتمتلئ الشوارع بالناس، وعند موقف الباص، حيث كان الهدف واقفاً مر عليه شاب ناداه باسمه فالتفت إليه، وعندها أودع الشاب رصاصة واحدة في قلبه الذي سقط على الأرض، بينما مشى المجاهد بين الناس، ولما وصلت الدورية بعد خمس دقائق في العادة لم تستطع أن تكتشف المجاهد، حتى لو احتجزت عدداً من الناس لا تجد مع أي منهم مسدساً أو أي سلاح غيره.

وبالفعل كان التخطيط والتنسيق عالياً جداً، بحيث يطلق المجاهد النار على ذلك العميل للسلطة، ثم يمشي بين الناس بضعة أمتار، ويدخل أقرب زقاق بعد ذلك... المهم ما كنت ترى مواطناً واحداً يندهش من الاغتيال، فيصرخ ويشير إلى المجاهد.

أضف إلى ذلك كان المقاومون يخرجون من بيوتهم أو قواعدهم إذا لزم الأمر، ويدخلون بيوت المواطنين بعد الإذن طبعاً فيقابلون بالترحاب، حتى كانت للمقاومين قواعد كثيرة تبادلية يمكنهم استخدامها إذا لزم الأمر، وكان معظم المواطنين- وحتى بعض النصارى- يسره أن يقدم خدمة للمقاومين؛ لأن معظم الشعب حاقد على السلطة التي أذلته وأهانت كرامته.

---

(١) قتل هذا الرائد في لبنان على إثر مشاجرة مع زملائه من أهل داعرة، حيث أطلق عليه زملائه العلويون النار.

ولكن خسر المقاومون هذا التلاحم وبدأ انحدار العمل الجهادي بعد أن قال الخبراء الروس: مدينة حماة كلها مجرمون، وليس عصابة كما تقولون عددها مائتان فقط، هذه المدينة التي لا تجد فيها مواطناً واحداً يشير بيده إلى المجرم ليدل رجال الجيش عليه، هذه المدينة كلها مجرمة ونقترح ما يلي:

إذا اغتال المجرمون أحد رجالكم في حي من هذه المدينة، فليسرع الجيش إلى جمع خمسين رجلاً على الأقل، من المكان الذي وقع فيه الاغتيال، ويقتلونهم رشـاً بالأسلحة النارية أمام الآخرين، ونفذت الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع التي دربت منذ عشرسنين على قتال المدن، ولم تدرب على قتال هضبة الجولان، وصار الجيش العقائدي يذبح المواطنين دون أن يعرف أسماءهم، يقتل خمسين أو مائة لعل المجاهد الذي نفذ العملية يكون بينهم. ونفذت مجازر جماعية في حماة وحلب في العام (١٩٨١م)، مثل مذبحة هنانو يوم العيد في حلب، ومذبحة باب البلد في حماة، ومثلها في جسر الشغور وإدلب وقراها، وعندئذ رجحت كفة السلطة، حيث اضطر الأهالي أن يحذروا المقاومين من الاقتراب منهم، حفاظاً على أرواحهم بعد أن رأوا بأعينهم المجازر الوحشية التي اقترحها الخبراء الروس (الصهاينة). واستطاعوا أن يفصلوا تلاحم الشعب مع الحركة الجهادية.

ومرة أخرى لم يدر في خلد أحد من السوريين؛ حتى حافظ الأسد ورفعت وعلي حيدر وغيرهم أن يـذبح المواطنـون دون معرفـة أسـمائهم، يذبحون لأنهم مواطنون فقط، تواجدوا في تلك البقعة من الوطن، في تلك الساعة. وقبل اقتراح الخبراء الروس ذلك، كما لم يدر في خلد أحد عام (١٩٦٤م) أن يهدم الجيش مسجد السلطان، وكان لهذه المفاجآت دور كبير في إفشال الحركة الجهادية.

السـلطة تفـاوض الإخوان المسـلمين :

في عام (١٩٨٠) كانت الطليعة تتفوق عسكرياً على السلطة الأسدية، وهذا هو سر خطاب حافظ الأسد ومناورته وفي التفاوض مع الإخوان المسلمين، فقد أكد حافظ الأسد في خطابه الذي ألقاه في آذار (١٩٨٠م) أنه يوجد رجال عقلاء في الإخوان المسلمين، وأنه يتمنى لو قالوا له ماذا يريد الإخوان؟ وهكذا أرسل حافظ الأسد الأستاذ (أمين يكن) وهو مسؤول سابق في جماعة الإخوان، لكنه ترك العمل السياسي منذ زمن بعيد، أرسله إلى عمان يخبر قيادة الإخوان أن السلطة مستعدة للتفاوض معهم، فأبدت قيادة الجماعة برئاسة فضيلة الأستاذ عدنان سعد الدين قبولها التفاوض، وتم اللقاء وقدمت الجماعة

مطلبها الأول، الذي يؤكد الرئيس فيه جديته في موضوع التفاوض، وهو إطلاق سراح عدد كبير من الإخوان الموجودين داخل سجون سوريا، ومنهم عدد كبير من القياديين، مقابل أن تقوم الجماعة بكل إمكاناتها من أجل إيقاف العمليات، التي تقوم بها الطليعة ضد السلطة،وتقف عمليات الاغتيال، ثم تعقد الجولة الثانية من المفاوضات. وفعلاً أطلقت السلطة سراح عدد كبير من قياديي الإخوان منهم: الأخ عبدالله الطنطاوي، والأخ (نعسان عرواني)، وفاروق بطل وغيرهم، وجهدت الجماعة في إقناع عدنان عقلة لإيقاف عمليات الاغتيال فترة؛ يتبين خلالها مدى صدق الدولة التي صدقت في تنفيذ المطلب الأول، ولكن – والقلب يدمى ألماً كلما تذكر ذلك – ركب عدنان عقلة رأسه وجن جنونه،كيف تتفاوض قيادة الإخوان مع الدولة؟ ولا تُحضره أو تُشركه في المفاوضة، يقول الطليعي عمر عبد الحكيم (ص٥٦) (... ومن جهة أخرى كانت عروض التهدئة، مقابل طلبات تقدمت بها الجهات الإسلامية، وكانت تافهة !!! كالإفراج عن المعتقلين، وإنهاء الأعمال الإرهابية، وإعادة الموظفين والمدرسين الإسلاميين إلى وظائفهم، في حين كانت أهداف الحركة (يقصد الطليعة) جذرية، تريد إسقاط الاحتلال (النصيري) لإقامة حكم إسلامي محله (!!!!)، لذا لم يعر المقاومون (يقصد الطليعة) هذه المفاوضات أذناً صاغية،وعاد الحال إلى الانفجار أشـــد مما كان عليه).

وضاعفت الطليعة عمليات الاغتيالات لتفشل خطة الإخوان المسلمين في التفاوض، وظنت السلطة الأسدية أنها خُدعت، وكأنها تظن أن للإخوان سلطة على الطليعة، فندمت على إطلاق سراح المعتقلين، فاعتقلت مَنْ لم يغادر سوريا منهم، ولم تتابع الجولة الثانية من التفاوض لأن الإخوان عجزوا عن تنفيذ البند الأول الخاص بهم، بينما نفذت السلطة البند الأول الخاص بها، وفوت عدنان عقلة الفرصة الذهبية التي هيأها الله عز وجل لتجنيب سوريا محنة مذابح (١٩٨١، ١٩٨٢)، وهجرة ألوف الأسر وتشريدها في البلدان المجاورة ودول الخليج، فوت عدنان عقلة الفرصة الذهبية، لجهله بالعمل السياسي، وتمرده على مبدأ الشورى الإسلامي، فالتفاوض دائماً في جانب القوي، وفي عام (١٩٨٠م) كانت كفة الحركة الإسلامية راجحة لصالح المقاومين، وكانت السلطة مستعدة لتقديم بعض ما يطلبه الإخوان المسلمون، وكان الأهم من ذلك كله تجنيب البلاد والمواطنين محنة لم تــر سوريا ولا أي بلد عربي مثلها، على مدار التاريخ.

ولابد من ذكر الحقيقـــة التي أعرفها: وهي أن السلطة تجاوبت للمرة الأولى والأخيرة وكانت جادة-كما بدا- في التفاوض، وكان حافظ الأسد يفضل التفاوض- آنذاك- لأنه كان

في موضع الضعف كما كشف خطابه في آذار (١٩٨٠م)، وتمكن الأستاذ عدنان سعد الدين (المراقب العام للإخوان المسلمين يومذاك)؛ من دفع السلطة إلى أن تنفذ الخطوة الأولى (وغالباً ما يفشل المتفاوضون حول من ينفـذ الخطوة الأولى)، وكانت خطوة حاسمة حيث أفرجت السلطة عن أكثر من مائتي أخ من قياديي الجماعة، خرج بعضهم خارج سوريا، بعد أن نكث النظام بما عاهد عليه الإخوة المفاوضين، وانطلق يعتقل من استطاع اعتقاله من الذين أفرج عنهم.

وعاشت حلب وحماة حوالي شهر واحد صار الناس يشمون روائح الانفراج، حيث قبلت دفعـة من الطلاب في دور المعلمين وداومت في شهر أيار، وأطلق سراح عدد من السجناء، وانتشر ذلك كله بين المواطنين فاستبشر الناس خيراً، لكن راعهم تصاعد عمليات الاغتيال، ثم اعتقال السلطة لمن أفرج عنهم، ودخلت سوريا في دوامة الدم الكبرى.

محاولة اغتيال حافظ الأسـد :

يقال إن المقاومين توصلوا إلى ضابط صف في الحرس الجمهوري، من قرية كفرنبل، وتفاهموا معـه على اغتيال رئيس الجمهورية، وتم التنفيـذ في شهر حزيران (١٩٨٠م) عندما كان الرئيس يودع رئيس جمهورية النيجر، أمام قصر الضيافة حيث ألقي على الرئيس رمانتان أو ثلاث، فأصيب حافظ الأسد في ساقه وسقط مغمياً عليه، وتمكن مرافقه (ضابط فلسطيني) من الانكفاء على حافظ؛ لتنفجر بقربه فيصد عن حافظ الأسد بجسده، كما استطاع نفس هذا الضابط أن يمسك إحدى الرمانات ويرميها بعيداً قبل انفجارها بينهم، وعلى هذا يبدو أن واحدة فقط انفجرت على مقربة من الرئيس فأغمي عليه، ويقال إن ذلك العنصر خلع قبعته العسكرية، وضرب وجه حافـظ الأسـد بها وهو مغمى عليه (ويظنه ميتاً)، ثم قفز بخطوات سريعة إلى الشارع المجاور؛ ليجد سيارة الجيب في انتظاره، ومكنه الله عز وجل من الفرار، فنكلت السلطة في قريته (كفرنبل) أشد التنكيل، وقاسى أهلها محنة من أقسى المحن بحجة البحث عنه في قريته، وقتلت السلطة جميع أفراد عائلته، أما الشخص الذي نفذ العملية فقد وصل العراق، وبقي فترة ثم دخل سوريا، وقاتل في صفوف المقاومين طوال سنة أو سنتين ثم خرج ثانية من سوريا وقيل استشهد بعد ذلك، وقيل مازال حيـاً، والله أعلم.

ماذا تعرف عن رفعت الأسد؟

ما نقوله عن رفعت، ينطبق جزء كبير منه على عشرات الضباط الكبار في النظام الأسدي، غير أن رفعت يتميز ببعض الصفات، منها كونه من أوائل الذين سلكوا طريق النهب والسلب من ثروة الشعب السوري، بعد شقيقه حافظ، ومنها وصوله إلى أرقام قياسية في هذا السلب والنهب، لم يسبقه سوى أخيه حافظ أيضاً.

رفعت قبل الثامن من آذار ١٩٦٣م:

أبوه علي سليمان الوحش، وقد حصل جده على هذا اللقب من حلبة المصارعة، عندما صرع المصارع التركي الذي كان لا يقهر، ولم يكن أهل القرداحة يعرفون له لقباً، كانوا يعرفونه سليمان (فقط)، ثم حصل على لقب الوحش، أما علي سليمان الوحش، فقد تعلم وكان مشتركاً في جريدة تصله بالبريد إلى القرداحة[١]، خلال الحرب العالمية الثانية، وكان في بيته خريطة للعالم، يتابع عليها أنباء الحرب العالمية الثانية، ولم نتمكن من معرفة المكان الذي تعلم فيه علي سليمان الوحش، وقد ورث علي عن أبيه سليمان القوة الجسدية، وهذه القوة مع التعلم ساعداه على رفع مكانته الاجتماعية في القرداحة، ليلتحق بقبيلة الكلبية، إحدى قبائل العلويين الأربع[٢]، كما أنه صار من وجهاء القرداحة، وممن يسعى إليه الناس في حل الخصومات، وعندها اجتمع وجهاء القرداحة وقالوا له أنت: علي سليمان الأسد، وليس الوحش.

ولد رفعت علي سليمان الأسد عام (١٩٣٧)، وهو آخر أولاد أبيه، وأمه[٣]. ويكبره جميل بأربع سنوات، فهو مواليد (١٩٣٣)، أما حافظ فهو من مواليد (١٩٣٠م). وكان لرفعت

---

(١) باترك سيل، الصراع على الشرق الأوسط، ص ٢٩.

(٢) هذا ما قاله باترك سيل، أما (فان دام) فيقول إنه من قبيلة المتاورة، والله أعلم. وما وقع الاختلاف إلا بسبب الغموض.

(٣) أولاد علي سليمان الأسد هم: هالة (١٩٠٩)، أحمد (١٩١٠-١٩٧٥)، إبراهيم (١٩١١-١٩٦٨) حسيبة (١٩١٢)، إسماعيل (١٩١٣)، بهيجة (١٩١٨)، محمد (١٩٢٠-١٩٧٦)، بهجت (١٩٢٣-١٩٤٢)، حافظ (١٩٣٠- ٢٠٠٠)، جميل (١٩٣٣-٢٠٠٥)، ورفعت (١٩٣٧). والثمانية الأول حرموا من التعليم لفقر والدهم، وعدم وجود مدرسة في القرداحة يومها، وشيخوخة والدهم، فقد ولد حافظ وعمر والده خمس وخمسون سنة. ثم أصر علي سليمان أن يتعلم أولاده الثلاثة الباقون. انظر باترك سيل، الصراع على الشرق الأوسط، ص ٣٠.

عشرة من الإخوة والأخوات، حُرم الثمانية الأول منهم من التعليم، لعدم وجود مدرسة في القرداحة يومها، ثم أصرّ أبوه على أن يتعلم الثلاثة الباقون، وفي الثلاثينات أدخل الفرنسيون التعليم، وفتحت في القرداحة مدرسة ابتدائية، وتمكن علي سليمان من إدخال أولاده فيها.

في عام (١٩٤٩م) انتقلت عائلة علي سليمان الأسد كلها من القرداحة إلى اللاذقية، لمدة سنة من أجل الإشراف على أصغر أبنائها رفعت، الذي كان سيبدأ دراسته الثانوية (يعني الإعدادية والثانوية) في ذلك العام، فاستأجروا غرفةً (واحدة)، في أحد المساكن، وراحوا يراقبون النشاط السياسي الذي راح ولدهم (حافظ) يمارسه بهمة وإقبال شديدين (!!)، والذي لم يكونوا موافقين عليه تماماً.

ثم تابع رفعت حتى حصل على الثانوية، ثم صار موظفاً بسيطاً في الجمارك، يتقاضى راتباً لا يزيد عن (٢٠٠) ليرة سورية تعادل يومها (٥٥) دولاراً، وخلال خدمته العسكرية التي قضاها برتبة (عريف)، وهي أدنى الرتب العسكرية، تعرف على الملازم المجند محمد الخطيب، الذي عامله يومها معاملة حسنة، فكافأه رفعت فيما بعد وجعله وزيراً للتربية في السبعينيات.

رفعت في عام ١٩٦٣م:

عندما قامت ثورة الثامن من آذار (١٩٦٣م)، سُرحت دفعة كانت في الكلية العسكرية، وجلبت دفعة بديلة على عجل، معظمها من المعلمين من طوائف معينة، وكان منهم (رفعت أسد)، و(عبد الله طلاس)، وغيرهم. تخرجت هذه الدفعة بعد سنة ونصف فقط، وسميت بدورة البعث الأولى.

رفعت من ١٩٦٥ وحتى ١٩٧٠م:

بعد تخرجه بسنة ونيف شارك في انقلاب (٢٣ شباط ١٩٦٦)، في المجموعة التي قادها سليم حاطوم واعتقلت الفريق محمد أمين الحافظ؛ رئيس مجلس الرئاسة يومذاك، بعد معركة راح ضحيتها (٢٠٠) عسكري وهو ضعف ما خسره الجيش السوري في حرب (٥) حزيران (١٩٦٧م) حسب رواية الدولة يومذاك.

وفي عام (١٩٦٩م) ساهم (رفعت) في القوة التي حاصرت العقيد (عبدالكريم الجندي) من بلدة السلمية، قائد المخابرات العامة يومذاك في عهد صلاح جديد، وقتلته أو دفعته إلى الانتحار عند بوابة اللواء السبعين.

يقول باترك سيل: كان العقيد عبد الكريم الجندي من أنصار جديد، وهو قائد المخابرات، ومن أعضاء اللجنة العسكرية، وكان رفعت[1] قد اكتشف أن الجندي يخطط لاغتيال شقيقه حافظ، وفي الأيام (٢٥-٢٨ شباط ١٩٦٩) وقع شبه انقلاب قام به حافظ ورفعت، حركت الدبابات إلى مفاصل العاصمة، وتمكن رفعت من اعتقال سائقي الجندي.

وأدرك الجندي عندما فقد أسطول سياراته أنه انتهى، وبعد مشادة كلامية مع علي ظاظا مدير المخابرات العسكرية؛ قتل الجندي نفسه بإطلاق النار على رأسه. وبعد أسبوعين انتحرت زوجته أيضاً. وتعززت مكانة رفعت، كذراع الأسد اليمنى، وجزع أتباع جديد، وكسب الأسد جولة هامة.

وهكذا من بين الأعضاء الخمسة المؤسسين للجنة العسكرية : كان عمران منفياً في لبنان، (ثم اغتيل من قبل الأسد)، وكان أحمد المير قد طرد إلى إسبانيا، والجندي قد مات، وبقي الأسد وجديد يتصارعان من أجل الوصول إلى قمة السلطة.

وخلالها كان رفعت قد التحق بالدورات التالية في مدرسة المدرعات بالقابون، وهي دورة قائد سرية، ثم دورة قائد كتيبة، ثم أعطيت له رتبة (نقيب) وألحق بدورة (أركان حرب)، وكان أول نقيب في الجيش السوري يلتحق بدورة الأركان، وفي عام (١٩٧٠م) التقيت بزميله وابن دورته (النقيب عبدالله طلاس)، وما أدري كيف حصل رفعت على رتب (رائد، مقدم، عقيد) وكل ما عرف عنه بعد قيام أخيه بالحركة التصحيحية أنه قائد سرايا الدفاع ووصل تعدادها يومذاك إلى (٥٥) ألف عسكري، فيها أحدث دبابات الجيش السوري وكانت يومذاك (ت ٦٢ ثم ت ٧٢)، وفيها طائراتها العمودية الخاصة بها. ويشير العماد مصطفى طلاس في كتابه (ثلاثة شهور هزت سوريا)؛ إلى أن الرئيس حافظ الأسد كان الشخص الوحيد الذي يتابع "عبر قنوات سرية للغاية" الشؤون الأمنية لسرايا الدفاع التي يقودها شقيقه. والقنوات سرية لأن العميد رفعت كان يسجن أي ضابط في السرايا له علاقة مع المخابرات العسكرية، الأمر الذي جعل السرايا بمثابة "غيتو خاص يصعب

---

(١) انضم رفعت للحزب في الخامسة عشر من عمره عام (١٩٥٢)، وسيق للخدمة العسكرية (١٩٥٩) ونقل بعد الانفصال إلى وزارة الداخلية (الجمارك)، وفي (١٩٦٥) عين نائباً لقيادة وحدة عسكرية كلها من الحزبيين كانت بقيادة محمد عمران، وسيطر عليها رفعت بعده، ولعبت دوراً في (٢٣ شباط ١٩٦٦)، واكتشف رفعت أن جديد والجندي يخططان لاغتيال شقيقه حافظ، وفي المدة (٢٥ – ٢٨ شباط ١٩٦٩) قام حافظ ورفعت بشبه انقلاب.

انتهاكه". وكانت سرايا الدفاع تحيط بدمشق، وتحمي كرسي الحكم، ولم تشارك في حرب (٥) حزيران (١٩٦٧م).

رفعت أسد طالب في جامعة دمشق:

حصل رفعت على ليسانس في التاريخ ثم ليسانس في الحقوق من جامعة دمشق، مما دفع بعض الأساتذة الشرفاء إلى الهجرة من سوريا كلها، كي لا يروا بأعينهم هذه المهازل ومن لطائف ما يرويه العماد مصطفى طلاس في كتابه (ثلاثة شهور هزت سوريا) عن العميد رفعت حين كان طالباً في قسم التاريخ بجامعة دمشق، أن رئيس القسم الدكتور محمد خير فارس شكا له (لوزير الدفاع): أن رفعت يأتي مع مفرزة من الحرس إلى الجامعة أيام الامتحان، ولا أحد يجرؤ من المراقبين أن يقول له شيئاً، فماذا أفعل؟، وكان رد العماد: [لا تفعل شيئاً لأنه لن يعمل لديكم أستاذاً للتاريخ ولا غيره!!!]. على أن أجمل ما يرويه العماد عن علاقة العلم بالسلطة في تلك الأيام الأمثولة التالية: [ما كاد رفعت ينهي الإجازة في التاريخ حتى تسجل في كلية الحقوق هو وزوجته لينا وابنه دريد، وكانوا يقدمون الامتحان معاً في غرفة رئيس الجامعة الدكتور زياد شويكي، حرصاً على أمن الطلاب وأمن المعلومات، وعندما جاءتهم الأسئلة مع فناجين القهوة وكتب السنة الأولى قال لهم رفعت: العمى في قلبكم... ابعثوا لنا أستاذاً يدلنا أين توجد الأجوبة لهذه الأسئلة!!!].

ومن المعروف أنه بعد حصوله على الليسانس من جامعة دمشق، حصل على الدكتوراة من موسكو في التاريخ أيضاً، على أطروحة عن الصراع الطبقي في سوريا، ويعتقد أنها من تأليف أحمد داود العلوي الذي يجيد اللغة الروسية !!!.

رفعت أسد يهرب ذهب سوريا إلى الغرب :

وبدأ يلمع اسمه كثيراً بعد انتخاب حافظ أسد رئيساً لسوريا، ورأينا الورقة المالية ذات (٥٠٠) ليرة سورية التي وقعها (رفعت) باسمه الصريح؛ بعد أن رفض مدير البنك المركزي توقيعها، هذه الورقة التي كان (رفعت) يطلب منها الكمية التي يريدها، وكان مدير المصرف المركزي ينفذ طلباته مجبراً، وقام أزلام رفعت بشراء الذهب من سوريا خلال عقد السبعينيات بهذه الأوراق، وأخرجه إلى حساباته في أوربا وأمريكا، وهذا أول إسفين دق في الاقتصاد السوري، مما أدى بعده إلى انهيار الليرة السورية.

رفعت أسد تاجر المخدرات الدولي:

الريشة بلدة في أطراف سوريا، محاذية للمثلث الأردني السعودي السوري، زعيمها (لورنس) الشعلان، وهذه البلدة لا تخضع لنفوذ أي من الدول المجاورة، حتى لا تخضع

لنفوذ سوريا، وبعض الهاربين جنائياً يصلون إليها ويحتمون بزعيمها (لورنس)، فلا تستطيع الحكومة السورية القبض عليهم، وهذه معلومات بديهية عند أبناء البادية السورية، وسر قوة (لورنس الشعلان[١]) هي أنه شريك لكبار الضباط في الحكومة السورية، شريكهم في تجارة المخدرات الدولية، وعرفت مرة أحد أفراد قبيلة المشارفة واسمه أحمد الضاهر، وهو مشهور في بادية الشام، اشتبك مع الشرطة قرب حماة، وأطلق عليهم النار حتى نفدت ذخيرته، وعندئذ استطاعت الشرطة القبض عليه، ثم...!!!! من يصدق أنه خرج من السجن بسند كفالة (٥٠٠٠) ليرة سورية فقط!!؟؟ وعندما تعجبت من ذلك بحثت وعرفت أنه من أزلام (رفعت أسد) في تهريب المخدرات، وبعد خروجه بساعات كان قد وصل (الريشة) حيث زعيمها (لورنس) يحميه من جميع دول المنطقة، لأنه زعيم أكبر عصابة لتهريب المخدرات في العالم.

عرف رفعت أسد الريشة ولورنس مبكراً، وجعل نفسه شريكاً رئيسياً له في تجارة المخدرات، حتى ذاق طعم الملايين، استقل رفعت في سهل البقاع اللبناني، وسبق لورنس الشعلان في هذه التجارة، بل صار لورنس من تلامذته، لأن رفعت سخر سيارات الجيش وطائراته العمودية في زراعة وصناعة وتصدير المخدرات في سهل البقاع، بل بنى ميناء قرب اللاذقية لا تعرف الجمارك السورية شيئاً عنه، ولا عن البضائع التي تصدر منه أو تستورد عن طريقه، واستمر هذا الميناء حتى أواخر التسعينات، حيث قاد بشار الأسد قبل وفاة والده لواء مدرعاً استطاع أن يحتل هذا الميناء ويدمره في معركة قتل فيها من الجانبين قرابة (٥٠٠) عسكري من الجنود.

---

(١) سماه أبوه وهو من قبيلة عنزة فخذ الرولة سماه (لورانس) على اسم ضابط المخابرات البريطاني (لورانس) الذي عاش في بادية الشام سنوات طويلة، ودفع العرب إلى الثورة ضد العثمانيين، ومن أهم انجازاته تخريب سكة حديد الخط الحجازي الذي كان ينقل الحجاج من إيران وتركيا وبلاد الشام إلى المدينة المنورة، ودفع العرب إلى ما عرف بالثورة العربية الكبرى، وقد أحبه البدو لجهلهم، ولذكائه وحنكته، فسموا هذا الطفل على اسمه (لورانس). وذكر لي أحد أقاربي عسكري بدوي كان في الهجانة – حرس الحدود – حكايا خيالية عن لورنس البريطاني الذي أتقن حياة البدو، وأحب العيش بينهم، حتى سمى ولده (فارس)، الذي سمى ابنه فارس هو أبو حنيك وليس لورنس (غلوب باشا) وصار يفلي ثيابه من القمل كما كان البدو في أوائل القرن العشرين...

وكانت زراعة وصناعة وتصدير المخدرات في سهل البقاع تحت عيون المخابرات الصهيونية والأمريكية، [انظر مجلة الإكسبرس الفرنسية التي ادعت (في عددها الصادر في شهر مايو ١٩٨٧، ص ٣٤ - ٤١) بأن هناك صلة للسلطات السورية في تجارة المخدرات اللبنانية، وأن نائب الرئيس السوري رفعت أسد ضالع في تسويقها لدى شبكات التجارة العالمية. وفي شهر مايو ١٩٨٥ قامت السلطات الإسبانية بطرد القنصل العام والمسؤول الأمني في السفارة السورية، بسبب انكشاف دورهم في شحنة هيروين تم مصادرتها، وادعت الصحافة يومها بأن للسفير السوري في إسبانيا (وهو شخص مقرب من رفعت أسد) دوراً في هذه الصفقة كذلك.

وقد نشرت مجلة الإكسبرس الفرنسية في عددها رقم (١٩٨٦) تحقيقاً مطولاً حول تورط رفعت أسد في تجارة المخدرات، والأسلحة وضلوعه في عصابات سرقة السيارات من ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا، عن طريق شبكة يديرها ابنه فراس. ثم نشرت مجلة إنتربيو الإسبانية تحقيقاً آخر حول صلة رفعت بالاستخبارات الفرنسية والإسبانية، وعن أنشطته غير المشروعة بالتعاون مع التاجر السوري منذر الكسار في تجارة الأسلحة والمخدرات. وبالرغم من الاحتجاج المتكرر من قبل السلطات السورية ومحامي رفعت أسد على هذه الحملة الصحفية، فإن الحقيقة ظهرت في شهر أكتوبر ١٩٩٩ عندما اشتبكت القوات السورية مع حراس رفعت في ميناء يسيطر عليه باللاذقية، وكانت الأسباب الظاهرية هي أنشطة رفعت المحظورة في مجالات التهريب عبر هذا الميناء.

ميناء رفعت :

وقد مر ذكره آنفاً، يقع قرب مدينة اللاذقية، لا يخضع للحكومة السورية، واستمر رفعت يهرب منه البضائع من وإلى سوريا قرابة عشرين سنة، دون أن يتمكن أحد من ضباط الجمارك أو الأمن بشتى فروعه؛ من دخول هذا الميناء الذي سكنت فيه عدة عوائل من أنصار رفعت الأسد.

وترسخت ظاهرة الفساد وما تفرزه من نهب وسلب ورشوة واختلاس، مذ وقعت سورية الغالية بين براثن حكم قمعي وحشي منذ أكثر من ثلث قرن، ومن الجدير ذكره أن السلطة السورية عندما حاصرت موقعاً مطلاً على البحر، قريباً من اللاذقية تعود ملكيته لرفعت الأسد قائلة : إنه ميناء غير مشروع يستخدمه رفعت للتهريب. ولما سئل رفعت

عن هذا الميناء أجاب عبر المحطة الفضائية (a.n.n.) التي يملكها ولده سومر: وهل أبقت السلطات – الجناح الحاكم على حد تعبيره – شيئاً يمكن تهريبه بعد أن سلبت ونهبت كل شيء ؟، لقد استعصت ظاهرة الفساد في سورية على الحل، وكيف لا تستعصي وأقطاب النظام وسدنته هم الذين يقودون حملة الفساد؟!! ويتسابقون على نهب الثروات العام-ة ويبتزون المواطنين وحتى الفقراء منهم في نهب أرزاقهم وأقواتهم وما يملكون. لقد أكد الباحث السوري سمير سعيفان أن مشكلة التهرب والتهريب في سورية من الحجم الكبير جداً، وأنها تؤثر بقوة في موارد الدولة والأداء الاقتصادي والبنية الأخلاقية للمجتمع، وقد قدر الباحث سعيفان حجم التهرب الضريبي في سورية بنحو خمسين مليار ليرة سورية سنوياً.

الزوجة الرابعة :

وفي بداية عقد السبعينيات تزوج رفعت الرابعة وقبل الخامسة، وهي ابنة ضابط كبير شركسي من جيل أخيه حافظ، رأى رفعت هذه الفتاة في الشارع، وعرف بيتها واسم أبيها، ولما عرف أن والدها زميل أخيه، طلب من أخيه أن يخطبها له، فطلب حافظ من زميله الشركسي مقابلته، ولما حضر أعلمه أن شقيقه رفعت قرر أن يتزوج ابنته، وأنه إن لم يوافق، فسوف يخطفها !!!، والأفضل أن يوافق ليتم الزواج بأمن وسلام، وخاف الضابط الشركسي على شرفه وابنته فوافق، وكان ذلك.

التطهير الوطني وتخضير الصحراء :

يقول رفعت أسد في المؤتمر القطري لحزب البعث: أيها الرفاق إن ستالين قضى على عشرة ملايين في سبيل الثورة الشيوعية، واضعاً في حسابه أمراً واحداً فقط، هو التعصب للحزب ولنظرية الحزب، ولو أن لينين كان في ظرف ستالين لفعل مثله، أيها الرفاق تحتاج الأمم التي تريد أن تعيش أو تبقى إلى رجل متعصب، وإلى حزب ونظرية متعصبة..

وفي هذا المؤتمر طرح رفعت أسد مشروعه للتطهير الوطني وتخضير الصحراء وخلاصته: اعتقال كل معارض لسياسات الحزب ووضعه في سجن تدمر، وتعذيبه، مع إلقاء المحاضرات عليه، ومطالبته بحفظها ومذاكرتها، كي يغسل عقله مما فيه من أفكار تعادي مسيرة الحزب، والاستفادة منه في الأشغال الشاقة وزراعة الأشجار في الصحراء.

ويخضع هؤلاء (المعذبون) إلى امتحانات يتأكد فيها من تطهير عقولهم من كل ما يعادي مسيرة الحزب (وفي مذكرات الأستاذ عدنان سعدالدين – المجلد الرابع – تجد خطاب رفعت كاملاً).

مذبحة تدمر الأولى[1] :

وفي حزيران (١٩٨٠م) قام أفراد من الحرس الجمهوري بمحاولة لاغتيال حافظ أسد، وجرح في ساقه، فأرعد رفعت وأزبد وكلف رفعت صهره محمد ناصيف (زوج ابنته تماضر) بتكليف مجموعتين من سرايا الدفاع، تم نقلهم بالطائرات العمودية إلى سجن تدمر الصحراوي، وتم إطلاق النار على السجناء داخل الزنازين، فقتلوا قرابة ألف مواطن معظمهم من الإخوان المسلمين، من الأطباء والمهندسين والمدرسين وطلاب الجامعات، وتم دفنهم جماعياً بالجرافات وبعضهم مازال حياً، كما نشر ذلك الصحفي نزار نيوف لاحقاً. وكما أفاد عناصر من سرايا الدفاع أرسلوا للأردن لاغتيال رئيس الوزراء مضر بدران، وتم اعتقالهم واستجوابهم على التلفزيون الأردني.

دور رفعت في مجزرة حماة الكبرى :

رفعت الأسد قائد ميداني في مأساة حماة :

عين المجلس الأمني الأعلى للنظام في أيلول (١٩٨١م) اللواء رفعت الأسد آمراً عرفياً لمناطق حماة وحلب ودمشق، وتسمية حماة منطقة عمليات أولى، خاضعة للحاكم العرفي (رفعت أسد)، وأرسل (١٢٠٠٠) جندي من سرايا الدفاع فوراً إلى حماة. وكان المقدم علي ديب [قائد القوات السورية التي قاتلت العراقيين جنباً إلى جنب مع الأميركيين في عام ١٩٩١]، كان نائباً لرفعت في حماة، يطلعه على سير العمل في حماة أولاً بأول، حتى انفجر الوضع، وصل رفعت إلى حماة ليدير عمليات القتل الجماعي وتدمير المدينة بنفسه، والتقطت بعض مكالماته اللاسلكية وهو في حمص.

أما في اليوم الثالث للأحداث فقد ذكر شاهد عيان أنه رأى رفعت في ثكنة مدينة حماة المطلة على نهر العاصي، وانتقل إلى جنوب الملعب البلدي ليشرف بنفسه يوم الخميس الأول من المأساة على أول مجزرة مدبرة في حماة ذهب ضحيتها (١٥٠٠) من الأبرياء [اقرأ مجزرة جنوب الملعب البلدي في فصل المجازر من هذا الكتاب].

---

(١) سيأتي الحديث عنها في المجازر

وكانت قوات سرايا الدفاع المقاتل الرئيسي إلى جانب الوحدات الخاصة بقيادة (علي حيدر) التي قتلت عشرات الألوف من المواطنين الأبرياء معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ.

وقد سبق لرفعت أسد أن صرح مرات عديدة أنه سيمحو مدينة حماة من الخريطة، وسيبني بدلاً منها حدائق وحانات للخمر، ونوادي للرقص. وسيجعل المؤرخين يقولون: كانت هنا مدينة تسمى (حماة).

محاولة انقلابه على حافظ (شباط: ١٩٨٤م):

في عقد السبعينيات، كان رفعت أسد الساعد الأيمن لشقيقه حافظ وكان عونه في ذبح الشعب، ونهب خيراته وثرواته، وكان ينتظر موت أخيه ليتسلم الرئاسة بدلاً منه، لأنه كما قيل [طالبان لا يشبعان طالب علم وطالب مال]، ورفعت طالب مال، والجاه وسيلة للمال أيضاً، لذلك لم يكتف أن يكون نائباً لرئيس الجمهورية لشئون الأمن، ولم يقبل أن يتسلم الحكم ابن أخيه باسل حافظ الأسد بعد موت أبيه، وقد شاهد أخاه حافظاً يهيئ ولده البكر (باسل) ليخلفه في الرئاسة، وبناء عليه قرر رفعت أن ينقلب على أخيه ويتسلم الحكم بالقوة، فحرك الدبابات وهمّ بذلك لولا أن أخاه عرف بنوايا شقيقه مسبقاً من جواسيسه في سرايا الدفاع، فأحبط الانقلاب بمساعدة مصطفى طلاس وعلي دوبا وعلي حيدر الذين يكرهون رفعت كثيراً لتجبره وتكبره عليهم. كما يتضح من كتاب مصطفى طلاس [ثلاثة شهور هزت سوريا]. وانتهت هذه المحاولة بنفي رفعت خارج سوريا بعد أن دفع له أخوه عشرات الملايين من الدولارات استدانها من القذافي. يقول العماد طلاس في كتابه:

رفعت يعد أتباعه بالدولة العلوية :

يكشف طلاس أن رفعت كان "يدغدغ أحلام المتعصبين طائفياً بأن وعدهم أنه سيقيم الدولة العلوية هناك كما أقام اليهود الدولة العبرية في فلسطين، وكما كان غلاة المتعصبين من الموارنة يحلمون بإقامة الدويلات الطائفية التي ستدور في فلك إسرائيل قولاً واحداً". ويبدو أن رفعت تشجع في مشروعه لعلمه أن "أميركا سوف ترحب بالفكرة لأنها مع أي تفكك للأمة العربية".

وبدأت تظهر على جدران اللاذقية عبارات تمجد شخص رفعت مثل "رفعت الأسد الشمس التي لا تغيب". وبدأ أنصاره ينصبون "الحواجز الطيارة لإشعار المواطنين أنهم

موجودون بقوة على الساحة". ويبدو أن قصد رفعت من السيطرة على مسقط رأس الرئيس، بحسب العماد طلاس، أن يقول للعالم: "إذا كان أخي لا يستطيع السيطرة على المحافظة التي ولد فيها فهو بالأحرى غير قادر على السيطرة على باقي المحافظات.

حافظ ينفي أخاه رفعت :

في أواخر نيسان (١٩٨٤م) تيقن العميد رفعت أن ميزان القوى قد مال لصالح شقيقه (حافظ) فاتصل بشقيقه جميل الأسد ليمهد له المصالحة مع أخيه الرئيس. ومع أن الرئيس الأسد معروف عربياً ودولياً بأنه سيد من أتقن فن لعبة عض الأصابع فقد كان ينتظر بفارغ الصبر انهيار رفعت، وهذا لأن الأخير سيد من ابتز أخاه وغير أخيه. إذ ما إن وافق على الخروج من سوريا حتى بدأ يساوم على المبلغ الذي يحتاج إليه للإقامة شهوراً عدة خارج البلاد حتى تهدأ العاصفة.

طلب رفعت مبلغاً كبيراً بالقطع النادر لم يكن متوافراً في المصرف المركزي، فخطر للرئيس الأسد أن العقيد القذافي يمكن أن يكون الشخص الذي يحل المشكلة، ويؤمّن المال اللازم لإشباع فم أخيه، وحين التقاه موفد الرئيس كان القذافي والحمد لله بمزاج حسن، وتذكر مواقف الأسد القومية في دعم الثورة الليبية ومؤازرتها، ورد على رسالة الأسد رداً جميلاً، وتم تحويل المبلغ بكامله إلى المصرف المركزي، وأعطى الرئيس شقيقه جزءاً منه وبقي الجزء الآخر احتياطاً للطوارئ الاقتصادية التي كانت تعصف بنا (مازال الكلام لمصطفى طلاس).

وتم تحجيم سرايا الدفاع وعيِّن رفعت نائباً لرئيس الجمهورية مسؤولاً عن شؤون الأمن. واستمر في هذا المنصب حتى عام (١٩٩٨م). غير أن تعيينه كان نظرياً، لأن الرئيس الأسد أحرص من أن يسلّم أمنه الشخصي وأمن البلاد لرجل يتآمر على كرسي الحكم.

وتضمن الاتفاق أن يسافر رفعت إلى موسكو ومعه اللواءان شفيق فياض وعلي حيدر، وليطمئن رفعت أن الطائرة لن تنفجر في الجو، طلب أن يسافر معهم رئيس إدارة المخابرات الجوية اللواء محمد الخولي.

ووافق رفعت الذي اختار أن يقبل تعهد حافظ، بأن مصالحه وأرصدته سوف تحترم في حالة سحب قواته من العاصمة ومغادرة البلاد عام ١٩٨٤م (انتهى كلام طلاس).

يقول باترك سيل: أمضى رفعت ثلاثة أيام في المشفى مع أخيه بلا نوم، وقد صعق لمرض أخيه، ومن سريره أرسل حافظ الأسد أمراً بتشكيل لجنة سداسية من: مشارقة، خدام، الأحمر، الشهابي، الكسم، وطلاس. لتدير البلد في غيابه، والغريب أنه لم يجعل أخاه رفعت واحداً منهم.

واتجه قادة البلد العسكريون إلى رفعت بحثاً عن قيادة، لأنهم رأوا أنه أفضل من يحمي النظام، باعتباره شقيق الأسد، وقد انتصر على الإخوان المسلمين، أكبر خطر داخلي، ورأوا فيه أنه سوف يخلف أخاه، ويبقى كل منهم في مكانه.

ولم يوافق كبار الضباط على هؤلاء الستة، الذين لم يروا فيهم سوى موظفين تنفيذيين موهوبين، وليسوا دعائم للنظام. وبناء على تحريضهم قام الشهابي وخدام بزيارة رفعت، ليخبروه أن رجلاً مثله لا يمكن إبعاده في مثل تلك اللحظات عن المجالس الحاكمة في البلد، أما رفعت فقال إنه يمتثل لرغبات الرئيس الذي لم يجعله أحد الستة.

ولكن سرعان ما اقتنع رفعت معهم ثم عقد اجتماعاً كاملاً للقيادة القطرية لم يغب عنه سوى حافظ الأسد ووزير إعلامه أحمد اسكندر الذي كان على فراش الموت. وقررت القيادة القطرية أن تجعل من نفسها بديلاً عن اللجنة السداسية، وكانت هذه طريقة أنيقة متقنة لجلب رفعت.

ولما علم الأسد وهو في النقاهة سخط سخطاً شديداً لأن أي انحراف عن الطاعة الكاملة الخالية من أي تساؤل كان يثير شكوكه[١]، فاستدعى كبار ضباطه ووبخهم على الابتعاد عن تنفيذ رغباته الصريحة، وبذلك فتحوا الباب لأخطار غير متوقعة: أولم يروا أن دفع رفعت إلى المقدمة كان خطة أميركية - سعودية لإزاحته عن الحكم[٢] ؟

ولما مرض حافظ في نوفمبر (١٩٨٣)، وتجمع الضباط حول رفعت، فجأة ظهرت في كل مكان في العاصمة دمشق، صورة لرفعت تظهره في أوضاع قيادية آمرة وقد ارتدى زي المظليين.

يكبر حافظ رفعت بسبع سنين، وكان يرغم أخاه المتمرد الأصغر على احترامه، وكان رفعت يشبه حافظ في البنية الجسدية القوية، والذكاء اللامع، ولكنه يختلف في أنه أكثر

---

(١) وهذا من أوضح الأدلة على أنه فردي ديكتاتوري مستبد.

(٢) هذا التبرير لا يستند إلى أساس من المنطق، وإنما حافظ يخطط لتوريث الحكم لولده باسل.

ضحكاً من حافظ، وميال للمتع ومندفع، وكريم إلى حد الإفراط، وبينما انهمك حافظ بكرسيه مشغولاً في شؤون الدولة كلياً، انهمك رفعت في بناء سرايا الدفاع، كجنود مخلصين له، وكان رفعت يمارس سلطات مطلقة، وقد أثرى هو وأصدقاؤه الحميمون، كما كان يذهب في مهمات سرية إلى الأصدقاء والأعداء على السواء، ويشترك في مشاريع أخرى يحيط بها الظلام والضباب في عالم السياسة والتجارة في البلاد الغربية[١].

بعض أملاك رفعت أسد عام (١٩٩٤م):

١- كازينو ضخم في إيطاليا.

٢- فندق خمسة نجوم في مرسيليا.

٣ - مصنع إسمنت في بيروت.

٤ - دار نشر في باريز.

٥ - إمبراطورية إعلامية في لندن، منها قناة (a.n.n)، وغيرها محطات راديو متعددة.

٦ - أسهم في شركة نفق بحر المانش بين فرنسا وبريطانيا، وهو من أوائل أغنياء العالم المساهمين في هذه الشركة.

٧ - عقارات سكنية في سويسرا وفرنسا.

٨ - مجمع سكني في إسبانيا كلف بناؤه (٦٠) مليون دولار.

٩- كان يملك ميناء خاصاً في اللاذقية قبل أن يدمره بشار الأسد في عهد أبيه حافظ.

١٠ - طائرة خاصة أو أكثر من طائرة، تنقله مع أفراد حاشيته في قارات العالم.

١١- وصلت فاتورة إقامته الشهرية مع حاشيته (١٠٠-١٥٠) شخصاً؛ وصلت إلى خمسة مليار فرنك فرنسي، دفعتها الخزينة السورية عدة سنوات.

١٢ - خسر رفعت أسد في ليلة واحدة على موائد القمار (٨) مليون دولار. في الوقت الذي وصل فيه التضخم في سوريا إلى مائة في المائة، وعجز المواطن الشريف عن تأمين خبز أولاده وطعامهم.

رفعت أسد في نظر بعض أنصاره الآن:

يقول الدكتور خليل أحمد الحسن أحد أعضاء رابطة الخريجين التي شكلها رفعت الأسد وأراد منها حزباً خاصاً به في داخل حزب البعث، يقول:

---

(١) يقصد سيل تجارة المخدرات التي جنى منها رفعت مليارات الدولارات، وجعلته من أغنياء العالم.

لم تظهر خلافات رفعت مع النظام السوري في عام (١٩٨٤م)، وإنما وصلت إلى القشة التي قصمت ظهر البعير في ذلك العام، فمنذ سنوات ورفعت يختلف مع النظام السوري بما يلي:

١ - لم يكن واثقاً من إخلاص الحزب للعملية الثورية التي يريدها، لذلك شكل (رابطة الخريجين الجامعيين)، من البعثيين أنصاره الذين وصل عددهم إلى (٢٢) ألفاً، صاروا منافسين لحزب البعث، واستمرت هذه الرابطة حتى نفي رفعت من سوريا عام (١٩٨٤م) فحلت يومذاك. يقول طلاس: أسس العميد رفعت الرابطة بعد نيله الإجازة في التاريخ عام ١٩٧٤، وذلك كي تكون "مظلة قانونية لعمله". وقد برر تشكيلها أمام أخيه الرئيس بجعل "خريجي الدراسات العليا موالين للنظام". لكن لم يبق انتهازي أو متسلق أو متطلع إلى السلطة أو التقرب من وهجها إلا وانخرط فيها"، بحسب الكاتب طلاس.

٢ - قام رفعت بعدة رحلات للاتحاد السوفياتي، وكان يزداد كرهاً للاشتراكية في كل مرة يرى فيها الفقر والتشرد والقهر والظلم، وصار يصرح بذلك حتى اعتبره الاتحاد السوفياتي عميلاً للغرب، وطلب من الحزب الشيوعي السوري مهاجمة رفعت إعلامياً.

٣ - ويقول (حارث الخير) وهو من أنصار رفعت بل من أزلامه : إن رفعت أسد سيقوم بحركة تصحيحية ضد الحركة التصحيحية التي قام بها حافظ الأسد عام (١٩٧١م).

٤ - ثم يقول الدكتور خليل : جعل حافظ الأسد وأزلامه رفعت الأسد مسؤولاً عن الفساد في سوريا، وحذروا البعثيين منه ومن جماعة رفعت، وجعلوها مساوية لجماعة الإخوان المسلمين في الخطر على النظام السوري.

وكان رفعت يعارض سياسات أخيه حافظ في عدة أمور منها:

١- اعتماد سوريا أكثر من اللازم على السوفيات، وبُعدها عن أمريكا.

٢ - تورط سوريا في لبنان.

٣ - يعارض دعم المنشقين عن فتح مثل أبي موسى وأبي نضال.

٤ - ويعارض التحالف مع إيران،ويقول ماذا يختلف هؤلاء عن الإخوان الذين قاتلناهم في سوريا،كيف يمكن للنظام أن يتبع سياسة في حماة، وأخرى مختلفة عنها في طهران !!؟هل كان الصراع ضد الإخوان المسلمين صورياً أم عقائدياً!!!؟ ويقول رفعت : إننا نتحدث عن الحري–ة، ولسنا أحراراً إلا في أن نأكل ونتزوج فقط.

وفي (٢٨ /٥/١٩٨٤) أرسلت طائرة محملة بسبعين من كبار الضباط (!!!!!) إلى موسكو لفترة تهدأ فيها النفوس، وكان من بينهم رفعت الأسد، ولما أعلن بعضهم خوفه على النظام قال له حافظ : لا تخافوا على النظام بل خافوا على أنفسكم.

ثم تم استدعاؤهم جميعاً ماعدا رفعت، وفي (٦/٥) وصل رفعت إلى جنيف، وكان يرافقه أكثر من مائة، وقيل مائتين من حراسه ومساعديه، وهذه حاشية باهظة التكاليف تكفل القذافي بتمويلها كي يبقى رفعت في الخارج.

وفي أيلول (١٩٨٤) انتقل رفعت مع بقية طاقمه -بعد أن عاد الكثير منهم إلى سوريا-، إلى فرنسا. وظل رفعت محتفظاً بلقب (نائب رئيس الجمهورية)، وفي (١١/٢٦) زار رفعت دمشق، وزار القصر الجمهوري، وركع وقبل يد أخيه- ولكن أخاه لم يسامحه[1]. ومنع من زيارة سرايا الدفاع، وحضر رفعت المؤتمر القطري (يناير ١٩٨٥) لأنه عضو قيادة قطرية، تعرض رفعت لكثير من النقد والهجوم، وكان بمثابة من يقف في قفص الاتهام، وفي هذا المؤتمر مُنحت الصلاحية لحافظ الأسد كي يعين اللجنة المركزية كيفما يريد، التي تنتخب القيادة القطرية.

وبعد ثلاثة أسابيع انتخب حافظ رئيساً للجمهورية للمرة الثالثة بنسبة (٩٧. ٩٩).

وفي مايو (١٩٨٦) قام رفعت بزيارة غير معلنة لبريطانيا، وقد سبقه أربعة من حراسه الشخصيين مسلحين يحملون جوازات سفر مغربية، وهبطت بعدهم طائرتان خاصتان تحملان رفعت وأفراد عائلته (زوجاته وأولاده الصغار)، والخدم والحشم ورجال الأمن، وكان مجموعهم أربعين شخصاً معظمهم يحمل جوازات سفر مغربية.

وصار حافظ الأسد وأزلامه يرمون كل فساد حصل في سوريا على رفعت الأسد، وقد تبين أن هذا الفساد استمر بل ازداد بعد خروج رفعت من سوريا عام (١٩٨٤م).

وأخيراً :

والآن يحاول رفعت استلام حكم سوريا بشتى السبل، حتى أنه عرض على الصهاينة أن يساعدوه مقابل أن يقيم معهم علاقات تطبيع كاملة، من سفارات وتبادل تجاري وثقافي، كما عرض نفسه على أمريكا وتعهد أن يقدم لها كل ما تريده، كما حاول أن يكذب على

---

(١) تبين هذا كله فيما بعد أنه من أجل توريث الحكم إلى ولده باسل.

المعارضة السورية في الخارج، مدعياً أنه ليس مسؤولاً عن مذبحة حماة، وأن شقيقه حافظ هو المسؤول الأول والأخير عنها.

مع أنه في الواقع قتل عشرات الألوف من الشعب السوري، ونهب مليارات الدولارات من الشعب السوري.

رفعت الأسد قتل السجناء في مجزرة تدمر

عندما سمع رفعت الأسد ما أصاب أخاه، جن جنونه وكلف معين ناصيف زوج ابنته أن يقود ثلاث سرايا من سرايا الدفاع ويقتل الإخوان المسلمين المعتقلين في سجن تدمر العسكري.

وفي تمام الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم(١٩٨٠/٦/٢٧) دعيت مجموعتان من سرايا الدفاع للاجتماع بلباس الميدان الكامل، الأولى من اللواء (٤٠) الذي يقوده الرائد معين ناصيف (زوج بنت رفعت الأسد)، والثانية من اللواء (١٣٨) الذي يقوده المقدم علي ديب، وكل مجموعة تزيد على مائة عنصر.

وكلف المقدم سليمان مصطفى قائد أركان اللواء (١٣٨) بقيادة العملية، ويساعده الملازم أول ياسر باكير، والملازم أول منير درويش، والملازم أول رئيف عبد الله. وحملوا جنودهم في عشر طائرات هيلوكبتر أقلعت في الخامسة صباحاً من دمشق ووصلت تدمر الساعة السادسة، وقد أخبرت الشرطة العسكرية المكلفة بحراسة السجن، وأولهم قائد السجن المقدم فيصل غانم، وكلف (٨٠) عنصراً بدخول السجن وسميت مجموعة الاقتحام، وبقي الآخرون للحراسة، ثم قسمت مجموعة الاقتحام إلى مجموعات من (٦ – ١٠) عناصر، يقود كل مجموعة ضابط، وأخرج المساجين من بعض المهاجع إلى الباحات، وصبت عليهم نيران الأسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية وقاذفات اللهب، وتعالت أصوات السجناء بهتافات (الله أكبر) مع صرخات الألم والشكوى إلى الله.

ثم تفقد القتلة ضحاياهم، يدوسونهم بأرجلهم ويجهزون على الجرحى، ثم تجمع القتلة وانطلقوا إلى بقية المهاجع وقرر الضباط دخول المهاجع وقتل المعتقلين فيها، ففتحت أبواب كل مهجع وألقيت فيه الرمانات اليدوية، ورشت فيه النيران، وفي المهجع (٥) اختبأ أحد الأبطال في دورة المياه ثم انقض على الرقيب اسكندر أحمد وأخذ منه سلاحه وقتله به، وجرح اثنين غيره، بينما تلقى مئات الرصاصات من رفاقهم فسقط شهيداً يرحمه الله.

وهكذا وفي أقل من ساعة قتل جميع المعتقلين في سجن تدمر العسكري ويتراوح عددهم بين (٧٠٠- ١٠٠٠) مواطن أغلبهم من الإخوان المسلمين، من خريجي الجامعات والضباط والأطباء والمهندسين، ومع أن بضعة أفراد نجوا لوقوعهم تحت جثث إخوانهم، ومع ذلك أصر القتلة على دفنهم أحياءً مع إخوانهم، حيث حفرت حفرتان كبيرتان بواسطة الجرافات، وألقي الشهداء فيها وبعضهم جرحى، وقليل منهم أحياء، ثم رمت عليهم الجرافات التراب ودفنوا بالقرب من تدمر، عند جبل عويمر، وهو منطقة عسكرية محظورة، وفي اليوم التالي أحضر بعض عناصر البلدية لغسل السجن، ثم أعيد طلاء السجن لإزالة الدماء التي لطخت الجدران، وظن القتلة أن الجريمة لن تنكشف، ولكن سرعان ما أظهرها الله بالتفصيل.

فقد كشف الجنود الذين كلفتهم سوريا باغتيال السيد مضر بدران رئيس وزراء الأردن بحجة تعاونه مع الإخوان السوريين، واعتقلتهم المخابرات الأردنية وهم المجرم عيسى إبراهيم فياض، والمجرم أكرم بيشاني، وكلاهما علويان من سرايا الدفاع، وأثناء التحقيق معهم على التلفزيون الأردني تحدثوا عن تفاصيل مذبحة تدمر لأنهم كانوا من العناصر المنفذين لها، وسمعهم القاصي والداني كما نشرت أقوالهم في الصحافة الأردنية والعربية والعالمية يومذاك.

بعض مجازر النظام الأسدي

من أجل المحافظة على كرسي الحكم؛ الذي يمكن حافظ الأسد من تنفيذ المهمة الموكلة له وهي القضاء على الحركة الإسلامية والمقاومة عامة كما يفتح كرسي الحكم الباب أمام الزمرة الأسدية على مصراعية للسلب والنهب والسرقة من أموال الشعب السوري واللبناني والعربي؛ من أجل ذلك قتل حافظ الأسد وأخوه رفعت، ومن ساعدهم من أعوان النظام الأسدي عشرات الألوف من المواطنين السوريين، بمجازر لم يرتكب مثلها المغول ولا التتار ولا الفرنسيون، مجازر يعجز القلم عن وصفها، لأنها خارقة للمنطق والعقل وخارقة لكل شيء.

من جهة ثانية نفذ حافظ الأسد شعاره الذي طرحه منذ يوم (١٩٦٣/٣/٨) الشعار القائل: الرجعية أخطر من إسرائيل، ويجب القضاء عليها قبل إسرائيل، والرجعية هي الحركة الإسلامية بشتى فصائلها، وقد نفذ حافظ الأسد تعهده للصهاينة وأسياده بالقضاء على الحركة الإسلامية، وقد اجتهد وناضل وكافح من أجل تحقيق ذلك، وقتل قرابة مائة ألف مواطن سوري، من خيرة أبناء الوطن، وربما يزيد عن ذلك... وأفضل دليل تقرأه – أخي القارئ– كتاب: تدمر شاهد ومشهود، لمحمد سليم حماد الأردني، وكتاب: خمس دقائق تسع سنوات في سجون الأسد للأخت هبة الدباغ، وكتاب مأساة حماة الذي أصدره المكتب الإعلامي لجماعة الإخوان المسلمين... وكتاب في القاع للأخ خالد فاضل، وهذه بعض التفاصيل:

الخبراء السوفييت :

بعد أن قدم الخبراء الروس نصيحتهم بقتل الشعب، كي يبتعد عن المقاومين ولا يقدم لهم أي معونة، ارتكبت السلطة السورية ممثلة بأجهزة المخابرات، وسرايا الدفاع، والوحدات الخاصة، وسرايا الصراع، عدداً كبيراً من المجازر الوحشية والتي راح ضحيتها آلاف المواطنين الأبرياء من الأطفال والنساء وهذا سرد لأهم هذه المجازر:

١- المجزرة الكبرى في مدينة حماة [نقلاً عن المنظمات الدولية]

قصفت السلطة المدينة براجمات الصواريخ والدبابات والطائرات العمودية، وهدمت ثلث أحياء المدينة، وقتلت حوالي (٣٠٠٠٠ - ٥٠٠٠٠) من المواطنين الأبرياء، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ، وهدمت أحياء بكاملها، وثمانية وثمانين مسجداً، وثلاث كنائس، وذلك في شباط (فبراير) (١٩٨٢) م، وسوف نذكر هنا ما جاء عنها في تقرير منظمة العفو الدولية، ثم سأعود لها من مصادر جماعة الإخوان.

جاء في تقرير منظمة العفو الدولية:

أكبر مجزرة في العصر الحديث، كما وصفتها وسائل الإعلام العالمية في ٢ شباط ١٩٨٢. قبل الدّخول في تفصيلات المجزرة الرهيبة، عبر شهادات حية، نضع هنا أمام أعين القارئ شهادات أخرى لأناس ليسوا عرباً وليسوا سوريين، إنما هم صحفيون أجانب أبى ضميرهم الإنساني، وإخلاصهم للحقيقة الموضوعية، إلا أن يساهموا في إماطة اللثام عن شيء من الحقيقة المفزعة، وكشف وجه النظام الهمجي الأسود. هؤلاء الصحفيون لم يسمعوا عن المجزرة من مصادر بعيدة، بل مكثوا طويلاً في دمشق، ينتظرون أن تسمح لهم السلطة بدخول المدينة.. لكنها لم تفعل، وظلت تراوغ، بل وصل بها الأمر إلى تهديد كل صحفي يفكر بالاقتراب ودخول حماة. صحفي واحد استطاع الدخول إلى المدينة بعد عشرين يوماً من الحصار، وكانت المذبحة قد قاربت على النهايات، ومع ذلك، نقل إلى العالم رواية موضوعية عن مشاهداته. وننقل بعض النماذج لشهادات صحفيين أجانب أدلوا بشهاداتهم:

ذكرت صحيفة النوفيل أوبزرفاتور الفرنسية بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٨٢:

"في حماة، منذ عدة أسابيع، تم قمع الانتفاضة الشعبية بقساوة نادرة في التاريخ الحديث.. لقد غزا (حافظ ورفعت أسد) مدينة حماة، بمثل ما استعاد السوفيات والأمريكان برلين، ثم أجبروا من بقي من الأحياء على السير في مظاهرة تأييداً للنظام، صحفي سوري مندهش قال موجهاً كلامه لأحد الضباط: رغم ما حدث، فإن هناك عدداً لا بأس به في هذه المظاهرة. أجاب الضابط وهو يضحك: نعم، ولكن الذي بقي أقل من الذين قتلناهم".

وتحت عنوان: "في سورية، الإرهابي رقم واحد هو الدولة" ذكرت صحيفة لوماتان الفرنسية في عددها رقم ١٦٠٦ تاريخ ٢٤ نيسان ١٩٨٢: ٢٠.٠٠٠ (عشرون ألف)

سجين سياسي، ١٠.٠٠٠ (عشرة آلاف) قتيل في حماة، ٦٠٠.٠٠٠ (ستمئة ألف) شخص موضوعون على اللائحة السوداء.

هنالك على الأقل ٢٠.٠٠٠ (عشرون ألف) سجين سياسي (وربما وصل العدد إلى ٨٠.٠٠٠ (ثمانين ألفاً) في سوريا، حيث العنف والإرهاب السياسي هما اليوم عملة رائجة. إن جهاز القمع التابع للنظام مدهش للغاية: سرايا الدفاع بقيادة رفعت أسد، سرايا الصراع بقيادة عدنان أسد، الوحدات الخاصة بقيادة علي حيدر، المخابرات العامة،.. وقد اشترت وزارة الداخلية مؤخراً من شركة فرنسية عقلاً إلكترونياً يمكن له أن "يفيّش" (أي يضع على اللوائح السوداء) ٥٠٠.٠٠٠ (نصف مليون) شخص دفعة واحدة.

لقد شهد عام ١٩٨١ بطوله قيام عمليات مسلحة يقودها الإخوان المسلمون [يقصد الطليعة المقاتلة]، ضد السلطات في مدن حلب وحمص وحماة. وكانت المواجهات بين الطرفين تدوم عدة أيام، آخذة أحياناً شكل حرب حقيقية بين الجناح العسكري للإخوان [يقصد الطليعة المقاتلة]، وبين سرايا دفاع رفعت أسد، "الحرس الإمبراطوري" التابع للنظام. وكانت الضحايا تتساقط بالمئات. ولكن من بين كل هذا الأحداث، فإن حدث حماة الأخير الذي دام عملياً طيلة شهر شباط، كان الأكثر عنفاً، ونتج عنه عدد من الضحايا أكثر بما لا يقارن.

"إنه أكبر مجزرة في العصر الحديث"، على حد قول دبلوماسي سوفياتي، لا يمكن طبعاً أن يشك بعدائه أصلاً للنظام. لقد كان هناك على الأقل ١٠.٠٠٠ (عشرة آلاف) قتيل، ولكن مصادر أخرى تتحدث عن (٣٠.٠٠٠) (ثلاثين ألفاً) وهو رقم قريب من الواقع إذا تذكرنا أنه، لكي يقضي على الانتفاضة فقد زج النظام بآلاف من سراياه، كما أنه قصف المدينة بالطيران فوق سكانها المدنيين، مما أدى إلى هدم أجزاء كبيرة من المدينة."

وذكرت مجلة الفيزد الفرنسية في عددها الصادر في أيار ١٩٨٢:

"وكان القمع مميتاً أكثر من يوم حرب الكيبور (يوم الغفران) [يقصد حرب تشرين]."

".. المدفعية الثقيلة تطلق قذائفها على الآمنين. وطوال أربع وعشرين ساعة تساقطت آلاف القذائف والصواريخ على حماة. كل مجمّع سكني وكل منزل كان مستهدفاً.

– يقول دبلوماسي غربي وصل مؤخراً من دمشق: "إنه أعنف قصف حدث منذ حرب سوريا عام ١٩٤١ بين أنصار حكومة فيشي من جهة وأنصار فرنسا الحرة والبريطانيين من جهة أخرى".

وأخيراً وحوالي منتصف الأسبوع الماضي، استطاعت الدبابات اختراق المدينة وطوال أيام كاملة، كانت المعركة مستمرة وبشدة. من بيت إلى بيت، أو بالأحرى من أنقاض إلى أنقاض. هذا وتتكتم الدولة على عدد القتلى والجرحى من الجانبين. ويضيف الدبلوماسي الغربي قائلاً: "ولكن الطلب على الدم في المراكز الطبية كان كثيراً وكثيراً مثل أيام "حرب الكيبور" (تشرين) التي سببت في سوريا آلافاً من القتلى والجرحى. ويختم الدبلوماسي حديثه قائلاً: "يمكن القول إن ما جرى في الأسبوع الماضي في حماة هو "فرصوفيا أخرى" أي مثلما حدث لفرصوفيا أثناء الحرب العالمية الثانية... إنه فعلاً، موت مدينة".

كما ذكرت مجلة الإيكونومست في عددها الصادر في (مايس) ١٩٨٢ تحت عنوان أهوال حماة: "إن القصة الحقيقية لما جرى في شهر شباط في مدينة حماة الواقعة على بعد ١٢٠ ميلاً شمال دمشق العاصمة لم تعرف بعد وربما لن تعرف أبداً. لقد مرّ شهران قبل أن تسمح الحكومة السورية للصحفيين بزيارة خرائب المدينة التي استمرت تحت قصف الدبابات والمدفعية والطيران ثلاثة أسابيع كاملة. ونتيجة لذلك فإن قسماً كبيراً من المدينة القديمة القائمة في وسط البلد قد مُحي تماماً، وسوّي مؤخراً بواسطة الجرافات.

إن عدد القتلى يرتفع إلى أكثر من ٣٠.٠٠٠ شخص (بما في ذلك طبعاً خسائر الجيش) كما تقول تقديرات الإخوان المسلمين. التقديرات الأخرى تقول بـــ ٩.٠٠٠ فقط ولكن ذلك رقم رسمي معطى من قبل المستشفيات، ولا يأخذ بعين الاعتبار الأناس الذين دفنوا دون أن يدخلوا المستشفى. لم يوفر القصف لا المساجد ولا الكنائس. (في حماة يعيش حوالي ٨٠٠٠ مسيحي من طوائف مختلفة، ومنذ قرون، وهم يعيشون بسلام كامل، وتآخٍ حقيقي مع أكثرية الشعب المسلمة)."

أما جريدة ليبراسيون الفرنسية، فقد ذكرت على لسان الصحفي شارل بوبت، وهو صحفي فرنسي محرر في صحيفة "ليبراسيون" الفرنسية استطاع أن يدخل إلى قلب مدينة حماة أثناء الأحداث. إنه الصحفي الوحيد من بين كل الصحفيين العرب والأجانب الذي تمكن من الدخول إلى هذه المدينة... وبحيلة ذكية.

كان في دمشق.. وحينما سمع بالأحداث استقل الباص باتجاه حلب. وفي حمص وأثناء استراحة قصيرة اختفى وترك الباص يتابع سيره، ثم بحث عن تكسي لكي تنقله إلى مداخل حماة أو ضواحيها بحجة أنه سائح يبحث عن الآثار.

قضى في المدينة وقتاً لا بأس به، ثم سلم نفسه للسلطات السورية تمويهاً.. وبعدما عاد إلى فرنسا نشر تحقيقاً مطولاً يعتبر أخطر ما كتب في الصحافة العالمية عن هذه المذبحة. إنه يقدم لنا شهادة حية ثمينة، وقيمتها مزدوجة الطابع، لأن صاحبها محايد في الصراع، وموضوعي في الحكم، ولأنه ثانياً، لم ينقل أخباراً سمعها عن روايات وصلته بالتواتر، وإنما يحكي لنا هنا ما شاهده بنفسه، ورآه من مآسي وأهوال. لا يتسع المقام هنا لنشر كل "الريبورتاج" فهو طويل للغاية سنكتفي فقط بترجمة أهم فقراته. فلنترك له الكلام الذي نشرته الصحيفة المذكورة يوم الاثنين في الأول من آذار ١٩٨٢:

"الساعة السابعة صباحاً.. تبدو حماة مدينة غريبة، حركة عمران! كل شيء في طور الإعمار، أو كان كذلك، وفجأة توقف كل شيء. وبمحاذاة البيوت التقليدية القديمة، كانت الأبنية الحديثة تبدو كأنها حيوانات ضخمة جريحة واقفة على ظهرها. الطوابق الأرضية ظاهرة، والأعمدة التي تستخدم عادة لحمل الطوابق الأخرى كانت عارية، ومتجهة نحو السماء بشكل مستقيم، وعلى قمتها قضبان حديدية ملتوية وصدئة. إنني أمشي الآن وسط بيوت متهدمة، وأشجار مكسرة، وأعمدة ملوية أو منزوعة من مكانها. هناك قليل من السكان. ومثلهم فإنني أتنقل بحذر أثناء المسير. إنه هنا حدث القتال وما يزال مستمراً من صباح هذا اليوم من شهر شباط. إنها ليست الحرب، ولكن بالأحرى، نهاية معركة كانت على ما يبدو رهيبة.

ننتقل من بيت إلى بيت. ومن فوقنا تمر طائرة هيلوكبتر. وأمامنا عائلات بأكملها تبكي، جثث تجر من أرجلها أو محمولة على الأكتاف، أجساد تتفسخ وتنبعث منها رائحة قاتلة، وأطفال تسيل منهم الدماء وهم يركضون لاجتياز الشارع. امرأة ترفض أن تفتح لنا منزلها. إنها ليست زيارة متفقاً عليها. إنني غير مرغوب في مثل هذه الساعات. ونهيم على وجوهنا أنا ومرافقي - أحد أبناء المدينة الذي تطوع بهذا العمل- ولكن كنا محتاجين لأن نبقى ضمن الأحياء التي ما تزال في أيدي الثوار التي تضيق رقعتها شيئاً فشيئاً. وأخيراً تستجيب المرأة لتوسلات مرافقي وتفتح لنا. إنها تخبئ زوجها. ها هو ذا أمامنا مسجَّى على الأرض، دونما رأس، ميتاً منذ ٥ شباط!!! وهكذا فإن كثيراً من الناس يخبئون جرحاهم، خشية أن تجهز عليهم القوات الحكومية. أما الأموات فإن أهاليهم يدفنونهم بسرعة. إذا أمكن، فيما أصبح يطلق عليه اليوم مقبرة الشهداء في الزاوية الكيلانية. (التي تم نسفها كلياً فيما بعد). بضع طلقات نارية صوب الجنوب تتبعها رشقات

قوية. وخلال عشر دقائق كانت القذائف تتساقط كالمطر أينما كان، وحيثما تسقط كنت تسمع صرخات الرعب ونداءات التوسل إلى الله على بضعة أمتار منا، شاهدنا رجلاً يتمزق تماماً ويسقط فوق جدار، كما لو أنه هيكل عظمي. ولم أصدق عيني، ولكن عندما ظهرت الطائرات من جديد فوقنا، دفعني مرافقي لتحت منزل، صارخاً "هاهم يعودون".

في الطريق يصادفنا رجل يقدمه مرافقي لي. إنه طبيب... وبكل سرعة يناولني الطبيب هذا بضع أوراق، ويكتب لي أسماء ضحايا: "كم قتيلاً" سألته.. أجاب: لا أعرف. ليس أقل من ٨.٠٠٠ أو ١٠.٠٠٠ لقد رأينا ضحايا في كل مكان.. أمسك. (حتى يعرف العالم كله الحقيقة سجل: "مصطفى شامية، طارق عبد النور، أديب السبع، أحمد الشلبي". وبإشارة أفهمه أنه لا فائدة من الاستمرار لأنني لا أستطيع أن أسجلهم كلهم ولكنه يستمر وبكل عصبية ويطلب مني بطريقة الأمر أن أسجل: "إبراهيم الطرقجي، فؤاد جودت، غسان جلوسي دهيمش.

أترك حماة بمزيج من الرعب والفزع... الفزع حين أتذكر أنه ولا مرة واحدة خلال هذه الأيام والليالي التي قضيتها هناك سمعت صوت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة، كما لو أن المآذن نفسها قد انكمشت على نفسها تلقائياً."

ونشرت صحيفة دي تسابت الألمانية بتاريخ ١٩٨٢/٤/٢ تقريراً عن مجازر حماة تحت عنوان: "مذبحة كما في العصور الوسطى - كيف ابتلى أسد مدينة حماة بالموت والدمار" جاء فيه:

"دمشق - نهاية آذار: (إن ما حدث في مدينة حماة قد انتهى) كان هذا تعليق الرئيس أسد على أخطر أزمة داخلية هزت سورية منذ توليه السلطة عام ١٩٧٠، فقرابة أربعة أسابيع في شباط أُغرقت حماة بالدماء والآلام من قبل قوات بلغت ١١ ألف رجل (مدرعات ومدفعية وطائرات مروحية ومظليين وقوات حماية النظام الخاصة وقوات حماية أمن الدولة) لقد انتهت فترة القتل والنهب والحرق التي تذكر بالقرون الوسطى، وسكتت المدافع وغدت المدينة أنقاضاً ورماداً.

إن مدينة حماة التي ذكرت في الإنجيل (في الوصايا القديمة) تقع على نهر العاصي.. هي واحدة من أقدم مدن العالم ؛لم تعد الآن موجودة. لقد توقفت النواعير الأسطورية التي كانت منذ قرون تملأ القناطر ومستودعات المياه، ولم يبق من المدينة ومن متاحفها ذات الماضي البابلي والآشوري والسليماني إلا بقايا تعيسة. ويلجأ الملحقون العسكريون

الغربيون إلى انطباعات وأسماء من الحرب العالمية الثانية لتصور أبعاد الدمار الذي حل بالمدينة، أسماء وانطباعات عن برلين عام ١٩٤٥ وستالينغراد. وفي الخرائب التي استحالت إليها أحياء الكيلانية والحميدية والزنبقية يبحث ناس حائرون صامتون وكأنهم مشلولون، وحولهم لا تتوقف الجرافات عن العمل حتى يوم الجمعة، فهي تزيل بقايا ممتلكاتهم التي يحملونها في أكياس نايلون وهي أكوام أنقاض، وتهدم الخرائب وتردم القبور الجماعية. ولقد وعدت الحكومة بأن تعيد بناء المدينة إلا أن الأهالي يعتقدون أن هناك مخططاً يهدف إلى أن لا يبقى في مركز المدينة القديم حالياً إلا العشب الأخضر، كما يقال إن المخطط يهدف إلى تغييرات أساسية مثل إبعاد الأحياء السكنية عن بعضها من أجل السيطرة عليها، وقهرها وكذلك تخفيف الكثافة السكانية، بإسكان علويين من القرى المحيطة.

ويتنبأ مهندس درس في أوروبا أن مدينة حماة الجديدة ستكون بشوارعها العريضة قابلة تماماً للسيطرة عليها بسهولة ويقول جامعي آخر: لقد كانوا دائماً يريدون إنهاء حماة وقتلها، والآن تم لهم ذلك. ويسمي سفير عربي إعادة البناء «استئصال دمل المعارضة في حماة إلى الأبد» على كل فإن حماة قد انتهت الآن، مخربة مهجورة ومنهوبة كلياً، (كما لو أن جنكيز خان مر بها)، على حد تعليق تاجر مسيحي منكوب. إن ما يحكم حماة الآن هو الذعر وسوء الظن المقيت والحرس ووحدات رفعت أسد التي تشيع الإرهاب، وكل حديث يزيل بعض الستار عن صور المأساة في ليلتي الثاني والثالث من شباط عندما اندلعت (حرب حماة): إعدام جماعي لرجال حي بكامله أمروا من الجيش بتوزيع الخبز وإعدام ٧٠ رجلاً أمام المستشفى البلدي في ١٩ شباط، وجثتان عرضتا هناك أيضاً وبُشِّع بهما إلى حد رهيب لطبيب عيون مشهور وطبيب داخلي، وأمّ لم يسمح لها طيلة أسبوع بدفن جثة ابنها الذي قتل أمام المدينة، كلهم لم يسألوا عن أسمائهم وهوياتهم أو عن الذنب الذي اقترفوه. (قطعات) مما يسمى جنوداً تقاتل وتتقاتل على غنائم الذهب والمجوهرات، وتلطخ بصورة بذيئة جدران البيوت بأسماء البنات والنساء المغتصبات التي يكتبونها من البقايا المتفحمة لأثاث مستشفى خاص، حيث أقاموا فوق سطحه ناراً يشوون عليها ستة خراف.

الوقائع اليومية للمجزرة جاءت في الصفحة ٣٤ وما بعدها من كتاب: (مجزرة حماة القصة الحقيقية بالأسماء والوقائع والأرقام والصور لأكبر مجزره في العصر الحديث):

(مازال النقل من التقرير)...

شباط.. عام اثنين وثمانين :

الشتاء شاحب يغلف وجه المدينة بلونه الرمادي، ونهر العاصي على غير عادته في تلك المواسم لا يسرع في الجريان... توقفت النواعير عن الدوران.. سكت العاصي حزيناً على حماة.. شباط الأسود، أرخى سدوله يوم الثلاثاء في الثاني منه، ومنذ الآن، سيكون لهذا اليوم وقع خاص، فسورية الوطن، ومنذ ذلك التاريخ، دخلت المجهول، وأصبح مستقبلها على كف شيطان. التفاصيل المرعبة للمجزرة ستكون الكلمات عاجزة عن نقلها وتصويرها، لكننا نترك للأحداث التي عشناها عن قرب، وكنا شهودها منذ اللحظات الأولى، أن تقول جزءاً من الحقيقة، وستكون رحلتنا في دهاليز الجريمة والموت يوماً بيوم، وحتى آخر شباط.. نعرج على المناطق والأحياء التي شهدت شيئاً من فصول المجزرة.

البداية: الثلاثاء الثاني من شباط :

سرايا الدفاع (جيش النظام الطائفي) المدرّب على عمليات الاقتحام والقمع داخل المدن فقط، والمتمتع بامتيازات مادية هائلة يعود إلى المدينة مساء ذلك اليوم. تلك الليلة السوداء كانت البداية الفعلية التي استمرت بعد ذلك شهراً كاملاً، ضجت المدينة بأصوات الرصاص والمدافع والقاذفات بدءاً من الساعة التاسعة ليلاً.. سرايا الدفاع مع قوات مكثفة من الجيش النظامي والمرابط هو الآخر على أطراف المدينة(تحاصر منزلاً في حي البارودية) وتشتبه بأنه مركز للمعارضة ضد النظام. تلك الليلة كانت البداية الفعلية للمجزرة. السلطة الحاكمة عمدت إلى إغلاق كل مخارج المدينة، وعزلتها عن العالم الخارجي، ورافق ذلك انقطاع الكهرباء، ومعظم أجهزة الهاتف، وغرقت المدينة منذ ليلة الثلاثاء في ظلام طويل.

إن كل عمليات الإبادة التي تمت بحق المدينة من إعدام الآلاف إلى هدم الأحياء، إلى تدمير الجوامع والكنائس، إلى نبش المقابر.. كل ذلك تم فعلياً بعد أن سيطر الجيش و(جيش السلطة الحاكمة) على المدينة كلياً، وأصبحت بكل شبر فيها تحت بطشه وفي قبضته.

الأربعاء الثالث من شباط :

المدينة تحت الحصار الكامل مكممة مطوقة، ألوف الناس داخل البيوت المستسلمة الآمنة، وقد أطبق عليهم الجحيم رجالاً ونساء وأطفالاً. السلطة الحاكمة بجيوشها الجرارة

تدخل من كل أطراف المدينة.. لقد حانت الساعة.. وها هي جهنم تبدأ بابتلاع المدينة الشهيرة. منذ صباح هذا اليوم استطاعت كتائب الجيش التابع للسلطة، والقابع على أطراف المدينة منذ سنوات أن تضع يدها على كل شارع وكل زقاق، وكل بيت. لقد استطعنا نحن المحاصرين - ومن شقوق النوافذ المغلقة أن نرى أرتال الجيش الزاحف والراجل والراكب.. عشرات الألوف من الجند - وبأشكال متنوعة من اللباس. - اللواء ٤٧ المدرع. - الفرقة الثالثة التابعة للجيش النظامي. آلاف من جنود سرايا الدفاع بلباسهم وسلاحهم المميز. - آلاف من جنود الوحدات الخاصة. - مجموعات من سرايا الصراع. - قوات سريعة التحرك تابعة لسرايا الدفاع برئاسة علي ديب.

كل هذه الفرق، وكل هذا العدد الوفير من الجيش.. أعدته السلطة الحاكمة لاقتحام المدينة، ولملاحقة عدد محدود من المعارضة، حسب زعمها. كان من الواضح في تلك اللحظات.. أن هذا الجيش قد احتل البلد ليسدّد إليها الضربة القاضية، عند هذا قد يكون مفيداً أن نورد الحادثة الواقعية التالية التي جاءت على لسان مسؤول حكومي كبير.. هو عضو في الجبهة التابعة للسلطة الحاكمة.. يقول هذا المسؤول: "أثناء أحداث حماة، زارني أحد الأصدقاء المقربين من السلطة، وكان قلقاً من الحد اللامعقول الذي وصلت إليه السلطة في قمع المدينة، لما سيترتب على ذلك من نتائج مستقبلية خطيرة. وكان قد اجتمع مع بعض ضباط سرايا الدفاع، وهؤلاء حدثوه عن حضورهم اجتماعات قيادية في مدينة حماة، وقبل عدة أيام من المذبحة، وبالتحديد (الثامن والعشرين من كانون الثاني) عرض عليهم فيها الضابط المسؤول خرائط ميدانية مسبقة معدة لاقتحام المدينة من كافة جهاتها وشوارعها. وقد سأل بعض الضباط أثناء الاجتماع: هل هي معركة مع أهالي المدينة أم مع ما بقي من المعارضة؟ فأجاب الضابط المسؤول حرفياً - ويدعى (علي ديب) قائد اللواء المتحرك التابع لسريا الدفاع، والمتواجد داخل المدينة-: لقد أعطانا الفريق حافظ أسد أوامر صريحة بضرب كامل المدينة - الأهالي قبل المقاتلين - وعلينا تنفيذ هذه الأوامر- والغاية قتل وتهجير أكبر عدد ممكن من أهلها. يتابع العضو المذكور: وعند هذا الحد أيقنت أن المطلوب تدمير المدينة. هذه الواقعة صحيحة.. وقد ورد مثلها في أحاديث كثيرة، بعضها كان يرد على ألسنة الجنود أنفسهم.. لقد سمعناهم يقولون بوضوح وبشكل صريح معلن: "طلب إلينا الضابط أن نقتل كل الأهالي دون تمييز. كانوا يحددون لنا الشوارع، ويطلبون منا الدخول إلى كل بيت فيها، تاركين لنا حرية التصرف من قتل

ونهب واعتداء، وكل ما نفعله لسنا مسؤولين عنه، وكل ما نحصل عليه ملك لنا.. لقد سرق رفاقنا الكثير من الذهب. أما الضباط الكبار، فلم يتركوا شيئاً، نقلوا مسروقاتهم على الشاحنات.. ولم نصدق جميعاً أن حماة غنية على هذا النحو!!!" وهكذا دون مواربة أو خجل، ودون حاجة لإخفاء العورات، كان هدف السلطة واضحاً.. هذا النظام يريد أن تصبح حماة مدينة أخرى، لذلك غيّر معالمها، وهدم شوارعها وأسواقها، ومسح تاريخها، وقضى على المتحف والبيوت الأثرية فيها، وقوّض جوامعها وكنائسها. حتى المقابر درسها، فمات الأموات مرتين، حتى النواعير لم تسلم من حقده. لو تسنى له لغيّر اسم المدينة دون شك.. ولبدّل بسكانها ناساً آخرين، وكنّا نقول: هل كان يغيّر مجرى نهر العاصي لو استطاع؟! اعتقادنا، بعدما رأيناه، أنه كان يفعل.

هذا اليوم الثالث من شباط سيكون من أيام الحزن السوري.. ما الذي حصل؟

إن حيَّ (الحاضر) بشوارعه وأزقته الضيقة، كان فيه بعض جيوب المقاومة الوطنية، وقد حانت الفرصة التي انتظرتها السلطة طويلاً، فحملت راجمات الصواريخ إلى أعالي الأبنية المتواجدة في ساحة العاصي، مقابل سراي الحكومة، بحيث تصبح منطقة (الحاضر) مكشوفة تماماً، ومن هناك بدأت عملية دك المدينة.

كانت الصواريخ تنقض بمعدل عشرة أو أكثر في الدقيقة الواحدة، ومع كل صاروخ تخرّ البيوت القديمة على ساكنيها من الرجال والأطفال والنساء. كان (الحاضر) بأكمله يشتعل ببيوته وأزقته وسكانه الذين يتجاوز تعدادهم مئة ألف مواطن، من استطاع منهم الهرب باتجاه القرى الشمالية فقد أسرع تاركاً ركام البيت، وجثث الأعزاء، ومن لم يستطع، انهار البيت عليه، أو احترق وهو فيه.

وحتى هذه اللحظة.. لا يستطيع أحد أن يعطي إحصاءً دقيقاً لخسائر هذه المنطقة القديمة، فهناك عائلات أبيدت بأكملها، وذهبت تحت الركام أو احترقت. وهناك بيوت اختلطت على بعضها بأكوام هائلة من التراب والأحجار.. بحيث بات يصعب حتى تقدير عدد المنازل المتهدمة، فضلاً عن جرفها نهائياً بعد ذلك، وتحويلها إلى ساحات ترابية هائلة. باختصار، كان هذا الحي القديم منذ يوم الأربعاء، سحابة كثيفة من الغبار الأسود المختلط بتراب الحجارة المنهارة، ودخان الحرائق المتصاعدة من معظم الأمكنة.. كان (الحاضر) يحترق بأكمله، وينهار بأكمله، ويموت بأكمله. لذلك، مهما كذبت السلطة في

تضخيم ما يمكن وجوده من أشكال المقاومة العنيفة داخل الحي القديم، لتبرر ضربها للمدينة، فإنه يبقى فضيحة معلنة.. لأن الحي القديم كان يشتعل من كل جوانبه بصواريخ السلطة منذ اليوم الأول، ولا مجال من الناحية المنطقية لحدوث مقاومة مؤثرة على النحو الذي صوره النظام. إذا تركنا (الحاضر) المحترق وتلفتنا نحو الجانب الآخر من النهر، نجد أمامنا المنطقة الأخرى وهي (منطقة السوق) عصب المدينة التجاري.. وحيث تقع أهم وأكبر الأسواق. في هذا الجانب من حماة كان القصف أخف وطأة تناول بصورة رئيسة الأحياء المحيطة بالقلعة.. مع قذائف صاروخية عشوائية تنهال من كل المرتفعات، وتقع دون تحديد على أي حي أو بيت.

هذا اليوم لم تنجُ معظم البيوت في الشوارع الرئيسة من زيارات صاروخية كانت تلتهم سقفاً أو حائطاً بلمح البصر. لكن منطقة السوق ستكون بعد يومين مسرحاً لآخر منجزات حضارة القمع (والعنف الثوري) في فن الإبادة والنهب والاعتداء. في هذا اليوم أيضاً بدأنا نرى شيئاً هاماً.. لقد عمدت السلطة إلى أسلوب الانتشار الكثيف، فتركت الجنود من سرايا ووحدات وجيش نظامي يملأون الشوارع والأزقة، حيث استتب الأمر كاملاً في منطقة السوق، بعد سقوط القلعة. كان الجنود يقرعون الأبواب، ويطلبون الطعام.. وفعلاً قدّمت لهم كثير من البيوت الطعام والشراب والأغطية.. أحد الجنود كشف عن الحقيقة حين قال لإحدى النسوة: (لقد تركنا الضباط دون طعام أو شراب)، قالوا لنا (المدينة مفتوحة وهي لكم بكل ما فيها)، معظم الجنود لم يتعبوا طويلاً.. كانت مخازن الأسواق ملأى بكل احتياجاتهم.. وفعلاً.. فتحت من مساء ذلك اليوم مخازن المدينة بكاملها، وبدأ النهب الفعلي المنظم والذي سيستمر طوال اليوم التالي أيضاً.. قبل الانتقال إلى عمليات الإبادة، وحتى يمارس الجنود عملهم القادم براحة ونشاط، وبعد أن يكونوا قد حصلوا على غنائم لا تصدق..

جنود كثر.. ممن تواجدوا داخل الأحياء، وعلى مسافة من الأسواق، كانوا ضيوفاً على كل البيوت. نعم.. حماة المدينة الصابرة قدّمت يوم الأربعاء بل كلّ يوم تقريباً الطعام والشراب والشاي والأغطية للجنود الذين قتلوها، وفي التفصيلات التي سنذكرها فيما بعد ما يشير إلى ذلك بالأسماء.

الخميس: الرابع من شباط :

لا يزال القصف المجنون الذي بدأ منذ منتصف الليل وما يرافقه من موت عبثي محتم.. هو سيد الموقف. منطقة السوق الآهلة بالسكان، بل المكتظة بهم، ستكون بعد قليل مسرحاً لأكبر مشروع من مشاريع حمامات الدم عرفه التاريخ.

لكن هذا اليوم.. سيكون بالنسبة لجنود السرايا والوحدات يوم الغنيمة الكبرى. لقد فتحوا منذ البارحة بعض الأسواق واليوم يطبقون عليها كلياً، فلا تسلم دكان واحدة، وبدأت عملية النهب المنظم. تركزت السرقات أولاً على الأموال المودعة داخل المخازن.. في الصناديق الحديدية، أو في حفر مخفية داخل الجدران، يستطيع الجنود الاهتداء إليها جيداً.. بأيديهم وأنوفهم المدربة، وحتى دوائر الدولة، فقد تم فتحها بكاملها.. وسرقت كل الأموال المودعة داخلها.. (بعض هذه الأموال كانت رواتب الموظفين البسطاء عن شهر شباط التي لم يتم قبضها كلها بعد).

وحتى سراي الحكومة لم يسلم من التخريب والتدمير والسرقات.. لقد حوله الجنود عن عمد إلى مستودع للقاذورات والنفايات. المحاكم داخل السراي.. مع دوائر السجلات المدنية والعقارية، تحولت هي الأخرى، بفضل السواعد (الحضارية الجديدة) إلى صناديق قمامة، فيها آلاف الأوراق الممزقة والمرمية داخل الغرف وفي الممرات وفي الحديقة الخلفية.. كان الجنود وهم يبحثون عن الصناديق الحديدية والأموال المودعة داخلها، يمزّقون كل شيء، ولا يبقون على شيء.

وقد باتت مدينة حماة اليوم بدون وثائق ومستندات تضبط الملكية أو العلاقات بين السكان. وفعلاً استطاع الجنود والضباط، بعد أن وضعوا أيديهم على كل الأموال المودعة في الأسواق ودوائر الدولة، أن يحصلوا على غنائم حقيقية توزعوها فيما بينهم. يروي شهود عيان.. أن الجنود حين سرقوا سوق الخضار.. أخذوا الأوراق النقدية من فئة المائة ليرة أو الخمسين.. وكانت بكميات كبيرة.. أما الأوراق النقدية ذات الليرة الواحدة فكانوا يقذفونها على الأرض، ويدوسونها بأحذيتهم.. لأن جيوبهم لم تعد تتسع. ويقول شهود العيان من مدينة حمص: إن الجنود كانوا يقايضون المائة وعشرين ورقة نقدية من فئة الليرة الواحدة بورقة نقدية واحدة من فئة المائة، ويجبرون التجار في حمص على هذه المقايضة، حتى يسهل عليهم حمل النقود إلى بيوتهم أو قراهم. وهكذا فإن يوم الخميس كان يوم النهب.. وكان جيش السلطة الطائفية مشغولاً بحصر الغنائم وتوزيعها.

لكن الأمر لم ينته في الأسواق عند هذا الحد.. لابد بعد ذلك من تغطية السرقات.. ولتحقيق هذا الغرض.. أمر الضباط المكلفون جميع الجنود بحرق الحوانيت بالقنابل الحارقة.. وفعلاً وخلال ساعات تحولت جميع الأسواق إلى فوّهات سوداء. أما البضائع فكانت مرمية على الأرصفة، يدوسها الجنود بأرجلهم، يحملون منها ما استطاعوا، ويتركون الباقي لجولات قادمة.

يقول شهود العيان: كان الجنود هذا اليوم مشغولين جداً.. وكانت البضائع تتكدس في الشوارع، ثم تأتي السيارات العسكرية فتحمل ما استطاعت منها، أما ما تبقى، فيُحمل غالباً إلى عيادات الأطباء الفارغة، أو الدوائر الحكومية المستباحة، لتتحول هذه وتلك إلى مخازن لتجميع المسروقات.

الجمعة: الخامس من شباط :

يلاحظ سكان المدينة أن أعداداً إضافية من الجنود أخذت تفد على المدينة من فجر هذا اليوم. كانت الدبابات تهدر فوق الشوارع المزفّتة، ترافقها أصوات الطائرات المروحيّة التي لم ينقطع صعودها أو هبوطها.. ومظهر الجيش على هذه الكثافة أخذ يطرح أمامنا ألف سؤال عن طبيعة مهمته القادمة.. كان معظم الجنود يرتدون الدروع الواقية، وبعض الجنود ارتدوا أقنعة بيضاء على وجوههم.

كما لفتت الأنظار كتائب مميزة تعتلي سيارات مصفحة سريعة وصغيرة الحجم، وكانت تضع هي الأخرى الدروع والأقنعة البيضاء.. وعرفنا فيما بعد.. أن هذه تسمى (كتائب الشطب) وأنها تتلقى الأوامر مباشرة من القيادة العليا لسرايا الدفاع. وهكذا تدخل المدينة حمام الدم.. وفي تلك اللحظات الرهيبة من صباح هذا اليوم.. كانت السكاكين فوق أعناق الجميع ودون استثناء.

ظهر الجمعة : ينهمر وابل الصواريخ بجنون على منطقة السوق.. إنه الإنذار ببدء عمليات الذبح. أدى إطلاق الصواريخ إلى تهديم عدد جديد من البيوت، مما دفع بعض الناس إلى الهرب والتجمع في بعض الأقبية القديمة. تجمعات الأهالي المذعورين سهّلت على كتائب الشطب المهمة.. فكانوا يدخلون الأقبية ويعدمون الجميع على الفور. في هذا اليوم بدأت عمليات الإعدام الجماعي بصورة فعلية، وقبل أن ندخل في التفاصيل الرهيبة، نقف عند ملاحظة هامة جداً..

بدأ النظام الحاكم يستبيح الأرواح ويحصدها بلا هوادة وفي هذا اليوم بالذات كانت المدينة في قبضة النظام بصورة كاملة. كان الجنود قد سيطروا على الشوارع والأزقة والبيوت، ونهبوا الأسواق في اليوم السابق.. وكان من المفترض أن يرفع الحصار، ويسحب الجيش –على الأقل– من منطقة السوق.. وتتوجه الجهود بعد ذلك للسيطرة الكلية على منطقة (الحاضر) القديمة. في هذا اليوم تصور البسطاء من أهل المدينة أن الحياة الطبيعية ستعود، لأن الجيش قد سيطر كلياً، ولا حاجة لمزيد من الرصاص والصواريخ.. فلقد تهدم ما تهدم من المدينة.. ويكفي السلطة ذلك.

لكن الذي حدث.. رهيب وعجيب ومخيف.. ونقلاً عن ضباط سرايا الدفاع الذين تسربت على ألسنتهم بعض الروايات.. عرفنا أن الأوامر قد صدرت عن رئيس الدولة، بمباشرة أعمال الإعدامات، بعد أن استتب الأمر للجيش بصورة كاملة. وبهذه الغاية، فقد قسمت المدينة إلى أقسام، ووضعت تحت إمرة كتائب الشطب، وطلب منها أن تنفذ بكل الأهالي الإعدام الفوري، مع استخدام كل الوسائل التي من شأنها أن تشيع الحد الأقصى من الإرهاب.. وإعطاء الضوء الأخضر لممارسة كل الانتهاكات أثناء عمليات الإعدام.. من نهب واعتداءات على النساء مع حرق البيت وهدمه كلياً إذا اقتضى الأمر..

وهكذا استبيحت المدينة، وهي مستسلمة كلياً للجيش، ودون أن يكون في شوارعها مقاتل واحد، ماخلا بعض أشكال المقاومة الفردية المحدودة في منطقة (الحاضر) وهذه كان يمكن حصرها وتطويقها بسهولة.. مما يدعم ما قلناه سابقاً، حول تصميم السلطة على اغتيال المدينة وذبحها من الوريد إلى الوريد. في هذا اليوم ارتكبت المجازر في حي الدباغة، وشارع أبي الفداء ونترك للتفاصيل أن تتحدث.

مجزرة حي الدباغة :

هذا الحي تسكنه أعداد وفيرة من الأسر الميسورة والمتعلمة، ويقع هذا الحي في قلب المدينة تماماً، ويتفرع عن هذا الحي شوارع جانبية.. كانت بأكملها ذلك اليوم هدفاً للموت الجماعي، تطل معظم البيوت على السوق التجاري الرئيسي.. هذا السوق الذي تم نهبه في اليوم السابق..يروي الأهالي مشاهد الرعب المروعة.. يقولون.. انتشر الجنود الغاصبون في الشوارع كالجراد.. وأخرجونا نحن النساء من البيوت، وجمعونا في الشوارع، وقالوا: سنحرقكم جميعاً ونحرق بيوتكم... وبالفعل.. صبّوا المازوت أمامنا على أبواب الدكاكين، وأخذوا يشعلون النار من حولنا.. ونحن نصيح ونتوسل.. طلبوا منا بعد ذلك الدخول إلى

البيوت.. مرة أخرى.. وكانوا قبل ذلك قد جمعوا كل الرجال.. رأيناهم.. يُساقون أمامنا كالأغنام.. كان معظمهم بثياب النوم، وبعضهم لم يرتد حذاءه.. كانوا يمشون مع الجند صامتين.. وبعد دخولنا إلى البيوت بدقائق.. انهمر الرصاص بجنون، واشتعل الجحيم في الحي كله.. عرفنا جميعاً.. أن كل الرجال قد استشهدوا وحتى اليوم سيظل بناء الأوقاف الرابض في أول هذا الحي، شاهداً على الجريمة.. ففي داخله تكدّست جثث الشهداء، وكان عددهم يناهز المئة. ولم يكتف الجنود بذلك، بل عمدوا إلى بعض الحوانيت الفارغة، وأدخلوا الرجال إليها، وهناك صبّوا عليهم الرصاص.. وحين اطمأنوا إلى مصرعهم.. أحرقوهم وظلّت الجثث المتفحمة داخل الحوانيت حتى نهاية الأحداث..من مجازر هذا الحي نسوق قصة واحدة: عائلة (مفتاح) تسكن في منتصف هذا السوق، وأصحابها من تجار الأحذية المعروفين في المدينة.. دخل الجنود عليهم، فأعدموا كل الرجال.. استطاع بعض الأهالي إدخال الجثث إلى المنزل.. لكن الجنود، حين عمدوا إلى حرق السوق، والجثث داخل الحوانيت، امتدت النار إلى منزل هذه العائلة المنكوبة.. فاضطر من بقي على قيد الحياة إلى الهرب.. تاركين جثث الشهداء تتهاوى وتحترق في لهيب النار. وحتى يكون الحريق أشد شمولاً في هذا الحي، عمد الجنود إلى سكب كميات كبيرة من المازوت على أثاثات البيوت من الداخل.. وهكذا تحولّت منطقة (الدباغة) بفعل الموت والدمار والحريق إلى جدران سوداء مهدّمة.

مجزرة شارع أبي الفداء :

أما في شارع (أبي الفداء) الموازي لحي (الدباغة) تماماً.. فقد تمت المجازر بصورة أبشع وأشدّ همجية. كان الجنود ينتقلون بنظام من بيت إلى بيت، وبالتتابع.. وعلى الجانبين، على طول الشارع الجميل الممتد من ساحة العاصي حتى القلعة، ويقومون بعملية الإعدام داخل البيوت ذاتها.. رجالاً ونساءً وأطفالاً.. ويخلّفون البيت وراءهم مليئاً بالجثث، منهوباً في معظم الأحوال. ومن مآثر ضباط سرايا الدفاع في هذا الحي نروي الوقائع التالية:

- يقول شاهد عيان استطاع أن ينجو من المذبحة بأعجوبة، حين اختبأ فلم يره الجند المنهمكون في عملهم: قتلوا ابنتي وزوجتي أمام عيني.. وبعد الانتهاء استدار أحد الجند إلى الجثتين، فرأى الذهب، فعاد وسحبه من الأيدي والأصابع.. لكن الأقراط (الحلق)

استعصت عليه، فقطع بكل بساطة الأذن وحملها في جيبه مع الأقراط. كان مشهداً خرافياً ظللت وقتاً طويلاً أتخيّل أنه كابوس وليس حقيقة.

- مأثرة أخرى.. بناء طابقي يسكنه إخوة عديدون من عائلة "الموسى".. دخل عليهم الجنود وقتلوا الجميع.. حتى الطفل الرضيع على ثدي أمه.. لم ينج من المذبحة أحد، وتكوّمت الجثث من الرجال والنساء والأطفال داخل المنزل المنكوب.

- جريمة أخرى تبعث على الذهول والتساؤل: تجمعت حوالي أربعين امرأة من نسوة الحي مع الأطفال داخل عيادة أحد الأطباء.. التي تقع في قبو أحد الأبنية الحديثة في هذا الشارع.. لكن ماسورة المياه انفجرت عليهم من تأثير القصف.. فاضطروا للانتقال عبر النوافذ الداخلية إلى قبو مجاور لعائلة طيفور.. وفي هذا القبو حدثت المجزرة.. دخل الجنود وأخذوا يشتمون ويضربون بأعقاب البنادق، ثم فتحوا النار على جميع النسوة مع أطفالهن.. بعض النسوة ظللن في حالة نزف ساعات طويلة.. قبل أن يسلمن الروح. من المفارقات الرهيبة.. أن طفلاً رضيعاً نجا من المذبحة ووقع تحت جثة أمه.. لكنه ظل يرضع الدم من ثديها طوال يومين قبل أن يعثروا عليه..ومن شهيدات هذه المجزرة: الشهيدة ميسّر سمّان.. والشهيدة حياة الأمين.. والشهيدة زوجة المقدم فيصل دهيمش مع بعض أولاده.

وينتهي يوم الجمعة الأسود، والدم يغسل قلب المدينة، والليل يرخي سدوله على جثث شهداء مظلومين ما كان لهم من ذنب سوى أنهم مواطنون في عهد **حافظ** أسد.

السبت: السادس من شباط :

يوم جديد ومجازر جديدة. هذا (السبت) لن يكون خيراً من (الجمعة) السوداء. ستعمل كتائب الموت بهمة ونشاط، وستسيل الدماء أنهاراً.. في حي (جنوب الملعب)، و(سوق الشجرة).

مجزرة جنوب الملعب:

سمي الحي بهذا الاسم لوقوعه فعلاً جنوب الملعب البلدي.. والبيوت في هذا المكان يجب أن تكون آمنة.. لوقوعها على أطراف المدينة وبُعْدها عن المراكز المشتعلة.. يضاف إلى ذلك قربها من المستشفى الوطني.. الذي عسكر جنود السرايا والوحدات حوله منذ اللحظات الأولى، بل كانوا ضيوفاً في معظم الأوقات على بيوت هذا الحي، حيث يقدم لهم الأهالي الطعام والشراب.وكانت المكافأة يوم السبت.. بعد أيام أربعة من الأحداث..

وبدأ الجنود عملهم كالعادة، بقرع الأبواب، واستدعاء الرجال (كل الرجال) بحجة إلقاء بعض الأسئلة حول بعض القضايا الأمنية. خرج الأهالي الآمنون، وقد صدقوا أقوال الجنود.. وكان الرصاص هو السؤال الوحيد الذي تلقاه هؤلاء الشهداء.

ويسقط الجميع صرعى.. وتتكوم الجثث في الأزقة الحديثة والطرقات المزفتة..

في جنوب الملعب لم يبق اليوم سوى الأرامل واليتامى، والإحصاءات تقول: إن عددهم يتراوح ما بين (١٨٠٠ - ٢٠٠٠) منهم الشهيد النقيب (أحمد عزيز) من سلاح الصواريخ لم تشفع له رتبته فقتله عناصر سرايا الدفاع وهو بلباسه العسكري والشهيد القاضي محمد الواهب مع زوجته التي استغاثت فقتلوها على الفور. والشهيد مدير السجن المدني في حماة وهو مواطن من مدينة دير الزور.. لم تشفع له أيضاً طبيعة عمله كمقدم في سلك الشرطة. أما الأسر.. فبعضها فقدت كل الرجال.. وبعضها الآخر فقد معظمهم، مثل عائلة اللاذقاني (فقدت تسعة عشر شهيداً). عائلة الريس (سبعة شهداء).عائلة قوجة (تسعة شهداء بينهم سبعة إخوة).وعند هذه العائلة الأخيرة المفجوعة قصة تروى:

"يقول الأب الشيخ الفاني، والباقي الوحيد على قيد الحياة: (لقد اقتادوا أولادي السبعة مع اثنين من الأقرباء، قتلوا الجميع أمامي أنا ابن السبعين، توسلت إلى الجنود أن يقتلوني معهم.. لكنهم لم يفعلوا.. بل ضحكوا وقالوا هكذا أفضل.. حتى تموت ببطء"!!! الأب المفجوع هام على وجهه منذ ذلك اليوم، وقد تركته المذبحة شبه فاقد العقل.

مجزرة سوق الشجرة :

هذا الحي يقع داخل منخفض من الأرض، ويمتد عبر طريق طويل متعرج آخذاً في العلو حتى منطقة المحطة. يتصل من الجانب الآخر بحي المرابط، وفي الوسط يقوم جامع أثري قديم (لم يبق منه اليوم سوى ساحة ترابية واسعة). دخل الجنود هذا الحي المكتظ بالسكان، حيث تتداخل البيوت القديمة بصورة كثيفة داخل أزقة ضيقة متعرجة.. وجمعوا كل الرجال من معظم البيوت، وطلبوا إليهم الوقوف جانباً.. كانت العملية تتم على أيدي عدد كبير من (جنود السرايا واضعي الأقنعة والدروع) توازعوا كل أطراف الحي وأنحائه، بدءاً من مدخله وحتى نهايته. وقف الرجال على الحائط بحراسة الجنود المدججين. ودخل عدد آخر من الجنود إلى البيوت بحجة التفتيش عن مقاتلين مختبئين.كان الحي فعلاً خالياً من السلاح.. مع ذلك ادعت السلطة أن المقاتلين قد مروا منه.. ووزعوا

السلاح على بعض ساكنيه. وبعد التفتيش لم يقع الجنود على شيء.. لكن حصيلتهم من الذهب كانت وافرة.. وبعد أن اطمأنوا إليها.. أخذوا يضربون الرجال العزل بأعقاب البنادق، ويطلبون من النسوة البقاء على أبواب المنازل، للتفرج على ما سيحصل.. بعد دقائق.. أعدم الجنود الرجال واحداً بعد الآخر.. سقط معظمهم على عتبات البيوت.. وظل بعضهم ينزف ساعات قبل أن يسلم الروح.. ودون أن يسمح لواحد من الأهالي بالاقتراب..آخر هذا اليوم.. غادر الجنود أزقة الحي.. ماخلا بعض الدبابات الرابضة على مداخله، وظلت جثث الشهداء مرمية على الأرض المبللة بالأمطار، بعض الأهالي يقرؤون الفاتحة على أرواحهم.. وبعد أيام عشرة حملتهم الجرافات إلى الحفر الجماعية..

يقول شهود العيان: (في الحي هناك أمٌ قتلوا لها كل أولادها على عتبة الدار.. وظلت الجثث أمام عينيها طوال أيام عشرة يهطل عليها المطر، ويغطّيها التراب وهي لا تستطيع شيئاً سوى البكاء أحياناً، وقراءة القرآن أحياناً أخرى. كانت تخرج كل يوم تغطيهم وتعود.. إلى أن جاءت الجرافات ونقلتهم مع الجثث الأخرى. وفي هذا اليوم تستوقفنا حوادث أخرى غير المجازر.. جديرة بالرواية.. فقد تسربت إلى المواطنين حكايات متعددة عن حدوث حالات اقتتال عنيفة بين الجنود أنفسهم.. فقد لاحظ الأهالي أثناء المداهمات والتفتيش، أن بعض الجند كان يحاول التعبير عن ألمه وضيقه مما يحصل مظهراً عجزه أمام الأوامر العسكرية التي تحتم عليه التنفيذ. وكان بعض الجند أيضاً.. قد أقام صلات إنسانية مع بعض الأهالي المحاصرين.. فجلب لهم الطعام.. أو الحليب للأطفال..

هؤلاء الجند.. وعبر مشاهد الموت والدم.. لم يستطيعوا (وهم بشر) أن يتماسكوا. نعود إلى الواقعة -يقول الجنود أنفسهم- إن كتيبة سرايا الدفاع التي نفذت حكم الإعدام في الشهداء من أهالي (جنوب الملعب) قد تعرضت في داخلها إلى ردّات فعل حادة من قبل بعض الجنود التابعين للسرايا بالذات، حيث عمد هؤلاء إلى فتح النار على رفاقهم، وحاولوا الوصول إلى الضابط المسؤول لاغتياله.. هذه الواقعة حصلت في شارع (العلمين)، وبعد الانتهاء من مجزرة (جنوب الملعب) مباشرة، لكن الجند المتمردين أعدموا على الفور، وكان عددهم (سبعة). وقائع أخرى يمكن أن نسردها سريعاً، تؤكد أن الجندي (الإنسان) لا يمكن القضاء عليه كلياً.. وبالرغم من كل عمليات غسل الدماغ.. يبقى الحس الوطني في النهاية هو الأقوى.. في شارع أبي الفداء بالذات، وحيث كان

القصف قد شمل البيوت والأهالي جميعاً.. فإن جندياً استطاع أن ينقذ أسرة كاملة.. حين ادعى أمام الضابط، أنه لم يجد في البيت الصغير أحداً.. بينما الأسرة مختبئة في الداخل.. وحين رآها الجندي، وكان وحيداً.. طلب بسرعة من أفرادها الهدوء والاختفاء داخل الخزائن.. وعاد أدراجه بسرعة، بعد أن أطلق عيارات نارية على باب المنزل، وقنبلة حارقة في الزقاق.. وقال للضابط المكلف: المنزل فارغ لم أجد أحداً.

- حكاية أخرى من شارع أبي الفداء أيضاً..

عثر جندي بين جثث القتلى على ثلاثة من الجرحى وقعوا تحتها.. وكانت جراحهم طفيفة. اقتادهم بسرعة، وأدخلهم إلى مخزن قريب جانبي، وأقفل عليهم الباب، وطلب إليهم الهدوء الكامل.. وكان مركز وحدته في الشارع بالذات.. هذا الجندي كان يأتي يومياً بالأربطة والطعام والشراب.. حتى نهاية الأحداث وانسحاب الجيش من الشوارع، إلى أماكن التجمع.. حيث خرج الجرحى الثلاثة، وكان الظن أنهم في عداد القتلى.. ورددوا القصة العجيبة.. والثلاثة اليوم أحياء يرزقون.

الأحد: السابع من شباط :

المدينة المحاصرة تتنفس عن صباح جديد.. رائحة الموت والدم والبارود تخيّم على سماء المدينة الأسود.. لاشيء يوحي بأن هذا اليوم سيكون أخف من سابقه.. كان الجو ثقيلاً على الذين لا يزالون تحت الحصار داخل البيوت.. ورهيباً على الذين شاهدوا أحبتهم يذبحون أمام أعينهم، دون أن يستطيعوا حراكاً.

كانت المدينة تحتضر، والدم الندي يغسل شارع (أبي الفداء)، وشارع (الدباغة)، و(حي جنوب الملعب)، وكل بيوت (الحاضر) التي تخرّ على ساكنيها الشهداء.

كانت حماة تسقط رويداً رويداً.. والخناجر تطعن في كل أنحاء جسدها.. لكن الموت الكلي دوّن جولات جديدة ستكون اليوم في حي (الوادي) و(المحطة).

مجزرة حي الوادي:

يقع هذا الحي داخل منخفض من الأرض، كانت تقوم على جنباته المغاور أصلاً، ومنذ عشرات السنين، يزدحم هذا الحي بأكثر الشرائح الاجتماعية في المدينة فقراً أو بؤساً، معظم الساكنين كانوا إلى وقت قريب دون عمل ثابت (بائعون متجولون أو حمالون على الظهور أو الحمير).. هؤلاء انتعشت أحوالهم المادية قليلاً حين قامت في المدينة بعض المصانع.. فانخرطوا فيها صغاراً وكباراً.. لأنها تعطيهم دخلاً شهرياً ثابتاً هؤلاء

المعدمون.. استطاعوا تأمين حياة (مستورة) كما يقال.. هذا الحي بسكانه الفقراء كان هدف السلطة (الثورية) صباح يوم الأحد.. والسبب على لسان السلطة: أن هذا الحي كان من أكثر الأماكن تأييداً للمعارضة المسلحة.. وقد التحق بعض رجاله للقتال.. قد يكون هذا الكلام صحيحاً ومنطقياً في ضوء البؤس الاجتماعي الذي يعاني منه سكان هذا الحي.. لكن ذلك لا يبرر الجريمة، ولا يبرر بقاء مئات الأطفال في حالة يتم داخل بيوت أشبه بالجحور، مع مئات الأرامل اللواتي فقدن كل معيل: الزوج والولد والأخ.

النسوة من أهل هذا الحي يتحدثن بصراحة ووضوح: (دخل الجنود علينا من كل منافذ الحي، وسدّوها بالدبابات، وأخذوا يطلقون الرصاص في كل اتجاه، ويحرقون بعض البيوت التي يشتبهون أنها آوت بعض المقاتلين.. أكثر بيوت الوادي كانت قد تشققت أو تهدم بعض جدرانها من تأثير القصف.. أخرجوا الرجال من كل البيوت، وساقوهم كالقطيع خارج الحي.. حتى لم يبق أحد فوق الرابعة عشرة.. وتركونا مع الأطفال فقط.. بيوتنا أثارت استعاضهم.. لعلهم أشفقوا علينا.. لم يجدوا ما يسرقونه. انتظرنا طويلاً دون أن يعود أحد.. ثم أخبرنا الناس بعد ذلك عن جثث كثيرة مرمية في حديقة مدرسة (المرأة العربية) الواقعة خلف الحي.. هناك قتلوا كل رجالنا، ولم يتركوا لنا شيئاً.. أكثر البيوت مهدمة، ولا تصلح للسكن، والزوج والابن والأخ ذهبوا إلى غير رجعة". الدخول إلى هذا الحي بعد قتل كل رجاله مسألة تبعث على الذهول والجنون معاً.. هؤلاء الفقراء المعدمون.. هؤلاء الأطفال اليتامى الحفاة العراة في برد الشتاء قد فقدوا مرة واحدة كل شيء. حتى الراتب الشهري قطعته الدولة بحجة أن الشهداء يعتبرون من المفقودين وليس هناك ما يثبت وفاتهم، ولا يجوز إعطاء الراتب قبل التأكد من ذلك (وكيف يتأكد الأهالي وآلاف الجثث المتفسخة في الحفر الجماعية قتلت، ودون أن يسألها جندي عن اسم شهيد واحد؟) ومن يستطيع من هؤلاء الفقراء أن يقول للسلطة الحاكمة: إن الجنود العاملين تحت إمرتها، قد قتلوا لهم أولادهم وإخوتهم وأزواجهم وبأوامر منها؟

من الأمثلة الحية الموجعة في هذا الحي.. عائلة العوّير.. وكانت مؤلفة من ستة إخوة يسكنون بيتاً واحداً مع زوجات أربعة، وأم عجوز وجيش من الأطفال.. قتل جميع

الإخوة.. وظلت الأم العجوز الفانية مع الأرامل والأطفال.. وبدون أي دخل مادي.. حيث قطعت رواتب هؤلاء الشهداء جميعاً..

مجزرة المحطة :

المحطة من المناطق الحديثة نسبياً في المدينة.. وهي تتفرع إلى عدد كبير من الأحياء المحيطة.. منها حي الحوارنة.. وقد قدّر عدد القتلى في هذه المنطقة بحوالي خمسمئة شهيد ينتمون لأكثر من مائة عائلة تسكن هذا الطرف من المدينة.

ورغم أن المنطقة لم تطلق رصاصة واحدة ضد السلطة، ولم تشهد شوارعها مقاتلاً واحداً، والجيش عسكر من ليلة الأحداث على أبنيتها، واحتل الكثير من منازلها. ومع ذلك كانت هذه المنطقة السكنية مسرحاً لعمليات الإبادة طيلة يوم الأحد الدامي.

سرايا الدفاع تمركزت بصورة مكثفة داخل شوارع منطقة المحطة، واتخذت من بعض البيوت أماكن إقامة ثابتة لها، بعد أن قتلت أو أمرت أصحابها بالرحيل. وداخل هذه البيوت، عمد الجند من اليوم الأول إلى سرقة كل شيء... وكان الأثاث ينقل أمام أعين الجميع على الشاحنات.. لم يتركوا حتى الملاعق والصحون..

بعد ذلك عمدوا إلى تخريب البيوت من الداخل بشكل مقصود.. كسروا الأبواب والنوافذ، وأشعلوا فيها النار للتدفئة.. لوثوا الجدران ببقايا الطعام.. حولوا الغرف إلى مراحيض، وتركوا داخلها أكوام النفايات والقاذورات.

يقول أولئك الذين عادوا إلى بيوتهم بعد رحيل عناصر السرايا:

«كانت البيوت شيئاً فظيعاً. ماذا كانوا يفعلون فيها –لا ندري– سرقوا كل شيء حتى الصحون والثياب الداخلية.. فضلاً عن الذهب والأثاث والأدوات الكهربائية... لوثوا الجدران بفضلاتهم.. كانت البيوت مزبلة.. كانوا حيوانات».

لكن الأمر –في منطقة المحطة– لو اقتصر على احتلال البيوت ونهبها لهان الأمر. لقد عمد جنود السرايا وبأوامر مباشرة من ضباط الكتائب، ظهر يوم الأحد، إلى جمع أكبر عدد ممكن من الشباب، معظمهم في سن العشرين.. اقتادوهم من البيوت، وأدخلوهم باحة محطة القطارات خلف السكة الحديدية، وطلبوا من أصحاب البيوت المطلة، أن يخرجوا ليتفرجوا على احتفال الموت.. وهناك فتحوا النار على الأجساد الغضة، وسقط الشهداء مضرجين بدمائهم.. وبقيت جثثهم طيلة تلك الليلة تنهشها الكلاب الجائعة المنتشرة في البراري المجاورة.

وفي أحياء أخرى من منطقة المحطة، جمعوا أعداداً أخرى من الشباب. وأعدموهم داخل مدرسة (المرأة العربية).. أو على جدار (مدرسة العميان).. وبعد يومين جاؤوا بالجرافات، ونقلوا الجثث إلى حفرة واسعة.. تقع خلف السكة الحديدية قرب المقبرة.

طيلة يوم الأحد كان الموت يسعى من بيت إلى بيت.. لو استطاعت السلطة لصادرت هواء المدينة.. وكنا نتساءل مشدوهين: هل يعقل أن يصل السلوك البشري في هذا الزمن الحضاري إلى هذا القعر من التوحش والجريمة؟. لكن الموضوع ليس محض جريمة. إنها مؤامرة مدروسة، من أجل أن يكبر نزيف الدم حتى يغطي كل مواطن. إنهم دون شك يذبحون سورية. نعم كانوا يذبحون سورية عبر حماة..

الاثنين الثامن من شباط :

يوم أسود جديد.. نتعقب الإذاعات.. ألم يسمع بموت مدينتنا أحد؟ الإذاعة السورية.. لا تزال على عهدها.. تتحدث عن المواطن في ظل (الثورة).. عن (سوريا الصمود).. عن (الشعب الذي يؤيد السلطة ويلتف حولها).. عن. عن.. يا لهذا الإعلام الفضيحة.. كان صوت المذيع أقسى وقعاً من الموت.

حتى الإذاعات الأخرى لا شيء. لا شيء. صمت عربي مريب وغربي مشبوه، لا يتحدث إلا في اللحظة المناسبة له وحسب علاقته بنظام الحكم السوري.. هذا اليوم - الاثنين- لن يختلف أبداً عن الأيام السابقة - ستستمر حملات الإبادة بشراسة وقوة. وسيكون الموعد.. مع حي الباشورة - حي المرابط- باب القبلي.

حي الباشورة:

وهو حي مرتفع ملاصق لمنطقة (الدباغة).. وكان منذ اللحظات الأولى هدفاً مباشراً للصواريخ تدك معظم بيوته التي تنهار على جثث لا حصر لها.

هذا الحي لم ينج منه إلا القليل.. استطاعوا عبر مساعدة بعض الجنود الهرب إلى أحياء أخرى. وهؤلاء الجنود كانوا يفعلون ذلك خفية، تحت تأثير الدوافع الإنسانية.. لكنهم لم يكونوا كثراً.

ما حصل داخل هذا الحي.. سمعناه من ألسنة الجنود.. يقول بعضهم وهو يضحك:

"قتلنا الجميع في (الباشورة) لم نترك حتى الرضيع، لقد ساعدوا المقاتلين ضد السلطة".

كان الجنود يتحدثون بحرية ولا مبالاة تصل إلى حد الهوس.. يقول بعضهم بكل تبجح ووقاحة: "قتلنا في (الباشورة) مئات الرجال والنساء والأطفال.. وتركنا الجثث للكلاب والقطط".

لكن جنوداً آخرين كانوا يبدون مخاوف وَتحفظات واضحة، ويقولون بما يشبه الإحساس بالعجز إزاء كل ما يحدث: "نحن مأمورون.. يقتلوننا إذا لم ننفذ".

سوق المرابط:

الضباط يمسحون خرائط المدينة.. ويريدون قتلى من بقي من الأحياء.. إنه ربيع الموت يزهر في كل شوارع حماة دون استثناء. واليوم سيحل البلاء على سوق المرابط.. هذا الحي التجاري المكتظ بالبيوت والسكان.. كما سيشهد هذا الحي معركة ضارية بين عناصر سرايا الدفاع وعناصر الوحدات الخاصة.. من أجل الوصول إلى سوق الصاغة واحتلاله، هذا السوق الضيق الذي يقع في منتصف سوق المرابط تماماً..

لأيام خلت استطاع سكان حي المرابط أن يفتدوا أرواحهم بالممتلكات، يقدمونها للجنود، فيتم العفو عنهم.. لكن ذلك لم ينقذ الحي.. وحين وصل التعداد إليه.. خرج رجاله من البيوت الآمنة على أيدي الجند، وكان يصيبهم الضرب والجلد.. ثم الإعدام. وقد بلغ عدد الشهداء من عائلة واحدة في هذا الحي هي عائلة "النوري" أربعين شهيداً.

أما ما تبقى من الرجال في الأحياء المجاورة على قيد الحياة.. فقد جمعوا أرتالاً أرتالاً.. وهددهم الجنود بجعل الدبابات تمشي فوقهم، إذا لم يرددوا الشعارات التي تقدس حافظ أسد وشقيقه رفعت: (لا إله إلا الله حافظ ولي الله...)، (قائدنا من القرداحة.. بيعطي على الله لاحة)، بالعامية ويردد المساكين والجنازير وأعقاب البنادق تنهال على رؤوسهم.

ولا تنتهي المسرحية عند هذا الحد.. يساق الجميع بعد ذلك إلى معتقل المدرسة الصناعية مشياً على الأقدام وعلى طول الطريق عبر شارع العلمين كانت أفواج المعتقلين تهرول أمام الجند حافية تتلقى الضربات بصمت وصبر.. وحين تصل إلى المعتقل.. فإن أحداً لن يستطيع أن يتوقع خروج رجل واحد.. فمعظم المعتقلين كانوا يعدمون على الفور، وتلقى جثثهم في حديقة المستشفى الوطني.

معركة سوق الصاغة:

تستحق هذه المعركة أن نتوقف عندها قليلاً.. إنها تقدم فكرة واضحة عن (الأخلاق الثورية) التي يتمتع بها حراس النظام. عومل سوق الصاغة من بداية الأحداث معاملة

خاصة.. فقد طوّق بحراسة مشددة ويبدو أن الأوامر كانت صريحة إلى الجنود الصغار.. بعدم الاقتراب من المخازن إلا بإشراف الضباط الكبار المسؤولين.

بدأ الصراع حقاً بداية الأحداث بين ضباط الوحدات الخاصة، وضباط سرايا الدفاع حول أحقيّة كل من الطرفين في نهب السوق.. وتطوّر هذا الصراع يوم الاثنين إلى صدام عنيف على مدخل السوق، وقد استخدم الطرفان المتصارعان السلاح الخفيف والثقيل. على أثر ذلك حصلت مداخلات من قبل رجال السلطة، وعلى أعلى المستويات، تقرر بعدها أن يكون سوق الصاغة من نصيب السرايا التابعين مباشرة (لرفعت أسد)، على أن يسمح للوحدات أن تقوم بنفس اليوم بتفتيش منطقة (المدينة)، حيث يسكن معظم الصاغة.. ولابدّ أن يكون هؤلاء قد احتفظوا بشيء من الذهب في بيوتهم، وكانت حجة ضباط السرايا منطقية لأن جنودهم كانوا مشغولين طيلة الأيام الماضية بعمليات الإبادة، وما تسنّى لهم السرقة كما يجب، بينما استغل ذلك جنود الوحدات الخاصة، فسرقوا ونهبوا، وجمعوا الذهب من معظم بيوت المدينة. وفعلاً.. وضع ضباط السرايا أيديهم على سوق الصاغة، وأقاموا لهم مركزاً لتجميع المصوغات في أحد المخازن.

بالطبع جمع الذهب بكامله، وفتحت الصناديق الحديدية بدقة وعناية، وعلى أيدٍ مدربة.. وحين فرغت المخازن تماماً، تركها ضباط السرايا نظيفة إلا من الصندوق الحديدي الفارغ الذي احتفظ به ومعظم الصاغة فيما بعد.. للذكرى.

حي باب القبلي والمدينة والجراجمة:

(باب القبلي) من الأحياء المتطرفة عن المدينة، وهو يشكل مع منطقة الجراجمة حزاماً من الفقر، يحيط بحماة من جهة الجنوب، بيوت هذه الأحياء المتواضعة تؤوي في داخلها لألوف من كادحي هذه المدينة.

تلك الأحياء التي تنتهي عملياً عند (الجامع الكبير) أقدم جامع في سورية، كانت هدفاً (منذ الساعات الأولى) مركّزاً لهجوم الصواريخ، فاحترقت بيوت، وهدمت بيوت..

فقراء هذه الأحياء تعرضوا لكل أشكال القمع.. الضرب والإهانات والمداهمات.. والسرقات والاعتقال..

يوم الاثنين كان الموعد الذي لا ينسى. اصطف الرجال بالعشرات.. على حائط الجامع الكبير ضربهم الجند بأعقاب البنادق.. وقالوا لهم بالحرف: (لن يكون هناك رب

يحميكم.. سنقتلكم الآن)، وعلى باب المسجد الكبير.. سقط الشهداء.. وامتزج التراب المبلل بماء المطر بالدماء الطاهرة.. ظلت الجثث أياماً.. ثم حملت بالجرافات إلى الحفر..

كان عدد شهداء حي باب القبلي فقط أكثر من مئة شهيد.. بينهم الأطفال الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة من العمر..أما منطقة (المدينة) فتقع عند نهاية حي باب القبلي.. وتبدأ اعتباراً من الجامع الكبير باتجاه شارع ابن رشد.. المتصل بحي الدباغة.

تتميز هذه المنطقة بأنها المقر الطبيعي والدائم لسكان المدينة من المسيحيين، ويعرف هذا الحي بجماله لقربه من نهر العاصي، وبالأبنية الفخمة فيه، مع الكنيسة الجديدة التي تقوم في منتصفه.

هذا اليوم كان حي (المدينة) كباقي الأحياء هدماً وسرقات وإعداماً جماعياً، أغار أولاً جنود الوحدات الخاصة على بيوت الصاغة.. ضربوهم وأسالوا الدم من أجسادهم بحثاً عن الذهب.. ثم جمعوا الشباب من الحي.. ووجهوا إليهم الإهانات والشتائم.. واتهموهم بتأييد المعارضة ضد السلطة.. (الحجة التي كانت تتذرع بها السلطة لذبح المدينة)، بعد ذلك اختاروا العناصر الشابة وأعدموهم على الفور. لقد دفعت (حماة) الثمن غالياً من دم رجالها المنتسبين إلى كل الطوائف جزاء وعيها الوطني.

الثلاثاء: التاسع من شباط :

طوال الليل.. لم ينقطع إطلاق الصواريخ.. وكانت أصواتها تخرق الآذان كسكين حادة.. تتوجه عبر الظلام الدامس –وبصورة عشوائية– نحو بيت تعيس سيحترق مع سكانه بعد لحظات. وكنا نتوقع دائماً أن تكون في عداد الأهداف الصاروخية. يطلع الصباح عن يوم لا يقل سواداً عن الليل.

البيوت الحزينة الصامتة، سيكون أمامها اليوم جولات جديدة.. أثناء النهار خف إطلاق الصواريخ على منطقة السوق.. واقتصر على الجانب القديم – منطقة الحاضر.

في هذا اليوم ستقوم السلطة بجمع الجثث من الشوارع الرئيسية، ودفنها على عجل وفعلاً نشطت الجرافات، وانشغل العساكر بجر الجثث.. التي خلفت وراءها الألبسة المثقبة بالرصاص، والأحذية المدماة، وبقايا الشعر البشري الذي ظل ملتصقاً بالأحجار والتراب.

عصر هذا اليوم.. كانت أكثر الجثث داخل الحفر الجماعية.. وأهيل فوقها التراب.. فكان لابد أن يحتفل جنود سرايا الدفاع على طريقتهم.. وبدأ الاحتفال حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر.

على طول الطريق الممتد من مدرسة (المرأة العربية) حتى منطقة البياض (إحدى المناطق الحديثة) كان الجنود يدفعون أمامهم أعداداً غفيرة من الأهالي، معظمهم من النساء والأطفال، مع عدد من الرجال.. وكانت الجموع تردد الهتافات بحياة حافظ أسد وشقيقه رفعت.. ومن لا يرفع حنجرته بالهتاف، تعاجله أعقاب البنادق والهراوات. طلب الجنود من النسوة (وهم يقهقهون) الرقص.. ومن لا تفعل فستنال جزاءها برصاصات سريعة.

رقصت النسوة وهن يبكين.. وسط ضحكات عناصر الأخوين: أسد.. كان الرجال قد حنوا رؤوسهم إلى الأرض.. لم يستطع أحدهم أن يرى المشهد..كان الموت في تلك اللحظات أهون مما يجري أمامهم.

الأربعاء: العاشر من شباط :

هدأ إطلاق الصواريخ هذا الصباح، واقتصر الأمر على الرصاص الذي كان ينهمر بلا سبب واضح بين دقيقة وأخرى. منطقة السوق ستكون اليوم أهدأ من أي يوم سابق، أما الحي القديم من المدينة، فلا يزال داخل جهنم، ولا تزال الصواريخ تدك ما تبقى من بيوت.. لقد بدا واضحاً أن الأحياء المتقدمة من الجانب القديم للمدينة، قد أصبحت تلالاً من الركام المختلط بمئات الجثث من المواطنين الأبرياء... أحياء: البارودية –الشمالية- الزنبقي... صارت أثراً من الأطلال...ووجه المدينة الجغرافي والسكاني يتغير.. والحقد على حماة إلى مالا نهاية. هذا اليوم – وفي بعض الشوارع الرئيسة – من منطقة السوق يستطيع بعض المحاصرين الخروج إلى مسافات محدودة.. لقد سمح الجنود لسكان بعض الأحياء بالتجول، يندفع الأهالي مباشرة إلى أماكن الإعدام الجماعي، لكنهم لا يجدون شيئاً.. يقلبون الأحذية.. والألبسة المثقبة.. ومن خلالها يتعرفون على بعض أهليهم. كانت الدماء بقعاً واسعة لم يستطع المطر الهاطل منذ يومين أن يمحو بعض آثارها. كان مشهد المدينة فظيعاً.. وخرافياً.. لا يُتصور إلا في الأحلام والكوابيس. حماة في اليوم الثامن للمجزرة.. ليس فيها سوى الدمار والدم وسارقي الحياة.

الخميس: الحادي عشر من شباط:

بعد تسعة أيام من الحصار والموت والجوع، يصبح الخوف في نفوس الأهالي الصابرين لا مبرر له. لقد ألفوا الموت وألفهم.. لذلك يخرجون من البيوت.. نساء وأطفالاً يمشون في الشوارع، لا يصدقون ما تراه عيونهم..

الجنود ينظرون إلى الأهالي.. بلا مبالاة.. بل كانوا يشجعون البعض على الذهاب إلى الأسواق لرؤية الدمار الحقيقي.. كانوا لا يخفون حماسهم لهذا الإنجاز الرائع (المدينة المدمرة) الصورة الأكثر تعبيراً عن حضارة (النظام الطائفي الأسدي)..كان مشهد المدينة المذبوحة أقسى من كل مشاهد الموت الجماعي.. الأسواق ركام من الأخشاب والأحجار والحديد.. مع فتحات سوداء كانت تعرف فيما مضى بالدكاكين..منظر سوق الطويل يبعث على القشعريرة.. نفق مظلم دون نهاية، داخله أكوام من الحجارة السوداء المحترقة، تعلوها بقايا البضائع المرمية في كل اتجاه..

حماة في يومها الحادي عشر لا تختلف عن صور المدن القديمة البائدة التي كان يتركها الغزاة وراءهم أثراً بعد عين. كأن زلزالاً قد هزّها بقوّة، فقلب عاليها على سافلها.. أو كأن يداً شيطانية آثمة عصرت قلب المدينة عصراً.. فانهار كل شيء على كل شيء..وبعد اليوم الحادي عشر، يستطيع الأهالي، وخلال ساعات محددة، التجول لتأمين الحد الأدنى من مستلزمات الحياة.. التي كانت تفد على المدينة من القرى.. سيارات الخبز والخضار.. مشهد الأهالي الصامتين الباقين على قيد الحياة.. كان يعبر عن عمق المأساة الآنية والقادمة.. بعد فقدان كل شيء..

الثاني عشر من شباط:

هذا اليوم وما تلاه من أيام المحنة.. لم يكن أخف وطأة، بالرغم من رفع الحصار النسبي عن بعض الشوارع، فقد بدأت ترد القصص تباعاً على ألسنة الناس، وكان كل ما سمعناه سابقاً، على هوله، لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة. بعض القصص لا تستطيع الطاقة البشرية احتمال تفاصيله، وبدأنا برحلة تقصي حقائق جديدة.. وسمعنا للمرة الأولى بمجزرة العميان.. بمجزرة الأطفال، بمجزرة مفتي المدينة وشيوخها، بمجزرة النساء في الحمامات القديمة، بجرائم المستشفى الوطني، بحكايا المعتقلات مع عشرات القصص المروعة التي يقف دونها العقل البشري ذاهلاً مشدوهاً وعاجزاً عن التصور والفهم، ناهيك عن المنطقة القديمة التي لا تزال جحيماً يشتعل.. وجثثاً تقذف تحت الركام والرماد..

مأساة الحي القديم لا يمكن حصرها ولا رصد صورها، لأن شهودها يقبعون اليوم في الحفر الجماعية، أو تحت مياه نهر العاصي، ومع ذلك، تسربت فيما بعد، بعض الحكايا التي تعبر عن جانب يسير من مأساة الحي القديم لا نستطيع سردها لكثرتها وتداخلها حيث

يشكل كل إنسان هنالك مأساة متكاملة. ننتهي من يوميات الحزن، لنعرج على تفصيلات بعض المجازر.

مجزرة العميان:

في منطقة المحطة مدرسة للمكفوفين.. تعلّم القرآن واللغة العربية.. ويقوم على التدريس فيها شيوخ عميان مقيمون.. أثناء الأحداث داهم جنود سرايا الدفاع المدرسة.. لم يجدوا في داخلها سوى الشيوخ.. ومعظمهم ناهز الستين من العمر.. وبعضهم متزوج وعنده عدد من الأولاد. لنستمع إلى التفاصيل. يبدأ الجنود بضرب الشيوخ بالجنازير.. فتسيل الدماء من رؤوسهم وأيديهم.. يتوسل المكفوفون.. لكن الجنود لن يتوقفوا عن الضرب إلا بشروط.. ما هي الشروط؟ يطلبون من الشيوخ العميان أن يرقصوا.. يبكي هؤلاء.. لكن العساكر يشعلون قطعة من الخشب ويضعونها على لحى المكفوفين.. ويحترق الشعر الأشيب في الوجوه الطاهرة، ويهدد الجنود من جديد - إما الرقص وإما الموت حرقاً.. فيرقص الشيوخ الغميان.. والجنود يضحكون.. وحين تنتهي المسرحية.. يتقدم الجنود بكل بساطة، ويشعلون النار في ثياب المكفوفين، ثم يطلقون الرصاص، ويتلوى الشهداء، ويسقطون صرعى، لكن جثثهم تتابع الاحتراق.

من شهداء هذه المجزرة الشيخ شكيب، وهو كفيف ناهز الستين من عمره، والشيخ أديب كيزاوي وعنده تسعة من الأطفال، والشيخ أحمد الشامية مقرئ القرآن الضرير.

مجزرة المفتي والعلماء:

أما علماء الدين فقد تبعوهم إلى بيوتهم، واقتادوهم واحداً بعد الآخر. بدؤوا أولاً بمفتي حماة الشيخ بشير المراد، ويقع بيته في منطقة باب البلد.. ذهب الجنود إليه، وأخرجوه من داره مع مجموعة من أقربائه.. وأخذوا يضربونه.. ويعفرون لحيته بالتراب.. وقاموا بسحبه على الأرض، ثم أحرقوه وهو حي.. (ذهب من هذه العائلة تسعة شهداء كلهم من علماء الدين).

- أما الشيخ منير حوراني، فقد اقتادوه مع ولديه.. وأعدموهم جميعاً، وكانوا قد أعدموا ابنه الشهيد رائد الحوراني قبل سنوات.

- الشيخ عبد الله الحلاق: اقتادوه من أحد الملاجئ وكان مع مجموعة من أهل الحي.. طلب منه الجنود ساخرين أن يتلو القرآن، عسى أن يجد الله له مخرجاً! أطرق الشيخ الجليل الشجاع، وقرأ بعض آيات القرآن الكريم.. لكن الضابط المسؤول سخر وقال له:

"إن ربك لن ينجدك، لقد حانت ساعتك، وسنضعك في جهنم" اقتادوه إلى سوق الحدادين، وسكبوا عليه برميل المازوت، وأحرقوه.. نعم.. أحرقوا هذا الشيخ الوطني الجليل ابن الثمانين عاماً دون أن يتحرك فيهم عصب، أو يرفّ لهم جفن.

الشيخ عبد الرحمن الخليل: وهو عالم ضرير.. ناهز الثمانين من العمر. عرف منذ شبابه بمواقفه النضالية ضد كل أشكال التسلط السياسي والاجتماعي. هذا الشيخ الفاني يسكن في حي الحاضر، وقد احترق منزله أثناء القصف الصاروخي.. يقول شهود العيان من جيرانه الذين أخذوا بالهرب حين بدأت البيوت كلها تشتعل: إنه أخذ يستنجد ويطلب من الجنود الذين حوله أن يساعدوه على الخروج.. لكنهم ألقوا على المنزل قنبلة حارقة، فتهاوى البيت كلياً.. واحترق الشيخ داخله. نترك هذه الأحداث دون تعليق.. فالكلمات واللغة عاجزة عن الوصول إلى التعبير المناسب.

مجزرة الأطفال:

في نهاية شارع الثامن من آذار، حيث يقوم تقاطع مع سوق الطويل، يقع مسجد يسمى (الجامع الجديد) في داخله وقعت مجزرة رهيبة بعد أربعة عشر يوماً من الأحداث.. وكان الناس قد بدؤوا يخرجون قليلاً إلى الشوارع. طلب الجنود من الأهالي التوجه نحو سيارات الخبز في طرف الشارع.. أسرع الأطفال،وكانوا بالعشرات، حملوا الخبز وقفلوا عائدين.. اعترضهم الجنود..وطلبوا إليهم الدخول إلى الجامع الجديد، وهناك فتحوا عليهم النار.. وسقطت الأجساد الطرية، وسالت الدماء الطاهرة على الخبز الذي كان في الأيدي الصغيرة.

مجزرة النساء في الحمامات القديمة:

القصص هناك لا تصدق.. يرويها الناس بجنون وذهول.. كان الجنود يدخلون إلى الملاجئ، وينتقون الفتيات الصغيرات، ولا يعرف الأهل بعد ذلك عنهن شيئاً... في حمام الأسعدية الكائن في منتصف سوق الطويل، وجدت جثث كثيرة لفتيات معتدى عليهن ومقتولات.

مجازر المستشفى الوطني:

وهذه المجازر فاقت الوصف والتصور.. داخل المستشفى كانت واحدة من فرق الموت التابعة لسرايا الدفاع، قد تمركزت بصورة دائمة طوال الأحداث، وكان عملها أن تجهز على الجرحى من الأهالي. يقول شهود العيان: كان الوضع في داخل المستشفى

رهيباً فظيعاً، القتلى بالعشرات يملأون الممرات والحديقة الخارجية.. وفي بعض الأماكن تكدست الجثث فوق بعضها، وبدأت تفوح منها روائح الأجساد الميتة المتفسخة.. معظم هؤلاء القتلى من الذين كان يرسلهم المعتقل الملاصق للمستشفى في المدرسة الصناعية.. حيث يموت كل يوم العشرات... أكثر الجثث كانت مشوهة أو مقطعة أو مهروسة أحياناً، وكان من الصعب التعرف على أي واحدة منها. تجمع كل يوم أكوام الجثث في سيارات النفايات، وتنقلها الشاحنات إلى الحفر الجماعية.

أحياناً كان يفد إلى المستشفى بعض الجرحى.. هؤلاء كانوا لا ينتظرون طويلاً.. فإن فرقة الموت تباشر عملها بهمة ونشاط.. وبالسكاكين والسواطير تعمد إلى تقطيع الجسد الجريح.

في إحدى المرات.. قتلوا جريحاً.. وأخرج أحد الجنود قلبه.. هذه القصة ليست خرافية.. والشهيد الذي أخرجوا قلبه يدعى (سمير قنوت) من حي الحاضر... قصص المستشفى الوطني كثيرة جداً.. حيث تحول هذا المكان إلى مسلخ بشري لا مثيل له في التاريخ القديم والمعاصر.

جرائم المعتقلات:

الهمجية الجديدة تتفوق على الهمجية القديمة في فن الاعتقال والتعذيب حتى الموت حرقاً أو جوعاً أو تقطيعاً بالسواطير والسكاكين...المعتقلات في حماة أثناء الأحداث كثيرة متعددة، لكن أشهرها معتقل المدرسة الصناعية.. هذا المعتقل حشدت السلطة في داخله الآلاف.. وتكدست الأجساد البشرية المنهكة داخل الغرف الواسعة الباردة.

كان المعتقلون يظلون أياماً بلا طعام.. يدخل عليهم الجنود بعد يومين.. بشيء من الماء والخبز اليابس.. وينثرون ذلك أمامهم كما تطعم الكلاب والقطط...ويخضع المعتقلون إلى عمليات تحقيق يتخللها تعذيب وحشي على أيدي الجنود والضباط.. وغالباً ما تنتهي هذه التحقيقات بالسجناء، وقد تحول معظمهم إلى جثث مشوهة ومضروبة بالسكاكين أو البلطات، وبعضهم هرست رؤوسهم بملزمة الحدادين هرساً...بعض السجناء كان يحاول الانتحار تخلصاً من العذاب النفسي والجسدي الطويل.. وبعض السجناء كان يطلب من الجنود أن ينفذوا حكم الإعدام فيه على الفور، وسريعاً ما يلبون الطلب... قصص لا تصدق يرويها بعض الناجين من المعتقلات عن صورة جهنم نظام أسد القابعة في المدرسة الصناعية.

– في معتقلات أخرى كانت الأمور أدهى.. ففي معمل البورسلان وتحت إمرة الجيش مباشرة اقتاد الجنود الآلاف من الرجال.. تركوهم في العراء وتحت المطر والبرد بلا طعام.. وكالعادة كانت التحقيقات تنتهي بجثث جديدة.. لا تقذف هذه المرة في حديقة المستشفى الوطني.. بل تتلقفها الأفران ذات الحرارة المرتفعة جداً في معمل البورسلان، داخلها أُحرقت مئات الجثث.. وهكذا يتكشف علم الجريمة عن آخر منجزات الحضارة (الأسدية). ومن معتقل البورسلان نقدم صورة واحدة معبرة (مصرع الدكتور حكمت الخاني) وقد تم على يد الجنود وأمام مجموع المعتقلين... كان الجنود قد جمعوا المعتقلين أرتالاً.. وبدؤوا يسألون عن بعض الأسماء.. وكان الطبيب الشهيد مع السجناء... عرف الجند أن من بين معتقليهم رجلاً طبيباً، وهذه صفة يجب أن تأخذ حقها من العقاب في عرف السلطة الغاشمة.

سحب الجنود الدكتور الخاني ورموه أرضاً.. وبدؤوا بضربه وركله.. يقول أحد المعتقلين: فجأة رأيت الدكتور الخاني يتدحرج كالكرة على الأرض، وتنفر الدماء من رأسه. تقدم الجلادون بعد ذلك وبدؤوا بضربه بالبلطات وهو يتلوى، ثم صاح أحدهم: أنت طبيب عيون.. سنقتلع عينيك.. وفعلاً.. تم اقتلاع عيني الدكتور على مرأى من المعتقلين وبقايا الحياة لا تزال تسري في جسده ثم سحبت الجثة ورميت يومين على باب المستشفى الوطني. هذه عينة واحدة من جرائم المعتقلات وهي غنية عن التعليق.

بعد ذلك، هل اكتفت السلطة؟.. لنلق أولاً نظرة على واقع المدينة بعد أسابيع ثلاثة من بداية المجزرة، حتى العشرين من شباط كانت التقديرات الأولية على النحو التالي:

عدد القتلى يقارب الثلاثين ألفاً.. نسبة الخراب الكامل حيث تحولت الأحياء إلى ساحات ترابية بلغت ٤٠% من مساحة المدينة... الحياة الاقتصادية معدومة كلياً بعد التخريب الكامل لجميع الأسواق ونهبها وحرقها فضلاً عن استشهاد أو اختفاء العدد الأكبر من التجار أصحاب المحلات التجارية... الوضع السكاني رهيب.. وتدل الإحصاءات أن الفاجعة كانت من الشمول بحيث لم تبق عائلة واحدة في المدينة لم تفقد بعض رجالها أو كلهم أحياناً..

ماذا يريد مصاصو الدماء أكثر من ذلك؟.. سنترك الإجابة لأحد كبارهم الذي لم ترو دماء الثلاثين ألفاً عطشه.

الثاني والعشرين من شباط :

حدثت الواقعة التالية، وهي باتت معروفة للجميع يتناقلها الجنود والأهالي على السواء.. يزور رفعت أسد المدينة ويحوم فوقها بطائرة هيلوكبتر، حتى يتأكد بنفسه من حجم الدمار.. بعد ذلك يعقد اجتماعاً في المطار مع كبار ضباط سرايا الدفاع، ويسألهم عن التقديرات الأولية لعدد القتلى. يقولون: عشرين ألفاً، لكن الجلاد لا تسره الإجابة فيقول: هذا الرقم قليل بالقياس إلى تعداد سكان المدينة البالغ أكثر من مئتي ألف.. يجب أن يرتفع الرقم.. يجيب أحد الضباط: لقد اعتقلنا معظم الرجال الباقين، واحتجزناهم في المعتقلات، لكن عدداً لا بأس به من أبناء المدينة، استطاع الهرب أثناء الأحداث باتجاه القرى.

هنا يطلب (رفعت أسد) بالتحديد أن يوعز الجيش المتواجد في حماة إلى السكان أن الأمور قد انتهت عند هذا الحد، وأن منع التجول سيرفع عن المدينة اعتباراً من نهاية الأسبوع.. وفعلاً بدأت في اليوم التالي (تحديداً في الثالث والعشرين من شباط مساء الثلاثاء)، سيارات الجيش تذيع بمكبرات الصوت انتهاء منع التجول اعتباراً من صباح الأربعاء (الرابع والعشرين من شباط) شاع الخبر بسرعة، وعاد عدد كبير من المهاجرين إلى حماة مساء يوم الخميس (الخامس والعشرين من شباط) إلى بيوتهم وممتلكاتهم.. وكانت الواقعة الرهيبة يوم الجمعة السادس والعشرين من شباط.

مجزرة السادس والعشرين من شباط (الجمعة الحزينة):

منذ الصباح تهدر شاحنات الجيش على الطرقات وتظهر حركة غير عادية من تنقلات الجنود الذين انسحبوا وتمركزوا في معظم الأبنية المرتفعة. بعض الناس ممن وفرتهم المجزرة كانوا في الشوارع أو على أبواب البيوت.. وكان الجميع يتناقلون الأخبار بذهول. في أزقة جانبية تكاثر تجمع الأهالي أطفالاً ونساء وعدداً من الرجال الناجين، وهذا طبيعي بعد السماح بالتجول وبعد حصار دام أسابيع ثلاثة. يبدأ عمل الأهالي ويقودون ما تيسر منهم شيوخاً وأطفالاً ورجالاً خرجوا لتوّهم من المعتقلات، وحين لا يكون العدد وفيراً يقرعون الأبواب (دون تمييز) ويطلبون المزيد ولم يأت عصر هذا اليوم إلا والشاحنات قد امتلأت بما يقارب الثلاثة آلاف من المعتقلين بينهم رجال شيوخ تجاوز بعضهم الثمانين عاماً.. وكان ظن الجميع أن العملية وقائية لامتصاص ردات الفعل على إثر فتح التجول.. لكن الشاحنات توجهت إلى مقابر (سريحين) وداخل عشرات الحفر

المتسعة أُجبر المعتقلون على الركوع وانهمر عليهم الجحيم والموت دفعة واحدة من رصاص المئات من جنود سرايا الدفاع المدربين جيداً على معالجة حالات كهذه، وانتهى يوم السادس والعشرين من شباط الأسود وقد ارتفع عدد الشهداء في المدينة إلى ما يقارب الخمسة والعشرين ألفاً من الشهداء، لم ينج من المذبحة سوى رجل واحد. حين انهالت الجثث عليه.. انتظر هبوط الظلام وغادر المقبرة عبر البساتين والقرى وكان هو الشاهد الوحيد الباقي على قيد الحياة الذي روى حقيقة المذبحة على النحو الذي وصفناه آنفاً.

من شهداء هذه المذبحة: عبد الرحمن نعيمي.. وهو شاعر وله قصائد متعددة في مديح حافظ أسد لم تنفعه يوم المذبحة. المحامي تايه جمعة وهو من الأعضاء البارزين في الحزب الشيوعي التابع لخالد بكداش. المواطن (عيسى عرجة) مسيحي ويبلغ الثمانين من العمر. (منقذ ريس) وعمره أحد عشر عاماً.

بعد شباط :

وينتهي شباط.. لكن السلطة لم تنته بعد.. وطوال شهر آذار يمتد العقاب ليتناول هذه المرة حجارة المدينة وقبورها وآثارها وجوامعها وكنائسها.. وهكذا يرتدي الحقد الطائفي ثوباً جديداً. محمد ياسمين واحد من أبرز ضباط سرايا الدفاع عينته السلطة خلال آذار حاكماً عرفياً على المدينة، لكن المساجد بمآذنها تحرك أحقاد الوالغين بالدم.. ويصدر ياسمين أوامره.. يجب أن تهدم كل الجوامع.. وتبدأ المعركة مع الحجارة.. في كل يوم تتكفل أطنان من الديناميت بقتل المقدسات والتراث والتاريخ.. بدؤوا بالجامع الكبير وعمره آلاف السنين.. ظلوا يومين يعملون حتى استطاعوا تقويض أركانه.. جامع السلطان لم يستطيعوا هدمه كلياً، فضربوا المئذنة والسقوف واتكأت الحجارة البيضاء الحزينة على بعضها وانتثرت المصاحف بينها واختلطت الأوراق المقدسة بالركام، وعلى مدى أسبوع كانت مساجد المدينة تلالاً من الحجارة والإسمنت والتراب، لكن الحقد مازال يشتعل في الصدور وسيمتد إلى الكنائس.. سرقت الأيقونات المقدسة والثريات والتحف منها أولاً.. ثم جاء دور التدمير. تحولت الكنائس إلى خراب ودمار...الأبنية القديمة في حي الكيلانية الأثري.. وفي منطقة الحاضر.. تحولت بفعل التلغيم والتفجير إلى فجوات ترابية هائلة.

سوق الطويل بعد حرقه قاموا بهدمه كلياً.. وأصبح اليوم نفقاً طويلاً من الحجارة والركام والجدران المهشمة المتداعية، حتى المقابر نالت نصيبها من الحقد الطائفي، وعلى

مدى أسبوع تكفلت الجرافات والمداحل بتسويتها مع الأرض.. وهكذا استوى في المدينة الشهيدة الأحياء والأموات.

مجزرة حماة.. لماذا؟

الآن وبعد أن رأينا ما حلّ بهذه المدينة المغدورة من فظائع وأهوال، ينتصب السؤال: مجزرة حماة.. لماذا؟ لماذا سوريا، ولماذا حماة بالذات؟...إن الجواب على هذا التساؤل يكشف كل أبعاد الحقيقة. لنترك النظام أولاً يقدم إجابته.. لنترك المجرم يبرر للآخرين جريمته: في رواية لمجلة الطليعة الصادرة في باريس نقلاً عن مسؤول سوري رسمي "أن حوالي ٢٠٠ مسلح نزلوا في ليل الثاني من شباط (فبراير) عام ١٩٨٢ واحتلوا المدينة وصفوا حوالي ٩٠ شخصاً من أتباع النظام، وسيطروا على المراكز الهامة، وأعلنوا العصيان المسلح، عند ذلك اضطرت السلطة السورية لاتخاذ القرار (بتنظيف) المدينة منهم، وإعادة الأمن إلى المدينة".

انتهت الرواية الرسمية السورية، من فمك ندينك! إن النظام الأسدي بعرضه للمسألة بهذه الطريقة يدين نفسه: إذا كان مئتا شخص قد تمردوا على السلطة، فلماذا قتلت الدولة ثلاثين ألف إنسان؟ ولماذا هدمت أكثر من ثلث المدينة؟..لنفترض جدلاً أن مئتي مسلح في مدينة تعدادها ربع مليون، أعلنوا عصياناً مسلحاً، فهل يحق للحاكم أن يدمر المدينة بأهلها من النساء والأطفال، أي أن يحمّل "ربع مليون إنسان" مسؤولية مئتين فقط!؟

- ألم يكن بالإمكان أي حل آخر؟ غير قصف المدينة بالطيران ورجمها بالصواريخ؟!

- أي حاكم في الدنيا مجنون ينتفض ضده مئتا إنسان، فبدل أن يلاحقهم أو يحاكمهم أو يفاوضهم، يضرب المدينة التي هم منها بالصواريخ والمدفعية والدبابات، فيقتل الأطفال والنساء والشيوخ والمدنيين الآمنين، ويهدم المنازل على رؤوس أصحابها؟ وتكون النتيجة ثلاثين ألف إنسان ما بين قتيل و..

ملحوظة: في حرب حماة لم يكن هنالك جرحى، لأن قوات أسد كانت تلاحق الجرحى حتى المستشفيات وتجهز عليهم. (يجب أن نثمن معاً هذا الوجه الحضاري الجديد!!!). مرة أخرى نعود إلى سؤالنا الحار والمدهش: لماذا؟

لقد أراد النظام على ما يبدو أن يعطي درساً بليغاً لكل المدن السورية لكي تتذكر دائماً وأبداً أنها إذا ما فكرت يوماً بأي تحرك ضد النظام فستلقى نفس المصير. ومع هذا وذاك يبقى التساؤل المرير: لماذا؟ معلقاً يلح في طلب الجواب.

من أجل ذلك لابد من وضع مأساة حماة في سياقها السياسي والتاريخي، لابد من الإمساك بالبعد التاريخي -أجل- لأن الحدث لم يخلق من فراغ، ولم يهبط فجأة من سابع سماء، وإنما سبقته أحداث متصلة ببعضها البعض.. والحاضر الدامي هذا هو من نتائج الماضي وعصارته.. هذا الماضي لا يمضي أبداً، بل يستمر فينا وفي دورة الحياة.. يلقي بظله الكثيف على الحاضر ليصوغ معه آفاق المستقبل.

أما منظمة العفو الدولية فقد ذكرت في تقريرها الذي أرسلته إلى حافظ أسد عام ١٩٨٣:

"تقول الأنباء التي تلقتها منظمة العفو الدولية - وقد حملت الصحف بعض تلك الأنباء- أنه في يوم ٢ شباط (فبراير) ١٩٨٢ بعد الغروب بقليل حاول بعض الجنود السوريين النظاميين مهاجمة أحد البيوت في المنطقة الغربية القديمة من مدينة حماة، وحاصرت قوة عددها ٩٠ جندياً على رأسهم ضابط (ملازم) بيتاً يشتبه أنه يحتوي على مستودع كبير للأسلحة، يمتلكه الإخوان المسلمون، وعند بدء الهجوم تمكن المقاومون المسلمون من التربص للجنود والقبض عليهم أو قتلهم بعد معركة دارت بينهم، ثم نزعوا عنهم ملابسهم العسكرية، وتحصّن الثوار على أسطح المنازل والأبراج.

فما كان من الحكومة إلا أن طوقت المدينة، وأرسلت عدداً من الجنود يتراوح بين ستة آلاف وثمانية آلاف جندي بينهم وحدات من اللواء ٢١ الخاصة. وفي يوم ١١ شباط (فبراير) عرض التلفزيون السوري فيلماً يمثل مستودع الأسلحة التي قيل إنها وجدت في حماة، منها ٥٠٠ بندقية أمريكية و٤٠ قاذفة صواريخ تحمل على الأكتاف مع صواريخ تخترق الفولاذ، وكذلك ترسانة ضخمة للسلاح والذخيرة.

ويقول بعض المراقبين: إن الأحياء القديمة من المدينة ضربت بالقنابل من الجو لتسهيل دخول القوات العسكرية والدبابات خلال الطرقات الضيقة، مثل حي (الحاضر) الذي محقت الدبابات بيوته خلال الأيام الأربعة الأولى من القتال، وفي ١٥ شباط (فبراير) بعد عدة أيام من قذف القنابل الشديد أعلن وزير الدفاع السوري اللواء مصطفى طلاس أن الفتنة قد أخمدت، غير أن المدينة بقيت محاصرة ومعزولة، واستمر التفتيش والاعتقال على نطاق واسع خلال الأسبوعين التاليين، وانتشرت أخبار متضاربة عن الفظائع التي ارتكبتها قوات الأمن، وقتل السكان الأبرياء بالجملة، وليس من السهل معرفة ما حدث على وجه التحديد، غير أن منظمة العفو الدولية قد سمعت عن إعدام جماعي لسبعين

شخصاً خارج المستشفى المدني يوم ١٩ شباط (فبراير) وأن سكان (الحاضر) لقوا حتفهم على أيدي سرايا الدفاع في نفس اليوم، وأن أوعية معبأة بغاز السيانيد قد ربطت بأنابيب من المطاط في مداخل المباني التي يظن أنها مساكن المتمردين. ثم فتحت فيها وقضت على جميع سكانها، وأن الناس جمعوا في المطار الحربي وملعب المدينة وفي الثكنات العسكرية وتركوا في العراء أياماً بدون مأوى ولا طعام.

إن أحداث القتل والإعدام المجاوزة للقانون التي أوردناها هنا هي مخالفة خطيرة للحق في الحياة، ذلك الحق المقدس الذي نص عليه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية (المادة ١٦):

"لكل إنسان الحق الطبيعي في الحياة، ويحمي القانون هذا الحق، ولا يجوز حرمان أي فرد من حياته بشكل تعسفي". (انتهى التقرير الدولي وكل ما سبق عن مجزرة حماة من تقرير منظمة العفو الدولية ومن تقرير رقيب الشرق الأوسط). وسأعود إلى مأساة حماة مرة أخرى من أفواه بضعة أفراد من المقاتلين الناجين منها كما سنرى...

ولا نريد إلا أن يقدم هؤلاء المجرمون الذين ارتكبوا هذه المجزرة إلى قضاء عادل، في الدنيا، كي يعتبر البشر... وفي الآخرة سيقدمون إلى أحكم الحاكمين... ومصيرهم جهنم وبئس المصير...

٢- مجزرة تدمر الكبرى في حزيران (١٩٨٠م)

في هذا الموضوع سأنقل (نسخ ولصق) مع مراجعة لغوية فقط، من تقرير منظمة رقيب الشرق الأوسط، ومن تقرير منظمة العفو الدولية، فأنا أنقل لكم، لعلكم لم تقرأوا هذين التقريرين... ولعل كل باحث عن الحقيقة يرجع لهما في توثيق كتاباته عن سوريا. وأقصد من ذلك أن أكون في كامل الموضوعية، فأنا ناقل عن مؤسسات إنسانية عالمية، ليست من أحد الأطراف المتنازعة في سوريا.

يقول تقرير منظمة رقيب الشرق الأوسط لعام (١٩٩٠):

في السادس والعشرين من حزيران كاد عدد من أفراد الحرس الرئاسي ينجحون في اغتيال أسد الذي هرب متأثراً بجرح بسيط في يده جراء قنبلة يدوية. حمّل رفعت أسد الإخوان المسلمين مسؤولية هذا العمل ومن توّه خطط لعمل انتقامي من نزلاء سجن تدمر العسكري حيث الكثير من الإسلاميين محتجزون فيه في ذلك الوقت.

في الساعة الثالثة من فجر السابع والعشرين من الشهر المذكور، أرسل مغاوير سرايا الدفاع، الذين جيء بهم من ثكناتهم في دمشق يتزعمهم معين ناصيف صهر رفعت أسد، إلى مطار المزة العسكري حيث التحق بهم مغاوير من لواء أمن علي ديب ذي الرقم (١٣٨). قطع مائتان من الجنود بطائرات الهيلوكبتر مسافة (٢٥٠) ميلاً ليطأوا أرضاً في منطقة بالقرب من سجن تدمر وسط الصحراء. كان ثمانون من هؤلاء الجنود المدججين بالسلاح قد تلقوا أمراً بدخول السجن. لقد روى أحد الجنود العلويين من اللاذقية ما حدث بعد ذلك داخل السجن وكما يأتي:

"وصلت حاملة (دودج) لتقلّنا إلى السجن حيث تم توزيعنا على سبع حضائر. كان معي في حضيرتي أحد عشر جندياً تقريباً بإمرة الملازم منير درويش.. فتحوا لنا باب زنزانة سجناء جماعية، اقتحم ستة أو سبعة جنود من صفوفنا الزنزانة وقتلنا كل من كان فيها كان عددهم (٦٠) شخصاً أو (٧٠)، بالنسبة إليّ، فأنا أحمل بندقية سريعة الإطلاقات، وقد قتلت برصاص سلاحي (١٥) شخصاً أو ما يقرب من ذلك أما مجموع من كان علينا قتلهم فقد أقدره بحدود (٥٥٠) شخصاً من الإخوان المسلمين القذرين. مات أحد أفراد سرايا الدفاع وجرح اثنان منهم فقط، بعد ذلك غادرنا السجن، ذهب الملازم رائف عبد الله ليغسل يديه ورجليه من آثار الدماء التي غطتها، لم تستغرق العملية أكثر من نصف ساعة، كانت حالتنا النفسية أشدّ ما تكون رعباً، كانت أصوات انفجارات القنابل اليدوية تمتزج مع صيحات "الله أكبر" وأخيراً، غادرنا عائدين بطائرات الهيلوكبتر، وفي المزة رحب بنا الرائد ناصيف وشكرنا على حسن أدائنا". إن الدليل الأخير في الواقع، يوحي تماماً بموت مالا يقل عن (ألف) سجين في ذلك اليوم.

(حاشية في التقرير) : الرقم الإجمالي المقبول عن عدد القتلى في مجزرة تدمر هو (٦٠٠) شخص ونحن نميل بأخذ تقرير ميشيل سيرو بعين الجد إذ أفاد بتحليل قام به أحد أفراد أجهزة الأمن بأن الرقم يشمل(١١٨١) ضحية. [سيرو (الدولة والبريد) ص ٩١.]

ويستمر التقرير : رفعت الأسد يقول:

في الأول من تموز نشرت جريدة "تشرين" افتتاحية وقعها رفعت أسد قال فيها: "إذا كان من الضروري.. فإننا مستعدون للاشتباك في مائة معركة ونحطم ألف قلعة محصنة، ونضحي بمليون شهيد لاستعادة السلام والحب، وقدسية الوطن وشرف المواطن".

مجلس الشعب يقر قانون (٤٩): ويتابع التقرير: وفي السابع من تموز (أي بعد مجزرة تدمر بعشرة أيام، ليبرر لسرايا الدفاع جريمتها)؛ أقر مجلس الشعب قانوناً برقم (٤٩) معتبراً العضوية في حركة الإخوان المسلمين - عملاً خارجاً عن القانون تماماً وجعل عقوبتها تصل إلى الموت، لذلك منح القانون أعضاء الإخوان المسلمين مهلة خمسين يوماً لمراجعة أنفسهم على هذا الأساس وتجنب تنفيذ القانون بصورة حاسمة ضدهم.

وجاء كذلك في تقرير منظمة العفو الدولية:

ذكرت منظمة العفو الدولية في العدد (٩) المجلد ١٠ الصادر في أيلول سنة ١٩٨٠: (سورية: مذبحة في سجن تدمر الصحراوي.. أنباء عن مئات القتلى).

أفادت الأنباء بأن مئات المساجين في سجن الصحراء في تدمر في سورية قد قتلوا في ٢٧ حزيران ١٩٨٠ واستناداً إلى التقارير العديدة التي تسلمتها منظمة العفو الدولية، فإن التقديرات لعدد المساجين الذين قتلوا تختلف من ٣٠٠ إلى ١٠٠٠ معتقل. وطلبت منظمة العفو الدولية إلى الرئيس حافظ أسد أن يؤلف لجنة للتحقيق عن مذبحة سجن تدمر، ويعلن عن نتائج ما توصلت إليه اللجنة).

ورغم ستار الكتمان الكثيف الذي فرضته السلطات الحاكمة على هذه الجزرة المروعة، فقد أرسلت السلطات السورية مجموعة من المسلحين لاغتيال رئيس وزراء الأردن السيد مضر بدران وقد تم إلقاء القبض على أفراد هذه المجموعة، وأثناء التحقيق تبيّن أن عنصرين من هذه المجموعة كانا قد اشتركا في مذبحة سجن تدمر الصحراوي، واعترفا بتفاصيل الجريمة، ولأول مرة، يعرف العالم التفاصيل الدقيقة لتنفيذ هذه الجريمة. وقد نشرت جريدة الرأي الأردنية تفاصيل الجريمة كما وردت على لسان العنصرين اللذين اشتركا فيها، وهما عيسى إبراهيم الفياض، وأكرم البيشاني. وقد جاء في أقوالهما: (ويكمل التقرير):

"إن هذه المجزرة قد اشترك في تنفيذها (١٠٠) عنصر من اللواء (٤٠) و(١٠٠) عنصر من اللواء (١٣٨) من سرايا الدفاع، حملتهم من مطار المزة (١٠) طائرات هليكوبتر بقيادة قائد أركان اللواء (٣٨) المقدم سليمان مصطفى، وفي مطار تدمر انتقى قائد العملية (٨٠) عنصراً لتنفيذ المجزرة، وعشرين آخرين لحراسة الطائرات. أما بقية العناصر، فوضعت في حال احتياط.

وتوجهت العناصر المنفذة حوالي الساعة السابعة من صبيحة ١٩٨٠/٦/٢٧ بالسيارات إلى سجن تدمر، بعد أن قسمت إلى مجموعات، كل مجموعة مؤلفة من عشرة عناصر. وعندما وصلت إلى السجن، كانت عناصر الحراسة فيه قد هيأت الجو لتنفيذ المجزرة، وأجرت تفقداً للمعتقلين قبل بدء الجريمة، لتتأكد من وجود جميع المعتقلين في مهاجعهم، ولتوهمهم بأن السلطة قررت الإفراج عنهم.

وتوزعت المجموعات على المهاجع، لتحصد برصاصها أرواح المعتقلين العزل، وترميهم بالقنابل والمتفجرات، وتقضي خلال نصف ساعة من الزمن على أكثر من (٧٠٠) معتقل، واستطاع أحد المعتقلين أن ينتزع سلاح الرقيب إسكندر أحمد، ويرميه برصاصه مع آخرين قبل أن يلفظ أنفاسه.

ثم قام الملازم رئيف العبد الله، والملازم منير درويش، كل واحد منهما مع مجموعته، بتفريق الجثث، كل على حدة، لتتأكد من قتل جميع من في السجن، ولتقضي على من فيه بقية من حياة.. وأخذت تركل الجثث وتدوسها بالأقدام. ثم حملت الجرافات الجثث إلى سيارات كبيرة، ورمتها في حفر معدة مسبقاً في وادٍ شرق تدمر، (قرب جبل عويمر)، وبعد أن نفذت عناصر الإجرام مهمتها، عادت بالطائرات إلى دمشق، ليستقبلهم معين ناصيف (زوج تماضر بنت رفعت أسد) واصفاً عملهم الوحشي (بالبطولة والرجولة) وموزعاً على كل واحد منهم (٢٠٠) ل.س مكافأة على ما اقترفته يداه. ولقد اطلعت لجنة حقوق الإنسان التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، والمنعقدة في جنيف، في دورتها السابعة والثلاثين، على وقائع مجزرة تدمر، خلال مناقشتها للبند ١٣ من جدول الأعمال الخاص بانتهاكات حقوق الإنسان في العالم، ووزعت على اللجنة الوثيقة رقم تاريخ ١٩٨١/٣/٤ التي تضم إفادات المشاركين في مجزرة تدمر، وهما أكرم بيشاني، وعيسى إبراهيم الفياض.

وناقشت اللجنة بجلستها رقم ١٦٣٢ تاريخ ١٩٨١/٣/٩ مضمون المذكرة، وشارك في النقاش مندوبو الأردن، والعراق، وسورية.

ما هو الوصف القانوني لمجزرة سجن تدمر؟ لقد نشرت مجلة المنبر وهي نشرة غير دورية تصدرها لجنة الدفاع عن المعتقلين في سورية بحثاً قانونياً عن مجزرة تدمر بعنوان: "مجزرة تدمر جريمة دولية بنظر القانون الدولي"

إن وقائع مجزرة تدمر، كما جاءت على لسان بعض المشاركين في تنفيذها، تتعدى حدود جرائم القتل العمدي المعاقب عليها بموجب قانون العقوبات السوري، حيث يعتبر الآمرون بها وكافة منفذيها مسؤولين جنائياً عن هذه المجزرة.

إذ أن هذه المجزرة تثير -بالإضافة لذلك- مسألة قانونية دولية هامة، وهي التكييف القانوني الدولي لتلك المجزرة، والمسؤولية الجزائية الدولية لمرتكبيها.

وكمقدمة لابد منها، يجب تشخيص الوقائع، كما وردت في إفادات المشاركين في المجزرة:

١ - إن الأمر بارتكاب المجزرة صدر عن رفعت أسد، بناء على توجيه من حافظ أسد، ووضعت التفاصيل التنفيذية من قبل الرائد معين ناصيف، وأشرف على التنفيذ المقدم سليمان مصطفى، وشارك في الجريمة (٨٠) عنصراً من سرايا الدفاع.

٢ - إن الغاية من المجزرة هي الإبادة الجماعية للمعتقلين السياسيين في سجن تدمر يوم ١٩٨٠/٦/٢٧.

٣ - إن المعتقلين الذين كانوا ضحية الإبادة الجماعية، يختلفون عن الآمرين والمنفذين للمجزرة في ناحيتين:

الأولى: سياسية باعتبارهم من الفئات المعارضة للحكم في سورية.

الثانية: مذهبية وطائفية: كون المعتقلين لا ينتمون إلى المذهب الطائفي الذي يدين به جميع الآمرين والمنفذين للمجزرة.

(تراجع لطفاً إفادات المشاركين في المجزرة التي تؤكد هاتين الناحيتين).وعلى ضوء هذه الوقائع، نشير إلى النقاط القانونية والدولية التالية:

١ - إن حق الحياة يعتبر جوهر حقوق الإنسان الأساسية، وإن خرق هذا الحق لا يعتبر انتهاكاً خطيراً وفاضحاً لحقوق الإنسان فحسب، وإنما جريمة معاقب عليها.

٢ - إن انتهاك حق الإنسان بالحياة، عندما يتخذ شكل سياسة منهجية من الدولة، وبأمر من المسؤولين فيها، بغية إبادة أو إفناء مجموعة من المواطنين، لبواعث سياسية، أو طائفية، أو كلتيهما معاً، يعبر في هذه الحالة عن شكل من أشكال جريمة إبادة الجنس البشري، المعاقب عليها بالاتفاقية الدولية لمنع ومعاقبة جريمة إبادة الجنس البشري الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٩ كانون الأول ١٩٨٠م.

٣ – لقد استقر الاجتهاد الدولي من خلال تقنين قواعد المسؤولية الدولية على أن الخرق الخطير على نطاق واسع لالتزام دولي ذي أهمية جوهرية للمحافظة على الكائن الإنساني كتلك الالتزامات التي تحظر الاستعباد أو الإبادة الجماعية أو التمييز العنصري، يشكل جريمة دولية (الفقرة ج- من المادة ١٨ من مشروع لجنة الصياغة المعتمد من قبل لجنة القانون الدولي في عام ١٩٧٦ بجلستيها رقم ١٤٠٢ و ١٤٠٣)..

ويبدو من مناقشات لجنة القانون الدولي أن تعبير (على نطاق واسع) لا يقصد منه أن ركن الجريمة الدولية متوقف على عدد الأشخاص، وإنما على إرادة الدولة، بانتهاج سياسة مخالفة للكرامة الإنسانية. كما أن تعبير (الكائن الإنساني) لا يعني المحافظة على حياة الإنسان فقط، وإنما الحفاظ على كرامة الشخص الإنساني أيضاً.

وبناء على ما تقدم من وقائع مجزرة تدمر، ومقارنتها بالنقاط القانونية المشار إليها أعلاه، يمكن تكييف جريمة مجزرة تدمر، بالإضافة لكونها تشكل انتهاكاً خطيراً لحقوق الإنسان في العالم أجمع، وجناية قتل عمد في التشريع الداخلي السوري، فإنها على ضوء القانون الدولي لحقوق الإنسان، تعتبر جريمة دولية لا تتقادم.

وهذا التكييف الدولي يظهر سواء في الاتفاقية الدولية لمنع ومعاقبة جريمة إبادة الجنس البشري، أو قواعد المسؤولية الدولية.

ويقول الجندي أكرم بيشاني:

كما نشر في التلفزيون الأردني، والصحف الأردنية:

أنا كنت مع مجموعة الاحتياط التي ظلت هناك في المطار، لما طلعوا العناصر من السجن كان فيه بعض الناس ملطخين بالدماء، ملطخين ثيابهم بالدماء، بعرف أسماء الذين تلطخت ثيابهم بالدماء: الملازم رئيف عبد الله، الملازم منير درويش، الرقيب علي محمد موسى وطلعنا على الطائرة.

– وصلنا إلى مطار المزة حوالي الساعة الثانية عشرة الظهر بعد تنفيذ المهمة. كان معنا واحد (عسكري مصاب) والشي اللي خلاني أعرف أنه انصاب معنا واحد فيه الملازم ياسر باكير من اللواء ٤٠ قال وجه كلامه لكافة العناصر أنه قائد اللواء بده يجتمع فينا في السينما إذا سأل عن الإنسان ياللي انصاب قولوا له إنه طلقة مرتدة ضربت في الحائط ورجعت عليه بعدين انصاب. قلنا له ماشي الحال. وطلعنا بالسيارات واتجهنا اتجاه اللواء ٤٠ واجتمعنا في قاعة السينما.

ج: - الرائد معين ناصيف ألقى فيهم كلمة شكر بذكر منها أنه: انتو قمتوا هلأ بعمل بطولة بعمل رجولة مع العلم أنه لأول مرة بنكلفكوا بهيك مهمة.. بعدين طلعنا من قاعة السينما وأخذ يعني كل إنسان يتحدث مع زميله فالتقيت أنا مع أحد زملائي هناك وهو الرقيب علي محمد موسى من مفرزة حراسة الرائد معين ناصيف سألته لأنه هو من الجماعة ياللي دخلوا على السجن نفسه انه اشلون هناك تمت العملية.. قال لي إنه قسمونا على شكل مجموعات، وكانت كل مجموعة حوالي ٨ عناصر وكل مجموعة تسلمها ضابط كانوا يفوتوا يعني -حسب ما قال لي- كانوا يفوتوا إلى الغرفة ياللي فيها السجناء يفتحوا الباب ويطخوهم مباشرة بدون سؤال بدون أي كلام. فقلت له طيب هذولاك ما كانوا يستنجدوا. قال كانوا يستنجدوا ويقولوا الله أكبر كانوا يقولوا لنا منشان الله.. منشان محمد.. مشان أمك.. مشان أختك ما تقتلنا. قال لي إنه ما كانوا يستمعوا لها لحكي نهائياً.

وطخّوهم بعدين طلعوا قلت له طيب قديش تقدر عدد القتلى ياللي داخل السجن من السجناء. قال لي عدد القتلى يطلعوا ٥٠٠ أو ٦٠٠ قتيل من السجناء هذول ياللي في السجن وفي اليوم الثاني وزعوا لكل الناس هاللي اشتركوا لكل الزملاء ياللي اشتركوا بالمهمة كل واحد ٢٠٠ ليرة سوري.

س: مين تعرف من اللي اشتركوا بهالعملية؟

ج: أعرف العريف ناصر عبد اللطيف من قضاء طرطوس أو اللاذقية و العريف غسان شحادة من قضاء اللاذقية علوي والرقيب علي محمد موسى من قضاء حمص أو اللاذقية والعريف طاهر زيادي من قضاء اللاذقية علوي والرقيب طلال محي الدين أحمد علوي من اللاذقية والرقيب نزيه بلول علوي من قضاء حمص والعريف حسين عيسى علوي من قضاء حمص والرقيب همام أحمد علوي من اللاذقية.

س: من تعرف من الضباط اللي اشتركوا؟

ج: الملازم رئيف عبد الله من كتيبة المشاة التابعة للواء ٤٠ سرايا الدفاع قضاء اللاذقية علوي، والملازم منير درويش كمان من كتيبة المشاة تابع للواء ٤٠ سرايا الدفاع قضاء اللاذقية علوي، والملازم أول ياسر باكير من اللواء ٤٠ كمان علوي من قضاء حماة.

أسماء المشتركين في مجزرة تدمر من المخططين والمنفذين

١ - العقيد رفعت أسد - قائد سرايا الدفاع.

٢ – المقدم علي ديب – قائد اللواء /١٣٨/ من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية. ونائب رفعت أسد في تدمير حماة (١٩٨٢)، وقائد القوات السورية التي قاتلت الجيش العراقي إلى جانب القوات الأمريكية (١٩٩١).

٣ – الرائد معين ناصيف – قائد اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع.

٤ – المقدم سليمان مصطفى – قائد أركان اللواء /١٣٨/ من سرايا الدفاع- محافظة اللاذقية.

٥ – الملازم أول ياسر باكير –من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع- محافظة حماة.

٦ – الملازم منير درويش –من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع- محافظة اللاذقية.

٧ – الملازم رئيف عبد الله – من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية.

٨ – الرقيب محمد عمار – من حراسة منزل معين ناصيف – محافظة اللاذقية.

٩ – الرقيب علي موسى – من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – محافظة حمص.

١٠ – الرقيب همام أحمد – من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – جبلة.

١١ – الرقيب نزيه بلول – من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – محافظة حمص.

١٢ – الرقيب طلال محي الدين أحمد – من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية.

١٣ – الرقيب عيسى إبراهيم الفياض – من حراسة منزل معين ناصيف – محافظة اللاذقية.

١٤ – العريف أكرم بيشاني – من حراسة منزل معين ناصيف – محافظة طرطوس.

١٥ – العريف إبراهيم يونس- من اللواء/٤٠/ من سراياالدفاع – محافظة حمص.

١٦ – العريف إبراهيم مكنا – من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – منطقة جبلة.

١٧ –العريف طاهر زباري- من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية.

١٨–العريف علي صالحة – من اللواء/٤٠/ من سرايا الدفاع – منطقة مصياف.

١٩ – العريف عبد الرحمن هدلان – من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع.

٢٠–العريف ناصر عبد اللطيف- من اللواء/٤٠/من سرايا الدفاع- محافظة طرطوس.

٢١–العريف غسان شحادة–من اللواء/٤٠/من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية.

٢٢ – الرقيب بدر منصور – من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – منطقة جبلة.

٢٣–العريف حسين عبيسى- من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع – محافظة حمص.

٢٤ - العريف بشير قلو -من اللواء /٤٠/ من سرايا الدفاع- محافظة حمص.

٢٥ - المقدم فيصل غانم - المشرف على سجن تدمر. (انتهى التقرير الدولي).

هذه واحدة من مجازر نظام حافظ ورفعت، وأدعو الله أن لاينسى الشعب السوري حقــه، وأن يقدم من بقي من هؤلاء المجرمين إلى المحاكمة، إلى القض-اء العادل، كي يلقى كل منهم جزاءه في الدنيا، ثم يلقاه في الآخرة، في جهنم وبئس المصير.

٣- مجزرة تدمر المستمرة

منذ عام (١٩٨٤م) بدأ النظام الأسدي بتنفيذ المرسوم (٤٩) القاضي بإعدام كل من انتسب للإخوان المسلمين، واستمرت المذبحة المستمرة في سجن تدمر حتى عام (١٩٩٠)، وذهب ضحيتها حوالي سب-عة عش-ر ألف-اً من الإخوان وأنصارهم (ومن المؤكد أن بعض الشهداء كان يعترف أنه من تنظيم الإخوان المسلمين ليعدموه، لأن الموت أسهل من التعذيب في سجن تدمر) .استمر تنفيذ الإعدام في تدمر، حيث يحاكم الأخوة محاكمة صورية، ثم تنفذ الأحكام خلال يومي الاثنين والخميس أسبوعياً، وقد تبين من كتاب(تدمر: شاهد ومشهود) للأخ الأردني محمد سليم حماد أطال الله عمره؛ أن الإعدام كان مستمراً في تدمر، وقدم الكاتب قوائم بمئات الأسماء التي عرف أنه نفذ فيها الإعدام في تدمر، حيث سمع الجلادين ينادون على الأخ، ثم تسمع هتافات (الله أكبر)، كما استدعي عدد منهم رحمهم الله من نفس المهجع الذي كان فيه الأخ الأردني محمد سليم حماد، ويقول الأستاذ عدنان سعد الدين (ص ٥٤): (والأفراد القليلون الذين خرجوا من سجن تدمر تحدثوا عن مهاجع كانت تضم مابين (١٥٠- ٢٠٠) لم يبق فيها إلا بضع وعشرون بعد إعدام معظم من فيها، وكان السجناء يسمعون تكبيرات الشهداء قبل شنقهم في الأسبوع مرتين أو ثلاث، ثم ضاقت السلطة (المتحضرة جداً!!!) بهتاف (الله أكبر) الذي يودع به الشهيد دنيانا التافهة، فصارت تضع الأوراق اللاصقة على أفواه الشهداء لتحرمهم من النطق بالشهادة قبل الموت. أقول اس-تمرت عمليات الإعدام ودفن الشهداء في مقابر جماعية على طريقة الصرب اليوغسلاف؛ ولكن في صحراء تدمر وليس في البوسنة، وقدر البعض من دفنوا في صحراء تدمر قرب جبل عويمر، بحوالي عش-رين ألفاً..)

يقول الأخ محمد سليم حماد: واستيقظنا في يوم من تلك الأيام ننتظر أن نبدأ البرنامج الذي اعتدنا عليه وتأقلمنا معه إلى حد كبير.. وبدأنا نضب بطانياتنا ونجمع العوازل من تحتها حين نادى علينا الشرطة من شراقة الباب فجأة وبشكل إيعاز:

الكل ضبوا لجوة ولا.

فسارعنا ونفذنا الأمر وتجمعنا كلنا في أقصى المهجع نستعيذ بالله من شر ما خلق! وإن هي إلا برهة حتى بلغتنا من الباحة أصوات وضجيج غير مألوف.. وأحسسنا وكأنما هناك حمولة من الخشب ترمى على الأرض.. والنوافذ عالية لانستطيع أن نطل منها.. وبيننا وبين الباب مسافة لم نجرؤ أن نغادر زاويتنا ونسترق النظر من شقوق فيه خشية أن يرانا الشرطة من الشراقة فوق المهجع فيعاقبونا بما نحن في غنى عنه.

لكن الجلبة استمرت.. وتتابع صوت ارتطام الخشب بأرض الباحة الإسمنتية.. ورأينا ظلال الشرطة على جدران المهجع تعبر من النوافذ العليا كالأشباح.. فشعرنا بقلق وانقباض.. وبدأنا نتوقع شر الاحتمالات.. ونحسب أنهم سيدخلون الآن ويطلقون علينا النار كلنا كما فعلوا قبل أقل من عام في نفس المكان. ولم يطل بنا الانتظار كثيراً.. فما هي إلا برهة حتى سمعنا أصوات التكبير تتعالى.. وسجناء ينادون أسماءهم ويقولون أخوكم فلان يوحد الله. ومن بين هؤلاء لا أزال أذكر اسم الأخ محمد ناصر البيك من حمص، الذي بلغتنا تكبيراته وعبارته الأخيرة يقول : أخوكم محمد ناصر البيك يوحد الله.

فعرفه إخوة من مدينته في المهجع معنا. وأيقنا أنها عملية إعدامات تجري الآن. وأن مجموعة من السجناء يعلقون على المشانق بالفعل. فاحتبست أنفاسنا جميعاً.. واختنقت فينا العبرات.. وتجمدت على ألسنتنا العبارات.. ولم تنقض أكثر من عشر دقائق حتى خفتت الأصوات.. وسكنت الحركة.. وبدأت الأمور خارج المهجع تعود إلى طبيعتها بالتدريج.. لكن التفقد تأخر وألغي التنفس في ذلك اليوم.. وأحضر الشرطة الطعام من غير أن يشيروا إلى ذاك الذي حدث بشيء.

مرحباً بلقاء الله

دخل الشرطة صبيحة ذلك اليوم المرير وقرؤوا أسماء المطلوبين فيما كانت إجراءات نصب المشانق وتهيئة مراسم الإعدام تتم في الباحة أمام مهجعنا مباشرة. وكانت مفاجأة لنا أن عدداً ممن تليت أسماؤهم كانوا قد خرجوا إلى المحكمة وقتها ولم يبلغونهم كالآخرين أنهم حكموا بالإعدام. فلما سمع الإخوة أسماءهم وأيقنوا المصير تراكضوا إلى

الحمام فتوضؤوا ومدوا شيئاً هناك وصلوا عليه تخفياً من الشرطة خشية علينا نحن لا على أنفسهم. وخرج الركب أكثر من عشرة كأنهم غير الذين عرفنا كل هذه الأيام.. مطمئني النفوس.. مشرقي القسمات.. مقبلين بكل جوارحهم على الله راضين بقضائه. واستطاع بعضنا أن يعانق عدداً منهم.. وخرج الآخرون حتى من غير كلمة وداع. لا زلت أذكر من أسماء تلك الدفعة الإخوة حسن الصغير، وعبد الغني الدباغ، وبسام كالو وكلهم من حمص. ولا زلت أذكر كأنه الساعة كيف أن الأخ بسام استيقظ صباح ذلك اليوم مبكراً وقال لإخوة حوله : رأيت اليوم مناماً. سألوه : خيراً إن شاء الله.. ماذا رأيت ؟ قال: رأيت قول الله تعالى في القرآن الكريم (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين). ولم يلبث أن نودي للإعدام رحمه الله بعد ساعة أو أقل، فأحسسنا أن الله سبحانه حقق له منامه وتقبله وغفر له وأنزله الجنان إن شاء الله.

أرجوحة الشهداء

وأقفل الجلاوزة الباب.. وساقوا الإخوة أول الأمر إلى مهجع في أقصى الباحة يسمى "الورشة". وعلمنا من بعد أن سليمان الخطيب يأتي بنفسه ليتأكد من الأسماء والأشخاص ويتلو عليهم ديباجة الحكم، ويأتي معه أو يتبعه مدير السجن الذي كنا نحس بقدومه من صوت المساعد يقدمه باللازمة المعتادة قائلاً:

استرح.. استع......د. الباحة جاهزة للتفتيش سيدي العقيد.

وبعد هذا الإجراء يبدأ الشرطة بسوق الإخوة إلى المشانق تباعاً. وعندما بدأ ذلك هرعت من فوري إلى شق صغير في باب مهجعنا فرأيت المشانق منصوبة على امتداد الباحة.. والإخوة الآن وقد باتوا على حافة الردى يكبرون بأعلى صوتهم ويهللون.. ويساق أحدهم بعد الآخر مغمض العينين مكبل اليدين إلى المشنقة التي انتصبت على قوائمها الثلاث.. يتدلى منها حبل كحبال الغسيل البلاستيكية.. يخالف في هذه المواصفات وتلك الوضعية أبسط الشروط التي يفترض أن تتوفر في مشنقة الإعدام المخصصة للمجرمين ! ورغم ذلك يؤمر الأخ بالجثو أمام المشنقة دون أن يدري ماذا أمامه، وعن جانبيه اثنان من "البلدية" ينتظران الإيعاز من الشرطي الذي يقف في مقابل الأخ. فإذا أشار إليهما تناولا حبل المشنقة فطوقا به رقبة السجين.. ثم تأخرا إلى الوراء فأمسكا بقائمة المشنقة. ولا يلبث الشرطي أن يصدر الإيعاز الأخير.. فيشد "البلدية" الخشبة..

وتنتصب المشنقة.. فيرتفع الأخ في الهواء بلمحة عين.. ويشهق شهقته الأخيرة وتزهق روحه خلال لحظات. فإذا بدت منه حركة تدل على احتمال استمرار الحياة فيه تقدم عنصرا "البلدية" ثانية فجذبا الأخ وتعلقا به حتى يشتد إطباق الحبل على رقبته إلى أبعد مدى.

ولا يلبث الطبيب يونس العلي أن يتقدم فيجس النبض، ويتأكد من الوفاة.. فتعاد المشنقة إلى وضعها، ويفك الحبل عن رقبة الشهيد.. ويرمي به القتلة جانباً بدم بارد، فيما يعد الشرطة الأخ التالي للإعدام. حتى إذا اكتمل العدد ونفذت الجريمة وتكومت الجثث، دخلت الساحة شاحنة عسكرية، وتقدمت "البلدية" فحملوا أجساد الإخوة واحداً بعد الآخر وقذفوهم فيها.. لتمضي إلى حيث لا يعرف بمصيرهم أحد إلا الله. وفي هذه الدفعة قدرت أن أكثر من خمسين أخاً قضوا نحبهم.. نحتسبهم في عداد الشهداء الأبرار إن شاء الله.

وداع الأشقاء

وتتابع نصب المشانق وتكرر مشهد الزهرات تساق إلى حتفها على أيدي الزبانية الطغاة. وكان من أشد المشاهد إيلاماً كما بلغني يوم أن سمع أخ من بيت العابدي من دمشق اسم أبيه يطلب للإعدام من مهجع مجاور. ورآه يساق أمام عينيه من خلال ثقوب الباب فتزهق روحه على حبل المشنقة. وكان الولد قد اعتقل مع أبيه وهو ابن خمسة عشر عاماً في مرحلة دراسته الإعدادية!

ولم يكن أقل إيلاماً يوم أن طلبوا فيما بعد اثنين من الشباب المعتقلين معنا للإعدام هما طريف حداد وملهم الأتاسي وكلاهما من حمص. وكان معهما في نفس المهجع شقيقاهما بشار حداد ومطاع أتاسي. وعندما تقدم بشار ليودع أخاه طريف ثابت الجنان قال له: اثبت واصبر.. واللقاء في الجنة. والحمد لله أن رزقك الشهادة. ولا تنسانا من الشفاعة.

كذلك خرج من بيننا أخ آخر للقاء الله في تلك الأيام العصيبة هو عبد الغني دباغ من حمص. ثم لم نلبث أن سمعنا بأن أخوين اثنين له في مهجع آخر أعدما بعد مدة وجيزة من الزمان. [وقد عرف فيما بعد أنهم كانوا يدفنونهم في أخدود قرب جبل عويمر القريب من تدمر]...

وأغلق الباب علينا بعد ذلك لتلفنا دوامة القلق والتساؤلات. فها نحن الآن أمام الموت وجهاً لوجه.. والإعدامات التي كنا نسمع عنها ونتخوف منها حدثت على بعد خطوات منا وحسب.. وإذا كان شهداء المجزرة الكبرى قبل عام قد قضوا نتيجة نزوة كما ظن البعض

أو ثأر بعد محاولة اغتيال رأس النظام، فإن ما نراه الآن ونسمعه يجعلنا نحس أن الأمر منظم في الحقيقة ومقرر، وأن هناك برنامجاً لتصفية السجناء إذاً. ولم يعد مستبعداً بعد الآن أن نقف أنفسنا هذا الموقف وتلتف حبال المشنقة على أعناقنا نحن بعد حين !

[وهذا يفسر لنا مصير ثلاثة وعشرين ألف مفقود من خيرة أبناء سوريا، معظمهم من الجامعين، وفيهم الأطباء والمهندسون، والأدباء والمدرسون، والعلماء، وطلاب الجامعات، نفـذ فيهم المرسوم (٤٩) في سجن تدمـر،على مدى بضع سنوات خلال عقد الثمانينات، خلال يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع كما جاء في هذا الكتاب، يرحمهم الله تعالى].

تابع المجازر المستمرة في سجن تدمر العسكري :

شكلت السلطة ثلاث محاكم ميدانية، الأولى قاضيها العقيد غازي كنعان مدير المخابرات العسكرية في حمص وأحد أقارب الرئيس، ومقر المحكمة في سجن تدمر العسكري، والثانية قاضيها النقيب سليمان حبيب باشرت عملها في سجن كفرسوسة ثم نقل إلى تدمر، والثالثة فيها ثلاثة قضاة وتتلقى الأحكام جاهزة من العقيد علي حيدر والعقيد علي دوبا وكلاهما من أركان السلطة.

وكانت مدة المحاكمة تستمر (٣- ٥) دقائق يقر فيها المتهم بما يقوله القاضي تحت سياط الجلادين، وتتراوح الأحكام بين :

١-- الإعدام لمن غلب على ظنهم أنه من الإخوان المسلمين.

٢-- السجن المؤبد لمن كانت له علاقة ضعيفة بالإخوان المسلمين.

٣-- السجن خمس عشرة سنة لمن تعاطف مع الإسلاميين أو أسدى معروفاً إلى أحدهم.

٤-- السجن ست سنوات على الأحداث، حتى إذا وصلوا السن القانوني في السجن أعدموا.

٥-- البراءة مع الاحتفاظ به في السجن حتى إشعار آخر وصل عند البعض إلى خمسة عشر عاماً، حيث أفرج عنهم في عام ١٩٩٥م.

بعد مضي أيام على المحاكمات ينادى على المحكومين بالإعدام في آخر الليل، وقد نصبت خشبات الإعدام أمام الجدار الغربي المطل على الباحتين (٥، ٦) ويجمع المحكومون في غرفة الورشة ثم تقيد أيديهم وراء ظهورهم، وينفذ الإعدام في (٣٠- ٨٠) سجيناً في المرة الواحدة. وكانت مواعيد الإعدامات الاثنين والخميس أسبوعياً، وأثناء

التنفيذ كانت صيحات (الله أكبر ولله الحمد... النصر للإسلام) تملأ المكان، ثم تمكن الجلادون فيما بعد من تكميم أفواه الأخوة قبل إعدامهم رحمهم الله تعالى...

٤- مجزرة جسر الشغور في (١٠ /٣ /١٩٨٠ م)

ونتابع ما كتبه تقرير منظمة رقيب الشرق الأوسط عن القمع الرهيب الذي مارسه النظام الإرهابي السوري على ش-عبه المغلوب على أمره.

أنذرت جريدة تشرين لسان حال نظام أسد في افتتاحيتها يوم (١٩٨٠/٣/٩) بأن الدولة ستلجأ إلى استعمال العنف الثوري المسلح لدحر العنف الرجعي.. إلا أن الإضرابات عمت حلب وحماة ثانية في اليوم الثاني عشر والسادس عشر من الشهر نفسه، ومنذ ذلك شرع بإعداد حملة القمع التي خطط لها النظام منذ حين.

وضرب النظام ضربته الأولى في العنف الثوري في مدينة جسر الشغور، تلك المدينة الصغيرة التي تقع في الجبال بين حلب واللاذقية. ففي يوم الأحد التاسع من آذار (١٩٨٠) تظاهر سكان المدينة (ليس الطليعة ولا الإسلاميين وإنما سكان) ضد الحكومة والحزب زاحفين نحو مقرات البعث حتى أشعلوا النيران في بناياتها، وقد اقتحم بعض المتظاهرين الثكنات العسكرية القريبة واستولوا على أسلحة وذخيرة فيها لم يستطع البوليس المحلي مطلقاً استعادة النظام فهرب من الساحة.

لذلك أمرت السلطات العسكرية فوراً القوات الخاصة المحمولة - بالهيلوكبتر - الموجودة في حلب، فوصلت هذه القوات في آخر العصر قبل الغروب، وقصفت المدينة بمدافع - المورتر - الرشاشة والصواريخ حتى استعادت السيطرة عليها ؛ ولكن بعد تدمير(٢٠) منزلاً و (٥٠) مخزناً ومتجراً.

وبدأت الوحدات الخاصة تعتقل كل من تصل يدها له وتقتله في الحال، دون معرفة شيء عنه، وهكذا قتلوا قرابة خمسين مواطناً مسلماً ومسيحياً وكل من وقع في يدهم خلال الليلة الأولى. كما أنهم أحرقوا قرابة ثلاثين محلاً تجارياً للمواطنين بعد أن نهبوا مافيها من البضائع، ومنها محلات الذهب، ومحلات الأقمشة ومحلات الأدوات الكهربائية، ومكتبة (الأخ عبد الباسط حلي يرحمه الله) داسوا مصاحفها ومزقوها قبل حرقها، في الشارع الرئيسي للبلدة.

وقتلوا أو جرحوا عشرات المواطنين منهم من الأبرياء المتفرجين. ثم قاموا بتمشيط المدينة في الليل المظلم وقد أعدمت الوحدات الخاصة عدداً من المواطنين قرب منازلهم، ثم أخذوا معهم قرابة (٢٠٠) مواطن رهن الحجز والاعتقال.

وفي اليوم التالي عقدت السلطة محكمة عسكرية ميدانية برئاسة الرفيق توفيق صالحة عضو القيادة القطرية لحزب البعث الذي وصل بالطائرة من دمشق، جعلت من مكتب البريد مقراً لها، وشارك فيها كل من: ناصر الدين ناصر (وزير الداخلية)، وعلي حيدر (قائد الوحدات الخاصة)، وحمدو حجو (رئيس فرع الحزب)، ومحمد أنيس (رئيس شعبة الحزب في الجسر).

وأصدرت هذه المحكمة حكم الإعدام على كل من مثل أمامها.

وعلى الرغم من بقاء تفاصيل المحاكمات طي الكتمان؛ فإن المرء يكاد يعلمها من النتائج التي شاهدها الناس تنفيذاً لأحكام الإعدام بحق أكثر من (١٠٠) معتقل من سكان جسر الشغور، حتى وصل عدد ما قتل من سكان المدينة إلى (١٥٠ – ٢٠٠) مواطن.

وصبرت جسر الشغور ثلاثة أيام ذاقت فيها المر والعلقم، ومن جرائمهم التي يندى لها جبين البشر:

١- شق جسم طفل لا يزيد عمره عن ستة أشهر إلى قسمين، أمام أمـه، التي سقطت ميتـة من هول المنظر.

٢ - قتل فتى ارتمت أمه عليه لتحميه من القتل، فقتلوها معه.

٣ - التمثيل بجثث بعض الضحايا لإرهاب المواطنين.

٤ - حرق عدة بيوت منها: بيت نور الدين الخطيب، والشاعر الأديب يحيى حاج يحيى، ويحيى تلجو، وعبد الرحيم منصور، وعبد الكريم النايف.

٥ - حرق دكان الشهيد سليم الحامض بعد نهب ما فيه، وذلك بعد استشهاده بيومين.

وفي اليوم الثاني أو الثالث قامت الجرافات بتحميل الجثث من الشوارع ودفنوها في حفر جماعية بدون كفن أو صلاة جنازة (انتهى التقرير الدولي).

لقطات من التعذيب( )

يقول (أبو حيان الجسري) أحد الناجين من مذبحة جسر الشغور:

اعتقلوني من بيت قريبي في الثانية والنصف من مساء الليلة الأولى بعد أن بدلت الكتيبة الأولى (كتيبة الذبح) واستلمت الكتيبة الثانية (كتيبة التعذيب)، وربطوا رجلي بقطعة أسلاك شائكة (وأراني آثارها بعد عشرين سنة)، وكذلك ربطوا يدي خلف ظهري بأسلاك شائكة، كانت تدخل في يدي وقدمي كلما ركلوني بأحذيتهم. ثم انهال علي الضابط ضرباً بكل ما يملك من قوة، بالعصا والكابلات وبحذائه العسكري، حتى تعب الضابط من الضرب، فسلمني لجندي معه عصا صار يحاول إدخال العصا في بطني من الجلد، واستمر الحال حتى الفجر حيث نقلوني بعد ذلك إلى البريد فشاهدت عدداً مخيفاً من حيث الكثرة من جنود الوحدات الخاصة بلباسهم المبرقع ولهجتهم المميزة عندنا، وحالما شاهدوني هجموا علي كما تهجم الوحوش الجائعة على فريستها، وشحطوني من السيارة على سلم البريد شحطاً، واللكم والضرب مستمر حتى تغمدني الله برحمته فأغمي علي لمدة تزيد على يوم كامل.

ويقول لي أحد المعتقلين زملائي أنهم صاروا يقولون: مات، فطس، وكانوا يقولون عني: هذا رمى برشاش على الطائرات العمودية قبل هبوطها، وفي يوم الأربعاء استيقظت على صوت عدنان عاصي (مدير مخابرت إدلب)، يسألني أين وضعت الرشاش، ووجدت في جيوبي طلقات من الرصاص، بعد أن أخذوا أوراقي وساعتي ونقودي من جيوبي، ووضعوا بدلاً منها هذه الطلقات، ولما أنكرت ذلك قال لي: دليلنا مادي ولا تستطيع إنكاره، هذه الطلقات مازالت في جيبك.

وعرفت فيما بعد أن بعض المواطنين أطلق النار على الطائرات، ولم يتمكن أزلام الأسد من معرفة هؤلاء المواطنين، (وربما قتلوا في الليلة الأولى)، وأرادوا أن يثبتوا لرؤسائهم أنهم تمكنوا من معرفة هؤلاء الذين أطلقوا النار على الطائرات.

وبدأ عدنان عاصي يحرق لحيتي بولاعة الغاز، وأحضر الجنود فأوجعوني ضرباً حتى تمنيت الموت كي أخلص من هذا العذاب، حيث صار جسدي مبرقعاً مثل ثيابهم، وصاروا يتندرون علي ويقولون لي: صرت من الوحدات الخاصة. لذلك قلت لهم: أنا أطلقت النار على الطائرة، والرشاش دفنته في البستان، (كذبت عليهم لأخلص من التعذيب)، ففرحوا بهذا الكشف، (وأقسم لي الراوي أنه لم يفعل ذلك، ولكنه قال لهم ذلك لعلهم يقتلونه فيرتاح من العذاب)، فذهب معه مجموعة من الجنود إلى البستان لإحضار الرشاش، وفي الطريق قال قائدهم: أنت تأخذنا إلى البستان وهناك رفاقك يقتلوننا، فأقسمت

له أني لا أعرف أحداً منهم ولا أعرف أين هم، ومع ذلك عاد ولم يجرؤ على دخول البستان.

وفي إدلب وضعوني في الدولاب وعددت أربعين ضربة، ثم صرت أصرخ ولم أعد أطيق التحمل فصرخت وقلت لهم أعترف لكم بكل ما تريدون.

(أنا منظم مع الإخوان، ودخلت مقر الحزب يوم المظاهرة، وأخذت سلاحاً، ورميت على الطائرة..). (ثم أقسم بالله أمامي بعد عشرين سنة أنه لم يسبق له دخول أي تنظيم، وأنه ليس له سوى المحافظة على دينه ومنه اللحية، وهي واجبة أمر بها رسول الله p. وأنه قال لهم ذلك على أمل أن يقتلوه فيرتاح من تعذيبهم).

وبعد هذا الاعتراف صاروا يتوددون إلي، وقالوا لي سوف نفرج عنك بعد كل ذلك إذا وعدتنا أن تتعاون معنا لمصلحة وطنك، وقد ألهمني الله أن أعدهم بذلك، على أن أعود إلى محلي التجاري في جسر الشغور، وأطلق لحيتي كما كانت، ويمرون علي دورياً لأخبرهم بكل ما شاهدت وسمعت عن جسر الشغور.

وبعد خروجي استمر العلاج تسعة شهور حتى كتب الله لي الشفاء، وخاصة من جروح رأسي التي كادت أن تقضي علي لولا رحمة الله. ثم رزقني الله تأشيرة عمل في إحدى دول الخليج، فخرجت من بلدي ولم أعدله حتى الآن (بعد خمس وعشرين سنة)، وتابعت العلاج خارج سوريا حتى عادت لي الصحة والعافية ولله الحمد. [وكشف عن رأسه فبدت آثار الجروح العميقة التي أبى الشعر أن ينبت عليها بعد أكثر ربع قرن].

ولابد من التنويه إلى أن الإخوة المطلوبين من أبناء جسر الشغور كانوا في الجبل، ولم تجرؤ الوحدات الخاصة يومها على مهاجمتهم، ولكنها انتقمت من أهليهم كما فعلت في حماة وحلب وإدلب وغيرها، بناء على نصيحة خبراء الجريمة الروس.

٥- مجزرة حماة الأولى في (٥ - ١٢ /٤/ ١٩٨٠ م):

في أول تمشيط للمدينة من قبل الوحدات الخاصة، حيث قطعت المدينة عن العالم وحبست عنها الماء والكهرباء، وفتشت بيتاً بيتاً مع الضرب والنهب والشتم، وقتلت عدداً من أعيان المدينة وشخصياتها الشعبية مثل الدكتور عمرالشيشكلي (٥٤) عاماً، رئيس جمعية أطباء العيون في سوريا، لذلك قلعوا عينيه وألقيت جثته في حقل قرب قرية مجاورة للمدينة. وخضرشيشكلي(٨٠) عاماً وهوأحد زعماء الكتلة الوطنية وصاحب بيت الأمة أيام الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، وقد حرقوه بصب الأسيد عليه في بيته، ثم

نهبوا التحف الأثرية الموجودة في البيت. والدكتور عبدالقادر قنطقجي وهو طبيب جراحة عظمية(٣٧) عاماً. والمزارع أحمد قصاب باشي(٥٥) عاماً، قلعوا أظافره وقطعوا أصابعه قبل أن يقتلوه. كما اعتقلت السلطة مئات المواطنين وزجوا في السجون.

٦- المجازر الجماعية في جبل الزاوي–ة بتاريخ(١٣-١٥ /٥ /١٩٨٠م)

- ريف إدلب:

يمتاز ريف إدلب بانتشار الصحوة الإسلامية، وخاص–ة في جبل الزاوية، حيث يغلب على أهله التدين، وحب الجهاد في سبيل الله عزوجل، ويكثر عدد الإخوة الذين استشهدوا من ريف إدلب، كما يكثر عدد الإخوة المنفيين من هذا الريف، وخاص–ة من جبل الزاوية.

وفي أوائل عام (١٩٨٠) استقدم النظام الأس–دي خ–براء الجريمة السوفييت، الذين تمرسوا من خلال المذابح الجماعية التي نفذها ستالين ضد المسلمين السوفييت فقتل منهم الملايين، هؤلاء الخبراء الخبثاء نصحوا نظام الأقلية في سوريا باستخدام المذابح الجماعية، في الأماكن التي يتواجد فيها عناصر الطليعة التي قادت المعارضة المسلحة ضد نظام الأقلية الأسدي، وقد ساعدها على ذلك انفجار الشعب من شدة الضغط والاستبداد، فالتحق بصفوفها أصناف شتى من الشباب المسلم.

ومن أجل قتل عنصر واحد من الطليعة المقاتلة ؛ لامانع عندهم من قتل خمسين مواطن بريء معه، ومن أجل التخلص من الطليعة المقاتلة لامانع من قتل عشرات الألوف من المواطنين الأبرياء، وهذا ما طبقه نظام الأقلية في سوريا منذ عام (١٩٨٠م)، وهذا نموذج لما حدث في سوريا باختصار.

١- في أريحا :

في فجر يوم الثلاثاء (١٣/٥/١٩٨٠م) استيقظ المواطنون في بلدة أريحا على أصوات الطائرات المروحية وهدير الدبابات ودوي القنابل. فقد قامت الفرقة الثالثة بقيادة العميد شفيق فياض بتطويق المدينة مستخدمة الدبابات والمصفحات في منطقة جبل الأربعين، الجهة الجنوبية من البلدة، حيث نشبت معركة بين الطليعة المقاتلة وعناصر من الوحدات الخاصة في ثلاثة مواقع هي : طريق حلب - أريحا، وجبل الأربعين - الجهة الجنوبية، وجبل الأربعين - الجهة الشرقية. بينما ركزت قوات حافظ الأسد دباباتها لدك مواقع

مقاتلي الطليعة بقنابلها مع راجمات الصواريخ ومدافع الهاون، وبدأ الإخوة المقاتلون من الطليعة بالرد على نيران الأسلحة الخفيفة التي بدأ حاملوها يتقدمون نحوهم بغية تطويقهم وأسرهم، وتمكن مقاتلو الطليعة فك الحصار عنهم وتوزعوا في منطقة الجبل، عدا المنطقة الشمالية (المدجنة) إذلم يتمكنوا من الانسحاب، لقربهم من منطقة تواجد الوحدات الخاصة، واستبسل المقاتلون في الدفاع عن مواقعهم، إلا أن الدبابات والمدفعية ركزت نيرانها على مكان تواجدهم حتى استشهدوا جميعاً وهم كل من الإخوة: محمد زهدي عبد الكريم (سنة أخيرة هندسة) وشقيقه صفوح (موظف) وأحمد صفوت (طالب ثانوي) وحسان عبد الحميد (طالب ثانوي) وطلعت خربوطلي (طالب ثانوي). يرحمهم الله تعالى.

أما في المنطقة الجنوبية الشرقية فقد خرج مقاتلو الطليعة وتوزعوا في الجبل، بعد اشتباك مع الوحدات الخاصة، وتمكنت السلطة بعد أربع ساعات من المعركة ونتيجة لنفاذ ذخيرة الطليعة؛ تمكنت من أسر خمسة أفراد منهم وسلمتهم إلى فرع المخابرات العسكرية في إدلب وجراحاتهم تنزف، حيث صب عليهم أقسى أنواع العذاب ثم أعدموا رمياً بالرصاص.

أمافي المنطقة الشرقية فقد نشبت معركة بين أحد مقاتلي الطليعة وعناصر السلطة استمرت زهاء ساعتين، وأصيب عدة إصابات ثم نفذت ذخيرته فألقوا القبض عليه، ثم أحضروه إلى والدته) ٦٠ عاماً) وضربوهما معاً ثم أعدم أمام أمه.

وبعد انتهاء المعارك حول بلدة أريحا اتجهت الوحدات الخاصة إلى داخل البلدة فعاثت فيها الفساد والقتل والتخريب، واعتقلت أكثر من مائة مواطن منهم دون الخامسة عشر من العمر، وأدخلوا سجون المخابرات العسكرية للتعذيب والتحقيق انتقاماً من البلدة، ومن ثم أودعوا في سجون الأسد خمس عشرة سنة ولأنه لاذنب لهم أفرج عنهم بعد ذلك.

٢- في قرية محمبل

استيقظ الناس فجر الثلاثاء (١٩٨٠/٥/١٣) على أصوات الطائرات المروحية وهدير الدبابات وأزيز الرصاص، فقد حضرت أربع عشرة طائرة مروحية إلى قرية محمبل على طريق حلب - اللاذقية ويبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نس-مة.

أفرغت الطائرات حمولتها من الجنود على الجبل الذي يبعد كيلو متراً واحداً عن القرية، وجاءت طائرتا استطلاع تستكشف القرية مع مجموعة من عناصر المخابرات العسكرية والوحدات الخاصة، التي تمركزت شرق القرية، مع نصب مدفعي هاون (٨٠

ملم)، ودخلت عشر مجموعات للتفتيش يقودها ضباط من نظام الأقلية، ونصبوا رشاشاتهم وقاذفات (آربجي) فوق أسطحة المنازل، وخلال تفتيش البيوت قاموا بضرب النساء والرجال والأطفال وكسروا الثلاجات وأثاث البيوت، وجمعوا الأواني المنزلية والكهربائية، وأرغموا صاحب البيت على حملها إلى حيث تتمركز قيادة القوات، وسرقوا الحلي الذهبية وسلبوا ما وجدوه من مال مع المواطنين.

وأحضر ملازم من النظام غلامين دون العاشرة وانهال عليهما بالضرب بالكرابيج والعصي أمام أمهاتهم، والغلامان ووالداتهما يصرخون ويستغيثون، ولما فشلت الحملة في القبض على بعض مقاتلي الطليعة عمدوا إلى كسر نوافذ البيوت وأشجار الزيتون والكرز، ثم اعتقلوا اثنين وثلاثين مواطناً من أبناء القرية، وبعد أن نالوا منهم شتى أصناف العذاب في مدرسة القرية، نقلوهم إلى حلب بالطائرات العمودية وسلبوا منهم ساعاتهم وما لديهم من نقود (أجرة ركوب الطائرة كما قالوا لهم).

وفي يوم (١٩٨٠/٥/١٥) عادت الوحدات الخاصة إلى القرية في ست عشرة مروحية وضربوا النساء والأطفال والشيوخ، وركزوا هذه المرة على أسر معينة، وأحرقوا الكتب الموجودة في البيوت، وأتلفوا مزروعات القرية ثم اعتقلوا عشرين مواطناً أخذوهم إلى حلب.

وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً حضرت إلى القرية ثلاث مصفحات وبدأت بإطلاق النار على ثلاثة منازل فيها قبيل مداهمتها، ثم اعتقلوا مواطناً وعادوا إلى حلب.

وفي يوم (١٩٨٠/٥/٢٥) عادوا إلى القرية وفتشوها بيتاً بيتاً حتى المسجد دخلته عناصر الوحدات الخاصة بأحذيتها القذرة، وصعد ضابط طائفي على المنبر ونزع الآيات القرآنية، ومزق المصاحف ورماها بأرض المسجد، ثم أجبر قائد الحملة إمام المسجد بعد إهانته وتعذيبه بمغادرة القرية.

ثم تابعت الحملة اعتقال طلاب الثانوية ومعظمهم من أبناء القرى المجاورة حتى بلغوا عشرين طالباً مع عشرة مواطنين آخرين، وسيقوا جميعاً إلى مقر الوحدات الخاصة في حلب.

٣- في قرية بلين

في فجر الثلاثاء (١٩٨٠/٥/١٣) هب أهل قرية بلين من نومهم مذعورين على أصوات الطائرات المروحية، وهدير المصفحات، ونزل أربعمائة عنصر من الوحدات

الخاصة في هذه القرية الوادعة، وبعد تطويق القرية ومحاصرتها تماماً كي لا يهرب أحد منها، بدأت مجموعات التفتيش المعززة بعناصر حماية واحتلت أسطحة المنازل ونصبت عليها الرشاشات والقواذف ومناظير الرصد، وجمع أصحاب كل بيت في ساحة الدار وتصرفوا بهم بما يحلو لهم من التعذيب والضرب والشتم وكسر الأشجار وخاصة أشجار الكرز، ثم جمع عدد من أهالي القرية في الساحة الرئيسية، وصفوا ووجوههم إلى الحائط، على مرأى من الأطفال والنساء والشيوخ، واستمر الضرب حتى يسقط الرجل مغمياً عليه أمام ذويه وأطفاله ونسائه، ثم أخذوهم معهم إلى حلب.

وهكذا انتصر جيش الأسد على أبطال جبل الزاوية الذين عجز الفرنسيون عن إخضاعهم، والذين شهد الفرنسيون برجولتهم، انتصر عليهم بدباباته ومروحياته وأسلحته الحديثة التي دفع الشعب المسكين ثمنها من عرق الجبين، وكد اليمين، وحرم صغاره الخبز والحليب، ليشتري أسلحة يحرر فيها الجولان، ولكن الأسد الطاغية وأزلامه القتلة المجرمون، نقلوا هذه الأسلحة من مواجهة العدو الصهيوني - الذي سيتضح عما قريب أنه صاحبهم - نقلوها من هناك إلى حماة وحلب وجبل الزاوية، وغيرها لقتل الشعب الآمن، وقتل الشباب المسلم كي ترضى الصهيونية العالمية وتقر عينها؛ فقتل منهم ما قتل ونهب من أموالهم ما نهب، وأتلف من محاصيلهم الزراعية الكثير، واعتقل منهم المئات أودعهم في سجون الأسد، مع التعذيب والشتم والضرب، خوفاً من أن يساعدوا مقاتلي الطليعة ضد سلطة الأسد.

٧- أسبوع الدم في حلب:

ركزت الطليعة المقاتلة جهودها في حلب، ثم حماة، وذات يوم من أواخر (١٩٧٩) وأوائل (١٩٨٠) صارت الطليعة توزع مجلة (النذير) علناً في الشارع، وسيارة الأمن العسكري تراقب وترى، ولاتجرؤ على منع أفراد الطليعة من ذلك... وحسب نصيحة خبراء الجريمة السوفييت الذين استقدمهم نظام الأقلية في سوريا، وخلاصتها (المذابح الجماعية) التي ترهب الشعب، لأن معظم الشعب ضد النظام، ويتمنى زواله، وأدرك النظام أن معظم الشعب ضده، لذلك قرر أن ينتقم من الشعب، من معظم الشعب، بشتى أديانه، مسلمين ومسيحيين، ريف ومدينة، المهم يجبر الشعب على الرضوخ لحكم الأقلية، ولاستبداد أسرة الأسد.

ولهذا قام نظام الأقلية بعدة مذابح جماعية، في حلب، وحماة، وجسر الشغور، وجبل الزاوية، وغيرها، وكان لحلب نصيبها من هذه المذابح، منها مجزرة هنانو يوم العيد، ومنها هذا الأسبوع الدامي من التمشيط، حيث تعدى جنود (الجيش العقائدي) على الأعراض، والأموال، والأرواح. والتبرير موجود وجاهز كما سنرى:

منذ اليوم الخامس وحتى اليوم الثاني عشر من نيسان (١٩٨٠) احتل عسكر حافظ الأسد مدينة حلب ونشروا في أزقتها التاريخية القديمة وفي شوارعها الجديدة عشرات الدبابات وعشرات المصفحات، وصدرت الأوامر بمنع التجول منعاً باتاً، فمات بعض المرضى حيث تعذر إحضار الدواء لهم، وشرع عساكر الفرقة الثالثة بقيادة شفيق فياض بتفتيش البيوت بيتاً بيتاً، وكعادة التتار امتدت أيديهم إلى الحلي والأموال والأجهزة الكهربائية والسجاد العجمي والغسالات والثلاجات، وإذا اعترض صاحبها أطلقوا عليه النار وزعموا أنه من الإخوان المسلمين.

المسيحيون أعداء للنظام أيضاً:

ولو أن الأمر وقف عند حد السرقة والسلب والنهب لهان الأمر، ولكن الناس فجعوا بأعراضهم، فقد امتدت العيون الوقحة والأيدي الآثمة إلى أعراض الناس، وقد وقعت عدة حوادث اعتداء على الأعراض، نذكر منها هذه الحادثة في حي السليمانية فقد دخلت مجموعة من الفرقة الثالثة إلى بيت فيه عجوز قال للملازم : يا سيدي سكان البناية كلهم مسيحيون وأنتم تبحثون عن الإخوان المسلمين.

فما كان جواب الملازم إلا أن يصفع العجوز كفاً جعله يترنح ويسقط على الأرض، ثم يتقدم الملازم (الهمام) مع عساكره يدوسون على جثته ثم يعبثون في البيت ما شاء لهم العبث (وفهمكم كفاية) والحادثة على لسان كل حلبي. ويتوقع هؤلاء الجنود (العقائديون) أن بيوت المسيحيين مملوءة بالنفائس التي يبحثون عنها، والأموال التي يجمعونها، على مرأى ورضى من قادتهم الكبار.

وفي حي العزيزية دخل التتار الأسديون إلى أحد البيوت لتفتيشه وكان فيه أبوان عجوزان مع بناتهما الصبايا الثلاث، فحجز التتار الأبوين العجوزين في إحدى الغرف وقفلوا عليهما الباب، وسحبوا البنات إلى الغرف الأخرى لاغتصابهن وهن يصرخن ويستغثن ويولولن، وكانت أصواتهن تقطع أقسى القلوب وتمزق أعصاب الأبوين الكبيرين، فما كان من الوالد إلا أن فتح باب الغرفة المطل على الشرفة وصار الأبوان

يستنجدان ويصرخان، وعندها صوب أبطال الأسد نيران رشاشاتهم عليهما فأردوهما قتيلين، وتكلم الملازم قائد المجموعة بجهاز اللاسلكي قائلاً: لقد ظهرت مقاومة من أحد البيوت يبدو أنه قاعدة لعصابة الإخوان، ولكننا قضينا عليهم، ولما حضر المقدم (معلا) ليشهد بطولة جديدة من بطولات عساكر أسد، لاحظ قطعة من المرمر على باب البيت مكتوباً عليها (أنطون قطوش)، ودخل البيت وشاهد جثتي العجوزين وشاهد ثلاث صبايا وشعورهن منفوشة وعليهن آثار اللكمات والكدمات وهن يولولن ويبكين أبويهن المغدورين...

وأسرع الملازم يقول لقائده: إن هذه العائلة من الإخوان، وقد حاولت منعنا من القيام بواجبنا... وحانت التفاتة من المقدم (معلا) نحو الجدار فرأى في صدر الصالون صليباً كبيراً من المعدن الأصفر، وبجواره صورة كبيرة لمريم العذراء، فقال: فعلاً هذه العائلة من الإخوان.

فمصطلح [الإخوان] صار يعني كل معارض لنظام الأقلية الفاشي، كل مدافع عن دينه، وكل مدافع عن عرضه، وكل من تتحرك عنده بقايا النخوة والمروءة، حتى لو كان بعثياً، كل معارض للنظام الأسدي من [الإخوان]. وهذا وسام شرف ناله [الإخوان المسلمون في سوريا].

٨- مجزرة هنانو

ركزت الطليعة المقاتلة جهودها في حلب، ثم حماة، وذات يوم من أواخر (١٩٧٩) وأوائل (١٩٨٠) صارت الطليعة توزع مجلة (النذير) علناً في الشارع الحلبي، وسيارة الأمن العسكري تراقب وترى، ولاتجرؤ على منع أفراد الطليعة من ذلك.

وحسب نصيحة خبراء الجريمة السوفييت الذين استقدمهم نظام الأقلية في سوريا، وخلاصتها أن هؤلاء الخبثاء السوفييت نصحوا نظام الأقلية في سوريا بتنفيذ (المذابح الجماعية) التي ترهب الشعب، لأن معظم الشعب ضد النظام، ويتمنى زواله، وأدرك النظام أن معظم الشعب ضده، ومن أجل ذلك يساعد الطليعة المقاتلة، ومما لاريب فيه أن غير قليل من الشباب المسلم التحق بالطليعة، وبعض الشباب العاديين، ممن لم يسبق لهم ملازمة المساجد مدة كافية، وذلك لأن معظم الشعب يكره النظام المستبد الذي احتكر أقوات الشعب ونهبها، وحول أموال الشعب السوري إلى حسابات ضباط المخابرات في

أوربا وأمريكا، عرف النظام أن الشعب ضده، لذلك قرر أن ينتقم من الشعب، من معظم الشعب، بشتى فئاته، مسلمين ومسيحيين، ريف ومدينة، المهم يجبر الشعب على الرضوخ لحكم الأقلية، ولاستبداد أسرة الأسد. واتخذ القرار في أعلى المستويات بأن يقتل الجيش العقائدي (٥٠ – ١٠٠) مواطن في الحي الذي تقتل الطليعة فيه عنصراً واحداً فقط من أزلام النظام.

ولهذا قام نظام الأقلية بعدة مذابح جماعية، في حلب، وحماة، وجسر الشغور، وجبل الزاوية، وغيرها، وكان لحلب نصيبها من هذه المذابح، منها مجزرة هـنانـو يوم العيد، نسبة إلى المقبرة التي وقعت فيها المذبحة، حيث تضم قبر المجاهد السوري إبراهيم هنانو، الذي قاد الثورة السورية ضد الفرنسيين، وتسمى أيضاً مجزرة المشارقة نسبة إلى الحي.

والمميز لهذه المجزرة أنها صباح يوم عيد الفطر لعام ١٤٠٠هـ- الموافق (١٩٨٠/٨/١١)، في اليوم الذي يزور فيه المسلمون أقاربهم يتفقدون أحوالهم، كانت هذه المجزرة لإرهاب الشعب العربي السوري، وإجباره على الخضوع لنظام الأقلية.

وربما اغتالت الطليعة المقاتلة عنصراً من مخبري الأمن في حي المشارقة، وعملاً بنصيحة الخبراء السوفييت قام جنود الوحدات الخاصة، بقيادة العميد شفيق فياض، الذي كلف بإخضاع حلب، قامت هذه العناصر صبيحة يوم عيد الفطر، بجمع عدد من أهالي حي المشارقة عشوائياً، دون معرفة أسمائهم ولا انتماءاتهم السياسية أو الدينية، المهم أنهم من حي المشارقة، واقتادوهم إلى مقبرة هنانو، حيث فتح جنود الوحدات الخاصة النار من أسلحتهم الرشاشة التي اشتراها الشعب السوري من ثمن طعامه وشرابه وحليب أطفاله ليحرر بها الجولان كما يظن الشعب ، وإذ بالجيش العقائدي يقتل بها الشعب الذي دفع ثمنها ليحرر بها أرضه.

سقط على الفور (٨٣) مواطناً بريئاً يرحمهم الله تعالى، وجرح مئات آخرون، وكان من القتلى الدكتور عبد الرزاق عرعور الأستاذ في كلية الهندسة بحلب، وهو بعثي. كما قتل عدد من موظفي الحكومة الموالين لها. كيف يقتل هؤلاء !!؟؟ والجواب بسيط جداً، وهو أن الجيش العقائدي قتلهم لسبب واحد فقط، وهو أنهم من حي المشارقة، حيث اغتيل عنصر واحد فقط من مخبري السلطة. وهكذا نصحهم الخبثاء السوفييت.

ثم حفرت قوات الجيش العقائدي بالجرافات التي كان المفروض أن تفتح بها ثغرات للهجوم على خنادق الصهاينة الذين احتلوا الجولان، بدلاً من ذلك استخدم الجيش العقائدي

هذه الجرافات في حفر خنادق يدفن فيها المواطنون الأبرياء الذين قتلوا ولم يسألوا عن أسمائهم. حفرت الجرافات خندقاً في مقبرة هنانو، وطمرت جثث الأبرياء في هذا الخندق. وهكذا فعلت عدة مرات في مجازر حماة الفرعية. ثم حرثت المقبرة كلها وسوتها بالأرض. المقبرة التي يرقد فيها البطل السوري [إبراهيم هنانو] الذي حارب الفرنسيين، وأقض مضاجعهم، لم يحترموا اسمه وقبره، بل حرثوا المقبرة المسماة باسمه يرحمه الله.

وهذه أسماء بعض الضحايا الأبرياء في هذه المجزرة:

العمر	الاسم	العمر	الاسم
٥٠	محمد عرعور	٧٠	الحاج أحمد عرعور
٤٠	عبد القادر عرعور	٤٠	محمود عرعور
٢٢	علي عرعور	٣٨	زهير عرعور
٢٩	عبد الفتاح عرعور	٢٨	عبد الرزاق عرعور
١٦	بكر عرعور	٢٠	محمد عرعور
٤٠	عمر حوري	٢٤	غسان عرعور
٢٨	حسن حور	١٥	محمد حوري
١٧	خالد حوري	٢٩	عبد القادر حوري
٢٧	أحمد داية	١٦	صالح حوري
١٧	عبدو دودان	٤٥	يحيى دودان
٤٠	عمر دودان	٣٨	أحمد دودان
٣٥	مصطفى دودان	٣٧	حسن دودان
٥٥	أحمد الفيل	٣٥	صبحي الفيل
١١	ابن صبحي الفيل	٢٥	عبد الهادي الفيل
٢٠	مروان الفيل	١٢	حسني الفيل
٢٠	محمد جمال مجدمي	٤١	أحمد درويش
١٨	إياد درويش	٢١	عماد درويش
٣٥	محمد فارس	١٧	أحمد فارس
٣٥	أحمد دياب	١٨	يوسف قوجا
٢٩	محمد أطرش	٢٢	عبد الرزاق أطرش

ومما يجدر ذكره وهو في غاية الأهمية أن ذلك كله يجري بمرأى من الأقمار الصناعية الأميركية، وبرضى أمريكي التي تدعي أنها تحارب الإرهاب، لأن القتلى من المسلمين، ولأن أمريكا تساند الطغاة المس–تبدين إذا حققوا أطماع الصهاينة في العالم العربي، وهكذا يفعل النظام الأسدي في سوريا، وللذكرى أذاعت الخارجية الأمريكية نبأ الهجوم على حماة في اليوم الأول فقط، ثم سكتت ولم تتكلم، لأن حافظ الأسد ينفذ مخططاً تم الاتفاق عليه مع الصهيونية العالمية وحليفتهم أمريكا.

٩– بعض مجازر اللاذقية :

عانت مدينة اللاذقية مثل غيرها من المحافظات السورية، مثل حماة وإدلب وحلب وجسر الشغور وحمص، عانت من ظلم النظام المس–تبد، نظام الأقلية، ففي بداية الثمانينات أراد رفعت الأسد ومعاونه (زكريا قعقع) رئيس فرع المخابرات العسكرية في اللاذقية أن يقضيا على أي معارضة محتملة في مدينة اللاذقية. كي يتفرغ النظام لذبح المواطنين الع–زل في حماة وإدلب وحلب، حيث ثورة الشعب العارمة ضد نظام القمع والاستبداد. وهذا موجز لبعض المجازر :

١ – أرسلت كتيبة من سرايا الدفاع تسندها عناصر المخابرات العسكرية لتهاجم مركز المدينة الشيخ ضاهر، ولكن كان رد فعل الأهالي كالرعد، فقام شباب المدينة برد هذا الهجوم واستطاعوا أن يطردوا قوات نظام الأقلية الأسدية إلى مشارف المدينة، حيث حي رمل العلوية وما بعده من قراهم.

٢– كررت قوات السرايا والمخابرات العسكرية الهجوم على أحياء الصليبية والقلعة والعوينة وسكنتوري، واستمر الشباب المسلم في الدفاع عن المدينة، وسقط أول ش–هيد (نادر حصري) وقد أذاعت لندن خبر استشهاده.

٣ – خرجت المدينة في جنازة الشهيد (نادر حصري)، ومشت الجنازة وسط التكبير، وبدأت الجنازة من بيت الش–هيد في حي الصليبية، واتجهت إلى الشيخ ضاهر، وفي نهاية شارع القوتلي كانت قوات سرايا الدفاع متربصة على سطوح مدرسة جول جمال ففتحوا النار على المشيعين، وكانت أول مجزرة ترتكبها قوات الأسد في اللاذقية، فسقط كثير من الشهداء والجرحى منهم الشهيد علي محمد مفتي، وأحد أبناء أسرة (غزال)، وكثير آخرون يرحمهم الله تعالى.

٤ – كان من أشهر المقاومين للنظام، والذين أرعبوا قوات الأسد أبو علي الجندي، وعصام بدوي الملقب (أبو حسين)، وأبو ديب، وأبو عنتر، وصبحي شريقي، وعندما كانت المخابرات العسكرية تبحث عنهم قتلت من لم يفر من آبائهم وإخوانهم، انتقاماً منهم.

٥ – كان من ضحايا النظام الإجرامي الشيخ عبد الستار عيروط، والدكتور ممدوح جولحة، والشيخ محمد منلا، والشيخ محمد صالح، والشيخ زهير جمال.

٦ – أما في مجزرة العوينة وذلك عندما لم تستطع قوات النظام القبض على أحد المطلوبين من آل الفاروسي، أخذوا أخويه إلى ساحة العوينة، ورموهم بالرصاص أمام والدتهم، ووالدهم.

٧ – ركزت قوات النظام الأسدي على اغتيال الأطباء والصيادلة والمهندسين في أماكن عملهم كما حصل للدكتور من آل عثمان، حيث ذبحوه في عيادته.

هذا غيض من فيض من المجازر التي نفذها النظام الأسدي في عروس الساحل مدينة اللاذقية.

٨– مجزرة حماة الثانية (١٩٨٠/٥/١٢م) حيث ضربت السلطة مسجد الأحدب وأحرقت عدداً من المنازل في حي باب القبلي والبرازية، وقتلت مؤذن المسجد وأحد عشر مواطناً آخرين.

٩– مجزرة حي باب البلد في حماة: وكانت هذه المجازر الجماعية بناء على نصيحة خبراء الجريم–ة السوفييت، الذين استقدمهم نظام الطغاة بع–د أن كادت تسحقه ضربات الثورة الشعبية المسلحة التي نشبت في حماة وحلب وجسر الشغور وغيرها، عندئذ وصل خبراء أو (خبثاء) الجريمة السوفييت، ولاشك أنهم (صهاينة)، وعاينوا مكان وزمان وقوع اغتيال عملاء النظام، وعرفوا أن الشعب متعاون مع الثوار، ومتضامن معهم، ونصحوا النظام أن يقتل خمسين مواطناً على الأقل في مكان وزمان الاغتيال، عسى أن يكون القاتل أحدهم، وعسى أن يفصلوا الشعب عن الثوار، فيستطيع النظام عندئذ السيطرة على الطليعة المقاتلة، التي كانت تلقن عملاء النظام دروساً موجعة خلال النصف الأول من عام (١٩٨٠).

ولذلك نفذ نظام الطغيان مذابح جماعية كثيرة في حماة وغيرها، أكبرها مأساة حماة عام (١٩٨٢م) حيث اتضح أن حافظ الأسد نفسه أعطى تعليماته للجيش بأن يقتل يومياً كذا مواطن من حماة، مما جعل يحيى زيدان مدير المخابرات العسكرية يعترض لأن هذا القتل الفوري يحرم المخابرات فرصة التحقيق وكشف المعلومات الضرورية واللازمة، ولأهمية ذلك أفردت له فصلاً خاصاً قادماً إن شاء الله.

أما مجزرة باب البلد: فهي إحدى المجازر الثانوية بعد مجازر (١٩٨٢م) وقد تمكنت من مقابلة أحد الناجيين منها في موسم الحج وكان قادماً من إحدى دول الخليج، وكان من المواطنين الذين اكتووا بنارها، ونجاه طول الأجل، ورواها لي كما وقعت.

يقول (أبو حيان الحموي) كنت زائراً عند بعض أقاربي في حي باب البلد، أتفقدهم لغياب رب أسرتهم الذي غيبته المخابرات العسكرية، ومازال غائباً حتى اليوم، وشاء الله عزوجل أن أشهد أقسى تجربة يشاهدها إنسان في حياته، عندما يشاهد الموت على بعد ثوان فقط منه :

(في الرابعة من فجر يوم: ١٩٨١/٤/٢٢م كانت مجموعة من الطليعة المقاتلة تختبئ في مقبرة باب البلد، وتكمن منتظرة سيارات الوحدات الخاصة، ولما مرت سيارة للوحدات الخاصة اشتبكوا معها، وقتلوا منها، ويبدو أنهم تمكنوا من الفرار.

لذلك قرر قائد الكتيبة الانتقام من الحي المجاور للمقبرة وهو حي باب البلد وبجواره البرازية، عملاً بالاستشارة التي قدمها الخبراء السوفييت (الصهاينة)، الذين استقدمتهم الحكومة السورية عام (١٩٨٠م) لدراسة الحالة الأمنية في حماة، وقد عاينوا عدة مواقع في حماة جرى فيها اغتيال بعض أعوان السلطة، وكان خلاصة تقريرهم أن هذه المدينة كلها مجرمة، وهي متعاونة مع هؤلاء (المخربين)، لأن (المخرب) يقتل ضحيته ويفر ثم يختبئ أمام هؤلاء المواطنين، ولا يسهمون في القبض عليه، أو على الأقل إرشاد وحدات الجيش المنتشرة في كل مكان من المدينة، والتي تصل إلى موقع الاغتيال بعد بضع دقائق فقط، ولا تتمكن من القبض أو معرفة الجاني، لذلك ننصح بقتل عشرات المواطنين، في الموقع الذي جرى فيه اغتيال أي عميل للسلطة، حالاً وبدون تحقيق، وبدون التعرف على الأسماء، يكفي أنهم من ذلك المكان، كي نجبر أهالي مدينة حماة على الوقوف مع السلطة ضد(أفراد العصابة)، وعلى الأقل يمنعونهم من البقاء بينهم أو التحرك في حيهم. هكذا كانت نصيحة الخبثاء اليهود السوفييت، وطبقها النظام السوري بحذافيرها عام (١٩٨١م)،

وكانت هذه النصيحة بداية رجحان الكفة عسكرياً نحو جانب السلطة، بعد أن كانت الكفة العسكرية ترجح نحو مقاتلي الطليعة خلال (١٩٧٩، ١٩٨٠).

في الخامسة فجراً تقدمت وحدات خاصة من الشارع المحاذي لكلية الطب البيطري، وأخذت المواطن مصطفى دياب من بيته (أصله من قرية بسيرين، ويسكن حماة منذ ربع قرن)، ثم أخذوا سبعة مواطنين وجدوهم في فرن (عفشة)، ثم أخذوا ولدين شابين من أولاد أبي صالح الزعبي، ثم أخذوني من بيت أقاربي، وكنت الحادي عشر، والحمد لله أنهم لم يعرفوا أنني من خارج الحي، ولو عرفوا لقتلوني منفرداً، ولكن شاء الله أن أبقى حياً، لأنهم ما كانوا يسألون أحداً عن اسمه، وقبل وصول شارع باب البلد صفونا في الشارع وأهل الحي يتفرجون علينا من نوافذ بيوتهم، ورمونا بالرصاص فوقعنا جميعاً، وقد أصابتني ثلاث رصاصات إصابات غير قاتلة والفضل لله، وكان غيري جريحاً أيضاً، وتركونا ممددين في الشارع، وتابعوا سيرهم إلى باب البلد فأخذوا المواطن خالد الرزوق وأولاده الثلاثة من بيته (وهو صاحب بقالة كبيرة ومشهورة في المنطقة، يشتهر بدماثة خلقه وسماحته في البيع، وغيرته على الدين يرحمه الله)، وأخذوا المواطن شمدين الملي، وأبا أكرم الحلاق وولده، (استطاع أن يهرب الأب من خلفهم ويدخل في زقاق جانب خان سليم حمادة ولم يلحقوه وبقي ابنه معهم، فنجا الأب وقتلوا الابن)، ثم أخذوا عبد المنعم حداد (شقيق الشاعر عبد القادر حداد) ومواطن من آل البرازي وآخر من آل تركماني، وكلما وصل عدد المواطنين معهم إلى ما يزيد عن عشرة رشوهم في الشارع وتركوهم ممددين تحت المطر. كما أخذوا عدداً من المواطنين من بيوتهم من شارع أبي الليث الذي يصل البرازية مع باب البلد ورشوهم عند سوق النحاسين.

ووصل عدد المواطنين الذين رشوهم في صباح ذلك اليوم إلى اثني وسبعين مواطناً أخذوهم من بيوتهم، وقد استشهد منهم سبعون يرحمهم الله، ونجا منهم اثنان كنت أحدهم.

بقينا ممددين حتى السادسة صباحاً حيث رجعوا إلينا، وكنت ممدداً على بطني، وشعرت أن الموت اقترب مني، وصرت أهمس في قلبي دون أن أحرك عيني المغمضتين، وكنت أتمنى لو أستطيع أن أسد أذني كي لا أسمع الجندي وهو يطلق عليّ رصاصات الإجهاز، وأجهزوا على مصطفى دياب يرحمه الله، وقال أحدهم لزميله القريب مني: تفقد ذاك الذي نام على بطنه يبدو أنه لم يمت، واقترب العسكري مني، ثم ناداه الضابط بسرعة فذهب إلى الضابط ولم يتفقدني [لأن أجلي لم ينته]، وبقينا ممددين أمام

أعين أهلنا وأقاربنا حتى العاشرة صباحاً تحت المطر، حيث انسحبت كتيبة الوحدات الخاصة من المكان.

كنت مصاباً بجرح كبير حول الكلية، ولما تأكد أهلونا من ذهاب الوحدات الخاصة أسرعوا إلينا، ووجدوني حياً فنقلني أحدهم إلى مخفر الشرطة لكنهم رفضوا أن يفعلوا شيئاً، فأعادني وفي شارع العلمين صادفتنا سيارة الإسعاف فأوقفهم وحملتني إلى المستشفى الوطني، وهناك وجدت عشرات الجثث مازال دمها ينزف، ووجدت مسؤولين من المخابرات وغيرهم من وحدات الأمن ولما حققوا معي [ولأن أجلي لم ينته]؛ هداني الله ولم أقل لهم أن الوحدات الخاصة ضربوني، وإنما قلت لهم جماعة مجهولين وغالباً يكونوا من عصابة الإخوان، لذلك تركوني وشأني، أما المستشفى فكان مكتظاً بالجرحى، ولم تسمح لي المخابرات العسكرية بالمعالجة فيه، فأعادني أقاربي إلى بيتي، لأعالج هناك بحقن مضادة للالتهاب، وينظفون لي الجرح بالمعقمات، وبقيت خمسة عشر يوماً فيه حتى كتب الله لي الشفاء.

وقد عرفت فيما بعد أن جريحاً كان معنا نقله أهله إلى دمشق للعلاج، ولما حققت معه الوحدات الأمنية وقال لهم ضربتني الوحدات الخاصة أجهزوا عليه في الحال.

وعرفت في المستشفى أنه في نفس اليوم (١٩٨١/٤/٢٢م) وفي المساء وقعت مجزرة جماعية في حي بستان السعادة ذهب ضحيتها قرابة سبعون مواطناً.

هذه عينة من المجازر الجماعية التي ارتكبها النظام الأسدي في سوريا، ارتكبها ضد المواطنين الأبرياء، عملاً بنصيحة أسياده الصهاينة السوفييت. نسأل الله عزوجل أن ينتقم من الظالمين في الدنيا وفي الآخرة، وأن نرى بأعيينا ذلهم ومهانتم، والله على كل شيء قدير..

١٢- مجزرة حماة الثالثة في (١٩٨٠/١٠/١٠م) حيث أعادت السلطة تمشيط المدينة وقتلت ثلاثة عشر مواطناً بريئاً.

١٣- مجازر الحجاب في (١٩٨٠/٩/٢٩م) اقترفت السلطة مجزرة الحجاب حين نزعت بالقوة حجاب النساء المصونات في شوارع دمشق، وسقطت ضحايا بريئة من النساء والرجال ولعدة أيام، وانتقلت انتهاكات الحجاب وردود الفعل إلى المحافظات الأخرى.

الفصل الثامن

عودة إلى مأساة حماة[١]

حماة مدينة سورية تقع شمال العاصمة دمشق بنحو مائتي كيلاً، وشرق بانياس الساحل بسبعة وتسعين كيلاً، تشتهر بنواعيرها على نهرالعاصي، ويقترب سكانها من نصف مليون نسمة حالياً في التسعينيات الميلادية، جميعهم من المسلمين السنة، ماعدا حي للنصارى يسمى حي المدينة في وسطها، ويغلب على سكانها المحافظة على الإسلام وتقاليده، والمحافظة على العادات العربية الأصيلة لأن حماة سوق للبادية السورية حيث القبائل العربية، ويكثر تعامل أهالي حماة مع البدو حتى صارت حماة من أكبر أسواق البادية في سوريا. ويحيط بحماة ريف مكتظ بالسكان، يكثر فيه العلويون في المنطقة الغربية من المحافظة، والإسماعيليون في المنطقة الشرقية، وقد أسهم حجم المدينة الصغير (ربع مليون نسمة في الستينيات)، وعدم وجود غير المسلمين السنة فيها[٢]، ووجود علماء أفاضل مثل الشيخ محمد الحامد يرحمه الله الذي نذر نفسه وعمره لتعليم أهالي حماة دينهم، أسهم هذا في طبع مدينة حماة بالطابع الإسلامي الذي ميزها عن غيرها من المدن التي هاجر إليها ألوف الأسر العلوية، هرباً من الفقر والقحط في الجبل، وشكلوا فيها أحياء كبيرة، واختلط الناس وعم الفساد والبعد عن العادات والمظاهر الإسلامية.

لهذاكله تعتبر مدينة حماة معقلاً من معاقل الحركة الإسلامية في سوريا، وقد ربت مئات الدعاة والقادة في الحركة الإسلامية منهم على سبيل المثال لا الحصر، الشيخ محمد الحامد يرحمه الله، والشيخ خالد الشقفة والشيخ محمود الشقفة، والشيخ سعيد حوى، والشيخ أديب الكيلاني، والشيخ محمد علي مراد، والشيخ عبد الله الحلاق، والأستاذ عدنان سعد

---

(١) سبق الحديث عن مجزرة حماة الكبرى كما وردت في تقرير منظمة العفو الدولية، وهنا أتحدث عنها حسب رواية بضعة إخوة كتب الله لهم النجاة، ووصلوا بغداد، ومن أقوالهم نشر الإخوان كتاب حماة مأساة العصر...

(٢) أما النصارى الحمويون فكانت نساؤهم يرتدين الثياب الساترة تمشياً مع عادات المسلمين حتى الخمسينيات.

الدين، والشيخ الشهيد مروان حديد، والدكتور عبد الستار الزعيم، وهشام جنباظ، وعمر جواد، وعمر مرقة،... ومئات القادة الشباب الذين استشهدوا خلال الحركة الجهادية، وعشرات الأخوة القادة الذين مازالوا يقودون الحركة الإسلامية.

ومن أصدق الصورالمعبرة عن هوية المدينة أنه بعد عشر سنوات من حكم البعثيين أي في عام (١٩٧٣م)، عندما أراد البعثيون تغيير الدستور وألغوا مايمت فيه إلى الإسلام ولو اسمياً، عندئذ خرجت مظاهرة عارمة يقودها طلاب المدارس الإعدادية المتوسطة (أي تربوا خلال حكم البعثيين)، وقامت هذه المظاهرة برفع شعارات إسلامية، كما رفعت شعارات العداء لحزب البعث، وانحرفت المظاهرة عن مخططها كعادة الشارع الحموي، فأحرقت مكتب حزب البعثيين، وحطمت مقصف الغزالة والخمارات الموجودة في المدينة. وكانت هذه المظاهرة بداية المعركة بين حماة خاصة والحركة الإسلامية عامة من جهة والسلطة الأسدية من جهة ثانية.

يمر نهر العاصي في حماة ويقسمها إلى الحاضر وهو القسم الشرقي من المدينة، والسوق وهو غرب النهر، ويمتاز أهل الحاضر بأنهم أكثر شجاعة والتزاماً بالإسلام وتقاليده. والحاضر سوق لبادية الشام، حيث منتجات البادية من الحليب واللبن والجبن والسمن والصوف والماشية.

في حماة نشأ مروان حديد يرحمه الله كما أسلفنا، وفي حماة حصل أول اصطدام مع البعثيين عام (١٩٦٤م)، وفي حماة ربى مروان حديد يرحمه الله الرعيل الأول من شباب الطليعة المقاتلة، وكان مخيمه الدائم عند دوار (الجاجية) يعج بالأشبال الذين رباهم مروان يرحمه الله على حب الجهاد والموت في سبيل الله عزوجل، الذين عرفوا فيما بعد باسم الطليعة المقاتلة، والذين جعلوا حافظ الأسد وشقيقه رفعت يفقدون صوابهم ويصلون إلى حافة الانهيار عام (١٩٨٠م) قبل أن يطبقوا نصيحة المجرمين الروس، وينفذوا المجازر الجماعية بالمواطنين.

لذلك كله كان بعض العلويين ينتظرون الفرصة المواتية لتدمير مدينة حماة، وقد صدرت عدة تصريحات من مسؤولين كبار مثل رفعت أنهم سيدمرون المدينة ويحولونها إلى حديقة عامة ومراقص وحانات، والحقد يعتلج في صدورهم وصدور آبائهم منذ ما يزيد على مائة سنة. وقد نقل عن رفعت الأسد أنه يقول (سأجعل المؤرخين يكتبون أنه

كان في سوريا مدينة اسمها حماة... وأنه سيبيد أهلها لتكون عبرة لغيرها من المدن السورية[١].

الجو العام قبل مأساة حماة :

حصار السلطة لمدينة حماة :

تروي مصادر الطليعة[٢] أنه رأت السلطة أن الوقت مناسب لتوجيه الضربة الحاقدة التاريخية لمدينة حماة، خاصة وأنها تضم مئات المقاومين المسلحين، فضربت السلطة حصاراً يتكون من ثلاثة أحزمة من الجيش حول حماة، وبدأت بالتمشيط والاعتقالات والتعذيب لكشف التنظيم في حماة ومعرفة القواعد العسكرية.

عدنان عقلة يدخل حماة قبيل المأساة ويخرج منها

رغم الأحزمة الثلاثة التي أحاط الجيش بها مدينة حماة تمكن عدنان عقلة من الوصول إلى حماة، والطليعة منفصلة عن الإخوان، ونزل عدنان بعد أن حصل على وعود عراقية بتقديم أسلحة له حتى الدبابات إذا تمكن من محاربة الأسد الذي زاد دعمه لإيران المحاربة للعراق يومذاك.

أطلع أبو بكر عدنان عقلة على أن السلطة تريد إخراج المقاومين من قواعدهم للصدام العلني مع الجيش، وأنه بسب الاعتقالات الجماعية والتعذيب الوحشي، تمكنت السلطة من كشف خطوطهم، وأنه لا يستبعد أن تكون قاعدته القيادية مكشوفة أيضاً، وأنه لا مفر من الصدام، فالدولة تعمد إلى نسف كل بيت يشكون فيه على رؤوس أصحابه، وأنه لو استمرت الحال فإن معظم القواعد وفيها مئات المقاومين ستدمر بدون ثمن[٣]. ولذلك قرروا الصدام فجر يوم (١٩٨٢/١/٢٥م)، وأنه يأمل أن الصدام سيحرك ضمائر بعض الضباط في الجيش، فإن لم يكن فالموت العزيز في الشارع في الهواء الطلق؛ مع تكبيد السلطة أكبر قدر ممكن من الخسائر؛خير من الموت تحت الركام، ثم حمل عدنان رسالته الأخيرة إلى القيادة مع نداء مؤثر للمشاركة في المعركة بما وسعهم ونبذ خلافاتهم.

---

(١) انظر: كتاب حماة مأساة العصر، من منشورات التحالف الوطني لتحرير سوريا، ص ٤٢.

(٢) عمر عبد الحكيم، الثورة الجهادية في سوريا، آلام وآمال، ص ٢٨ .

(٣) وهذا دليل آخر على أن السلطة وليس الإخوان هي المسؤولة عن مسلسل الدم الذي غمر سوريا عامة وحماة خاصة، فهؤلاء المقاومين حصرتهم السلطة وأحكمت عليهم الحصار، ولم يبق أمامهم إلا الموت، فقرروا أن يموتوا في ميدان المعركة وليس تحت الركام.

وعد عدنان أبابكر أن يخرج ليأتي بالطليعة كلها للمشاركة في الصدام، وأقنع أبابكر بتأجيل الصدام أسبوعاً ليتمكن من العودة، وخرج عدنان من حماة إلى العراق، ووصل في (١٩٨٢/١/٢٤م) ونشر عدنان نص رسالة أبي بكر على قواعد الإخوان متجاوزاً القيادة بعد أن فشل في إقناعها للنزول إلى حماة، وانتقل عدنان مع مائة من شبابه إلى العراق، لكن لم يتمكن من الدخول إلى سوريا. وتدعي مصادر الطليعة أن الإخوان والعراق منعوه من ذلك.

مجرى أحداث المأساة في حماة :

روى الإخوة المقاومون الذين كتبت لهم الحياة، وخرجوا من قبو بيت ليلاً بعد انتهاء المعارك، بعد أن شاركوا مع إخوانهم المقاومين في حماة تحت قيادة الأخ الشهيد أبي بكر يرحمه الله، ثم الأخ أبو عارف يرحمه الله، وكتب الله لهم البقاء فخرجوا من حماة، رووا ما يلي[١].

في يوم الثلاثاء(٢/٢ /١٩٨٢م) وفي الساعة الواحدة والثلث ليلاً قامت قوة عسكرية قوامها (٥٠٠) عنصر من سرايا الدفاع بتطويق حي البارودية الشعبي، ووصلت عشرون سيارة اقتحام مصفحة، وتقول الطليعة أن أبابكر (أحمد جواد) التقط مكالمة لاسلكية عسكرية مفادها أن هذه القوات متجهة إلى قاعدته القيادية، وقامت السرايا بتفجير بعض البيوت التي يختبئ فيها المقاومون، عندها هب المقاومون من مختلف الجهات، وتمكنوا من تدمير هذه القوة، وهرب عناصر السلطة من حي البارودية. وبدأ المقاومون بضرب وحدات سرايا الدفاع المتمركزة في المدينة.

وفي الصباح وصلت الوحدات الخاصة من قرية (محردة)، وقامت السلطة بإنزال جوي شرق حماة، وحاول اللواء (٤٧) الدخول بدبابات (ت ٥٤) من شارع العلمين، لكنه أخفق وأعطبت كثيراً منها، ومضى اليوم الأول بإخفاق السلطة من دخول حي البارودية.

الأربعاء (١٩٨٢/٢/٣م: اتضح أن السلطة تريد احتلال وتدمير الأحياء القديمة، فدافع المواطنون عنها ببسالة وصدوا قوات السلطة عنها.

---

(١) وهذا ما اعتمده الإخوان في كتاب حماة مأساة العصر بدء من الصفحة (٤٩) تحت عنوان يوميات المجزرة.

وفي الخميس (٤/٢) تبرز ظاهرتان الأولى زج اللواء (٢١) الميكانيكي بعد تدمير معظم آليات اللواء (٤٧)، وشروع السلطة بالمجازر الجماعية، ونفذت هذا اليوم مجزرة جنوب الملعب البلدي وقتلت ألف وخمسمائة من المواطنين العزل، بعد أن أخرجتهم من بيوتهم وجمعتهم في الساحات، أو أخذت بعضهم إلى مقبرة سريحين لقتلهم هناك، أو قتلت بعضهم أمام أفراد أسرته عند باب بيته، ثم قتلوا بقية أفراد الأسرة. مع أن هذا الحي لا علاقة له بالمقاومين، ولاتوجد فيه قواعد أبداً، ولم يفكر المقاومون في ذلك، حيث أن هذا الحي حديث ولا يمكن الاستفادة منه عسكرياً كالأحياء القديمة[1]، ومما قتلتهم السلطة ضابط حموي كان في إجازة (وهو الرائد أحمد عبد الحميد عزيّز) وهو بعثي ابن بعثي، ووالده من قيادات العمال،كما قتل بعثيون أظهروا بطاقاتهم الحزبية ولم تنجيهم من القتل. وفي هذا اليوم استشهد الأخ (عمر جواد) أبو بكر يرحمه الله، عندما أصيب من جراء قذيفة دبابة يرحمه الله، فخلفه الأخ أبو عارف.

في يوم الجمعة (٥ شباط) اقتحمت السلطة بعض الأحياء الشعبية، وشرعت بالتدمير الشامل لبيوتها بالقصف والتفجير على ما فيها ومن فيها من المواطنين الأبرياء. ومازالت تميل الكفة عسكرياً لصالح المواطنين المقاومين.

في السبت (٦ شباط) قامت السلطة بثلاثة إنزالات جوية على أطراف المدينة، وعلى القلعة وأبيد قسم كبير من هؤلاء الجنود، إلا أن نقص الذخائر لدى المقاومين بدأ يظهر منذ اليوم. وبادرت السلطة إلى تقليل كمية ذخيرة ال (آر. ب. جي)، مع عناصرها كي لا يغنمها المقاومون، وفي هذا اليوم ارتكبت السلطة مجزرة حي سوق الشجرة وقتل فيها ما يزيد على مائة وعشرين مواطناً. ومازالت السلطة تعجز عن دخول الأحياء القديمة، وتكرر المحاولة كل يوم، لكن المقاومين يصدونها بعد تكبيدها خسائر فادحة بالعتاد والرجال. كما ارتكبت السلطة اليوم مجزرة دكان الحلبية وقتلت فيه قرابة مائة مواطن وأحرقتهم أحياء في مستودع الحبوب. كما ارتكبت السلطة اليوم مجزرة حي البياض، وقتلت خمسين شخصاً وألقيت جثثهم في حوض مخلفات معمل البلاط أمام مسجد الشيخ محمد الحامد.

---

(١) أما التفسير العسكري لهذه الهمجية فهو أن احتلال هذا الحي سهل جداً، ولا يكلف السلطة أية خسائر لأنه مسالم، وستخاف بقية الأحياء عندما تسمع ما حل به من القتل الجماعي، وهذا مبدأ عنترة (اضرب الضعيف يخاف القوي).

في الأحد (٧ شباط) ظهر تشبث المقاومين بالأحياء القديمة، بعد أن تمكنت السلطة من السيطرة على الأحياء الجديدة، واستمرت سياسة المجازر، ونهب البيوت والمحلات التجارية، وطور المقاومون قتالهم باختراع متفجرات ضد الدروع، وزرع الألغام.

الاثنين (٨ شباط): في هذا اليوم سقطت منطقة السوق، عدا بعض الجيوب، واستمرت الظواهر السابقة ونفذت السلطة حوالي عشر مجازر، وقتل عدد كبير من الحزبيين والعسكريين وعملاء السلطة على أيدي قوات السلطة نفسها لأنهم حمويون[١]، وتوسع الجنود بعمليات النهب والسلب، والقتل من أجل النهب والسلب. وأحبطت ثلاث محاولات لدخول الحميدية، أما المجازر فهي مجزرة حي الدباغة، ومجزرة سوق الطويل، ومجزرة دكان عبد الرزاق الريس، ومجزرة دكان عبد المعين مفتاح، ومجزرة منشرة آل البدر، ومجزرة حي الباشورة[٢]، ومجزرة آل موسى، ومجزرة آل الصمصام، ومجزرة عائلة الكيلاني. واستمرت المعركة، والمقاومون يدافعون عن الحاضر.

في الأربعاء (١٧ شباط) انقطع الاتصال بين مجاهدي الكيلانية، ومجاهدي البارودية، وبدأت السلطة بالغارات الليلية.

في يوم الأحد (٢٢ شباط) باتت المنطقة التي يدافع عنها المقاومون لا تتعدى عشرين منزلاً، محاطة بالدبابات من كل جانب، ولم يبق لدى المقاومين سوى البندقية.

في يوم الثلاثاء (٢٣شباط) تنطوي ملاحم البطولة الشعبية، بانتهاء آخر دفاع للمقاومين عن حي البارودية، وفيه المعارك الأخيرة في البارودية، والمقاومون في قبو بيت العروانة، واستشهد (أبوعارف) وهو قائد المقاومين بعد استشهاد أبي بكر يرحمهما الله، وتمركز بقية المقاومين في قبو بيت العرواني، وعجزت السلطة عن دخوله، فهالوا التراب بالجرافات على مدخل القبو، بعد أن ألقوا فيه عدة قنابل وقذائف (آر. بي. جي)، وآلاف الطلقات عن بعد، ودخل التراب في بنادق المقاومين، وكان الوقت عصراً وظل المقاومون حتى الثامنة مساء، حيث فتحوا ثغرة في التراب وانسحبوا وهم ثمانية.

---

(١) وهذا دليل على الحقد التاريخي عند العلويين على الحمويين، فكل حموي حتى لو كان بعثياً عدو لهم يجب قتله.

(٢) قتل في هذه المجزرة أسرة كاملة من آل الدباغ وعددها عشرة أفراد ومعهم الأم والأب، ولم ينج منها سوى (هبة الدباغ) لأنها كانت معتقلة في دمشق، وشقيقها صفوان كان في عمان.

وبعد انتهاء المقاومة قامت السلطة في اليوم التالي بتفجير عدد كبير من المساجد وهدمها، واعتقلت حوالي (١٥٠٠) مواطن معظمهم من العلماء ومدرسي التربية الإسلامية وموظفي الأوقاف ومعهم مفتي حماة الشيخ بشير مراد. ومازال مصيرهم مجهولاً، إلا أنه يغلب على الظن أنهم قتلوا ودفنوا في مقبرة جماعية بالقرب من قرية براق.

وفي يوم الأحد (٢٨ شباط) طوقت السلطة قرية طيبة الإمام بإنزال جوي، واعتقلت تسعة مواطنين منها، منهم القاضي محمد أحمد قناص يرحمه الله.

القوات المشاركة في مأساة حماة:

اللواء (٤٧) دبابات، واللواء (٢١) ميكانيكي، والفوج (٤١) إنزال جوي، واللواء (١٣٨) من سرايا الدفاع، واللواء (١٤٢) دبابات من سرايا الدفاع، والفرقة الانتحارية (٢٢) من سرايا الدفاع، والفوج (١١٤) مدفعية ميدان، وهكذا تكون مجمل الأسلحة

١ ٢٤٨ دبابة من طراز ت ٦٢، وت ٧٢.

٢ ١٠٨ مدفع ميدان عيار (١٣٠) ملم ومداه (٢٥) كلم.

٣ ٤٨ مدفع هاون عيار (١٦٠ ملم).

٤ ٢٤٨ قاعدة إطلاق صواريخ.

٥ استخدمت الحوامات المزودة بصواريخ مضادة للدروع (جو أرض).

٦ استخدمت وحدات راجمات الصواريخ الكورية الملحقة بسرايا الدفاع بكثافة وفعالية.

٧ حوالي (٢٥٠٠٠) جندي.

وتصل نسبة العلويين في اللواء (٤٧) إلى (٣٠) بالمائة من الجنود، و(٧٠) بالمائة من الضباط، وفي اللواء (٢١) (٨٠) بالمائة من العلويين والباقي من البعثيين، أما الوحدات الخاصة فالجنود العلويون (٤٥) بالمائة، أما الضباط فهم (٩٥) بالمائة، أما سرايا الدفاع فمجموع نسبة الجنود مع الضباط العلويين تصل إلى (٩٠) بالمائة.

وعلى الرغم من أن الانتفاضة الشعبية التي قام بها أهالي حماة لم تكن مخططة، وإنما كانت دفاعاً عن النفس[١]، ورغم التكتيكات المرتجلة والبسيطة، ورغم أسلحة المقاومين

---

(١) وقد سمعوا بمجزرة جنوب الملعب البلدي، وهو حي مسالم للسلطة، فعرفوا أن السلطة تريد قتل الحمويين لأنهم حمويون لذلك هبوا للدفاع عن أنفسهم . وهكذا أدت مجزرة جنوب الملعب عكس ما أراد الأسديون، أرادوا أن يخاف الحمويون فيستسلموا للقتل كالنعاج والدجاج، ولكن الحمويين استأسدوا عندما عرفوا أن السلطة تريد قتلهم على أية حال لذلك ظهرت منهم مقاومة عجيبة ....

الخفيفة التي لا تكافئ أسلحة السلطة، بالرغم من ذلك كله فإن قوات السلطة ما كانت لتجتاح حماة لولا النقص المريع لدى المقاومين في الذخيرة، والذي عجز المقاومون داخل حماة عن تعويضه واستكماله في الوقت المناسب، كما عجز المقاومون عن إيصال الذخيرة لميدان المعركة وقد حاولوا بسبب الحصار المحكم على المدينة، وقد أدركت السلطة ذلك فأنقصت ذخيرة عناصرها اليومية إلى النصف، وخاصة قذائف (آر. بي. جي) كي لا تقع بأيدي المقاومين.

سياسة المجازر في حماة :

المجازر الجماعية هي الأسلوب الذي ابتدعه المجرم ستالين في تصفية المسلمين السوفييت، وقتل منهم عدة ملايين، وعند السلطة الأسدية التي أخذت بنصيحة الخبراء الروس كان القتل هو الأساس، الذي بنت عليه السلطة استراتيجيتها في معالجة موضوع حماة، ومما يلفت النظر أن أوامر القتل تأتي أحياناً محددة عددياً، من قبل السلطات العليا، فيأتي الأمر بأن يكون القتلى اليوم سبعة آلاف، وفي يوم آخر يجب أن تزيد إلى عشرة آلاف، أما الاعتقال فهو وسيلة مساعدة للهدف الاستراتيجي وهو القتل، وقد اعترض العقيد العلوي يحيى زيدان قائد المخابرات العسكرية على القتل لأنه يحرم المخابرات العسكرية من خيوط التحقيق، وقد رفع احتجاجه هذا إلى حافظ الأسد، الذي تحدث مع المقدم علي ديب في هذا الموضوع، فقال المقدم ديب سيدي المعتقلات لا تتسع أين أضعهم؟ مع أننا لم نترك مدرسةً أو معملاً إلا استخدمناه فأين أضعهم؟ فقرر حافظ الأسد أن يقتلوا الثلث من رجال الحي ويعتقلوا الثلثين للتحقيق، مع التقيد بالعدد المحدد يومياً للقتل، فالسياسة العليا ترمي إلى تصفية شعب حماة في أسرع وقت ممكن، لقطع الطريق على انفجارات جديدة في القطر، وإعادة القطعات العسكرية إلى لبنان، للحاجة لها هناك، والخوف من انكشاف أمر المرتزقة العلويين الأتراك وهم حوالي (٦٠٠) عنصر، اشتركوا في تدمير حماة، فالوقت لا يسمح بالمزيد من التحقيقات. وكان من الأوامر التي صدرت من حافظ الأسد في نهاية الصراع المسلح مع المقاومين، رفع عدد القتلى إلى رقم محدد، حدده بنفسه، مساء يوم الخميس (٢٥/٢/ ١٩٨٢م)، وفي صبيحة الجمعة قامت القوات بحملة اعتقالات واسعة، وسيقت مجموعة للقتل فيها (١٥٠٠) مواطن، بينهم مفتي حماة ورئيس جمعية العلماء وعدد من العلماء، وقيل أنهم دفنوا في منطقة قرية (براق) أو على طريق محردة في حفرة جماعية. (المرجع كتاب حماة مأساة العصر).

وهكذا وصل عدد المواطنين الذين قتلتهم السلطة إلى قرابة أربعين ألفاً، واعتقل قرابة ستين ألفاً بقي كثير منهم طوال خمسة عشر عاماً في المعتقلات.

من بطولات أهل حماة :

من المعروف لدى الحمويين والباحثين أن الوحدة الأولى من سرايا الدفاع أو الوحدات الخاصة التي شنت الهجوم الأول على البارودية حيث قيادة المقاومين دمرت (ومصطلح دمرت العسكري يعني قتل بعضها وجرح بعض آخر وهرب الباقون، كما تعطلت معظم آلياتها)، وكذلك الإنزال المظلي على القلعة، وكذلك أول هجوم للواء (٤٧) من شارع العلمين، وغيره كثير...ولكن جرت العادة أن الهزيمة تغطي البطولات التي كانت قبلها... وهذه بعض الأمثلة وليست للحصر:

١- في منطقة الكيلانية المحاصرة حاولت دبابة الدخول إلى الحي، فخرج إليها أحد المقاومين ببندقيته فاستشهد فوراً، ولكنه أخاف الغزاة فلم يجرؤ أحد منهم على اقتحام الحي بدبابته مخافة مثل هذه العملية الاستشهادية.

٢- وفي منطقة الطوافرة طاردت إحدى الدبابات أحد المقاومين وبيده بندقية، فتصدى لها مجاهد غيره، وأطلق النار من رشاشه، وشاء الله أن تصيب رشة مدفع الدبابة فأعطبته.

٣- وتسلّق طفل في الشرقية على دبابة، وبيده سكين، وقبل أن يتمكن من طعن أحد عناصرها بسكينه هاجمته عناصر أخرى واعتقلته، ولما قدموه إلى الضابط سأله الضابط، وقد رآه طفلاً: كم عمرك؟

- ١٢ سنة. - لماذا تفعل هذا؟

- أجاب الطفل برباطة جأش: لأنكم قتلتم أبي ودمرتم بلدي.

٤- كما حاول أحد الأشبال التسلق على دبابة، وأمسك بمسكات الصعود ليقذف بالرمانة اليدوية داخل البرج، وحاول أحد العناصر منعه من ذلك، فحرك برج الدبابة لكن الشبل كان مصمماً على فعله، وتمكن من قذف القنبلة داخل البرج وقتل من فيه.

٥- وثمة مجاهد شاب عمره (١٨) سنة بترت ساقه في أثناء المعارك، ولكنه أصر على متابعة القتال بساق واحدة، وتمكن من قتل قائد كان يشرف على حركة الدبابات في حي الشرقي، كما أصر على عدم الانسحاب، وأخيراً استشهد وهو يدافع عن بيت الجرحى، بعد أن أردى عدداً من العناصر المهاجمة.

ومن هذه البطولات التي قام بها أطفال دون الثانية عشرة من أعمارهم:

٦- أن طفلاً في حي الزنبقي طلب من أمه أن تلبسه ثياباً جديدة لأنه يريد أن يلقى بها ربه، وامتثلت أمه لطلبه، ثم ودعها وانضم إلى المقاومين يخدمهم ويقاتل معهم إلى أن استشهد.

٧- ومن هؤلاء الأطفال كان هناك طفل في الثانية عشرة من العمر يقوم بعمليات القنص من فوق إحدى البنايات، وانتبه اليه أحد الضباط فأمر عناصره بالصعود إلى ذلك القناص وقتله، وعندما رآه العناصر طفلاً احتالوا عليه إلى أن تمكنوا منه واستاقوه إلى الضابط. أعجب الضابط بهذا الغلام وسأله: كم عنصراً قتلت؟ قال الشبل بقوة وبرباطة جأش: كثير. وفيما الضابط يحاوره والعناصر ينظرون إليه يريدون تمزيقه، باغت أحدهم وأخذ منه بندقيته، فقتل عدداً منهم، ثم ارتفعت روحه إلى عليين.

٨- وفي حي الحاضر جرح جندي وسقطت بندقيّه إلى جانبه، فهجم عليه طفل في الحادية عشرة من عمره وهو يحمل لبنة يخيفه بها حتى وصل إلى البندقية، فأخذها وساق العنصر الجريح أمامه، وسلمه لمجموعة من المقاومين كانوا يرفضون تسليح هذا الشبل لصغر سنه، ولكنهم الآن فرحوا به، وتركوا له بندقيته.

٩- وأدخل شبل في الثالثة عشرة من العمر إلى مستشفى المقاومين، وكانت إحدى يديه مسلوخة الجلد. وراح الطبيب يجري له العملية اللازمة، والشاب الصغير يبتسم ويهتف "الله أكبر"، وكان يحمل بيده الأخرى رمانة يدوية حاول المقاومون والطبيب عبثاً انتزاعها منه، فألحوا على معرفة اسمه، فامتنع، ثم خرج يقاتل، ولما يتماثل للشفاء. كان ذلك في اليوم الخامس لاجتياح حماة.

١٠- وكان عدد من الأطفال يساعدون المقاومين في تعبئة زجاجات مولوتوف، وفي قذفها على الدبابات المهاجمة، حصل هذا في أكثر من حي، وخاصة في شارع ٨ آذار.

١١- ومن النساء امرأة مؤمنة كانت تؤوي ثلاثة من المقاومين الجرحى في بيتها تداوي جراحهم، وتبث الحمية في قلوبهم، وترفع من معنوياتهم كما فعلت بكثيرين قبلهم وبعدهم. وفيما هي كذلك، إذا دورية تداهم البيت، فما كان منها إلا أن تناولت السلاح الذي كان بجانبها، وأطلقت النار على الدورية المؤلفة من ثلاثة عناصر فأردتهم قتلى، ثم جلست متأهبة متربصة بآخرين.

١٢- عناصر السلطة الباغية دخلت البيت على امرأة تحمل طفلها، وأرادوا انتزاعه منها ليقتلوه، فما كان منها إلا أن حملت يد (الهاون) النحاسي ونزلت به على جمجمة أحدهم فحطمتها. فعاجلها (أبطال) أسد برشات أودت بحياتها وحياة طفلها.

١٣- وفي البارودية امرأة مؤمنة حملت الطعام للمراكز الأمامية للمقاومين، وسألتهم عن بيت الجرحى، فأظهر المقاومون الاستعداد لحمل هذا الطعام، وأصروا عليها، فأبت وقالت: لا. إلا بيدي. وحذروها من أن تنالها رصاصات العدو. فقالت: حياتي ليست أغلى من حياتكم، والله لن يوصله أحد غيري. فأوصلته وأطعمت الجرحى بيديها.

١٤- وفي حي العصيدة دخل مسلحون بيت امرأة فظنتهم من المقاومين ورحبت بهم قائلة: أهلاً وسهلاً بالمقاومين، الشعب كله معكم. الله ينصركم. فما كان من أزلام السلطة إلا رميها بالرصاص.

١٥- وإحدى النساء كانت زائرة في حي الشرقية شاهدت تراجع المقاومين (على الرغم من أنه كان تراجعاً منظماً لاستدراج قوات السلطة)، فقالت: (ياحيف) الشباب بتهرب. وأخذت بندقية وبدأت تكبر وتطلق بها على الدبابة المتجهة نحوها، فأثارت نخوة الخائفين فاندفعوا إلى المعركة.

١٦- في حي باب الجسر دخلت مجموعة من العناصر أحد الأقبية لجأت إليه ٢٥ امرأة من شدة القصف المدفعي والصاروخي، وأراد عناصر البغي سبي فتاة منهن، فقامت النسوة قومة واحدة يصرخن ويولولن فبهت العناصر لهذا الموقف الجريء، ووقفوا جامدين فقالت لهم إحدى النساء: خذوا ما تشاؤون ودعوا هذه الفتاة. وأخذت صنائع أسد كل ما معهن من ذهب قدر بعشرة كيلوغرامات، وخرجوا وهم متأكدون أن واحدة منهن لم تخف شيئاً من ذهبها مخافة تفتيشها.

١٧- وفي حي السوق، تدفقت عناصر أسد تريد تمشيطه وإهانة ناسه، فهبت امرأة مؤمنة تنادي بصوت عال: أين أهل النخوة والشهامة؟ فأنهضت بندائها هذا همم الشباب الذين هبوا للذود عن النساء والشيوخ والأطفال، وكانت معركة، سقط فيها من الجانبين الكثير.

١٨- وفي حي الشمالية اعتقل الجيش اثنتين من النساء استاقهما ضابط طائفي، فحميت أنوف أهل الحي وتكفل المقاومون باستخلاصهما. فتسلل أربعة منهم عبر ثغرات

محفورة في الجدران، وفاجؤوه بإطلاق النار عليه، وخلصوا الفتاتين الطاهرتين، واستشهد منهم واحد واعتقل آخر وهو جريح، ثم أجهزوا عليه رمياً بالرصاص.

١٩- في منطقة الباشورة قتلت عناصر السلطة المجرمة رب البيت من آل السواس، ثم أراد الآثمون الاعتداء على شرف زوجته الطاهرة، فقاومتهم مقاومة الأبطال. فما كان من الجبناء إلا أن يصبوا المازوت فوقها وفي أرجاء غرفتها ويشعلوا النيران فيها، فاحترقت وذهبت إلى بارئها أطهر من ماء السماء.

٢٠- وعندما حاولوا الاعتداء على امرأة أخرى قاومتهم واستبسلت في مقاومتهم، ولما يئسوا من تسليمها طعنوها بحرابهم حتى ماتت.

٢١- في المستشفى الوطني كان ضابط يتحدث مع أحد العاملين في المستشفى عن المرأة الجريحة المشرفة على الموت أمامه فيقول: انظر إلى هذه المرأة العجوز التي يغطيها الشيب، أنها كانت تقدم القنابل والرصاص إلى هذا الشيخ الخرف، زوجها المتمدد جانبها وهو مثخن بجراحه، وكان العجوز يرمينا بها.

٢٢- وعندما أراد أحد المقاومين توصيل شيخ عجوز، يعبر به شارع سعيد بن العاص، رفض العجوز حماية المقاوم، وأخرج مسدساً من جيبه، وقال: أنا العجوز أستطيع تأديب هؤلاء بمسدسي هذا، وقطع الشارع بمفرده.

٢٣- ولن ينسى الناس خطبة الشيخ زهير في الجماهير الحموية. وما كان فيها من جرأة نادرة تحدى فيها زبانية أسد. كما لن ينسى الناس رد الشيخ أحمد على الضابط الطائفي الذي أمر العلماء بإدارة وجوههم إلى الوراء ليرميهم بالرصاص. أجاب الشيخ أحمد: نحن العلماء ما اعتدنا أن ندير ظهورنا للرصاص. نحن نتلقاه بصدورنا.

٢٤- الشهيد راغب في حي السوق، اعتقلته عناصر أسد وساقوه إلى الموت رافع اليدين. فانقض على أحد العناصر وخطف منه بندقيته، وقتل أربعة من عناصر السلطة، ثم خر شهيداً برصاص الآخرين، وفعل مثله المجاهد أبو إبراهيم في حي السوق وأبو بهجت في حي الحاضر.

٢٥- وحصل اشتباك بين أربعة من المقاومين وبين أعداد كبيرة من عناصر السلطة داخل أحد الخانات الضخمة، ثم حوصر المقاومون بأعداد كثيفة، وقاتلوا حتى نفدت ذخائرهم واستشهدوا. وهناك شاب في السابعة عشرة من عمره كان مختبئاً مع مجموعة كبيرة من الشيوخ والنساء والأطفال في أحد المخابئ في حي الوادي، وإذا بعناصر السلطة

الباغية تداهم ذلك الملجأ، وتقتل من تراهم فيه، فانقض الشاب عليهم واستخلص منهم بندقية ثم اشتبك معهم ليشغلهم عن أهله لعلهم يهربون من وجوه السفاحين، وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم استشهد.

٢٦- وفي معتقل البورسلان وقف ضابط طائفي وشتم الرسول عليه السلام وسبّ الله تعالى والإسلام و.. و.. فاستأذنه المواطن عبدالجبار من حي الحاضر في الكلام فأذن له. فتقدم منه عبد الجبار حتى إذا ما صار على مقربة منه لكمه لكمة قوية بجمع يديه على صدغه فأرداه قتيلاً. وكان عبد الجبار ذا جسم قوي، فما كان من صنائع أسد إلا أن يوجهوا إليه نيران رشاشتهم فسقط قتيلاً.

٢٧- والمجاهد أبو الفداء من حي السوق، وهو شاب حدث لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، اشتبك مع عناصر السلطة في حي الكيلانية، وأصيب بشظية في كتفه الأيمن فبترت يده اليمنى، ومع ذلك أبى إلا أن يستمر في القتال بيده اليسرى، واستشهد تحت أنقاض حي الكيلانية الذي دمره قصف أسد.

٢٨- أحد الضباط وبّخ أحد عناصره وهو يصفع أحد المقاومين الأسرى ويشتمه وقال له: إن هذا المجاهد الذي تهينه كان يهجم بالبندقية على الدبابات.

٢٩- وعندما اشتد القصف على الكيلانية بشكل مكثف ودقيق في اليوم السابع عشر. قال أحد الجنود لسيده: يا سيدي ماذا نفعل؟ ماذا أقصف؟ لم يعد هناك بناء، إنهم يقاوموننا من بين الأنقاض(١).

---

(١) حماة مأساة العصر/٢٨٩-٢٩٦، بتصرف.

التعذيب في سجون الأسد

إليكم صور من التعذيب في سجن تدمر كما ذكرها الأخ محمد سليم حماد في كتابه: تدمر شاهد ومشهود: والأخ محمد سليم حماد أخ أردني كان يدرس الهندسة في دمشق، واعتقل بتهمة التعاون مع الإخوان المسلمين السوريين، ومكث إحدى عشرة سنة في سجن تدمر، قاسى وعرف أصناف العذاب، ورزقه الله ذاكرة قوية ساعدته على كتابة أعظم مرجع عن التعذيب في سجن تدمر خلال الحكم الأسدي...

وكما ذكرها الأخ خالد فاضل، الذي اعتقل سنتين في تدمر، ولا صلة له بالإخوان، ولا الطليعة، وحماه طول أجله، فخرج وعاد إلى الحياة، وكتب هذا السفر العظيم، (في القاع) يحفظه الله، وكذلك الأخت هبة الدباغ التي اعتقلت تسع سنوات رهينة عن شقيقها الذي خرج من البلاد وهو ملاحق لأنه متهم بالعمل مع الطليعة المقاتلة...

الصورة الأولى: يقول أحد المساجين من دمشق بعد أن فك الله أسره:

(في البدء وضعوني في دولاب (تاير) وضربوني مائة مرة على الأقل، على قدمي، وفي الأخير تورمت قدماي، وسالت منهما الدماء لدرجة لم أعد أستطع المشي، لذا كانوا (يسحلوني) على الأرض لإكمال التحقيق.

أحدهم ضربني بعنف على ظهري وعمودي الفقري مباشرة، ثم أطلقوا التيار الكهربائي في جسمي، حتى فقدت رشدي، وغبت عن الوعي عدة مرات، فيلقون بالماء على وجهي، ويكررون التيار الكهربائي... ولم يقدموا لي طعاماً لمدة أربعة أيام قط. [واعتقل أحدهم خطأً أيضاً، ومكث عشرين يوماً نقص وزنه فيها عشرين كيلو غراماً].

(ومرة ربطوني بالمقلوب إلى السلالم، رأسي إلى أسفل وجسمي إلى أعلى وبدأوا يركلوني بشدة ويضربونني بالسوط، ورفسوني على وجهي بالحذاء العسكري حتى سالت الدماء من وجهي، وغطت فمي و أنفي وتجلطلت الدماء فوق أنفي ويداي مربوطتان، فصرت أتنفس بصعوبة.

واستمر حالي هذا أكثر من شهر، وكان لباسي الثياب الداخلية التي أخذوني بها من بيتي، والتي صار لونها أسود من (سحلي على الأرض)، ولم يكن عندي حتى بطانية أنام فوقها أو تحتها. حتى اقتربت من الموت).

الازدحام والطابور أمام المرحاض:

ويقول سجين آخر (كنا ثمانين سجيناً نعيش على مساحة سبعين متراً مربعاً فقط، مع مرحاض واحد في الزنزانة، ومع هذا فكنا نفضلها على غرف التحقيق حيث التعذيب الجهنمي، ولا أشد عذاباً من انتظار دور الحمام في الصباح، ولك أن تتصور المأساة عندما يفقد بعضهم المقدرة على ضبط جسمه، فينفلت وتخرج رائحته بين السجناء،قبل أن يصله دور المرحاض).

ويقول أحد السجناء : (في الثالثة أو الرابعة قبيل الفجر بدأ أحد السجناء معي في زنزانتي يتلوى ويشكو من صدره، وأجمعنا أن معه أزمة قلبية، فصرخنا نطلب الحارس ليطلب الطبيب فرد الحارس ببرود : ليس هو أول من يموت في السجن، الآن في هذه الساعة لا يوجد طبيب..

الصورة الثانية :(الأخ محمد سليم حماد يتكلم عن إحدى حفلات التعذيب معه):

وسرعان ما انتزعني ذاك من مكاني وساقني في الممر الذي جئت منه إلى غرفة مجاورة، وأنا لا أزال على حالتي عارياً مقيداً مغطى العينين. ووجدت أيادي قاسية تتناولني من جديد فترفع القيد عن يدي من الخلف، وتجذبهما للأمام وتعيد تقييدهما، ثم تعود الأيدي التي تمتد من كل اتجاه فترفعني من وسطي عن الأرض، وتتولى أيد أخرى جذب ساعديّ للأعلى. وفي لحظة واحدة أفلتني الجميع، فوجدتني مشبوحاً كالذبيحة تماماً إلى السقف، ورجلاي تخبطان في الهواء ليس تحتهما شيء.. وبدأت أولى حفلات التعذيب!

كنت أيامها في مقتبل الشباب، وكانت عافيتي بحمد الله وافرة، حتى أن أُحدهم ناداني مع ابتداء التعذيب ساخراً يقول:

ولا.. هِنْت (أي أنت) بتلعب حديد ؟

لكن عملية الشبح وحدها كانت كافية لتمزق أعصابي وتتلف جِلَدي، وتفقدني الوعي بعد عشر دقائق. غير أن الأمر ما كان كذلك وحسب، فسرعان ما انطلقت تتناوشني مجموعة من الكبلات والعصي تجلدني كأسياخ النار، تبعتها من حيث لا أدري لسعات

الكهرباء تتخير أكثر مناطق الحساسية في الجسد فتصعقها بلا رحمة : في الأنف مرة، ومرة في الشفتين.. في العورة.. في العينين.. في شحمة الأذن.. في كل مكان تتجمع فيه مراكز الإحساس ومواطن الشعور بالألم !

انفجرت بالصياح من شدة الألم المتفجر فكأنما ازداد الجلادون انتشاء بذلك ! وازدادت حدة اللسعات والصعقات من غير أن يسألني أحد أي شيء !

كنت أسمع وسط دوامة الألم صياحهم وهياجهم كالكلاب المسعورة حولي، ومن غير أن أبصر شيئاً أحسست أنهم ربما كانوا قرابة العشرة، ومع كل ضربة كانت تطرق أذني شتيمة جديدة وألفاظ كفر بالله تزلزل السماوات والأرضين. ولم ألبث أن وجدتني وقد فاق الألم قدرتي على الاحتمال وحتى على الصياح أغيب عن الوعي تماماً، لأصحو لا أدري متى فأجدني في زنزانة منفردة ينهش الألم أطرافي وتشتعل الأوجاع نيراناً في كل ثنية من ثنيات بدني.

الصورة الثالثة : فنون التعذيب الأسدي

جاء الملحق رقم (١) في تقرير منظمة رقيب الشرق الأوسط لعام (١٩٩٠) تحت عنوان أنواع التعذيب في سوريا : قائمة منظمة العفو الدولية... يقول التقرير:

فيما يأتي تفاصيل التعذيب والمعاملة السيئة التي تجمعت لدى منظمة العفو الدولية خلال سنوات عديدة من السجناء والمحتجزين السابقين...مع ملاحظة أن هذه الأنواع لم تستعمل كلها مرة واحدة، ومع سجين واحد...

١ – الضرب على جميع أقسام الجسم باللكم والصفع والركل والرفس، باستعمال قبضة اليد والأقدام وحبال الجلد والأحزمة والعصي والأسواط والمطارق والكيبلات الفولاذية المضفورة أو الكيبلات داخل الأنابيب البلاستيكية ذات النهاية المفتوحة والمهترئة.

٢ – الدولاب : تعليق الضحية بشدها إلى دولاب مشدود في الجدار أو السقف وضربها (رجلاً أو امرأة) بالعصي والهراوات والكيبلات أو الأسواط.

٣– الفلقة: الضرب على باطن القدمين (بالعصي أو الأسواط أو الكابلات حتى تتمزق القدمان، وتنزف منها الدماء، ومن ثم تتورم، ولا يتمكن السجين من المشي عليهما.

٤ – بساط الريح: شد وثاق الضحية إلى قطعة خشب لها شكل الجسم البشري، ومن ثم ضربها (رجلاً أو امرأة) أو توجيه صدمة كهربائية إلى كل أجزاء الجسم.

٥ – الشبح: شد وثاق الذراعين خلف الظهر، وتعليق الضحية (رجلاً أو امرأة) من ذراعيها الموثقتين أو القدمين، وتضرب بالعصا أو توجه لها الصدمات الكهربائية.

٦ العبد الأسود: شد وثاق الضحية إلى آلة متحركة عندما تتحرك تطلق سيخاً معدنياً يدخل في مخرج (دبر) الضحية.

٧ – الكرسي الألماني: كرسي معدني له أجزاء قابلة للحركة يشد غليها وثاق الضحية من اليدين والقدمين... يتجه مسند الكرسي الخلفي إلى الوراء فيسبب توسعاً كبيراً في العمود الفقري وضغطاً مؤلماً على عنق الضحية وأطرافها. ويقال أن نتيجة هذا التعذيب حصول حالة يصعب فيها التنفس حتى يحصل الاختناق، مع فقدان الوعي، وفي بعض الأحيان تتكسر الفقرات.

٨ – الكرسي السوري: وهو تعديل أدخله خبراء التعذيب السوريون على الكرسي الألماني حيث أضيفت له شفرات معدنية على الأرجل الأمامية للكرسي في موضع شد قدمي الضحية مسببة نزفاً دموياً حاداً في رسغ القدم، وكاحله.

٩ – استعمال وسائل محلية الصنع لحرق أجزاء من الجسم كالصدر أو الظهر، أو الأعضاء التناسلية، أو الأرداف أو الأقدام... مثل المراجل الكهربائية (أوعية مياه حارة) حيث يضغط جسم الضحية إلى داخلها... ومنها مواقد البارافين المغطاة بقطع معدنية يكره الضحية على الجلوس عليها.... ومنها الحديد المكهرب... وأدوات اللحام الكهربائية الأخرى..

١٠ – الغسالة: طبل مغزلي أجوف يشبه حوض ماكينة الغسيل المحلية الصنع، حيث تجبر الضحية على مد يديه أو يديها إلى داخله حتى يدخل الذراعين كلهما مما يؤدي إلى سحق الذراعين أو اليدين والأصابع.

١١– الحرق : وضع قطعة من القطن أو الصوف مبللة بالنفط على مختلف مناطق الجسم ثم إشعالها، أو سكب النفط على قدمي الضحية وإشعالهما..

١٢ ثقب ظهر الضحية أو صدرها بقضيب معدني مدبب وساخن.

١٣– إطفاء السجائر في الأجزاء الحساسة من الجسم، واستعمال الولاعات لحرق اللحى أو الشارب أو شعر أي منطقة في الجسم.

١٤ – استعمال الكهرباء في أي جزء حساس من الجسم بما في ذلك الأذنان والأنف واللسان والرقبة واليدان والأعضاء التناسلية والمخرج والقدمان.

١٥ – استعمال الأملاح والمواد القلوية (المحاليل الحامضية) مع جروح الضحية وحرقها.

١٦ – تشريط وجه الضحية الشفتين والأذنين والأنف، بسكين حادة أو موسى الحلاقة.

١٧ – إجبار الضحية على الوقوف حافية القدمين إلى الجدار ويداها موثوقتان فوق الرأس، وسحق القدمين.

١٨ – النفخ الموجه إلى مناطق حساسة في الجسم، ومنها الوجه.

١٩ – تعليق الضحية من اليدين والقدمين إلى عمود السرير أو الدرابزون وضربها (رجلاً أو امرأة).

٢٠ – الفروج: شد الضحية إلى مزلاج دوار من الخشب يشبه شريحة الدوست وجعلها هدفاً للضرب بالعصي.

٢١ – تعليق الضحية من العنق بطريقة لاتكسر الفقرات.

٢٢– تعليق الضحية بمراوح السقف وضربهم وهي تدور.

٢٣ – الاستلقاء بكامل الثياب في (بانيو) ماء ليلة كاملة.

٢٤ – صب الماء الساخن من الدوش بشكل متوالي، ثم يعقبه ماء بارد جداً.

٢٥ – قرص الجلد أو لف الشعر بالكلابتين (البلايس).

٢٦– قلع أظافر اليدين والقدمين.

٢٧– الاغتصاب الجنسي أو الاعتداء على الحرمات وهتك العفة.

٢٨ – الجلوس فوق أعناق القناني أو دفع القناني أو العصي داخل الشرج والمستقيم.

٢٩ – الوقوف على رجل واحدة مدة طويلة جداً، أو الجري مع حمل أثقال.

٣٠ – إبقاء الأنوار الساطعة والضحايا في النوم لمدة أيام.

٣١ – استعمال مكبرات الصوت لنقل الجلبة والضوضاء والموسيقى الصاخبة، وعويل ناس يتعذبون ويصرخون.

٣٢–العزل التام في زنزانة صغيرة مظلمة من غير اتصال مع أي إنسان لمدة أيام.

٣٣ – تغطيس رأس الرجل أو المرأة في الماء حتى لحظة الاختناق.

٣٤ – المكسالة: الاضطجاع على الظهر في مواجهة شفرة تتقدم نحو الضحية قبل أن تمس العنق مباشرة.

٣٥ – تهديد الضحية بأحد القارب (رجلاً أو امرأة) كالتعذيب والاغتصاب الجنسي أو بتر الأطراف.

٣٦ – تعذيب سجناء آخرين بحضور الضحية وأمامها.

٣٧ – التعري أمام الجنس الآخر (رجلاً أو امرأة) مع الشتم.

٣٨ – حرمان الضحية من النوم أو الطعام أو الماء أو الهواء النقي أو المرحاض أو المعالجة الطبية.

٣٩ – التعليق في السقف من اليدين. (انتهى التقرير الدولي).

الصورة الرابعة: الجرب

وطالت المحنة كل أوجه هذه الحياة المرّة. فمع ازدياد العذاب والإعدامات انخفضت كمية الطعام المقررة للسجناء رغم أنها لم تكن تكفي لتقيتنا بالأصل. وصارت إدارة السجن تتعمد قطع الماء عنا حتى أننا عانينا خلال صيف ذلك العام شهراً كاملاً من غير ماء. وكان موردنا الوحيد عن طريق بيدونات يملؤها الشرطة لنا وقتما شاؤوا وبالعدد الذي يريدون. وقتذاك عمت القذارة المهاجع غصباً عنا وباتت رائحتها لا تطاق. ولم يلبث أن تفشى الجرب بيننا وانتشر انتشاراً كبيراً كنت أنا نفسي (محمد سليم حماد) واحداً من ضحاياه.

والجرب كما هو معلوم مرض جلدي يصيب الإنسان بحكة شديدة في جلده سرعان ما تؤدي إلى تورمه وتقيحه.. وليس هناك مكاناً محدداً يكتفي به هذا الداء. فمن الممكن أن يصيب الرجلين واليدين والصدر والظهر والمحاشم ذاتها. وعلاوة على الألم الشديد الذي يسببه الجرب فإن انتقاله بين الناس المتجاورين أمر محتم. ولو لم يعالج المصاب فقد يموت من المرض. ولقد حدث ذلك في مهجعنا ٢٦ الذي انتشر الجرب فيه مثلما انتشر ببقية المهاجع. ولا أزال أذكر كيف دهم هذا المرض أخاً من دير الزور اسمه عبد الكريم الصالح، فالتهب جلده كله وانتفخ، وظل يعاني قرابة الشهر يصيح من شدة الألم وليس بيدنا شيء نقدمه لنخفف عنه إلا الدعاء. وعندما أبلغ رئيس المهجع الشرطة بحاله وكرر عليهم البلاغ لم يزيدوا عن أن أمروه أن يكف عن الشكوى وأن يتركه في المهجع ليموت!

لكن تزايد الإصابات وانتشار المرض في المهاجع الأخرى جعل إدارة السجن بعد حين تتنازل وتحضر للمصابين دواء الجرب. وتم تعيين مسؤول صحي لكل مهجع من السجناء أنفسهم تكون مسؤوليته تقديم تقرير بالحالة الصحية إلى طبيب السجن حتى لا

يضطر ذاك إلى فحص المرضى بنفسه والتعرض لاحتمالات الإصابة بالعدوى منهم! وفي هذا السياق عُيِّنَ الأخ الطبيب قاسم موسى مسؤولاً صحياً لمهجعنا. ثم لما تزايدت الحالات أكثر فتحوا للمصابين مهجعاً خاصاً كما حدث أيام الكوليرا، لا رحمة بهم بالتأكيد وإنما خشية أن تنتقل العدوى إليهم. ورغم ذلك فقد مات بسبب الجرب من مهجعنا وبقية المهاجع الأخرى عدد غير قليل من الإخوة، وقدر للأخ عبد الكريم الصالح أن يتعافى بالتدريج، حتى إذا شافاه الله بعد حين أتاه النداء، وسيق مع دفعة من دفعات الإعدام إلى الردى رحمه الله.

من سجل الضحايا :

وكان الممرض وطبيب السجن قد توقفا عن الحضور للمهجع قرابة الخمسة أشهر خلال أحداث حماة وبعدها، مما ضاعف الإصابات وأسرع في انتشار الجرب. وانتشرت معه أمراض أخرى لم نستطع أن نعرف أسبابها أو نوعيتها بالتحديد. فكنا نحار في أمرنا ونفعل ما بوسعنا لمساعدة المصابين. ولكم كان الإخوة يتسابقون لفداء إخوانهم المرضى من أي عذاب أو جهد وإيثارهم بحفنة الطعام المخصصة للواحد منهم. لكن ذلك لم يكن كافياً لوقف المرض أو إنقاذ المصابين. وقضى عدد من الإخوة نَحْبَهُم فريسة الأمراض والأوبئة فبلغوا قرابة الستة عشر، لا زلت أذكر منهم كمال أندورة ومأمون الذهبي من دمشق. وهشام مجندف وبسام الهاشمي وسامي وحود من حمص.

وكان أول من مات بين أولئك جميعاً معتقل من قرية صوران قرب حماة اسمه عبد العزيز عوض السالم. أصابه السل كما يبدو حتى أصبح يبصق الدم. وعندما أخبر رئيس المهجع أبو الفضل الرقيب أن لدينا مريضاً في حالة خطرة أجابه بالحرف الواحد:

ولا.. بس يموت دق الباب !

وبعد شهرين من المعاناة وبعد ظهر أحد الأيام إتكأ الأخ على صدر شقيق له كان سجيناً أيضاً وأخذ يذكر الله ويردد الشهادتين حتى لفظ آخر أنفاسه رحمه الله. فلما تأكدنا من وفاته طلب شقيقه من الحضور أن يغسلوه قبل أن نخبر الشرطة بالأمر. لكن الإخوة خافوا أن تصيبهم العدوى أو أن تنزل بهم من الشرطة بلوى. فلما لم يتقدم أحد رأيت أن الأمر لا بد وأن يحسم. وتوكلت على الله وتقدمت. وأدخلته الحمام وغسلته وحدي. ومن يومها تعلم الإخوة علي وأوكلوا إلي هذه المهمة ما دمت فيهم. فغسلت كل الذين ماتوا من بعد ذلك في المهجع. بعدها قرع أبو الفضل الباب وأخبرهم بوفاة الأخ. فلم يزيدوا عن أن

طلبوا منه أن يخرجه إلى الخارج. فتعاونت معه وحملناه، وعدت أنا وبقي أبو الفضل لبرهة. وعندما عاد أخبرنا أنهم أرادوا أن يتأكدوا من موته فتقدم أحدهم منه وركله بقدمه وحسب.. وجاءت "البلدية" فأخذوه ومضوا!

الصورة الخامسة: السل

كانت أبدان السجناء قد أنهكت إلى أبعد الحدود بعد سنين من العذاب المستمر والجوع والحرمان والعيش في أسوأ الظروف الصحية والنفسية. وعلى الرغم من هذا الانفراج الظاهر الذي حدث إلا أن الوقت كان قد فات. وبدأ عدد الضحايا يرتفع من جديد.. وتزايدت حالات الوفاة المرضية والإصابات المزمنة، حتى مات من مهجعنا وحده قرابة الأربعة عشر أخاً لم ندر إلا بعد أن قضوا رحمهم الله أن الذي أصابهم حقيقة الأمر كان مرض السل. وعندما تطورت معرفتنا بهذا المرض الخبيث ووجدنا من يفقهنا في أعراضه وأشكاله علمنا أنه لا يصيب الرئة وحسب، وإنما هناك سل يصيب الأمعاء وسل بالكلى وثالث بالعظام ورابع وخامس. ولم يكن في مهجعنا حتى تلك الفترة الطبيب المتخصص الذي يقدر على تشخيص الداء، مثلما لم يكن لدينا العلاج المطلوب حتى إذا علمنا به واكتشفناه.

وواقع الأمر فإن مرض السل تم اكتشافه منذ عام ١٩٨٢ في المهجع ٥-٦ بالباحة الأولى. وهو واحد من أقدم مهاجع سجن تدمر. كبير المساحة مظلم الجنبات شديد الرطوبة. ولقد قدر أن يكون أحد نزلائه الطبيب محمود العابد من (قرية مورك) محافظة حماة، الذي كان أحد أطباء قسم الأمراض الصدرية في إحدى مستشفيات حلب. لكن الإخوة وقتها ومن خوفهم من بطش الشرطة وإحساسهم بانعدام التجاوب أو الاهتمام لم يبلّغوا عن المرض. فلما لاحظت إدارة السجن ازدياد الوفيات وتوافق ذلك مع حالة الانفراج العامة تلك فتحوا للمسلولين مهجعاً خاصاً في الباحة الرابعة هو المهجع ٢٣.

ونعود إلى مهجعنا ٢٦ الذي بات الآن في عهد ولاية أبي عوض القسرية عليه أحد مهاجع السجن الخاصة إن لم يكن أخصها جميعاً. وأما السبب فكان - كما ذكرت - اتفاق إدارة السجن مع أبي عوض على تحويل السجناء الموسرين وأصحاب الزيارات والواسطات إلى مهجعنا ليكونوا تحت عينه ورقابته الدائمة.. وتكون الزيارات والنقود التي يرسلها أهاليهم المساكين أدنى إلى جيب أبي عوض وأسياده من جيوب أصحابها أنفسهم!

وفي هذا السياق وضمن عمليات النقل والتحويل جاء إلى مهجعنا مجموعة من الإخوة الدمشقيين أذكر منهم محمد الحوراني، وسليم الأسد (طبعاً دمشقي وليس من الأسرة الحاكمة)، وعدنان المؤيد، وأخ من بيت دبش وغيرهم. وكان سليم الأسد طبيباً من دمشق نقل من مهجع ٥-٦ بعد أن تعلم من الدكتور محمود العابد هناك فحص المسلولين وتشخيص إصابتهم. ونقل لنا وقتها نبأ اكتشاف إصابات سلية بين السجناء. وأخبرنا عن تخصيص مهجع ٢٣ للمسلولين، وأن أخاً آخر هو زاهي عبادي من (إدلب) والذي كان في سنته الرابعة بكلية الطب تطوع للذهاب إلى نفس المهجع والإشراف على إخوانه المسلولين، ثم لم يلبث رحمه الله أن أصيب نفسه بالمرض عن طريق العدوى.

وفي يوم من الأيام كنا في التنفس أنا والأخ صبحي بركات أحد أفراد مجموعتي ففوجئت به يستند إلى ذراعي بادي الإجهاد، وقال لي وهو لا يقوى على إخراج الكلمات أنه يحس بالغثيان وبالدوار ولا يقوى على الحركة. فطلبنا له من الرقيب إذناً بدخول المهجع. وهناك لم يلبث الأخ صبحي أن تقيأ وسقط محلول القوى. وعندما عدنا من التنفس فحصه الأخ سليم فتبين له أنه السل. وعندما حضر الشرطة وأخبرناهم أسرعوا ونقلوه إلى المهجع ٣٥ في الباحة السابعة والذي خصص بدوره في تلك الفترة للمسلولين بعدما ضاق بهم مهجع ٢٣.

ومر شهر آخر وإذ بي أجدني أعاني من الأعراض نفسها : ارتفاع في الحرارة، وقلة شهية للطعام.. وسعال وتعرق وإجهاد متزايد. وبعد أسبوع من المعاناة فحصني الأخ الطبيب سليم أسد فوجدني أصبت بالسل أيضاً. وعندما أخبر إدارة السجن بذلك نقلوني بدوري إلى مهجع السل، وكان ذلك في الشهر السادس من عام ١٩٨٣ وبعد أيام قليلة من محاضرة فيصل الغانم العامة أمام السجناء.

جرعة العذاب!

دخلت المهجع ٣٥ في الباحة السابعة فوجدت ويا لهول ما وجدت ! أكثر من مائة من الإخوة ألقى المرض بكلكله عليهم فسلبهم نضارة الحياة وسمت العافية. فهذا لا يكف عن السعال وفي يده علبة صفيح صدئة يبصق فيها البلغم والدم. وذاك يتقيأ بين فينة وأخرى ولا يستطيع أن يمسك نفسه. وثالث أصاب السل كليتيه فانتفخ جوفه وكأنه امرأة حامل ! ووجدت المصاب بسل الخصيتين، وسل العظام، وسل السحايا، وسل الرئتين.. وكان على

كل أولئك وعلي أن نستخدم الحمام نفسه وأن ننام متجاورين نتبادل العدوى ونتلقاها شئنا أو أبينا.

ولقد كنت أظن أو أؤمل أن تكون ظروف مهجع المسلولين أفضل من غيرها، لكنني وجدت الأمور كأنها لم تتغير. فالبطانيتان اليتيمتان والعازل على حالهم.. والشراقة والنوافذ المفتوحة كتلك التي في بقية المهاجع. والحرس على الباب وفوق المهجع يروحون ويغدون. وهناك برنامج غير منقوص من التفقد إلى التنفس إلى سوء الطعام ورداءة الظروف. وعندما نكون في الساحة أو يرى الشرطة منا ما لا يسرهم كنا ننال من الضرب والجلد والعذاب ما لم يختلف عن ذاك الذي يناله الإخوة الأصحاء في مهاجع أخرى. ولعل ميزة المهجع الوحيدة كانت في نزلائه المسلولين جميعاً.. وفي جرعة الدواء التي خصونا بها وحسب ! وحتى جرعة الدواء تلك كانت أداة تعذيب وابتزاز لنا.. فلا يكاد ينقضي شهر على توفرها حتى تنقطع وتغيب أسبوعين أو عشرة أيام. فإذا عادت جعلنا نتخوف انقطاعها ونترقب وصولها فنزداد قلقاً على قلق وعذاباً على عذاب.

وهكذا، ومع اضطراب تعاطي الدواء واستمرار سوء التغذية وقساوة الظروف استمر الإخوة يتساقطون موتى واحداً بعد الآخر حتى عددت أكثر من عشرين أخاً ماتوا من مهجعنا نحن فقط. ومن هؤلاء أذكر الآن أخاً من حمص اسمه عبد الرحمن فليطاني، وآخر اسمه عبد الساتر مصطفى من نفس المدينة. ومصطفى المصطفى من قرية منبج قرب مدينة حلب. وآخر اسمه الأول مصطفى من حلب أيضاً.

نوبة قلبية :

ومن شهداء مهجع السل أيضاً تحضرني قصة الأخ محمد حسن عجعوج من حماة الذي كان من جماعة الشيخ مروان حديد الأوائل. والذي قامت المخابرات السورية باعتقاله من لبنان بعيد اعتقال الشيخ مروان، وأودع سجن المزة مع بقية من اعتقل وقتها. ومع تطور الأحداث وتصاعد موجات الاعتقال في بداية الثمانينات نقل الأخ حسن إلى سجن تدمر بعد المجزرة الكبرى التي حدثت هناك. وتنقل من مهجع ٩ إلى مهجع ١١ لألتقيه وقد أصابه السل آخر الأمر في مهجع ٣٥.

وهناك وفي يوم من الأيام وصل محمد حسن عجعوج نبأ استشهاد أسرته جميعاً أثناء أحداث حماة قبل أقل من عام. وسمع بأن واحداً من أخوته سُحِلَ في شوارع المدينة سحلاً. فلم يتمالك رحمه الله وأصيب بنوبة قلبية قضت عليه.

وصار أمراً اعتيادياً بيننا أن ننادي الشرطي صباح كل بضعة أيام، ونخبره بوفاة أحد المرضى، ثم نلتفت إلى برنامجنا ذاته، نكاد لا نحس تجاه الأخ الفقيد بالحسرة قدر إحساسنا بالغبطة أن قبضه الله إليه فاستراح من هذا العذاب.

هستيريا :

ومن مشاهد مهجع السل التي لا تنسى مشهد الأخ بسام الحافظ من حمص الذي فقد القدرة آخر الأمر على تحمل كل هذه العذابات والضغوطات النفسية وما عاد يقدر على تلقي المزيد. فوجدناه في ليلة من الليالي ينهض وسطنا وقد احمرت عيناه فكأنما هما من دم أو نار وراح يطلق عقيرته بالصراخ والعويل. وكان الإخوة كلما حاولوا تهدأته ازداد انفعالاً وتأزماً.

ودخل الشرطي المناوب يستطلع الأمر، وأمر المسؤول الصحي الأخ زاهي عبادي أن يسكته بالقوة. فلم يجد الأخ إلا أن يعطيه إبرة مسكنة هدأته بالتدريج. وفي الصباح نادى الشرطي المسؤول الصحي ليخرج هذا الأخ إليه. فلما خرج المسكين انهال الشرطة عليه ضرباً وجلداً وأعادوه يكاد يسلم الروح. لكنه وعندما حل المساء عاد وانتفض وكرر ما حدث ليلة الأمس. فعاد الأخ زاهي وأعطاه إبرة ثانية مهدئة. وعندما أتى الشرطي من جديد رجاه أن هذا السجين مصاب بالهستيريا ولا يملك من أمره شيئاً. ووعده أن يبذل أقصى جهده لتهدئته وعلاجه. بعدها طلب زاهي منا أن نكف عن محادثة الأخ بسام. ونصبوا له في زاوية من زوايا المهجع ما يشبه الخيمة وأجلسوه فيها. وظل المسكين قرابة الشهرين معزولاً عنا لا يكلمنا ولا نكلمه بشيء.. أخذ خلالها يتحسن بالتدريج. ثم جرى نقله بعدها إلى مهجع آخر ولم نعد ندري ما الذي انتهت به الحال إليه.

ومما هو جدير بالذكر أن اللواء غازي كنعان كان من أبطال هذه الفنون، ومنهم أيضاً اللواء حسن خليل، واللواء على دوبا، والعماد مصطفى طلاس الذي اعترف أخيراً أنه كان يوقع أوامر بهذا الخصوص، وغيرهم، وعلى الأخص مدير السجن العسكري في تدمر (فيصل غانم)، ومدراء سجن كفر سوسة، والقلعة، والحلبوني، وفرع فلسطين، وغيرها كثير.

ومن العدالة، أن يقدم هؤلاء إلى محاكمة دولية عادلة، تعاقبهم العقاب العادل على هذه الجرائم الوحشية التي ارتكبوها بحق المواطنين... والمطلوب من كل سجين كتب الله له النجاة والحياة أن يتقدم بمثل هذه الشكاوي إلى محاكم دولية...

ونسأل الله عزوجل أن نرى عدله في هؤلاء المجرمين، إنه على كل شيء قدير.

صور من تعذيب النساء في سجون الأسد :

اعتقلت الأخت هبة الدباغ طالبة في كلية الشريعة بدمشق، وهي حموية، لأن شقيقها مطلوب وهو خارج البلد، وبقيت تسع سنوات تعاني من العذاب، واستشهد أهلها كلهم في مأساة حماة (١٩٨٢) وكتب الله لها البقاء، فخرجت من السجن، وتزوجت، وعاشت خارج سوريا وكتبت هذا السفر العظيم (خمس دقائق: تسع سنوات في سجون الأسد)، وهذه بعض الصور من هذا الكتاب:

الصورة الأولى: التحقيق مع الأخت هبة

ومن غير أن يلفظ أي كلمة أو يسألني أي سؤال لم أحس إلا وصفعة مفاجئة تأتيني على حين غرة اصطدم رأسي من عزمها بالجدار وارتد، وصارت الدنيا تدور كلها في، وصرت أرى الرائد أمامي أربعة أشخاص معاً، وأرى رأسي أسفل مني ورجلاي فوق الرأس وفوقي! لم يزد عن أن قال: – انظري.. إذا ما بدك تحكي ما بتعرفي ما الذي سيحصل لك.

بساط الريح!

خرج الرائد ثلجة برهة لم أكد أتمالك فيها نفسي حتى عاد مع ناصيف ورئيس الدورية التي أحضرتنا من البيت وشخص رابع لم أعرف من كان. وابتدرني ناصيف يقول: – وليك.. شو ما بدك تحكي؟ ما بدك تقري وتدلينا فين أخوك؟ قلت له: أخي ليس هنا. قال: إذا أين هو؟

قلت: لا أعرف الظاهر أنه ذهب ليكمل دراسته. وواقع الأمر فإن أخي صفوان كان قد أخبر أمي عندما زارته في الأردن وقال لها: إذا سألك أبي أين أنا فقولي له ذهب ليكمل دراسته في الباكستان. تذكرت ذلك بمجرد أن سألني عنه، ولم أكن أدري وقتها بأن أمي كانت معتقلة في نفس السجن معي، وأنه سألها قبل دقائق عن أخي فأجابت الجواب نفسه، والتقى كلامي مع كلامها في هذه النقطة، الأمر الذي أعفاني من التعذيب على ذلك السؤال، ولكنه سألني بلؤم: – أنت تعرفين بأن أخاك هنا، وسوف تأخذيننا وتدليننا عليه، أو على رفاقه والبيت الذي يجلسون فيه. قلت: لا أعلم أي شيء من هذا.. فنادى على أحدهم وقال له: ضعها على بساط الريح. تقدم العنصر مني وطرحني على لوح من الخشب له أحزمة طوق بها رقبتي ورسغي وبطني وركبي ومشط رجلي، ولما تأكد من

تثبيتي رفع القسم السفلي من لوح الخشب فجأة فبات كالزاوية القائمة، ووجدتني وأنا بين الدهشة والرعب مرفوعة الرجلين في الهواء وقد سقط الجلباب عنهما ولم يعد يغطيهما إلا الجوارب والسروال الشتوي الطويل، ولا قدره لي على تحريك أي من مفاصل جسمي.. وبكل وقاحة صاح العنصر يقول: - انظر سيدي.. أرأيت ؟ قالت إنها ليست من الإخوان.. ولكن انظر كيف أنها منهم ومجهزة نفسها للفلقة [يقصد تلبس سروالاً طويلاً]! حاولت دفع أي من القيود الجلدية عن مفاصلي فما استطعت.. وقبل أن أحاول إعادة لوح الخشب إلى استقامته طلباً للستر كانوا قد علقوه من جنزير مثبت به إلى السقف، وتقدم رئيس الدورية التي اعتقلنا وبيده خيزرانة طويلة رفيعة وسألني بلهجة تهديد صريح: - شوما بدك تحكي؟

قلت: ليس لدي أي شيء لأحكيه. في نفس الوقت كان الرائد ثلجة فوق رأسي يجهز مولداً كهربائياً مربع الشكل موصولاً بالفيش وله يد يدار بها وملاقط قربها مني وأطبقها فجأة على أصابع يدي.. وفيما هوى ذاك بالخيزرانة على بطن رجلي أطلق هذا شحنة من الكهرباء سرت كالنار في بدني، فقال دون أن يلتفت لصرختي: -هه إلسه ما بدك تحكي؟ صرخت: قلت لكم ما عندي شيء للحكي. قال ببرود: أرأيت كم كانت الكهرباء قوية؟ هذه أخف الموجود لدينا! قلت: حتى ولو كان، هل أعترف بأشياء أنا لم أفعلها! قال: لا.. أنت تكذبين وتخبين علينا.. بدك تقومي الآن تأخذينا وتدلينا على البيت الذي يسكن فيه أخوك ورفاقه وإلا فسنأخذك إلى تدمر! وأقبل ثلجة هنا بصورة قربها من وجهي وسألني: - هل تعرفين هذا الشاب؟ قلت:لا. قال: كيف؟ ألا تعرفين رفاق أخيك؟ قلت: لا. قال: لكن هذا رفيق أخيك الحميم.. هذا عبد الكريم رجب.. ألا تعرفينه؟ قلت بحزم وقد تأكدت لي الوشاية الرخيصة التي حيكت لي: لا.. لا أعرفه. تبسم الرائد ثلجة ابتسامة صفراء وشرع يقرأ من مجموعة أوراق بين يديه بعين، وعينه الأخرى تتابع انفعالات وجهي: - هبة الدباغ : منظمة مع الإخوان وتتعامل معهم.. اشترت لهم بيتاً، وتعطي دروساً لسيد قطب في مساجد دمشق و.. صرخت بانفعال وأنا أسمع قائمة الاتهامات الكاذبة للمرة الألف: كذب..كذب.. لا أعرف أي شيء تتحدث عنه. دس الرائد ثلجة الأوراق بوجهي وهو يقول: - ألا تري ؟ هذا كله مكتوب هنا.. كله من اعترافات الرجب.. هو الذي تكلم عنك بهذا، وهو من الإخوان مائة في المائة ويعرف عنك كل شيء ولا بدو أنك تعرفينه أيضاً.. عدت إلى قولة كلا.. وعاد التعذيب من جديد، وصار رئيس الدورية يضرب قدمي بكل

عزمه، حتى أصبحت الخيزرانة عندما تهوي عليهما تشق الهواء بصوت كالصفير، وجاء عنصر آخر بخيزرانة ثانية وجعل يشارك معه الضرب، فيما عاد عبد العزيز ثلجة فقبع فوق رأسي وجعل يكوي أصابعي بالكهرباء من جديد. كان الألم أشد من أن يوصف.. وكنت في البداية أصيح: يا الله.. لكنني لم أعد أستطيع آخر الأمر أن أخرج صوتي، فصرت ألوح برأسي فقط ولم أعد أحس بشيء.. ووجدتهم بعد عشر دقائق تقريباً من الضرب المتواصل يتوقفون فجأة، ومع الشتائم والعبارات البذيئة طرق سمعي عبارة: - إلى تدمر! وسرعان ما انفكت القيود عن مفاصلي، وسحبني عنصر من غرفة التعذيب عبر الممرات والسلالم ثانية إلى سيارة متوقفة عند الباب، ففوجئت برفيقتي ماجدة قد سبقتني إليها بحراسة عنصر آخر. أركبانا معاً ولكنني لم أجرؤ أن أتحدث معها بشيء.. وانطلقت السيارة بحركة مسرحية إلى أن بلغت الباب الخارجي، فسألني من جديد: -لسه ما بدك تحكي؟ أحسست وكأن أعصابي المشدودة تصيح كلها معي بصوت واحد: -ما عندي أي شيء أحكيه.. أنا لا علاقة لي بأحد.. هل تريدون أن أكذب عليكم فقط؟ هل تريدون! توقفت السيارة، ولم يلبث السائق أن عاد بنا إلى المبنى من جديد، وأعادوني مرة أخرى إلى التعذيب.. وعادت نفس الأسئلة والاتهامات تطرح علي، لكن الضرب والتعذيب اشتد أكثر، وزاد عدد المشاركين بتعذيبي حتى لم أعد أستطيع أن أعرف عدد من حولي أو عدد العصي والخيزرانات التي تهوي على رجلي.. وبدأت أرى الغرفة كلها عصياً وخيزرانات.. والناس فيها من كثرة أسئلتهم كالضفادع تنق وتنق بصوت واحد غامض.. فلم أعد في النهاية أجيب على أحد! وأتاني صوت الرائد ثلجة من جديد يقول: - ها.. أنت إذا مسلحة.. انظروا إليها.. تدعي البراءة وتنفي أنها منظمة وهي ليست من الإخوان وحسب.. ولكنها مسلحة أيضاً! أحسست أن تهمة أكبر تلفق لي هذه المرة فصرخت بعصبية: لا.. أنا لا علاقة لي بأحد.. وأنا لست مسلحة. قال: ولكن رفيقتك ماجدة هي التي قالت ذلك عنك. قلت: لا تصدقها.. أحضرها لتقول ذلك أمامي.. ربما قالت ذلك من خوفها حتى تنجو من الضرب. قال: لا.. رفيقتك لا تكذب.. هي أصدق منك.. تكلمت عن كل شيء وما تعذبت، وأنت إذا لم تتكلمي فستبقي تأكلي ضرباً حتى تحكي. وتقدم ثلجة من جديد نحوي وبيده بطارية كهرباء وضعها على فمي مباشرة وقال بلهجة التهديد: - الآن تتكلمي؟ قلت: ما عندي شيء أحكيه.. مهما وضعت لي الكهرباء أو أطعمتني ضرباً فما عندي شيء أحكيه ولن أكذب على نفسي. وهنا صاح ناصيف بضجر: - هيا أنهضها

وأعطها ورقة لتكتب ما لديها من معلومات وسنرى بعدها. والتفت نحوي مهدداً يقول: - إذا لم تتحدثي بكل شيء هذه المرة فاعلمي أن لدينا عناصر الواحد منم كالوحش يسد الباب. وأضاف: - هل تعرفين الشوايا الديرية كيف يكون شكلهم؟ إذا لم تعترفي فسأدخلهم عليك وسنرى بعدها!

الموت راحة المؤمن!

أنهضوني عن "بساط الريح" فوجدت نفسي مبللة من غير أن أشعر، وكنت كأنما أغمي علي أثناء التعذيب فدلقوا علي سطل ماء حتى أصحو. تلفت حولي كالسكرى فرأيت الغرفة خلت تقريباً من الناس، وأدركت من خلال نافذة كانت فوق رأسي أن الدنيا قد أصبحت ليلاً، فقدرت أن ساعتين أو ثلاث انقضت علي وأنا في التعذيب ! وبينا أنا لا أزال أحاول استعادة توازني جاء أحد العناصر بورقة وقلم وجلس أمامي يقول: - انظري.. إذا حكيت فستساعدي نفسك، وإلا فستطمسي أكثر مما أنت طامسة. قلت له: ماعندي أي شيء أحكيه. قال : لا أحد يأتون به إلى هنا وما عنده شيء.. ولا أحد يصل هنا إلا إذا كان مذنباً. قلت له: ولكن أنا ليس لدي أي شيء. قال: أنت حرة. وأعطاني استمارة معلومات عامة عن دراستي ومدارسي ثم عن علاقتي بتنظيم الإخوان.. أجبت بما أعرف وأعطيت الورقة للعنصر فذهب بها، ولم يلبث أن عاد الرائد ثلجة يلوح بها وملامح الغضب بادية على وجهه وهو يصرخ في: - هل هذه أجوبة تلك التي أجبت بها يا أخت ال... واندلقت كل الشتائم والعبارات البذيئة دفعة واحدة من لسانه وكأنها كانت تنتظر فرصتها للإفلات وفي آخر عبارة أطلقها سمعته يقول: أنت تعرفين هذا البيت الذي يسكن فيه أخوك ورفاقه وبدك تدلينا عليه الآن لكن أنا أعرف لماذا لا تريدين ذلك.. تريدين أن تماطلي بالوقت حتى يهربوا وسجل دون أن أرد عليه بعض الكلمات على الأوراق التي معه وخرج ولم يلبث أن عاد وقال: - إذالم تتكلمي فسننزلك إلى القبو، والقبو إذا نزلت إليه لا تخرجي منه حتى تموتي قلت له: أحسن.. الموت راحة المؤمن!

قال بغيظ: وتجيبين بكل وقاحة وكل عين يخرب بيتك ألم تحسي كم أكلت من قتل؟ ألا تفكري في أن ترحمي نفسك وتعترفي لتخلصي من هذا العذاب. قلت له: لكن أنا ليس لدي أي شيء حتى أعترف به.. قلت لكم ما عندي شيء: في تلك اللحظة دخل ناصيف خير بك وسمعني أقول ذلك للرائد ثلجة، فابتدرني بتكشيرة ونظرة مرعبة وقال والشتائم البذيئة تسبق كلماته- إذا لم تعترفي بكل شيء الآن.. مباشرة.. فسوف أعريك من ثيابك

صحت وقد هزني التهديد: لكن أنا ما عندي شيء أحكيه. قال بلهجة الأمر: اخلعي جلبابك. وقفت هنا ونظرت إليه والخوف الحقيقي يغمر قلبي لأول مرة. قال ألا تريدين أن تخلعيه؟ أنا سأخلعه لك. وتقدم مني فمد يده يريد أن يفك أزرار الجلباب فما وجد شيئاً. ففي تفصيلة ذلك الجلباب كانت الأزرار مخفية، فحول يده وأنا أحاول مدافعته إلى رأسي لينزع حجابي فلم يستطع.. أمسكني من شعري تحت الحجاب وكان طويلاً وقتها وملفوفاً للخلف أمسكني منه وبدأ يشده فينجذب رأسي كله من غير إرادة مني إليه،ثم يعود ويخبطه بالجدار.. وسيل الشتائم البذيئة يرافق ذلك كله، لكنه لم يتمكن رغم ذلك من نزع الحجاب لأن غطاء الصلاة كان قد نزل في أكمامي عندما لبست الجلباب فوقه ساعة الاعتقال. فصاح بي: وتقولي عن نفسك أنك لست من الإخوان وثيابك كلها ملتصقة ببدنك التصاقاً والجلباب أزراره سرية ومخفية ومجهز آخر تجهيز!.

ومع استمرار صمتي وسيل الشتائم منه نادى أحدهم ليعطيه الكبل أو الخيزرانة ليجدد ضربي.. ووقتها كانت قدماي قد تورمتا من الضرب ولم يعد بإمكاني لبس الحذاء، فقال وهو يتناول ما طلب:لا تريدين الكلام؟ أنا سأريك " وتقدم ليبدأ ضربي، فركضت بعفوية منه والتجأت وراء الطاولة فركض ورائي.. وبدأت أركض وأدور حولها وهو يركض ورائي ليمسك بى ويصيح: يخرب بيتك كل هذا التعذيب والضرب ولازال فيك روح لتنطي وتركضي ونادى الحاجب وقال له: أمسكها من عندك فلما تقدم العنصر وأمسكني صاح ناصيف فيه: خذها.. خذها تنقلع من وجهي.. خذها إلى المنفردة.. لا أريد أن أراها أكثر من ذلك. لم أصدق أن حفل التعذيب قد انتهى ولم أعي ما معنى أن أذهب إلى المنفردة إلا عندما دفع العنصر حذائي إلي وجذبني خارج الغرفة وجعل يقودني عبر السلالم والممرات ثانية نزولاً هذه المرة وهو يقول لي: لماذا؟ لماذا لم تتكلمي؟ أما كان ذلك أفضل لك؟ كنت على الأقل رأفت بحالك.. انظري كيف انتفخ وجهك وازرقت يداك وتورمت رجلاك وأكلت قتل الدنيا حتى لم تعودي تستطيعين أن تلبسي حذائك. قلت: ما عندي شيء أحكيه. وأضفت وقد فاض بي الأمر ولم أعد ألقي بالاً لكلماتي: الله لا يعطيهم العافية هؤلاء الظلام.. لكنه وكأنما كان يؤدي دوراً مرسوماً لم يلتفت لعبارتي وأكمل يقول: لكن لو أنك كذبت عليهم كنت خلصت حالك. قلت: – أنا لا أكذب وأعلم أن الذي يصدق هنا أو يكذب فنتيجته واحدة. سألني بدهاء: وكيف عرفت ذلك؟ قلت: – لأنهم لم يصدقونني.. قلت لهم الحقيقة فلم يصدقوا فكيف سيفعلون إن أنا كذبت عليهم ! كنا قد

وصلنا باب القبو أخيراً، فوجدت حسين.. العنصر الذي كان يشارك قبل قليل في تعذيب الشاب في الأعلى يطل علينا بوجه مظلم وقد فتح فمه على ابتسامة سخرية تكشف سناً مقلوعة في الوسط فكأنها نافذة في بيت خرب.. استقبلني وبيده كبل يتلوى مثلما تَلوَّتْ كلماتُ الترحيب الساخر على فمه وهو يقول: -أهلاً.. أهلاً وسهلاً.. والله نورت!

أمسكني حسين من كتفي وأنزلني الدرجات الخمس إلى أسفل، واقتادني من جديد عبر الممر المعتم إلى ثاني زنزانة منفردة في ممر آخر لا يكاد يبدو آخره، وقال وهو يشير إلى الداخل -هذا مكانك.. غرفتك العامرة.. وإن شاء الله نومة هنية! أحسست بالنفور من الظلمة ووحشة المكان وكنت لا أزال متوترة الأعصاب جداً فقلت بلا وعي: - لا والله.. لا أدخلها أبداً! قال وهو يدفعني إلى الزنزانة بغلظة: -إي بدك تدخلي بكسر رأسك. التفت إلى أبواب الغرف الأخرى فلمحت صديقاتي زميلات السكن معي يطللن بوجوههن من طاقات الزنازين التي وزعوهن عليها، فركضت نحوهن وأنا أصيح: فاطمة.. فلانة.. فجذبني بقوة وهو يقول: تعالي.. تعالي.. هل تظنين نفسك في فندق أو في زيارة! وفجأة سمعت من آخر الزنازين (رقم ٢٤) صوت أمي التي يبدو أنها سمعت صوتي أيضاً فبدأت تدعو عليهم بصوت عالٍ وتصيح: - هؤلاء حريمات تتقوون عليهن يا ظلام.. ما عندكم رحمة! والله أنا طول عمري أسمع أنه لا رحمة في قلوبكم ولكنني أرى ذلك الآن بعيني! بهرتني المفاجأة.. وركضت ثانية باتجاه مصدر الصوت وأنا أصيح بدوري: - أمي هنا؟ الله يخرب بيتكم.. ماذا تفعلون بها؟ إخوتي صغار وأبي مريض.. ولا حول جميعاً لهم ولا قوة. فناداني حسين وهو يقهقه بسخرية: - وما حاجتنا لأبيك وإخوتك؟ نحن نريد أمك فقط! وذهب فأغلق نوافذ المنفردات جميعاً ثم عاد يدفعني إلى المنفردة وأنا أحاول المقاومة وأتكئ على زاوية الباب، فقال لي مهدداً: - إذا لم تدخلي الآن فسأحضر كل عناصر الفرع ليدخلوك. قلت: المكان معتم جداً! أجاب بسخرية: أنت الآن ستنورينه.. هيا ادخلي. نظرت فإذا بعلبتين من الصفيح في زاوية الزنزانة واحدة فيها خبيص من أرز أو برغل مع مرق وفي الثانية ماء.. قلت له: والله هذا مثل قن الدجاج.. وهذه والله مثل معاملة الحيوانات! قال: هذا عشاؤك الليلة. فدخلت المنفردة وصوت أمي لا يزال يبلغ مسمعي.. ثم لم يلبث صوتها أن غاب وسط قهقهات العناصر وصياحهم وهذرهم، وعمت المكان رائحة الخمر وصيحات المجون احتفالاً بليلة رأس السنة! فيما لفتني في وحدتي الظلمة ووحشة المكان فازدادت أعصابي توتراً ولم أستطع حتى أن أغير جلستي.

الصورة الثانية: قطعوا لسان الحاجة مديحة

كانت الحاجة مديحة في الأربعينيات من عمرها، وهي امرأة معروفة في حلب تدرس النساء دروساً في الدين على الرغم من أنها تكاد تكون أمية لا تقرأ ولا تكتب وكانت قد جعلت من بيتها قاعدة سكن فيها بعض الملاحقين، وبينما كانت ذاهبة إلى موعد خارج البيت لتسليم رسالة ألقوا القبض عليها نتيجة فسادة من سامح كيالي - عميل المخابرات الآخر وجاسوسهم داخل تنظيم الإخوان - وحملوها مباشرة إلى فرع مخابرات أمن الدولة، وهناك ازدادت نقمة رئيس الفرع عمر حميدة عليها حينما استطاعت رغم التعذيب الشديد أن تراوغهم فترة كافية تمكن الشباب في بيتها من الهرب بعد مضي فترة أمان كانوا متفقين عليها فيما بينهم.. ونتيجة جرأتها وصلابة ردودها ازداد حميدة غيظاً منها فختم لها حفلة التعذيب بأن قص لها طرف لسانها بالمقص.. وفقدت قطعة منه بالفعل ! ولقد قصت علينا أن حميدة عراها في البداية من ملابسها وعلقها إلى السقف من يديها المكبلتين خلف ظهرها، ومضى يعذبها على هذه الحالة ويسمعها أقذع الشتائم وأبشع العبارات.. ثم أمر بإحضار أخيها الأصغر وعرضها عليه بهذه الحالة وسأله :هل عرفتها؟ قال الولد بصدق: لا.. من هذه! أجاب حميدة بتشَفٍّ: أختك مديحة. فأغمي على الولد فوراً ولم يعد يحس بشيء، وأعادوه إلى البيت وهو لا يزال في غيبوبته.. واستمرت حفلة التعذيب ساعات عديدة تأكدت بعدها أن الشباب غادروا البيت كما يفترض فدلتهم عليه، ولما لم يجدوا هناك إلا آثارهم وحسب عاد حميدة غاضباً يقسم أنه سيقص لها هذا اللسان الذي كذب عليهم وخدعهم.. وقصه بالفعل! لكنها ولله الحمد شفيت بسرعة وعاد اللسان فنما بشكل طبيعي، بل إن مدير السجن المدني بدوما المقدم عماد وكان سيئ الخلق جداً قال لها بعد ذلك بسنوات: - قطعنا لك لسانك ليقل كلامك فلا أراه إلا ازداد طولاً! وبعد اعتقالها الذي كان قد مضى عليه نحو الشهر أتوا بها إلى كفر سوسة مروراً بسجن المسلمية بحلب مع مجموعة السجينات الأخريات: أم شيماء، وزوجة عبد العزيز سيخ، وعائشة ق. فيما أفرجوا عن عدد آخر من البنات والنساء كانت بينهن - فيما روين لنا - سناء.....، و... وكانت تسكن مع الحاجة مديحة وتلازمها في بيتها، ولذلك كانت تدعوها الحاجة ابنتها، وزوجة عبد القادر حربلي ووالدتها من بيت القطان، وسيدة أخرى وكانت عروساً في شهرها السادس وفي السادسة عشرة من عمرها، أمسكوا زوجها نتيجة وشاية من سامح كيالي أيضاً وجعلوا يعذبونه ليعترف بمكان القاعدة التي اتهم أنه يديرها، فلما لم

يفعل أحضروا الزوجة بأمر من حميدة أيضاً واعتدوا عليها أمامه قبل أن يرسلوه إلى تدمر فيقتل لاحقاً هناك في المجزرة الكبيرة التي جرت..

وترك لها جوربين :

تقدمت الحاجة مديحة تخفف عن أمي وعنا، وتبعتها بقية البنات: أم شيماء، وعائشة ق. ومن ورائهما كانت منيرة التي فتشتني أول دخولي تنظر وتبتسم! وأما عائشة فهي طبيبة من حلب قامت بعلاج جريح من الشباب الملاحقين فبلغ النبأ المخابرات واعتقلوها من بيتها، وقالت لهم وقتها إن أشخاصاً أتوا إليها كأي طبيب وسألوها أن تعالج جريحاً ففعلت، ولم تسألهم عن هويتهم لأن مهمتها الإنسانية خدمة الناس لا التحقيق معهم، لكن جوابهالم يرق لهم، واعتقدوا أنها تداوي كل جرحى الملاحقين ومصابيهم، وقد تولى التحقيق معها مصطفى التاجر أول الأمر فسألها في البداية : -أترضي أن تبقي بلا حجاب؟ قالت: لا طبعاً.. قال : فما رأيك إذا أن تبقي بلا جلباب ؟ فانتفضت تتطلع إلى مكان تلتجئ إليه، لكن المجرم لم يترك لها فرصة وهجم عليها كالوحش يصفعها ويضربها وهو يمزق ثيابها قطعة بعد قطعة وهي مكبلة تقاوم بكل ما أوتيت من قوة دون أن تستطيع الدفع.. فلما مزق كل شيء ووصل إلى جواربها قال لها: -سأتركهم عليك حتى لا تبردي! وأمر فمددوها على "بساط الريح" ومر عليها بكافة أنواع التعذيب: الخيزران والعصي والكهرباء.. علاوة على نزع نظارتها الطبية وحرمانها من استعمالها فترة من الزمن.. ثم أتى دور عمر حميدة فأجلسها على كرسي وقد كبل أيديها وأرجلها من الخلف ببعضهم البعض وجعل يطفئ أعقاب السجاير في أعف منطقة ببدنها ليطفيء بعضاً من نيران حقده الأسود ويودعها الزنزانة من ثم بضعه أيام قبل أن تنقل مع بقية المجموعة إلى كفر سوسة.

فنون التعذيب!

كانت إيمان ت. "أم شيماء" راجعة إلى بيتهم مع زوجها وابنتها الرضيعة شيماء وكانت في الشهور السبعة أو الثمانية من عمرها، وعندما بلغوا مدخل البناية لاحظوا مؤشرات غير طبيعية في المنطقة، فتقدمت إيمان ووضعت المفتاح في القفل لتفتح، فيما كان الزوج والطفلة معه ينتظر أسفل الدرج، فما أن فعلت حتى أحست كما روت من بعد صوت تلقيم السلاح من الداخل، فأعطته إشارة سريعة بالهرب، في الوقت الذي فتح عناصر المخابرات الباب بسرعة وأمسكوا بها وسحبوها إلى الداخل، وفي إحدى غرف

البيت دخل عليها رئيس الدورية يسألها عن زوجها وعن الشباب الذين كانوا معها في البيت لأنهم دخلوه ولم يكن فيه أحد، وهؤلاء جميعاً أبلغ عنهم سامح كيالي، فقالت إنها لا تعرف شيئاً ولا تعرف أين ذهب زوجها ولا من كان معه، فجعل يهددها بالاعتداء عليها إن لم تبلغه المعلومات فأصرت على الإنكار، فنفذ تهديده بالفعل وحاول فعل ذلك، لكنها قاومته بشدة وراحت تتصارع معه فأنجاها الله وألقى في قلبه الرعب فلم يتمكن منها كما أراد.. وبعد ذلك نقلوها إلى الفرع عند عمر حميدة الذي اتبع نفس الطريقة معها، فشبحوها في السقف بأن كبلوا أيديها خلف ظهرها وعلقوها منهما مرفوعة عن الأرض فكأنما هي الذبيحة بين يدي الجزار، وجعلوا يضربونها ويعذبونها وهي على هذه الحالة لا حول لها ولا قوة، ثم وضعوا لها الكهرباء في صدرها والحليب يقطر منه زيادة في التعذيب والإهانة.. وبعد انتهاء التحقيق ومن غير أن تدان المسكينة بشيء نقلوها إلى كفرسوسة مع عائشة والحاجة مديحة، لنجتمع وإياهن في هذا المهجع المقيت!

سحل القتلى :

أما رابعة نزيلات المهجع وقتها فكانت أماً من إدلب لأربعة أو خمسة أولاد اسمها فوزية ح. هذه السيدة استشهد زوجها وهو يقاوم أثناء مداهمة قاعدتهم بحلب، وقامت السلطة بعد مقتله بسحل جثته أمامها بالدبابة في شوارع المدينة ثم اقتادوها للسجن وعذبوها أشد العذاب. وعلى الرغم من أنها لم تتحدث عن ذلك كثيراً وكانت من النوع الذي يؤثر الصمت إلا أننا بقينا نرى آثار التعذيب على أرجلها والزرقة مكان أظافرها المقلوعة إلى حين، وبقيت فوزية في الشهور الأولى معتدة على زوجها لا تكاد تكلم أحداً وتسارع كلما فتحوا الباب أو الطاقة فتغطي رأسها بالبطانية وتدير وجهها إلى الجدار.

أبناء الطائفة العلوية ضد النظام!

هؤلاء كن السجينات الأربع المتهمات بالانتساب أو التعاون مع الإخوان، وأما الخامسة منيرة كامل مصطفى فكانت من تصنيف آخر وحال مختلف: كانت البنت التي لم تجاوز الثامنة عشرة من عمرها واحدة من بنات القرى الساحلية العلويات، شكل والدها وأخوتها وبعض أصدقائهم تنظيماً ضد الدولة شيوعي التوجه وصاروا يصدرون منشورات تحض على كراهية النظام، وكانت معتقلة مع أخيها أيضاً الذي لم يكن يجاوز السادسة عشرة من عمره، فاعتبروهما مجرد مراهقين يقومان بأعمال طائشة، وقالوا بأنهم سيتركونها في السجن حتى يكتمل عقلها وينضج تفكيرها، وكنا في البداية نشك بها جميعاً،

ونحذر أن تكون متعاملة مع المخابرات، لكنها كانت لطيفة جداً وطيبة القلب، حتى أن الحاجة مديحة سألتها مرة بين المزاح والجد: - نحن لن نبين لك أي شيء ولن نتكلم أمامك عن وضعنا لأننا نخاف أن تذهبي إلى المقدم وتحكي له.. فأجابتها منيرة بطيب خاطر: تأكدي تماماً أنني لست من هذا النوع، ولو كنت لما وجدتني معكم هنا. وعلى الرغم من أنها ظلت متمسكة بشيوعيتها بعد العديد من المناقشات بينها وبين البنات، إلا أنها كانت تحترم تديننا، فكانت تخفض صوت الراديو إذا كنا في صلاتنا أو تلاوتنا وتراعي مثل هذه الأمور، وعندما أضربنا في وقت لاحق شاركت معنا ووقفت إلى جانبنا حتى النهاية.

الصورة الثالثة: هبة وأمها وأخوها وارف معاً في سجن واحد

في يوم من الأيام صلت أمي التهجد ثم الفجر، وانتظرت فصلت الضحى ثم اتكأت لتنام على عادتها، فما وجدتها إلا وقد انتفضت فجأة من نومها تقول لي:- سمعت صوت مشي أخيك وارف في السجن! وكان السجن وقتها في غاية الهدوء، فالشباب عادوا من الخط.. والعناصر نائمة على الأغلب.. فلا تسمع أي حس.. فقلت لها: - ما هذا الكلام؟ لا يوجد أي صوت.. وتقدمت من شق الطاقة لأتأكد فوجدتهم يقودون أخي وارف بالفعل من طرف سترته البنية التي أعرفها وقد طمشوا له عينيه وكبلوا يديه للوراء.. ورأيت حذاءه الرياضي الأبيض وحسين يسوقه ويقول له: - هيا إلى المنفردة. لكنني قلت لأمي وكأنني أحدثها من عالم آخر: لا أحد هناك. غير أن قلبي كان كأنما هبت النار فيه.. وغمرتني رغبة في البكاء وحاجة لإخبار أحد، لكنني لم أستطع فعل أي شيء أمام أمي.. وبعد فترة وعندما أضربنا إضرابنا الثاني وأخرجونا إلى المنفردات فعلاً عقوبة لنا تصادف أن وضعوا أمي وأم شيماء في زنزانة واحدة معاً، نفس الزنزانة التي كان وارف معتقلاً فيها، في تلك اللحظات كانت أمي تتصنع وأم شيماء البكاء لترقق قلوب السجانين علينا، والتفتت أمي كأنها تريد أن تدق الباب على السجان فرأت على الجدار رسم مسجد محفور وقد كتب تحته بنفس الطريقة: لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد.. الشهيد محمد وارف دباغ. فانقلب البكاء الذي كانت أمي تتصنعه حقيقياً، وصارت تنادي عليهم تريد أن تعرف أين ولدها ومتى اعتقل.. لكن أحداً لم يجبها.. وظلت تعذبها الظنون وتقتلها الحيرة ولا من مجيب...

الصورة الرابعة: الأخت أم معقل

وأما ثالثة السجينات مطيعة ح. أم معقل فكانت معلمة مدرسة شملها قرار تحويل المدرسين المشكوك في ولائهم للنظام وتحويلهم أواخر السبعينات إلى الوظائف الإدارية، فمنعت من التدريس وتم تحويلها إلى أحد المستوصفات كموظفة إدارية.. وأثناء ذلك لوحق زوجها ولكنه تمكن من الهرب، فأتوا واعتقلوها مكانه إضافة إلى اعتقال والده كرهينة! وكانت مطيعة أيام اعتقالها في أواخر الثلاثينات من عمرها وأما لأربعة أولاد، وتحمل الخامس في آخر شهور الحمل، لكن ذلك كله لم يشفع لها، فأتوا وأخذوها رهينة عن زوجها ووضعوها مؤقتاً في مستوصف عسكري تابع للأمن السياسي بالجسر، وهناك وفي الحجرة التي اعتقلوها فيها ونتيجة الخوف والتهديدات التي أسمعوها إياها جاءها الطلق على غير موعد، فجعلت تدق الباب عليهم وتستغيث وهي تخبرهم أنها تضع مولوداً دون أن يجيبها أحد، فلما خرج المولود وعلا بكاؤه سمحوا لإحدى الممرضات بالدخول إليها لمساعدتها.. لكن كل شيء كان قد تم ! وبعد ذلك نقلوها والمولود إلى فرع التحقيق العسكري بدمشق وبقيت هناك عدة شهور قبل أن ينقلوها إلى سجن قطنا فنلتقيهما هناك ولم يكن معقل قد جاوز شهوره السبعة أو الثمانية بعد.. ولقد أطلقت حليمة عليه اسم معقل تيمنا بالصحابي معقل بن يسار إضافة إلى أنه ولد في المعتقل.. وعلى الرغم من أنها كانت غاية في الصبر إلا أنها ذاقت المر كثيراً من أجله، وعلاوة على لوعتها المستمرة وهي ترى ابنها يقضي طفولته الغضة في السجن من غير ذنب ولا سبب، وترى مستقبله مجهولاً كمستقبلها رهن المهاجع والزنازين والسجون.. علاوة على ذلك الإحساس المؤلم فقد كانت أشد ما تعاني بشأنه وهي تراه بين أيدي الجميع ووفق هواهن.. وكل منهن تفرغ فيه شوقها لبنيها أو تسلي به مللها من رتابة الحياة حولها فتحاول أن تعلمه ما يروق لها حتى ولو لم يرق للأم! وتجذبه إليها أو تستبقيه معها حتى ولو لم يرضها ذلك! ولقد تسبب لها بعض من ذلك بكثير من المشاكل والحرج.. فمن أين لا تدري بالتحديد تعلم الولد أول ما تعلم النطق أن يقول "طظ أسد".. فكان كلما سمع اسمه أو رأى صورته قال ذلك.. وذات مرة مرض معقل وازدادت شكاته فسمحوا بنقله إلى المستوصف للكشف عليه، وهناك وهو بحالته تلك رأى صورة الرئيس معلقة، فما أن رآها حتى صاح (طظ أسد) بين الناس.. ولم تدر أمه وقتها كيف نجت لكنها وفي مرة تالية وعندما أخذوها إلى المحكمة الميدانية كان لا بد وأن تصطحبه معها، فلما كانوا أمام اللجنة التفت معقل فرأى

تمثال رأس الأسد في زاوية الغرفة قريباً منه فبصق عليه وقال نفس العبارة، فأمر الضابط باقتياد الأم وابنها فوراً إلى المنفردة للتأديب، فجعل معقل يبكي وهو يصيح "طظ أسد".. وصارت أمه كلما حاولت أن تسكته أو تسد له فمه ازداد صياحاً وترداداً للعبارة.. وكان عليها أن تتحمل المعاناة في المنفردة من جديد بسببه أو بسبب من لقنوه العبارة وحملوها الثمن!

الصورة الخامسة: هبة تتلقى نبأ استشهاد أهلها كلهم في حماة

وكانت ليلة لا توصف ونحن ننتظر أول يوم جمعة بعد وصولنا لنطلب من أهالي السجينات قبلنا الاتصال بأهالينا وإخبارهم بانتقالنا وبمكاننا، فلما حضر أهل غزوة حينها رجوتهم أن يفعلوا ذلك مع أهلي لعلهم يحضرون الجمعة التالية، ولم أكن أعلم أن أحداً منهم لم يعد على قيد الحياة وأنهم قد قضوا نحبهم قبل حوالي ثمانية أشهر في أحداث حماة، لكن أهل غزوة كانوا يعلمون بالطبع، علاوة على أن والدتها نفسها استشهدت في الأحداث، لكنهم عادوا في الأسبوع التالي واعتذروا بأنهم لم يعرفوا مكان أهلي بعد التغيير الكبير الذي حصل في المدينة.. وجعلوا يحدثونني عن الأحداث ولكن أحداً لم يذكر شيئاً عن أهلي وعائلتي.. وفي الزيارة التالية حضر أهل رفيقتي سناء فرجوتهم أن يذهبوا إلى دار عمتي في دمشق ويخبروها بانتقالي، فلما اجتمعوا معها وعلموا أخبار أهلي منها أشفقوا علي ولم يشاؤوا إخباري، وأجابوني في زيارتهم التالية أنهم لم يستدلوا على البيت، وفي الزيارة التي تلتها قالوا أنهم ذهبوا فوجدوها مريضة ولم يسألوها عن أهلي، وبدأت أحس أن في الأمر شيئاً غير طبيعي،فلما ذهبوا قلت لسناء مواجهة: – تعالي لأقول لك.. أمك ذهبت إلى عمتي وعمتي قالت لها شيئاً.. فماذا هناك؟ هل مات أبي فلم تتمالك نفسها وردت بصوت خافت: الله يرحمه. قلت: الله يرحمه.. إذا كان مات فالله يرحمه. فقالت لي: هكذا بكل سهولة الله يرحمه؟ قلت لها وكأن ألم السجن يسهل على الإنسان كل شيء: الله يرحمه.. ماذا يمكن أن أفعل له إذا مات؟ لو نطحت رأسي بالجدار فلن يرجع! فوجدتها تبكي وبقايا كلام لا تزال على شفتيها، فقلت لها: هل مات أحد آخر معه؟ فأشارت لي نعم برأسها. قلت لها: أمي ماتت؟ قالت: الله يرحمها. صحت: ولي.. وأين إخوتي إذاً؟ فقالت لي: ذهبوا مع أمك.. لم ترض بأن تتركهم فأخذتهم معها! قلت لها: بماذا تخرفين.. هل تمزحين؟ كل إخوتي ماتوا! قالت: إي كلهم.. الله يرحمهم.. أليس ذلك أحسن من أن يبقى أحد منهم وينشغل بالك عليه! قلت وأنا كمن يتخبط في كابوس مرعب: إي طيب خلاص..

لا تزيدي. وما عدت أريد أن أفهم أي شيء أو أسمع المزيد.. ولم تلبث عمتي وعمي أن حضرا في الزيارة التالية فلفت نظري أن وجدتها تلبس السواد وسألتها مستغربة: - عمتي.. لماذا تلبسين الأسود ؟ فقالت لي : هيك والله جاي على بالي الأسود ! قلت لها : هل توفيت جدتي؟ قالت لي: لا. قلت: إذا لماذا تلبسين الأسود! غمزني عمي بطرف عينه لأغير الموضوع، لكنني لم أتمالك نفسي وقلت له: - عمي.. لماذا تغمزني! هل هناك شيء؟ قال لي وهو لا يريد إعادة القصة أمام عمتي التي صدمت جداً بما حدث: - لاشيء.. لاشيء حدث. فقلت لها من جديد: صحيح لماذا تلبسين الأسود؟ ترى نقز قلبي! فابتسمت لي ابتسامة حزن وابتدرني عمي بقوله: - كيف تسألينها هذا السؤال.. ألا تعرفين الخبر؟ قلت وكأني عدت إلى ذاكرتي تلك اللحظة وحسب: نعم.. عندي خبر بأن أهلي استشهدوا، لكن أنا أسألها لماذا هي لابسة الأسود.. ولم يخطر لي أنها تلبسه على أهلي.. ونسيت أنها متشحة بالسواد حزناً على بيت أخيها! فقال لي عمي وهو يراني أمامه أتصرف ببلاهة: إي حزنانة على أهلك.. هل فهمت! قلت لها: انظري، إذا مرة ثانية ستأتين لابسة أسود لعندي فلا تأتي.. لأن الشهيد حي مو ميت، وإذا أردت أن تحزني عليهم لأنهم أحياء فلا تأتي لعندي.

وشاب الشهود!

كانت العبارة قاسية على عمتي، لكن الحالة كانت أقسى على نفسي وأشد، ورغم أن عمتي انفجرت وقتها في البكاء وأخذ عمي يهدئ من روعها فما سكتت إلا بصعوبة، إلا أنها تفهمت حالتي لا ريب، ولما عادت في المرة التالية أتت وقد غيرت السواد بالفعل.. لكنني لم أسمع قصة أهلي بالتفصيل إلا من أم ماجدة التي حضر والدها أول مرة فلم تكد تعرفه من الشيب الذي غطى رأسه والكرسي المتحرك الذي أقعده نبأ اعتقالها عليه، فلما تأكدت أنه أباها جعلت تقفز من فرحتها وقد عقدت الفرحة لسانها فلا تستطيع الكلام، فلما استدركت نفسها قالت لأبيها وكأنها تعتذر: - والله ما عرفتك.. تاري شايب.. فقال لها: والله شيبتيني يا بنتي! وكان والدها حزبياً ضد الإخوان فتوقعت أن تكون لديه ردة فعل ضدها أيضاً، لكنه لما رآها أول ما حضر بكى وهو يقول: - انظري.. أنا آتٍ ورافع رأسي ولي الشرف والحمد لله. وفي الزيارة التالية حضرت أم ماجدة فكانت فرحتنا معاً بها لا توصف، وأبلغتني أم ماجدة أول ما أبلغتني باستشهاد أخي وارف، وقصت علي القصة من بداياتها، فقالت بأن المخابرات كانوا بعد خروج أمي من السجن قد استبقوا

كميناً في بيتنا وفي ظنهم أن إخوتي سيأتون للسلام على أمي بعد خروجها فيعتقلونهم، فلما لم يجدوا جدوى من ذلك ولم يحضر أي منهم جعلوا يعتدون بالتعذيب على أبي، فيخرجونه بين فينة وأخرى إلى حديقة كبيرة كانت أمام بيتنا على طرف العاصي ويعذبونه أمام الناس فيها، فيضربونه مرة، ويحرقون له ذقنه مرة، ويجرجرونه في الشارع أخرى، إهانة وإذلالاً له وتخويفاً لغيره.. وكانت أمي تخرج عليهم وهي تصيح وتدعو، فيقول لها مسؤول الدورية: - سلمينا أولادك لنكف عن زوجك ونعطيك ابنتك.. فترد عليه بتحد كعادتها: سلمني إياها بيدي.. حتى أراها بعيني وأمسكها بيدي لأقول لك أين بقية أولادي، لكن والله طالما أنها غير موجودة أمام عيني فلن تأخذ شيئاً ولو قتلتني. ثم كانت الفاجعة التالية حينما استشهد أخي وارف في حلب (وكان عمره ١٨ عاماً وحسب) أثناء مداهمة بيت أوت إليه مجموعة من الملاحقين كان من بينهم وذلك قبل ١٦ يوما فقط من استشهاد أهلي، وبرغم الفاجعة فإن أمي آثرت أن تكتم الخبر عن أبي وهو بحالته تلك فكانت تذهب عند أم ماجدة وتخرج صورة وارف هناك وتبكي عليها ما شاءت حتى تطفئ حرقة قلبها فتعود إلى البيت. لكن ذلك لم يمنعها أن تحاول زيارتي في السجن بأي وسيلة، ولم تمنعها النوازل أن تمضي إلى كفرسوسة مع أم ماجدة مرة فتقابل ناصيف من جديد وتسأله إذناً بزيارتي، فكان كل الذي أجابها به: - والله آسفين، هذا الاسم غير موجود عندنا! فكادت أمي - كما روت لي أم ماجدة أن تجن.. وعندما تركت مكتبه وقفت أمام نافذة مهجعنا المطلة على ساحة الفرع الداخلية والتفتت إلى أحد العناصر من لهفتها تسأله راجية أن يخبرها ولو بإشارة من طرف عينه إن كنت لا أزال هناك أم لا، لكنها لم تحظ حتى بتلك الإشارة وغادرت ملوعة القلب دون أن تراني أو تسمع عني أي شيء.. وظلت وظلوا جميعاً على حالتهم تلك حتى كانت بداية الأحداث في حماة.

شهداء أحياء

كنا لا نزال في سجن كفرسوسة حينما تفجرت أحداث حماة الشهيرة في شباط ٨٢ لكننا في عزلتنا المفروضة وقتذاك لم نسمع بأدنى خبر عنها، وعلى الرغم من تسرب بعض الأنباء لبعض البنات بيننا إلا أن المقدم ناصيف حذرهن أشد التحذير من أن يتحدثن عنها أو أن يعلمنني بشيء عن مصير أهلي، فلما نقلنا إلى قطنا بدأ الخبر يصل إلي والقصص التي لا تصدق والفاجعة الرهيبة تبلغني من هنا وهناك، فلما حضرت أم ماجدة روت لي المزيد من تفاصيل ما جرى وخاصة فيما يتعلق بأهلي رحمهم الله، وقالت بأن

البداية كانت حينما رأت في منامها أن إخوتي الصغار ينامون على سرير واحد ولكنهم غارقون في الماء، وأحست أنهم برغم غرقهم فقد كانوا يتمايلون في الماء الصافي وهم أحياء.. ثم رأت أمي تدخل وترقي عليها فتنقسم في حجرها إلى قسمين.. فلما استيقظت حدثها قلبها بأن أهلي في خطر، فقامت من فورها ورجت زوجها أن يذهب ويستطلع أمرهم، ويجهد لكي يعود بهم معه إلى البيت، ولما كان أهل ماجدة قد انتقلوا من "حي الطوافرة" الذي جاورونا فيه طويلاً إلى حي جديد على طريق حمص، مما جعلهم عملياً من سكان الضواحي، فقد كان عليه أن يقطع مسافة طويلة حتى يبلغ محيط المدينة القديم، فلما خرج بعد صلاة صباح ذلك اليوم وشارف حماة وجدها مطوقة من كل مداخلها، فلم يستطع التقدم أكثر وعاد ناجياً بنفسه.. وانفجرت الأحداث.. وعم القتل والتدمير.. وانقطعت حماة عن العالم بينما المذابح تجري في شوارعها وأهلها يموتون بالمئات.. وأثناء ذلك حاولت عمتي من جهتها الذهاب من دمشق إلى حماة لاستطلاع حال أهلي ومساعدتهم في شيء، ورغم أن محاولتها تلك كانت انتحارية لم يوافقها عليها حتى زوجها، إلا أنها أصرت على المحاولة، وتمكنت من دخول المدينة بالفعل حتى شارفت على الحي الذي نسكن فيه، إلا أن القوات العسكرية ردتها من هناك وما سمحوا لها بالاستمرار، ووقتها كانت أربعة أيام قد مضت على أبي وهو ملقى في الشارع لا يجرؤ أحد حتى على رفع جثته!

كسرة خبز وحسب!

أما حادثة استشهادهم فبدأت عندما اعتصم أفراد من المقاومة في حينا واستعصى على القوات الحكومية اقتحامه، فأحكموا الحصار حوله ومنعوا المؤن والكهرباء والماء عن الحي كله، واستمر الحصار لسبعة أيام كما سمعت حتى لم يبق في بيتنا من الطعام أو الماء شيء، فخرج أبي وجعل يسأل طليعة القوات المحاصرة بعض ما يقيت الأطفال، وروى لي خالي الذي كان يشهد الحادثة من شباك بيته المطل على المكان أن الجندي انتهر أبي وأمره بالعودة من حيث أتى، لكن أحداً لم يكن ليستطيع أن يسكت جوع الأطفال، فخرج أبي مرة أخرى يقول للجنود: - فقط نريد قطعة خبز للصغار. فأجابه الجندي منتهراً: ارجع أحسن ما أرشك وأرميك بالأرض. لكن ذلك لم يرد أبي إلا لبرهة، عاد للمرة الثالثة بعدها يسألهم خبزاً فالأولاد يكادون يموتون.. في تلك المرة لم يجبه الجنود إلا بزخة رصاص أردته على باب بيته.. وصاح خالي من بيته المقابل وسقط من

هول المنظر مغشياً عليه، فلما ركضت زوجة ابنه لتحمله لمحها الجنود فالقوا على البيت قنبلة ضوئية لتكشف كل ما فيهُ واقتحموا عليهم وانتشروا في كل مكان فيه متدرعين بالنساء والأطفال فيه.. في تلك اللحظات وعندما سقط أبي برصاص الجنود سمع أخي ماهر الصوت من قبو البيت حيث كان الجميع قد التجأ فخرج ليستطلع الأمر، فلما رأى أباه صريعاً أمامه ارتد إلى حجرته وتناول سلاحاً كان "شبيبة الثورة" قد سلموه إياه ليدافع عن أمن الثورة" ولم يكن عمره قد جاوز الثالثة عشرة بعد! واندفع ماهر خارج البيت يطلق النار على الجنود الذين قتلوا أباه، فأصاب منهم من أصاب قبل أن يردوه هو الآخر قتيلاً.. ولقد قال ناصيف خير بك لماجدة ولبقية رفيقاتي بعد ذلك عنه بكل صراحة : - أعطيناه السلاح ليحمينا به فقتلنا به.. هؤلاء كلهم خونة.. ولذلك جعلنا الصغير فيهم أربع قطع لأن بذرته إخوان وكان سيطلع إخوان! بعد ذلك خرجت أمي تدعو عليهم وتبكي وتستنزل اللعنات، فأكملوا جريمتهم ورشوها أمام الباب أيضاً.. ثم دخلوا على البيت فأجهزوا على كل من بقي فيه: ياسر ابن أربعة أعوام، وقمر ابنة خمسة، ورنا في السادسة، وصفا التي كانت قد دخلت المدرسة في أول سنة لها وقد بلغت لتوها السبعة أعوام، ثم أختي ظلال التي كانت في العشرين تقريباً.. وأما أخوتي الثلاثة المتبقين فكان صفوان أولهم خارج سورية، وغسان وسامر متخفيان في حلب، فكانوا الناجين من بين بقية الأسرة التي قضت جميعاً، وبالطبع فقد تم جمع جثث الجميع مع بقية القتلى في البلد ودفنوا في مقابر جماعية دونما تمييز وذلك قبل أن يتم رفع حظر التجول ووقف القتل والتدمير بأيام.. وعندما تمكن الناس من الخروج من مخابئهم آخر الأمر وتوجه عمي وزوجته ليروا ما حدث لم يجدوا إلا غطاء رأس أمي عند بوابة البيت وسط بقعة كبيرة من الدم، ووجدوا على جدران القبو وفوق أرضه دم إخوتي البقية ولا أثر لجثة أي منهم.

حي على الجهاد

وأما أخي عامر الذي كان في الرابعة عشر من عمره فقد استشهد في نفس الفترة بعيداً عن أهلي في شارع ٨ آذار. وكانت أمي قد أرسلت عامراً ليجلس مع جدته في بيت أخيها المسافر إلى السعودية حتى لا تأتي المخابرات ويجدوا البيت خالياً فيسرقونه كعادتهم، لكنهم لما أتوا للتفتيش فعلوا ما هو أسوأ.. فعندما وجدوا عوداً من ممتلكات خالي جلسوا يدقون عليه وقد انهمك بقيتهم في العبث بمحتويات الغرف الأخرى بلا رقيب أو حسيب، ثم طلبوا من جدتي وسط قهقهاتهم الفاجرة أن تقوم فترقص لهم، في الوقت الذي

اختبأ عامر تحت السرير فما وجدوه، ومن رعبها وخشية منها أن يتمادوا معها أو أن يعثروا على أخي قامت جدتي بسنها الذي قارب السبعين فامتثلت ورقصت بهيبتها ووقارها وتقاها لهم.. فلما انصرفوا وقد نهبوا ما أرادوا وحطموا أكثر مما نهبوا، خلع أخي ساعته وتوضأ وصلى ركعتين سنة الشهادة ودفع إليها بالساعة وقال لها: - هذه الساعة ذكرى مني خليها معك وأعطيها لأمي ذكرى وادعي لي.. وخرج راكضاً وجدتي تناديه أن يا عامر تعال وهو لا يستجيب.. ورأته آخر ما رأته وقد دخل سوق الطويل ، ولم يخرج بعدها إلا مرة واحدة طرق الباب فيها على إحدى القريبات حافي القدمين ممزق الثياب يسألها أن تمنحه أي نوع من الطعام أو اللباس لديها، وأخبرها بأن رفاقه يكادون يموتون من الجوع والبرد.. ولم يكن لدى هذه العائلة من الأولاد إلا البنات، فاحتارت أول الأمر، ثم أعطته ما توفر من جاكيتات وكنزات كبيرة الحجم يمكن للشباب أن يستخدمونها، وأعدت له بعض الطعام وأشياء أخرى أخذها وذهب، وفي اليوم التالي وجدوه مستشهداً في نفس الشارع، فأتى رفاقه ودفنوه مكان مسجد هدمته المخابرات، وبعد انتهاء الأحداث حفروا ثانية ونقلوا الجثة إلى المقبرة، ولكننا لم نعرف للأسف أين بالتحديد لأن الذي دفنه استشهد أيضاً! وهكذا تلقيت نبأ استشهاد والدي وخمسة من إخوتي مرة واحدة، وبلغني الخبر الذي كانت البنات تخفينه عني طوال شهور رحمة بحالي وإشفاقاً علي، إلا أنني سبحان الله لم أحس الخبر مفجعاً كما ظن الآخرون، ولم أحزن عليهم حزني على أحبة فقدتهم لأنهم في حالتهم هذه شهداء إن شاء الله.. وكل منا يدعو الله متمنياً أن يرزقه الشهادة كرماً منه سبحانه وفضلاً، فكيف يحزن إن أكرم الله بها أحب الأحبة وأقرب الناس إليه؟ إننا نخاف من الموت فقط حيث الحساب والسؤال والامتحان.. وأما الشهادة فهي الحياة الحقيقية، وهي النعمة التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

في القاع: سنتان في سجن تدمر

وكتب الأخ خالد فاضل في القاع: سنتان في سجن تدمر، يذكر فيه صوراً من التعذيب، الذي مارسته المخابرات العسكرية على المواطنين السوريين، وهذه صور من القاع :

١- الصورة الأولى قبل الوصول إلى تدمر: فتح السجان الباب وأمرني بالخروج واقتادني إلى غرفة جانبية وجاء بمنديل أسود فعصب به عيني جيداً واقتادني إلى ممر ثم دخل بي إلى قبو التحقيق وأوقفني فيه. شعرت أني أقف أمام إنسان ما، فألقيت السلام فلم

يعجبه ذلك فقام إلي وانهال عليّ ضرباً فوجئت بهذه الهجمة المنكرة، وصدمت رغم أني كنت أتوقع ذلك وأكثر منه، ولم أكن أتصور كيف.. ثم أمرني أن أحدثه عن تنظيم الإخوان المسلمين بالتفصيل.

قلت: لا أعرف عنهم شيئاً.

قال: يا إما تحكي بالطيب وإلا والله بسلخك؟ احكي مين اللي نظمك؟..

قلت: أنا لست منظماً يا أستاذ. أنا موظف بسيط من بيتي لعملي وهذه هي حكايتي فعلاً وبكل صراحة. قال: احكي مين اللي نظمك في الإخوان المسلمين؟ مين تعرف منهم وبدك تحكي كل شيء.. نحن نعرف كل شيء عنك لكن بدنا أنت تحكي..

قلت: صحيح.. أنتم تعرفون كل شيء وأنا لا أعرف شيئاً، أنا أقول الصدق ولا أكذب عليك. أنا لا أعرف شيئاً عن الإخوان المسلمين ولا بعمري التقيت بواحد منهم هذا هو الصدق. قال: أنت ما بتفهم بالمعروف ولك..؟

واندفع يصفعني ويضربني وهجم عليّ شخص آخر وألقاني أرضاً ووضع رجلي في دولاب، وأدخل رأسي فيه فجمع رأسي إلى رجلي (يا رب ماذا فعلت)؟ صرخت: والله قلت الصدق.. فصرخ: كذاب ولك..

وانهالوا عليّ ضرباً بالخيزرانة على رجلي وعلى ظهري وجانبي، بدأت أشعر بألم في جسمي كله، وكأنه يكوى بالنار، وأن هذه النار تضرب في العظم وصرت أتأوه وأصرخ:

يا أستاذ يا سيد أنا بريء. أنا مالي علاقة بأحد اسأل عني.. فصرخ فيّ: كذاب ولك.. بدك تحكي غصباً عنك.. وصرخت رغماً عني. كان الألم رهيباً فارتفع صوتي بالصراخ والتأوه.. ودارت الخيزرانات تأكل من جسمي من الرجلين والجانبين والظهر ومن كل مكان، وأنا أستغيث ولا مغيث ثم وقفوا بعد أن تعبوا وكلوا. ونهرني قائلاً: بتحكي ولك..؟

قلت: نعم بحكي ايش بتريدوا؟.. قال: هات لنشوف مين اللي نظمك وإيش بتعرف عن الإخوان المسلمون؟ قلت: والله ما بعرف شيء عن الإخوان. فصرّ على أسنانه وقال: ما بتعرف يا... خود..وعاد القلم من أوله، وتوالت الضربات على رجلي كأنها النار تكوي العظام، وتناولتني الخيزرانات تلدغ بسمها جميع بدني كأنها الأفاعي تنهش من لحمي وعدت أصرخ:

- دخيل الله يا الله أنا بريء.. أنا بريء.. وكأنهم حموا أكثر فكأن كلامي الزيت يلقى على النار فغبت عن الوجود.. وهدأت حمى عذابهم وعادوا إلى المحاورة:

- بتحكي ولك؟ قلت: نعم بحكي دخيلكم. أنا رب عائلة وأطفال صغار، ما عندكم أطفال، إيش بتريدوا مني؟ قال: مين اللي نظمك؟ ماذا تعرف عن الإخوان المسلمون؟

قلت: والله يا ناس ما بعرف شيء والله ما بعرف.. انتو بتعرفوا.. وعادت الخيزرانات تلعلع وتأكل من رجلي وجسمي وعدت أصرخ وقد جفّ حلقي وضعف صوتي وقال أحدهم: - الكهرباء..

ووقف الضرب وجاؤوا بسلكين فربطوا كل واحد منهما بإصبع من إحدى رجلي وقالوا:

- بتحكي ولك وإلا منشويك بالكهرباء مثل العصفور؟...فصرخت: يا سيدي والله حكيت وبحكي إيش بتريدوا..

وسرت الكهرباء في الأسلاك وكأنما هي العقارب تدب وتلسع في رجلي ثم اشتدت فأخذت جسمي رجفة شديدة والنار تسري في دمي وعظامي وتأخذ بقلبي تريد أن تخنقه وتقتله وصرت أصرخ ملء فمي بلا شعور وأنتفض كالمذبوح وكأن جسمي أصابه مسّ شيطاني، وكأنما ركب في رجلي زنبرك كما في لعب الأطفال، فهي تتحرك آلياً في انتفاضة مستمرة والنار تسري في دمي وجسمي حتى كللت ووقفت النار.

وصرخت بصوت ضعيف: والله بحكي يا سيدي بحكي..فصرخ المحقق منتصراً: مين اللي نظمك وإيش بتعرف عن الإخوان المسلمين؟ قلت بألم: والله ما حدا نظمني يا ناس لا أعرف الإخوان، كل عمري ما شفت شخص من الإخوان المسلمين من أين أعرفهم ما حدا قال لي أنا من الإخوان.

وعادت النار تسري في جسمي ويغلي بها دمي، وأصبح صراخي ضعيفاً وصوتي لهاثاً لا يكاد يسمع وجسمي ينتفض كريشة تضربها رياح عاصفة من كل مكان، ووقفت النار وعادت المحاورة القاتلة ولا أدري كيف مرت ساعتان من حياتي كأنهما الدهر، وأخرجوني من غرفة التحقيق إلى الممر ثم إلى الغرفة الجانبية، ونزع السجان العصابة عن عيني وأعادني إلى الزنزانة وأنا أستند إلى الجدران وأجر نفسي جراً، وتلقاني الأخوة يواسونني ويهونون عليّ وقال أخ مهندس: شد حيلك هي ساعة وتزول..

وسألني آخر: هل تورطت في الكلام؟ وأشرت برأسي كالذي يناطح الصخر:لا.. وكانت الدموع تسيل من عيني ورجلاي متورمتان مشققتان، وساقاي مجروحتان في عدة مواضع. أردت أن أضطجع فما استطعت. كان جسمي يؤلمني أشد الألم، وجالت في نفسي خواطر، ما أحلى أن يصاب الإنسان في سبيل مبدأ سام شريف، تذكرت أنا كنا منذ فترة نسعى لبناء جامع في حينا، وشاركت مع عدد من أهل الحي في العمل بهذا المشروع، وكان هناك الحاج معروف صاحب أرض البناء الذي تبرع بالأرض كلها والتاجر يونس الذي دفع مبلغاً كبيراً والبناء أبو خالد يشارك باستمرار في العمل والإشراف. وكنت أساعده.. وزلقت رجلي يوماً فوقعت وكشطت ركبتي وتألمت كثيراً ولكن هون علي ذلك أن هذا في سبيل الله واليوم يصيبني هذا العذاب: لمَ يارب؟ إن لم أكن من تنظيم الإخوان فأنا مسلم وأنت يا ربي كريم، فإني أرجو أن تكون هذه الآلام في سبيلك، وأنها لظلم واقع بي من هؤلاء الطاغين، وأنت يا ربي لا تحب الظلم ولا يضيع عندك شيء.. اللهم انتقم منهم.

٢- الصورة الثانية : كان سمير الدج يعمل مع أبيه في مقهى صغير بجانب سوق الميكانيك في مدينة جسر الشغور على اليمين الداخل إلى المدينة من جهة طريق حلب.وهو شاب لطيف طيب القلب عمره (١٦) سنة،لم يتمرس بشقاوات الأولاد. كان طيباً بكل ما في الكلمة من معنى ذهب مع أبيه إلى المقهى صباحاً، وقبيل المغرب حمل غلة المقهى ولحق بأبيه إلى البيت، فقد كانت خطة معروفة لأبي سمير أنه لا يفتح مقهاه في الليل أبداً، ولا يسمح للمقامرين أن يقامروا فيه مهما كان الأمر.وفي الطريق لمح الشاب عساكر الوحدات ذوي البدلات المبرقعة تقطع الطريق، وكان الجو العام في البلدة قاتماً، فأحداث الجسر لم يكن قد مضى عليها إلا قليل، فانفتل الشاب عائداً ليغير طريقه بعيداً عنهم، ورآه أحدهم فصرخ به فأرعبه وأربكه فأراد الابتعاد، ولكن الروسية كانت ملقمة واليد على الزناد فبادرته برشة من الطلقات النارية، فسقط الغلام مضرجاً بدمائه، وضحك المجرم ضحكة السعادة الفاجرة، وجاء ينظر إلى الضحية ويغنم غلة المقهى التي تعب الغلام وأبوه فيها طوال النهار، ويتساءل الضابط شامتاً: ألم يمت بعد؟ ويقرر من عنده (مات وشبع موتاً)، فيأتيه اثنان منهم فيجرونه من رجليه إلى السيارة الشاحنة الواقفة غير بعيد، فيلقونه فيها، ويقف القاتل واضعاً رجله على جثة الطفل الضحية في وضع بطولي يحتاج إلى صورة تذكارية، والروسية مهيأة والإصبع على الزناد وتنطلق السيارة.

مزقت الأم ثيابها وقطعت شعرها وعولت وألقت نفسها على الأرض وهي تبكي.. ووضع الأب يديه على رأسه وانهد باكياً في حزن يهد الجبال: يا سمير يا ولدي يا سمير.. يا سمير.. وقبض القاتل المكافأة (١٠) آلاف ليرة كاملة لا تنقص قرشاً، ورفض ضابط الوحدات الإجابة عن أي سؤال، ورفض تسليم الجثة إلى ذوي القتيل بل سلموها لمكتب دفن الموتى في المحافظة ليتولى دفنها سراً، وسارع الوالدان إلى مكتب الدفن وأشفق عليهما المسؤولون وسمحوا لهما برؤية ولدهما القتيل فألقيا النظرة الأخيرة على طفلهما وأكبا يقبلانه ويشمانه وهو جامد بارد فاغر الفم وفي صدره ينابيع دم متجمدة.. ماذا تفعل الأحزان؟ وماذا تفعل الآلام؟ لن تفعل شيئاً إلا أن تحفر في القلب جروحاً غائرة لا يمحوها إلا عدل إلهي يعاقب المجرم على جريمته، بل لقد ارتفع ثمن القتل كما عرفت مؤكداً فأصبح (٢٠) ألف ليرة بدل عشرة آلاف.

٣- الصورة الثالثة: حفل عذاب الاستقبال في تدمر

ولما اكتمل العدد ساقونا في صف طويل متعرج لا يتركونه يسير إلا بالضرب حتى دخلنا إلى باحة كبيرة مفروشة بالإسفلت وصفونا على الجدار واحداً واحداً، وأمرونا أن نخلع ملابسنا كنا في آب فصل الحر الشديد، لذلك كانت الثياب خفيفة جداً فنزعناها بسرعة..

وجاء شخص يسمونه (البلدية)، فجمع أحذيتنا وأخذها وبدأ عندها التفتيش، أمسك أحدهم بشعر لحيتي ينتف منه، ومن صدري الخصلة تلو الخصلة، ولما تأوهت لكمني على وجهي.

أمرونا بإنزال اللباس الداخلي ففعلنا، وسلقونا بالكرابيج على مؤخراتنا مع البصق والكلام الفاجر، وبدأت الحفلة الرهيبة، تشكلت مجموعتان للتعذيب وفرقة جوالة والكل مزودون بالكرابيج. أوقفونا واحداً واحداً ووجوهنا إلى الجدار وتنقض المجموعة على الواحد بالضرب الرهيب وتقوده إلى الدولاب، فيضعونه فيه ويضبطون رجليه بعصا الفلقة، ومن ثم ينهال عليه ثلاثة جلادين بالضرب الشديد على رجليه، فكأنها النار المحرقة تكوي العظام، ويشتد الألم ويتعالى صراخ المعذب ويتأوه متألماً شاكياً، ولكن الضرب يشتد على المعتقل في دولاب التعذيب والكرابيج تطحنه؛ فيصيح ملء الفم زعيقاً وعويلاً هو أبعد ما يكون عن صوت البشر، وينفتح الفم إلى آخره فيلقمونه الحذاء ويدسونه في فمه، فإذا أبعد وجهه ركلوا رأسه وداسوا رقبته، ويعلو الزعيق والصراخ من شدة الألم

والعذاب في تلك الباحة، حتى يضج به المكان فينبري الرقيب العتيد يصرخ زاجراً ناهياً بصوت مدو يأمر بالسكوت: (سكوت ولك)، وكأنه قائد أوركسترا يضبط النغم في حفلة صاخبة، يستعمل الصراخ الناهر بدل عصا الأوركسترا فيلجم الخوف الأفواه وتختنق صرخات الألم.

تذكرت في ذلك الموقف أصحاب الأخدود والنار ذات الوقود وإلقاء المؤمنين في وقدة النار وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، كانت عناصر الفرقة الجوالة تطوف على الواقفين المنتظرين بسيل من الضربات العارمة تجعل الواحد يحن إلى دولاب الموت أن يدركه، فسمع صوت الكرباج الثقيل (وهو عبارة عن قشاط دبابة) ينهدّ على ظهر المعذب أو على رأسه فيرتجف ويكاد يصعق، ويئن ويصرخ بالصوت المخنوق المرة تلو الأخرى.

كنت أقف ووجهي إلى الجدار أنتظر دوري في الدولاب الرهيب، وأناجي ربي: يا سميع يا بصير يا من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يا رب رحمتك غوثك.. هاهم الجلادون المجرمون جنود الشيطان ينقضون على عبادك المستضعفين بالعذاب.. يا الله يا الله..

وجاء دوري وطحنني الجلادون بكرابيجهم وأنزلوني في الدولاب واشتد البلاء بضرب رهيب، وثلاثة من الجلادين عاري الصدور والظهور وبأيديهم الكرابيج كأنها اللهب، يقف الواحد منهم مباعداً رجليه جاثياً على ركبتيه رافعاً يده بالكرباج إلى الأعلى والوراء، حتى ترى عفرة إبطه، وينزل به كأنه الصاعقة الماحقة، تريد أن تدمّر وتحطّم ولكن لطف الله أعظم.

كان الشاب الصغير إسماعيل يصرخ متألماً باكياً شاكياً مستغرباً يقول: إيش بتريدوا دخيلكن؟ أما نبيل فقد كان يعلن براءته مالي علاقة والله ما عملت شيء دخليكن أنا بريء، وهم يزودونه بالكرابيج ويلكمونه ويرفسونه، ثم ألقوه أرضاً وأوسعوه ركلاً وضرباً حتى سالت الدماء من وجهه وشفتيه، وغاب عن الوعي أو كاد فأدخلوه في الدولاب وأذاقوه من العذاب، ثم أقاموه بعد أن تعبوا وكلّوا وأنهكوه ووجهوه إلى الجدار حيث العصا الرهيبة في الانتظار تفلق الرؤوس وتحطم الظهور وتدفع من انتهى أجله إلى القبور.

صبرت قليلاً على الضرب والتعذيب ولكن رجلي أصبحتا وكأن فيهما جمر نار يحرق العظام، فنفد الصبر وضاق بي الأمر وكدت أغيب عن الصواب، وصرخت مرة

ومرات ثم انفتح فمي بالزعيق فما شعرت إلا وحذاء ضخم يصك أسناني ويكاد يسد حلقي ولكني كنت في شغل عنه وغبت عن الوجود، فما دريت إلا وأنا أساق دفعاً وركلاً إلى مكان ما، وأبصرت أمامي نفراً من إخواني بعضهم واقع على الأرض، والبعض يقفز أو يتحرك في حال مأساوية، دماء نازفة ووجوه ملأى بالجروح وأرجل قد تمزقت وسالت منها الدماء وصراخ يقطع الأكباد.

وصرخ فيّ عسكري جلاد، وانقض آخر بعصاه فحطم بها ظهري، فوقعت بين الموت والحياة وصرخت صرخة انطلقت مخنوقة من صدري الذي ظننته قد انشق نصفين (يا الله يا الله)، وبادرني آخر بالزعيق لكي أستجيب وأقوم فما استطعت، ولكن الركل والضرب أجبراني على القيام فقمت وكنت أظنني لا أقوم. وجاء شخص بالماء فرشقنا به، وإذا بي قرب نبيل وهو يبكي ويتمسك بي قائلاً: - سلّم لي على أهلي أنا بدي أموت..

فقلت: اصبر يا رجل..

وإذا بالصراخ يأخذنا من كل جانب.. واستدعانا الرقيب الكبير فإذا به جالس على كرسي في الظل بارز الصدر مستقيم الظهر منفوش كالديك فأخذ يستجوبنا:

- إيش كنتو عم تحكو يا...؟

كان عقله المريض يصوّر له أشياء غريبة، لابد أننا نتآمر عليهم أو على سلامة النظام. قلت: إنه يقول لي أنا بدي موت سلّم على أهلي. فصرخ بغضب: (كذاب ولك إيش كنتو عم تحكوا؟ قال نبيل: والله يا سيدي هيك قلتلو..

- كذابين ولك حقراء.. ثم أشار للجلاد وقال: (سلخن لها الكلاب..) وانهال علينا مارد عاري الصدر نحيل الوجه مليء الجسم، فكان وجهه وجه فأر وجسمه جسم حمار وإنها لسحنة معروفة ولهجة غير خافية وهو يقول: (متحكوا يا حقيرين يا...) وانهال عليّ ضرباً حتى وقعت على الأرض أصرخ، فلم يتركني حتى شفى غيظه وحقده مني وأعادني إلى مكاني مع نبيل بعد أن ضربه أيضاً ضرباً شديداً.

وجاء من يرش الماء علينا ويسمونه (البلدية) كان كما علمنا بعد ذلك، سجيناً قضائياً من سجن العسكريين يعمل هنا في الخدمة التي يسمونه (البلدية) ولا أدري ممن بدرت بادرة خير ولعلها من نوع الرأفة بالحيوانات فقال أحدهم للبلدية: اسقيه.

كانت شفتاي مشققتين من الضرب، وحلقي جافاً من العطش، والصراخ واللهاث وحالي بالغة السوء، فناولني (البلدية) سطلاً من البلاستيك فيه ماء قذر وسخ قائلاً: تفضل.. فاندفعت أشرب منه بضع جرعات ولم أعده إليه بل ناولته لنبيل فشرب وسقى شخصاً آخر أو شخصين. ثم أخذوا الماء ولم يسقوا الباقين، وكنا بلا طعام ولا شراب منذ أربع عشرة ساعة تقريباً. كانت كلمة (تفضل) ترن في سمعي وصوت واجف يقولها وكأنه يقول: اشرب يا أخي فداك روحي.

أربع ساعات من القهر والعذاب والتحطيم لا يعلم ما قاسينا فيها إلا الله والذي عاشها من نزلاء تدمر، وكل معتقل يأتي تدمر لابد أن يطبق له الاستقبال اللعين فتطحنه رحى العذاب ويذوق الموت في ذلك الدولاب، وينظر بوحشية بني البشر التي فاقت وحشية وحوش الغاب سوءاً وضراوة وغدراً.

٤- **الصورة الرابعة:** بعد خروج الجلادين كان الأخ (م ع) أبو أنس مغمى عليه ملقى في الزاوية، وهو طالب جامعي في فرع الهندسة الكهربائية وفي السنوات الأخيرة.. وعمره (٢٣) عاماً وقد خصوه بأكبر قسط من العذاب، ويبدو أنهم فطنوا لما ذكره عند تسجيل الأسماء عن عمله، فكان ذلك دافعاً لزيادة العذاب عليه وهذه فلتة من فلتات عبقرية الجلادين.. لا أحد يدري من أي مبدأ استوحوا القاعدة التي يتبعونها في معاقبة وتعذيب حملة الشهادات دون غيرهم، لذلك كان الأخ المهندس (ش س) يجيب إذا سأله الجلادون عن عمله بعد ذلك يقول: نصاب عواميد كهرباء.. ولم يكن ذلك ليصرف عنه العذاب، ولكنه كان ينجيه من غضبة الجلادين. دعاني بعضهم أن أقوم لأنظر حال الأخ أبي أنس..

فقمت إلى الأخ أغالب ما بي.. كان أبو أنس قد استفاق لتوّه من إغماءته وكان منهكاً مرهقاً.. قلت: - كيف حالك يا أخي..؟ قال: الحمد لله..

وجاء شاب كان يجلس قريباً منه كان في حالة سيئة جداً: وجه متعب مشوّه، وجسم منهك وكشف القميص عن منظر مثير، ظهر تمعط جلده وتسلخ وظهرت فيه جروح غائرة ولحوم مشرشرة، وكان ينزف قيحاً ودماً.. حتى صبغ القميص بل غمره..

كان هذا الشاب يدعى (ع) وهو من جهات الساحل السوري، وعمره ستة عشر عاماً..

قال: شفلي ظهري أستاذ..ورأيت ظهره واعتصر الألم قلبي، لأني لم أكن أستطيع له شيئاً.

٥- الصورة الخامسة : الحلاقة في سجن تدمر

قذف الرقيب بأوامره مع السباب الشنيع.. (برا ولك حقراء.. برا بسرعة يا.. كاللكم.. ولا واحد يبقى في المهجع)..ودون مخالفات كنا نعاني من العذاب والضرب وغيره، فكيف مع المخالفة؟!! فنفذنا الأمر، وأسرعنا خارجين، نحمل المرضى والمصابين.

وأخذ الجلادون يسلقوننا بالكرباج.. من لدن الباب ثم قادونا في رتل أحادي يمسك كل منا بظهر الذي أمامه ويسير مطأطئ الرأس محني الظهر.. والضرب شديد والجلادون حولنا كالكلاب المسعورة يصرخون (هنت متطلع يا حقير.. هنت مترفع راسك يا.. ولك لك) وأدخلونا من أبواب وأخرجونا من أخرى، ونحن مغمضو الأعين لا نعرف أين نذهب، وكلما وصلنا باباً اشتد الضرب علينا عنده ومررنا بعدة أبواب، ولم نكن ندري نهاية المطاف ولا أين المستقر.سلمنا الأمر إلى الله سبحانه، والتجأنا إليه وتوكلنا عليه..

حتى جاؤوا بنا مكاناً ضيقاً.. متطاولاً فيه من جهة اليمين أعمدة وشرفة واسعة قدرنا ذلك مما لمحناه من ظل، وأجلسونا دون الشرفة في مكان كأنه ساقية إسمنتية، وأخذ نفر من الجلادين يطوفون علينا ويضربوننا بالكرابيج على رؤوسنا وظهورنا بقسوة وحقد.. وكان نفر آخر من الجلادين من ناحية أخرى يقومون بعمل آخر، فكنا نسمع أصوات التعذيب والضرب لنفر منهم بصورة أقسى وأرهب.. والجلادون يصرخون بوحشية..

كانوا يأخذون الواحد فيضربونه ويعذبونه ويحقرونه، وهو صامت أو متأوه متحسر، أو صارخ مستغيث ،إذا اشتد العذاب- وبعد أن ينهكوه يسلمونه لآخرين.. كنا نسمع أوامر تملى على هؤلاء مثل: قعود.. قرفصة.. قرب.. لا تتحرك.. أغمض عينيك يا.. وقف.. وأوامر: تعال لهون.. وكلمات ساخرة هازئة: سلقاه.. عطرو لها الحقير.. بودرو لها الكلب.. مع ألفاظ بذيئة ويعقبها صراخ التألم والاستغاثة من المعتقل وتوسل وعويل..

وأخذ الشيخ أبو سيد، فكان يضرب ويعذب. عرفنا ذلك من صوته المميز، وكان له لحية طويلة.. وسأله الجلادون عن عمله: فأجاب بشيء لم أسمعه عرفت بعد ذلك أنه قال لهم إن عمله إمام مسجد، فأحنقهم ذلك وأغاظهم، فأخذوا يضربونه ويسبونه ويشتمونه، ثم وصموه بأنه يعمل عمل قوم لوط وأمروه أن يقول ذلك عن نفسه –أي يقوم بعمل قوم لوط في مكان كذا لمكان الجامع الذي سماه- وما زالوا يعذبونه ويضربونه حتى قال ما أرادوا فسبوا المساجد ووصموا روادها بالفاحشة مما يعف اللسان عن ذكره.

وسمعت صرخات وآهة من الشيخ أبي سيد وكلمات هزء وسخرية من الجلادين مثل (شوى – ولعت..) وانتشرت رائحة الشعر المحترق، علمت بعدها أن الجلادين قد أحرقوا لحية الشيخ بقداحات الغاز، وأخذ أيضاً شاب صغير فعذب حتى تعالى صراخه واستغاثاته..

وجاء دوري فأخذني اثنان من الجلادين فضرباني على ظهري ورأسي بالكرباج وعلى يدي ورجلي.. ثم دفعا بي إلى مقعد محطم فأجلسوني عليه ويداي خلف ظهري وعيناي مغمضتان، وأخذ شخص يحلق لي شعر رأسي بعنف وبسرعة ثم دفعني وأمرني بالقيام، فما كدت أتحرك حتى تلقاني جلاد، فضربني ووجهني دفعاً إلى حائط قريب حيث وقفت وعيناي مغمضتان، ويداي خلف ظهري، وما لبث أن تناولني شخص آخر، وضع على وجهي معجون حلاقة، وأخذ يدلكه بالفرشاة وهو يسب ويجدف ثم دفعني دفعة شديدة إلى الحائط وجذبني آخر وهو يصرخ في وأخذ يحلق لي لحيتي بسرعة غريبة كنت أشعر معها أن شيئاً غير قليل من جلد وجهي قد كشط أو اقتطع، عدا الجروح في هذه الجهة أو تلك، وفرغ مني سريعاً، فأخذني نفر من الجلادين وعملوا لي حفلة (نعيماً) وهي ضرب شديد بالكرابيج على اليدين وغير اليدين إلى آخره..

كلنا نعرف الحلاقة عملية محببة كلها لطف وأدب، فإذا بالحلاقة في تدمر عملية غامضة مرعب فيها العذاب والضرب والإيذاء، وفيها التنكيل والجرح والتشويه والإذلال.

٦- الصورة السادسة : التنفس في سجن تدمر :

(اثنين اثنين لبرا ولك كلاب.. بسرعة يا..) واندفعنا مسرعين مطأطيء الرؤوس والأوامر التي تتوالى مع لسع الكرباج: (أسرع يا كلب.. غمض عينيك يا حقير يا..)

وأمرونا أن نسير رملاً على أطراف الباحة ثم دخل نفر من الجلادين إلى الباقين في المهجع وهم من المرضى والمصابين العاجزين عن السير وأخذوا يضربونهم ويعذبونهم.

وأمرنا الجلاد بصوته الكريه أن ننبطح على الأرض ونرفع أرجلنا قائلاً: (منبطحاً.. ارفع رجليك) وهجم علينا الجلادون بالكرابيج يضربون أرجلنا وظهورنا ورؤوسنا بضربات شديدة وهم يصرخون مزمجرين ويسبوننا بأقذع السباب، ويكفرون بالله ويشتمون النبي صلى الله عليه وسلم.

وصبرنا على الضرب ولكن الضرب كان شديداً والألم رهيباً، فانطلق صراخ المعذبين يملأ المكان بأصوات متألمة شاكية تنفطر لها القلوب القاسية، أصوات منكرة

غريبة لا تعرف فيها صوت أحد ولا تميزه كأنها آهات ثكلى أو زفرات محترقين أو صرخات متردين في هاوية.

وينبري الجلاد يصرخ بالصوت الزاجر الرهيب يأمر بالسكوت: (سكوت. سكوت يا حقير يا حقراء سكوت..)، فتخمد الأصوات كلها إلا أصوات الكرابيج، ولكن الآلام لا تحتمل والموت مرّ فتعود الأصوات المتألمة إلى الارتفاع والناس بين واقع به العذاب فهو يتقلب تحت الكرباج ظهراً لبطن وبطناً لظهر وبين منتظر أن يأتيه الجلادون بالكرابيج فهو في رعب وكرب وعذاب قبل العذاب.

ويمر الوقت متباطئاً لا يريد أن ينقضي، والشمس ترسل أشعتها فتغمر المكان: ويدور في نفسي حوار: كم يتكتمون علينا ويضيقون؟ ولكن أمرهم مكشوف وسرهم مفضوح، والأرض تشهد والجدران والشمس تشهد على ما يجري تحتها من ظلم ومن ظلام، وجاء الأمر من الرقيب الجلاد: واقفاً، رملاً ثم جاء الأمر من جديد: منبطحاً ارفع رجليك يا.. وعاد الفلم...ثم جاء الأمر من الرقيب: واقفاً رملاً إلى المهجع، وعلى الباب وقف الجلادون يودعون الداخلين بضربات الكرباج الثقيل يصبون فيها كل حقدهم ووحشيتهم.

ودخلنا نحمل بعضاً ممن انهاروا أو أغمي عليهم أو أصيبوا، وقد ردد رئيس المهجع اللازمة وأغلق الباب وقذفونا بأشنع ما سمعناه من شتائم وسباب وفحش ووعيد بالقتل والشنق وغيره. (وانطلقت حسرات حرة وخرّ البعض ساجدين، وتبعهم الآخرون يحمدون الله الذي لا يحمد على مكروه سواه).

كانت حصيلة حفلة العذاب عدداً كبيراً من المشوهين والجرحى أصيب أبو أحمد في صدره فحُمل وكان رجلاً ضخماً ممتلئاً في العقد الرابع من عمره، وقع مغشياً عليه بين أيديهم، فلم يرحموه، ولما حُمل إلى الداخل أمرونا أن نسعفه فبادر بعض القريبين ليسعفوه، فانقضّ عليهم الجلادون يضربونهم. وأصيب أبو سيد وقد تمزقت رجلاه ودهاه من العذاب أمر عظيم، فكان في حالة دنف وإرهاق لما أصاب رأسه وجسمه من ضرب وركل. وأصيب أبو (ن..) فقد كسرت رجله قرب الكعب خلال وقوعه تحت أيديهم، ولكنه رغم الكسر قام يحجل على رجل واحدة حتى دخل المهجع، لا يكاد يشعر من الخوف بألم رغم أنه يعاني من ألم شديد. وأصيب الأخ عزام الذي أقعده عن الخروج مرض القلب الذي ثار عليه يوم الاستقبال، فلم ينج اليوم منهم رغم عدم استطاعته الخروج، حيث دخلوا عليه وعذبوه وضربوه حتى غدا بين الموت والحياة. وأصيب عصام.. ضربوه على ظهره

حتى سال منه الدم وانتكأ ما كان قد التأم من جروحه. ولم يكن هناك أحد إلا وأصيب إصابات مختلفة.

ترى: ما هذه الحفلة التعذيبية. إنهم يقولون أنها تنفس!!

٧- الصورة السابعة: الإعدام في مجزرة تدمر المستمرة:

جاء زبانية السجن في أول الليل والظلام قد خيم على الوجوه، فقرعوا باب المهجع بضربة كرباج قوية دوى لها المكان، وصرخ أحدهم: (ولك عرصات، اسمعوا، اللي بيطلع اسموا بقول حاضر)، وقرأ قائمة طويلة من الأسماء تزيد على ستين اسماً، كان من بينها أسماء ثمانية من الأخوة المعتقلين في مهجعنا، وأسماء سبعة وثلاثين معتقلاً من المهجع المجاور، (كما علمنا بعد ذلك)، وقال الجلاد لمن نودي بأسمائهم: (حضروا حالكن ولك، بكرة عندكن محاكم).

فالتبس الأمر علينا لأننا فيما نعلم قد عرضنا جميعاً على المحكمة الميدانية في معتقل كفرسوسة بدمشق، والتي كان قاضيها النقيب سليمان حبيب، ولكنه لم يبلغ أياً منا أي حكم إنما كان كلامه مجرد تهديدات خفية، وإشارات عابرة.

حضر أولئك الأخوة المطلوبون أنفسهم ولبسوا ثيابهم وصرّوا الأغراض القليلة التي كانت لديهم استعداداً للرحلة المجهولة.. تسحّر أغلبهم ونووا الصيام وقاموا يصلون...وفي الساعة الرابعة صباحاً قبيل الفجر جاء الزبانية ففتحوا باب المهجع وطلبوهم، فربطوا أيديهم وعصبوا أعينهم واقتادوهم خارج المهجع.

كانت هذه المحاكم لغزاً لم نكتشفه إلا بعد مدة طويلة، وبعد أن حاول كثير من الأخوة المعتقلين التغطية عليها إشفاقاً على إخوانهم، ولكن الحقيقة المرة تكشفت وظهرت بجلاء ووضوح، فكان من يطلب بعد ذلك باسم "محاكم" يدرك أنه ذاهب للقاء ربه، فيودع إخوانه وهو ثابت الجنان ووجهه مشرق بالابتسام، ولسانه يترجم عن قلبه: يا مرحباً بلقاء الله....

... (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً،وما تدري نفس بأي أرض تموت).. جاء الجلادون مرة أخرى، في الصباح الباكر قبل موعدهم اليومي المعتاد في السادسة والنصف، جاؤوا في الخامسة والربع، وسمعنا أصواتهم وهم يقرأون قوائم طويلة أسماء طويلة على أبواب المهاجع، كما سمعنا أصوات تقديم الصف، كان اليوم هو السبت (أحد يومي الإعدام) المعتادين المعروفين السبت والأربعاء..

وصرخ أحد الزبانية: مهجع (٢٧) ولك، فرد رئيس المهجع حاضر سيدي. فقال: استيقاظ ولك حقيرين.. فصرخ رئيس المهجع يطلب منا الاستيقاظ، فالاستيقاظ ممنوع في نظام السجن قبل السادسة، فجلسنا وقدم رئيس المهجع الصف فوراً: انتبه استاعد، المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب..

ووقفنا باستعداد مطرقي الرؤوس، وصرخ الرقيب من نافذة الباب الصغيرة، (ولك كل واحد بيطلع اسمو يقول حاضر، ويأتي فوراً لعند الباب..) ثم أخذ يقرأ القائمة الطويلة، ولا شك أنها قد نقصت إلى النصف بل إلى الثلثين قبل أن تصل إلى مهجعنا، لأنها قد مرّت قبله بعشرين مهجعاً على الأقل ولم يبق إلا مهاجع معدودة.. ثمانية تقريباً.. واندفع أخ وقد صرخ باسمه يجيب حاضر، اتجه نحو ناحية الباب فوراً، فسأله الرقيب عن اسمه واسم والده ووالدته وتولده.. وأمره بالوقوف قرب الباب وتابع الرقيب القراءة، وخرجت أسماء خمسة أخوة آخرين من مهجعنا فوقفوا رتلاً أمام الباب، وكانوا جميعاً من الشباب الصغار من سن ال (١٨) عاماً ولما انتهى الرقيب من القائمة وقد قدر عدد الأسماء فيها بحوالي الثلاثين اسماً قال لهؤلاء الأخوة: حضروا أغراضكم انتو مطلوبين محاكم..؟

وذهب الرقيب إلى المهجعين المجاورين ليقرأ قائمة الأسماء عليهما وترك هؤلاء الشباب أماكنهم أمام الباب إلى داخل المهجع، وكانت فرصة لم نحظ بها قبلاً لتوديع إخواننا، فقد كانوا يطلبون الإخوة ويأخذونهم فوراً، أو كنا لا نعلم شيئاً عن المصير كما حدث في أول مرة.واندفع الأخوة يعانقون هؤلاء الشباب ويقبلونهم، وقد اضطرمت المشاعر في الصدور، فكان الجميع في حالة لا يعلمها إلا الله، من القهر والألم والحزن، لا يدري أحد ماذا يقول وتنهمر الدموع على الوجوه، وتأخذ الغصات بالحلوق، تكاد تمزق الحناجر، يقول بعضهم: الله معكم، والبعض الآخر: توكلوا على الله.

وكان كثيرون يعانقونهم ويقبلونهم ثم يوارون وجوههم عنهم ويجهشوا في بكاء شديد.

كان الأخ (بكري فتحي نحاس) شاباً طويلاً رقيقاً لم ينبت الشعر في وجهه بعد، وقد حفظ تسعة وعشرين جزءاً من القرآن الكريم أبعد المتزاحمين حوله وقال: يا أخوة لا يقبلني أحد.. ولما رأى تكاثر الأخوة حوله وشديد حزنهم وألمهم عليه وعلى رفاقه، أخذته غضبة فاندفع يقول بشدة: (مالكم؟ لم أنتم حزينون؟ لا تحزنوا نحن ذاهبون إلى رب كريم، أما أننا قد شبعنا من طعامكم هذا من البرغل والرز والصمون، تركنا لكم هذا كله، إنّا مشتاقون إلى ربنا ولسنا آسفين على دنياكم هذه، فلم الحزن..).

وانطلق باسماً عريض الابتسامة، فوزع ما لديه من متاع قليل، ونزع ما عليه من ثياب جديدة، ولبس ثياباً خلِقة وهو يقول: الحي أولى بالجديد من الميت، ونزع ساعته وحزامه فأعطاهما لإخوانه وسارع يتوضأ هو وإخوانه المطلوبين للإعدام، ثم صلى كل واحد منهم ركعتين (ركعتي الشهادة) آخر ركعتين من الدنيا، وجاء الرقيب يفتح الباب، وقدم رئيس المهجع الصف وطلبهم الرقيب فجاؤوا سراعاً لا يترددون، وطلب منشفة من كل واحد منهم وعصب عيونهم بها ثم أخرجوا من المهجع.

كان مسئولو السجن يتخذون إجراءات عديدة مشددة للتكتم على موضوع الإعدامات خاصة، وعلى كل أخبار سجن تدمر عامة، ويظنون أننا لا نعرف عن الإعدامات شيئاً فقد منع الرقيب خلال إدخال الفطور في الساعة السادسة والنصف، منع السخرة من الخروج لإدخال الطعام أمام باب المهجع، وصرخ فيهم: لا حدا يطلع ولك..

وقام أحد عناصر البلدية بإدخال طعام الفطور، وتبين لهم أنهم قد وضعوا على النافذة الصغيرة الموجودة في الباب قطعة (كرتون) كبيرة تمنع النظر من خلالها.

وأولت هذه الإجراءات بأنهم قد نصبوا المشانق في الساحة (فهم لا يريدون أن نراها) لكي لا نعرف أن في سجن تدمر إعدامات بالجملة، وموت بالمفرق، ولم يدركوا أننا نحس بالأمر وأننا قد وعيناه تماماً وأدركنا صورته وأبعاده. وجاءت دورية من فوق السطح وصرخ أحدهم فينا: (ولك حقراء.. لجوا.. بعدوا عن الباب ولك لجوا يا كلاب يا أنذال يا..) فلما ابتعدنا إلى منتصف المهجع وتجمعنا في النصف الداخلي، أمرنا بالجلوس وهو يصرخ (جالساً ولك.. ما حدا بيوقف أبداً) وجلسنا متقاربين متراصين واجمين، فقد كنا نعلم أن معنى ذلك أن عملية الإعدام على وشك أن تتم، ومضت الدقائق ثقيلة بطيئة والكل مطرق متحير محزون مقهور، وبدا السجن هادئاً على غير العادة، هادئاً هدوءاً مريباً، فلا تسمع أي صوت فلا أبواب تفتح، ولا جلادون يصرخون أو يسبون ويشتمون، حتى ولا صوت بلدية ممن يعملون في جلي الطشوت أو إفراغ أوعية القمامة إلا حركة يسيرة كسير أحدهم مسرعاً في طرف الباحة البعيد..

كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا ربعاً، الجو مشمس والهواء ضعيف، والعصافير تغدو وتروح وأصوات بعيدة تأتي من المدينة تبدو واضحة، صوت سيارة مارة، نهيق حمار، نداء طفل.وشق السكوت صوت جلي يصرخ بقوة وسرعة: الله أكبر وكأنه يستبق الزمن، تحفزت الأعصاب وأرهفت الآذان، وانقطعت كل نأمة في المهجع جميعه، وبدا

الجميع مطرقين واجمين كأن على رؤوسهم الطير ولم نسمع إلا صوت نسمات الهواء الخفيفة وحفيفها، وشقّ السكون صوت آخر أقوى وأوضح صكّ أسماعنا وقرع قلوبنا: الله أكبر.. وأعقبه شخير حاد، وتتالى النداء العظيم: الله أكبر، الله أكبر.. الله أكبر.. يتبع بعضها حشرجات النزع والحبل يشتد على العنق، وكانت كلمة الله أكبر تخرج مقطوعة بعض الأحيان حيث تعاجل الحبلة المسكين وتقطع عليه نداءه فيخرج مبتوراً.. الله أكبر.. وتسرع الحشرجات. وبعد مضي ساعة ونصف تقريباً عاد السكون يخيم من جديد، كان آخر شيء سمعناه هدير محرك السيارة وهي تنطلق وصوت أخشاب تلقى.فسرت هذه الأصوات بأنها صوت الشاحنة التي تنقل جثث الشهداء إلى مثواهم الأخير في صحراء تدمر، حيث يلقون في حفرة كبيرة ويهيل عليهم (بلدوزر) التراب وينتهي الأمر، أما الأخشاب فإنها خشبات المشانق تعاد إلى مستودعها بعد أن أدت مهمتها في انتظار مهمة جديدة.

١٥ كانون أول ١٩٨١

عمليات الإعدام مستمرة بمعدل مرتين كل أسبوع، فنحن دائماً على صلة بالموت والآخرة، وأصبحت رحلة الموت شيئاً قريباً سهلاً وكأنها انتقال من مهجع إلى آخر، أو من سجن إلى الحرية ومن الخوف إلى الأمان، وكانت الدنيا هينة جداً على قلوبنا جميعاً لما نعانيه من ظلم ومن قهر ومن عذاب، فكانت عمليات الإعدام فرصة للخلاص.

طلب عدد من المعتقلين الشباب في مهجعنا للإعدام وذلك في أوائل أيام شهر شباط،١٩٨٢ وكنا نودعهم في ألم عميق ودموعنا تنهمر رغماً عنا ونحن نرى هؤلاء الشباب الذين هم كالزهور في رقتهم ولطفهم وأدبهم، وكالجبال الراسيات في ثباتهم وصمودهم، نراهم أمام كل هذا الكيد والغل والغدر، يتواصون فيما بينهم بالثبات وعدم الخوف، والتكبير قبل تنفيذ الإعدام.

ثم ينزعون ثيابهم الجيدة الجديدة وساعاتهم ويخرجون نقودهم فيعطون كل هذه الأشياء لإخوانهم المعتقلين، الذين هم بحاجة إلى هذه الأشياء ويسارعون إلى الوضوء وإلى صلاة ركعتين سنة الشهادة، ولما جاء الزبانية لأخذهم للإعدام وسألوهم عن أغراضهم قال كل منهم: ما عندي أغراض.

جمع زبانية السجن في هذه المرة عدداً كبيراً من المعتقلين لإعدامهم، وفجأة ارتفعت أصوات التكبير: الله أكبر الله أكبر، وكانت تردد هذا النداء أصوات جماعية مختلطة

متفقة، وتبع ذلك أصوات ضرب بالكرابيج وصراخ الألم. وكان هذا الفعل المنكر أشنع تصرف لزبانية سجن تدمر الذين أخذوا يعتدون على هؤلاء الذين سيواجهون الموت بعد لحظات، ويلقون وجه ربهم شاكين متألمين.

عم السكون والصمت المطبق والهدوء الغريب جنبات سجن الموت، إنها السكينة تتنزل على قلوب هؤلاء الذاهبين إلى الإعدام، وكان كل شيء في الدنيا قد وقف يرقب عملية الإجرام البشعة التي تقترفها أيدي الطغاة وزبانيتهم وأزلامهم في خفاء سجن الموت في تدمر.

حضر ضباط كبار للإشراف على العملية، وحضر مدير السجن الرائد فيصل غانم، وفي الثامنة والنصف صباحاً كان كل شيء جاهزاً تماماً، المشانق والجلادون والطغاة الكبار.. والمطلوبون للإعدام في غرفة الورشة يصلون ويتوجهون إلى ربهم ويدعونه: اللهم اجعل دماءنا ناراً على الظالمين، ونوراً للمسلمين وللدنيا أجمعين، اللهم إنهم يقتلوننا ظلماً وجوراً في سبيل تسلطهم وفسادهم، اللهم فتقبلنا في رحابك تائبين منيبين، اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً.

وبدأت العملية الرهيبة تتم وسط السكون المخيم، ففتح باب الورشة وأخرج هؤلاء المعتقلون وصفوا في طرف الباحة قرب الجدار أرتالاً وهم معصوبو الأعين موثقو الأيدي إلى الخلف، وكان يتقدم رجلان من الزبانية ليمسكا الأخ المعتقل من عضديه ويسيران به إلى المشتقة ويعلمونه خلال ذلك ويشاغلونه ويموهون عليه فيقولون ما اسمك؟ ومن أي مهجع أنت؟.. بدنا ننقلك إلى سجن آخر.. فإذا وصلا به إلى المشنقة قالا هذه هي السيارة ويضعان الحبل في عنقه.

ويكون اثنان من خدم السجن (البلدية) قد أمسكا بالمشنقة الثلاثية الأرجل وأمالاها جهة المعدم فإذا وضع الحبل في عنقه أقاماها بقوة حتى تقف على قوائمها الثلاث، ويرتفع المعدم محمولاً من عنقه ويصرخ في هذه اللحظات القصيرة بكلمة التكبير يسابق بها الزمن ويثبتها في سجل الحياة الله أكبر، وقد يعاجله الحبل عن إتمامها فيزفر ويحشرج حشرجات الموت ويسلم الروح، أما الزبانية فكانوا يمسكون المعدم من رجليه ويشدونه إلى الأسفل ليسرعوا عملية الموت، وحتى بعد إنزال الجثث كان الزبانية يعتدون على أجسام الشهداء بالضرب والركل والدوس، لا يحترمون ولا يقدرون الموت الذي حلّ بهم، ومن أين للزبانية الفهم والعقل حتى يكون لديهم احترام وتقدير، وقد شوهد الجلاد "فواز"

وهو يرفس جثة الشهيد يحيى الشامي ويدوس رأسه، والشهيد يحيى الشامي رحمه الله من كبار ضباط الجيش السوري. وبعد أن تمت عملية الإعدام حمل الزبانية والبلدية الجثث فوضعوها في سيارة زيل عسكرية ضخمة ثم انطلقت بهم إلى مثواهم الأخير... حفرة ضخمة في صحراء تدمر وهكذا تمت العملية الرهيبة وإعدام (٦٥) شهيداً دفعة واحدة في خفاء سجن تدمر.

وفي يوم آخر سمعنا صوت آلة جديدة للإعدام، يستعملها جلادو سجن تدمر ويبدو أنها ليست بحاجة إلى كثير تعب، كانت تصدر حين تشغيلها صوتاً يشبه الضرب بالرجل على الأرض، وكان هذا الصوت يتكرر بين الفينة والأخرى. ونسمع بعض الأحيان ضحكة هستيرية مجنونة رغم رهبة الموت المسيطرة، إنهم المجرمون العتاة فقط الذي يضحكون، ومن يحلو له الضحك في مثل هذا الموقف غيرهم، كما كنا نلاحظ أيضاً أصوات اضطراب وارتطام وزفير شديد. وانطلقت صرخة واحدة شقت السكون ثم اختفت. فما هذه الآلة الجهنمية الجديدة التي تختطف الأرواح...؟؟

وأمر آخر كان قد تكرر مرات ونحن في أشد الاستغراب والعجب منه هو اختفاء أصوات التكبير... من قبل المعدمين.. حتى نقل إلينا أحد المعتقلين الذين شاهدوا عمليات الإعدام، وكيف أن جلادي سجن تدمر قد أزعجهم وأقلق خاطرهم صوت تكبير الشهداء ساعة الإعدام، بل وأرعبهم بقوته وعظمته وبالإصرار الذي في، لذلك فإن الزبانية أخذوا منذ مدة، يضعون على أفواه المعدمين شريطاً لاصقاً (بلاستر) يسد أفواههم ويمنعهم من صراخ التكبير، وحدثنا عن مشاهدات رآها في ساحة الإعدام، وكيف أن بعض زبانية السجن كانوا ينقضون على الشهداء بعد أن تفارق أرواحهم أجسادهم فيمثلون بهم، وكيف أن حبل المشنقة كانت عبارة عن حبل رفيع (مرسه) من خيوط النايلون، وإنها كانت تؤدي في بعض الأحيان إلى قطع حنجرة الأخ المعدم. والذي كان يتعذب حينذاك فترة طويلة، هو الذي يزفر من حنجرته المقطوعة...تتالت أفواج الشهداء المعدمين في الباحة الخامسة في سجن تدمر وكأن الطغاة المجرمين يسابقون الزمن ليقضوا على أكبر عدد من المعتقلين (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

٨- الصورة الثامنة: الكوليرا:

ظهرت منذ أيام إسهالات شديدة بين عدد كبير من الأخوة المعتقلين دون أن نعرف لها سبباً، سوى أن الطعام ملوث وغير نظيف..أبلغنا مسؤولي السجن بما نعانيه، فكان رد الزبانية: (خليكن تموتوا يا كلاب) واشتد أخيراً المرض على عدد من المعتقلين منهم المعتقل مصطفى قاسمو، وهو رهينة عن أخيه المتواري، والأخ مصطفى راشد ذي النون الدمشقي وغيرهما، وغدا هؤلاء الأخوة نحيفي الأجسام شاحبي الوجوه. ترافق الإسهال الشديد بقيء متكرر لدى الأخ مصطفى راشد منذ البارحة، وساءت حاله أكثر واشتد عليه الدوار والدوخة حتى لم يعد يستطع القيام، فكان الأخوة يحملونه باستمرار إلى المراحيض ليتمكن من قضاء الحاجة، ولما أبلغ رئيس المهجع زبانية السجن عن حالة الأخ الخطيرة، كان جوابهم السابق ذاته: (خليكن تموتوا كلكم يا عرصات)، وتفاقمت المشكلة أكثر حين لم يعد الأخ المريض يتمالك نفسه من التقيؤ والتبرز لا شعورياً، ملوثاً ثيابه وأغراضه، وكان يشعر بآلام وتيبس في مفاصله وأطرافه.

وفي المساء وحينما حلّ الظلام كان الأخ المعتقل مصطفى راشد ذي النون في سكرات الموت، وبلغ بنا الألم مبلغه، فضربنا باب المهجع حتى حضر الحارس الذي على السطح، فأبلغناه بأن أحد المعتقلين يموت، فسبنا وشتمنا وجاء الزبانية بعد مدة فأخبرناهم عن حالة الأخ فطلبوا إخراجه إلى الباحة، فحملناه على بطانية وأخرجناه إليهم، وراقبناهم من وراء الباب المغلق، فتبين لنا أنهم لم يحاولوا إسعاف الأخ أو معالجته، وأنه ترك حتى مات ثم حمل من هناك إلى مثواه المجهول، فعليه رحمة الله ورضوانه، في الوقت نفسه كان معتقل آخر قد اشتد عليه القيء والإسهال حتى أنه لم يعد يتماسك نفسه تماماً.

قرر بعض ذوي الخبرة الطبية من الأخوة المعتقلين أن ما نعاني منه ما هو إلا جائحة وباء الكوليرا، وأننا معرضون جميعاً لخطر الموت بهذا الوباء.. فقرر الأخوة إبلاغ مسؤولي السجن عن الوضع صراحة، متحملين ما قد ينالهم من بغي الزبانية واعتداءاتهم، ولكن الزبانية الجبناء أرعبهم وباء الكوليرا فلم يترددوا هذه المرة في استدعاء طبيب السجن وهو طبيب شاب حديث التخرج قليل الخبرة، فاستعان بطبيب آخر أكبر سناً وأكثر تجربة، وهو طبيب مستوصف مدينة تدمر، فجاءا وكشفا على المرضى واستجوبا عدداً منهم، وكانت كل الدلائل (التشخيص السريري) تشير إلى أن هذه الحالات وباء الكوليرا..

بادر الطبيبان باتخاذ بعض الإجراءات، فعزل المصابين بالإسهال مباشرة، وأعطى للمدنفين منهم -أكياس السيروم- إضافة إلى الدواء المناسب، كما أخذت مسحات شرجية

لهؤلاء وأرسلت للمختبر ولكن توقفت اليوم كل هذه الإجراءات فجأة..لماذا حدث ذلك؟ لم نكن نحتاج إلى كثير تفكير لندرك أن مدير سجن تدمر(المجرم فيصل غانم) لم يرضه أن يعامل المعتقلون معاملة إنسانية، فأمر بإلغاء كل صورة من صور المعالجة الواقعية، والاكتفاء بالمعالجة الشكلية وبما يوزعه الممرض من علاج بسيط.

٩- الصورة التاسعة: عقوبة على الصلاة :

جاء الرقيب فواز.. من على السطح يراقب المعتقلين، ويضبط المصلين في الرابعة والنصف صباحاً، وضبط بعض الذاهبين إلى الدورة، فاستشاط غضباً.. وصرخ بحقد وسبّ وشتم: (ولك حقراء.. ولك شو متسوي هنت.. ولك..).

وبادر كل منا إلى الاضطجاع، وهدد فواز وتوعد: الصبح بتشوفوا يا حقراء والله لربيكم يا.. يا حقيرين يا..كان بعض الأخوة يرون أن نصلي جهراً، وأن لا نلتفت إلى تهديدات الجلادين.. وكان معلوماً لدينا أن عقوبة الصلاة رهيبة، ولا يمكن التكهن بنتائجها، وكنا موقنين أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولكن ترك اتخاذ الأسباب عجز وغباء..

وفي الصباح حين إدخال الفطور جاء فواز مع نفر من الجلادين ومعهم الكرابيج مدلاة فدخلوا علينا، وطافوا بيننا وأخذوا يضربوننا ضربات شديدة رهيبة، وحيث أننا كنا مغمضي الأعين حسب التعليمات، فلم نكن ندري بما يحدث إلا أننا كنا نسمع الأصوات والجلبة والصرخات الوالهة، وصوت الكرباج وهو يدق جسماً صلباً، كان لهذه الضربات صوت مختلف. فلا هي من الهابدة على الظهر ولا الصافعة على اليد أو الجسد العاري، بل كأنها ضرب على الجدار الكتيم، وأتاني الدور فدار رأسي بضربة هائلة وغامت عيناي ودار بي المهجع، فتهاويت على الأرض، تلتها (كما عرفت بعد ذلك) ضربات أخرى.

مضى بعض الوقت حتى صحوت إلى نفسي، كان أحد المعتقلين يمسح وجهي بالماء، فحاولت أن أجلس فشعرت برأسي يضج بألم شديد، وأذناي قد فقدتا حاسة السمع، فهما تدويان بطنين مستمر، علمت أن كثيرين من المعتقلين مصابون أكثر مني، وقد شجّت رؤوسهم فهي تنزف بالدم، فالحمد لله على كل حال. فقلت في نفسي مخاطباً الجلادين: ما تضركم صلاتنا؟ وما يزعجكم منها..؟ أين حرية العقيدة، أين الحرية الشخصية؟ يا من تتبجحون بالحرية؟!!

وفي يوم آخر صاح المجرم (فواز) : (متصلوا يا عرصات.. الصبح بفرجيكن) وقبيل مجيء الجلادين في الصباح، كان في المهجع كمواقف إيثار رائعة، فقد طلب رئيس المهجع ثمانية معتقلين ليقدمهم للعريف فواز ليتحملوا العقوبة الرهيبة عن زملائهم، فتقدم المعتقلون الشباب في رجولة يقدمون إخوانهم الآخرين بأنفسهم، وجاء العريف مع عدد كبير من الزبانية وكلهم ممتلؤون حقداً وغلاً، وطلب من سمّاهم المجرمين (اللي ميصلو) فخرجوا إليه فانقضّ عليهم الجلادون وأخذوا يضربونهم ويعذبونهم بوحشية دونها وحشية وحوش الغاب، وظن بعض المعتقلين أن العريف "فواز" يشتط بدافع من حقده وأن الرقباء والمسؤولين الآخرين لا يقرونه على فعله وإجرامه، فتجرءوا وشكوا إلى أحد الرقباء ما جرى وما فعل العريف "فواز" بل سأل بعض المعتقلين الرقيب: هل الصلاة ممنوعة؟ فثار الحقد الأسود في قلب الرقيب وانقضّ مع الزبانية على المعتقلين هؤلاء وأخذوا يضربونهم حتى ألقوهم أرضاُ، وأخذوا يدوسونهم ويرفسونهم بأكعاب أحذيتهم، ولم يشتفوا أو يكتفوا فأخذوا نزلاء المهجع مجموعة وراء مجموعة يعذبونهم أشد العذاب، ويضربونهم أعنف ضرب، وحمل الرقيب الفاجر قطعة ضخمة من الإسمنت يصل وزنها إلى حوالي (١٠كغ) وأخذ يهبد بها المعتقلين على ظهورهم في وحشية.. عرف المعتقلون الجواب على أسئلتهم، وكان نتيجة هذه الحفلة الرهيبة من العذاب إصابات كثيرة منها إصابة المعتقل أبو خليل الذي يبلغ من العمر السبعين عاماً، فقد تحطمت أضلاعه وأصيب ظهره، فحمل إلى المهجع حملاً وأصيب المعتقل "أبو أسعد" وهو موظف في العقد الرابع من عمره أصيب بضربة على كليته، فساءت حاله وأخذ يبول الدم، وارتفعت حرارته حتى غدا بين الموت والحياة.

١٠- الصورة العاشرة: الكثافة ومشاكلها:

٥آب ١٩٨١.. اشتدت الكثافة في مهجعنا وأصبح عددنا فيه (١٤٣) معتقلاً، كما اشتدت الكثافة في كل مهاجع السجن، فقد كنا نسمع صوت رؤساء المهاجع الآخرين خلال التفقد حين يسألهم الرقيب السؤال التقليدي: قديش عنك ولك؟ أي كم عدد المعتقلين في هذا المهجع، فيجيبه رئيس المهجع: كذا وكذا يا سيدي الرقيب.

وظهرت مشاكل كثيرة وصعوبات جمة نتيجة هذه الكثافة، فقد تضاءلت حصة الفرد من أرضية المهجع (٣٥٠سم٢) فقط.

وحيث أنا مجبرون حسب نظام السجن الذي يفرض علينا أن ننام من الساعة السادسة مساء وحتى الساعة السادسة صباحاً دون أي حركة أو قيام، فقد كنا نظل مضجعين هذه الفترة متلاصقين متدافعين على أرض المهجع التي ضاقت على من فيها أشد الضيق، حتى كنا نعاني من مزعجات هذه النومة أكثر مما نرتاح، وكان لهذه النومة سلبيات وأخطار أخرى منها عدم إمكانية استعمال المنافع والمراحيض إلا بشكل محدد خلال مدة ال (١٢) ساعة هذه، فالنظام المفروض يمنع أن لا يتواجد في المنافع أكثر من شخص واحد لا غير خلال فترة النوم هذه.

ورغم أن أفواج المعدومين كانت تخفف كثيراً من الزحام الشديد في المهجع، فإن أفواج المعتقلين المستمرة كالسيل، كانت تعوض هذا النقص وتزيد وبالتالي فإن الكثافة كانت تشتد باستمرار، وقد قدرنا عدد معتقلي تدمر في هذه الأيام كالتالي: عدد المهاجع المستعملة ٣٢ مهجع × متوسط عدد المعتقلين في المهجع (١٤٠) = ٣٢ × ١٤٠ = ٤٤٨٠ معتقلاً في سجن تدمر. وأن دفعات المعتقلين الآتية إلى سجن تدمر، تأتي مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، وعدد الدفعة يتراوح بين ٢٥ - ٥٠ معتقلاً.

كنا نتساءل هل يمكن أن يستوعب مهجعنا أكثر مما فيه الآن وعددنا فيه الآن (١٥٠) معتقلاً بعد تأرجح بين الزيادة والنقصان، وهكذا فإن حصة المعتقل من أرض المهجع لا تتجاوز (٣٧٥) سم مربع، ولكن ما نلمسه هو اندفاع المسؤولين إلى كل ما من شأنه أن يزيد في عذابنا وإيذائنا بل وموتنا، وهذا يجعلنا نعتقد تماماً وبشكل واضح أنه ليس لشرهم وسوئهم وإجرامهم من حدود تقف عندها.

كانت أرض المهجع مستغرقة حتى آخر شبر فيها، ولم يبق فيها موطئ لقدم، حينما سمعنا حركة في المهاجع والزبانية يتنقلون بسرعة من مهجع لآخر، ولما وصل الدور إلينا فوجئنا بعدد من المعتقلين الجدد مطأطئي رؤوسهم يتدافعون على الباب، ولا أدري كيف جازف رئيس المهجع بالكلام فقال: سيدي ما في موضع، المهجع مليان، سيدي والناس عبتنام في الباب. فغضب المساعد (أبو جهل) وقال: خلي ينامو وين بدن، ولكنه أشار من طرف خفي إلى الجلادين ونحن مغمضو العيون لا نبصر المناورة، فاندفع الجلادون يصرخون: لجوا ولك لجوا يا كلاب... يا حقيرين.. يا.... وابتعدنا عن الباب فدخلوا وأخذوا يضربوننا بالكرابيج يميناً وشمالاً، وتراكمنا فوق بعضنا في آخر المهجع،

وهم يتبعوننا بالضرب وصعد بعضهم فوق الكوم البشري فضرب ودعس فيه.... وعشنا وقتاً عصيباً.. نتيجة الاعتراض البسيط.

يوم ١٩٨٢/١/٦

جاء الزبانية ظهراً، ففتحوا باب مهجعنا وأدخلوا مجموعة من المعتقلين الجدد، وبعد ذهاب الزبانية كنا نود التعرف على هؤلاء المعتقلين الجدد، وقد هالنا ما كانوا فيه من حالة سيئة، أرجلهم وأيديهم متورمة ممزقة، ووجوههم ملأى بالجروح والكدمات، بينما كان رأس أحدهم قد شج شجة منكرة تحت وقع ضربات الكرباج الكثيرة، وقد تجمدت الدماء فوقه ولوثت ثيابه، وظهر معتقل آخر قد تمعط وتسلخ نتيجة الجلد الشديد بالكرباج وغير ذلك مما يصعب حصره والإحاطة به، ومع ذلك فإن شخصيات هؤلاء كانت أعجب من أحوالهم..

يوم ١٩٨٢/١/٧

معظم المعتقلين في المجموعة التي أدخلت مهجعنا البارحة، من كبار السن أو بالأحرى ممن تخطوا سن الشباب ودخلوا في سن الكهولة، وكانت أعمارهم بين الأربعين والستين عاماً، ومعظمهم من سكان الأرياف،(من الفلاحين الكادحين الذين يتاجر الأسد بشعاراتهم)، فهم بسطاء طيبون كرماء أتقياء، ذوو عيال كثيرون وأراض زراعية يعملون فيها، ولقد علمت أن مجموع عيال أحدهم يصل إلى العشرين نفساً، ما بين امرأة وصغير وعاجز، وكلهم يعتمدون عليه في إعالتهم وإقامة أودهم، ولكوني ريفي الأصل فقد كنت من أشد المتألمين لحال هؤلاء الإخوة، وذكرتني حالهم وعيالهم بحالي وعيالي الذين تركتهم ولا معين لهم إلا الله سبحانه وتعالى، وكان ذنب هؤلاء هو كرمهم الذي دعاهم لا طعام أو إيواء المتوارين من الإخوان المسلمين.

صدمت بنبأ مؤلم مفاده أن الطبيب الاختصاصي والعلامة الكبير نزار الدقر كان أحد أفراد مجموعة المعتقلين الجدد، وصعب علي تصديق النبأ. الدكتور محمد نزار الدقر حاصل على شهادات علمية اختصاصية عالية من معهد العلوم الطبية والأمراض الجلدية في موسكو، وهو رئيس دائرة الأمراض الجلدية في وزارة الصحة بدمشق، وله بحوث طبية وتجارب علمية مستفيضة في علاج عدد من الأمراض والحالات المستعصية، وخاصة فيما يتعلق بالعلاج بالعسل، وله كتاب طريف في هذا المجال عنوانه (العسل فيه شفاء للناس)، وله علاقات فعالة مع عدد من المؤسسات العلمية الدولية.

انتهزت فرصة غير سارة وجدت فيها الدكتور "نزار" بقربي وذلك خلال إحدى حفلات التعذيب، وفي غفلة من أعين الجلادين سلمت عليه تتجاذبني عاطفة الفرح بلقياه، والألم لحاله وما هو فيه من بلاء ومحنة، فلقد كان يوم مجيئه أول البارحة متسلخ الظهر، متورم الرجلين واليدين، ووجهه ورأسه مليئان بالجروح والكدمات.

واليوم ربما أنها أول حلاقة لهذه المجموعة الجديدة من المعتقلين، فقد خصهم زبانية سجن تدمر بعذاب شديد، وكان وجه الدكتور محمد نزار بعد حفلة العذاب هذه، مليئاً بالجروح والكدمات والدم يسيل من شفتيه، ولاحظت وأنا أراقبه أن سبابته اليمنى كانت ترسم في الفراغ كلاماً وكتابات مجهولة، هكذا يعامل العلماء والنوابغ البارزون، وهكذا يحطون في سجن تدمر.

١١- الصورة الحادية عشرة: الجرب الرهيب:

لم يعد أحد يشكو بالمرة من الجرب أو القمل مرضي الوساخة، فقد أصبح أمراً مفروغاً منه ولا جدال فيه أن يصاب كل المعتقلين بالجرب وبالقمل والصيبان أيضاً حتى قال بعضهم مازحاً: (اللي ما بيقمل ما هو رجال) فلا إجراءات النظافة التي حاولناها أجدت شيئاً ولا الاحتراز ولا أي شيء أجدى أمام زحف القمل والجرب الرهيبين.. في هذه البيئة المساعدة المهيئة حيث الكثافة الشديدة وعدم إمكانية النظافة والغسيل والتطهير وعدم وجود أي علاج.

الدمامل المقيحة تنبت فجأة في الأماكن الحساسة من الجسم: القضيب والمقعدة والآليتين، وتثير هذه الدمامل حساسية شديدة وحكة حارقة، فإذا حكت (ولابد من ذلك) انفقأت وسال منها القيح والدم، ولوثت ونشرت عدواها سواء بالأيدي الملوثة أو الثياب أو البطانيات، وحتى بالأحذية (شحاطات) ويعقب الحكاك ألم رهيب شديد، فكان الأخ أبو عبدو (صاحب محل) يكاد يبكي ألماً في الليل أو النهار من قضيبه الذي أصبح مليئاً بالدمامل النازفة بالدم والقيح، وقد تورم فإذا حكه تألم، وإن تركه تألم فكان يتمنى لو اقتطعه واستراح؟..!!

ولم يجد الأخ عبد الستار ما يداوي به نفسه سوى (رماد السجاير) وقد امتدت الدمامل المقيحة النازفة المتراصة لتأخذ مساحة واسعة امتدت من قمة آليتيه إلى محزمه بحيث لا يستطيع الجلوس ولا الاضطجاع على ظهره، فجمع كمية من رماد السجاير وجاء يطلب

من أحد الأخوة أن يذر هذا الرماد فوق منطقة القيح والنزف، ففعل ولم يغن هذا العلاج شيئاً.

كان الأخ سالم ابن السابعة عشرة طالب الحادي عشر النحيف الجسم، ممتلئ الجسم بالدمامل المقيحة ذات الرؤوس الصفراء، والتي تثير حكة شنيعة فيضطر إلى حكها ونزع قشرتها ومن ثم تنزف بالقيح والدم، امتلأت من هذه الدمامل ساقاه ثم إليتاه ثم بطنه وذراعاه وصدره، واشتد هجوم الجرب على الأخ سالم، ففي كل يوم دمامل جديدة تنبت في مختلف أنحاء جسمه وهي مقيحة صفراء الرأس حتى وصل الأمر إلى حالة لم أرها ولم أسمع بها وحار بها الأطباء من الإخوة المعتقلين في المهجع، فقد نبتت الدمامل في راحتي كفيه برؤوسها الصفراء المقيحة..

كان الأخ سالم لا يستطيع النوم بتاتاً لا في ليل ولا نهار، إنما يسكن قليلاً ويعود إلى الحك والهرش، ولم تكن هذه الحالة الوحيدة في شدتها، بل كانت هناك حالات صعبة عديدة، فكان الأخ جابر يكشف عن ركبتين متورمتين منتفختين وقد تراصت فيها الدمامل حتى غدت كل منهما دملاً واحداً، وقد سميت تلك الحالة (ركبة الجمل)، وكان يقشر الدمامل ويعتصرها ويجفف القيح والدم بقطعة قماش.

لم تكن هذه العملية المؤلمة تفيد شيئاً، سوى أن المريض مضطر إلى فعل شيء لهذه الدمامل التي تثير الحكة الحارقة، وكان عدد الحالات الصعبة أكثر من (٤٠) حالة، وكنت منهم فكنت لا أستطيع نوم شيء من الليل، ويدي تمتد لا شعورياً لتحك وتكشط الدمامل، وكان أصعب شيء موضوع التلوث وعدم إمكانية التنظيف والتطهير.. وكان معناه العدوى المستمرة، العدوى الذاتية أو العدوى للغير، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

١٢- الصورة الثانية عشرة: لعبة الشنق:

ابتكر الجلادون عذاباً اسمه (لعبة الشنق)، وهكذا اختاروا أحد المعتقلين ممن توخوا فيه الأهمية والمكانة، فوضعوه في وسط الباحة وأدخلوا رأسه ضمن الحبل المربوط إلى نهايتي العصا وفتلوا العصا حتى اشتد الحبل على عنقه، والعصا على رقبته وهكذا أعلن فواز للمعتقل المسكين: والله لنشنقك يا كلب..

ورفع اثنان من الجلادين المعتقل بالعصا إلى الأعلى محمولاً من رقبته، فزفر المعتقل واختنق وتخالج واضطرب بقوة، وحاول بيديه الضعيفتين تخليص رقبته من الحبل الذي

يضغط عليها، ولكن يديه خانتاه وغامت عيناه وغاب عن الوجود ومات، كان الجلادون يصرخون في هستيريا يسبون ويلعنون ويجدفون ويضحكون بجنون، وألقوه أرضاً لا حراك به، ورفسه فواز اللعين ووصمه بالكذب قائلاً: عمتعمل حالك ميت يا كلب؟ ولكن أنى للميت أن يجيب، فأمر فواز اثنين من المعتقلين فحملاه إلى المهجع وجيء بآخر.. ثم آخر وآخر.

كان المعتقل (ش) هو ضابط صف أحد أولئك المشنوقين، وقد ألقي في المهجع إلى جانب إخوانه أولئك، وأخذ بعضهم يمسح وجهه ويدلك له رقبته، وقد أحس الحرارة في الجسم، ولكن بلا طائل، وبعد ساعتين تقريباً صحا المعتقل (ش) من إغمائه وكأنه بعث من بعد موت، ولما سئل عما حدث له قال: لا أعلم سوى أني كنت في حلم جميل.

أعجبت لعبة الشنق فواز اللعين والطغاة الصغار، وهكذا أخذوا أحد المعتقلين وأدخلوا رقبته في الحبل وفتلوا العصا ورفعها اثنان منهم، واشتد الهرج والصياح والهزء، والمعتقل المسكين يغالب الموت والحبل يخنقه ويحطم حنجرته وألقوه جسداً هامداً لا حراك فيه، ولم يتحرك رغم رفسات الرقيب فواز وصراخه، فلما آيسوا منه أمر فواز اثنين من المعتقلين فحملاه إلى داخل المهجع والرجل المسكين يغالب الموت، وبعد ساعة من الزمن فارق الحياة.. ولم يأبه فواز ولا الطغاة الصغار بالأمر.

وأما القتيل الشهيد فيدعى أبا محمد رجل حلبي في الثلاثين من عمره، وهو واحد من كثيرين استشهدوا تحت التعذيب بهذه الوسيلة أو بوسائل وطرق أخرى، وطبعاً لم يجر أي تحقيق أو سؤال للقتلة، بل كوفئوا على ما اقترفوه من جرائم.

١٢- الصورة الأخيرة: جمع عدد من المحكومين بالبراءة من مختلف المهاجع وساقونا إلى باحة المكاتب فأجلسونا في طرف منها، وأخذ كاتب هناك يتحقق من أسمائنا، وتذكرت من هنا مررت منذ عامين.. عامين من العذاب والقهر والآلام والموت.. عامين لم أمت فيهما لأنه لم ينته أجلي، وها أنا ذا شبح إنسان أنهكني المرض والنحافة والجرب والسعال والتهاب الرئتين الشديد والتهاب الكلي والبيلة الدموية، والحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار، إن لله في رقابنا عهوداً قطعناها ولن نخونها: أن نكون لله عاملين وعلى دينه مستقيمين ولنبيه متبعين مقتدين لا نمالئ الظالمين المجرمين، نحارب الظلم والظالمين، نجاهد في الله حتى يأتينا اليقين شهداء، إن شاء الله رب العالمين.

خرجنا من باب سجن تدمر الكالح وتسلمنا عناصر المخابرات ونقلونا بسيارات مغلقة كل معتقل إلى المحافظة التي اعتقل فيها، وبعد بضعة أيام في زنزانة المخابرات جاء خلالها زبانية المخابرات ليتفقوا معنا على صيغة للوشاية بكل من يحمل أفكاراً لا توافقهم، فلم نلتفت إلى ذلك حقاً فنحن نعرف الحقيقة ونعيها. ثم أفرج عنا.

كاد الأهل يصعقون لتلك المفاجأة التي ما كانوا يتوقعونها، وضج الناس بالبكاء وهم يرون أمامهم شبح رجل عاد إليهم من العدم، ولقد رأيت أحد الشيوخ يحدق بي بعينيه الكليلتين وهو دهش، يتمتم لنفسه: "كأنه خارج من قبر".

كان منظري حينها مرعباً حقاً فوزني الذي كان قبل الاعتقال /٨٥/ كغ إذا به الآن ٤٥ كغ فقط، ووجهي شاحب وعيناني غائرتان وخداي بارزان ويداي نحيفتان معروقتان، وبكى أبي الشيخ الكبير وبكى الناس من حولي، فأبكوني لبكائهم حتى ما عدت أتمالك نفسي.

فإذا كانت هذه حال عائلة واحدة فكيف هي أحوال آلاف العائلات المنكوبة بفقد أبنائها، وهل يهنأ لي عيش مع أهلي وعيالي وأنا أرى آلام الأهل والعيال على أبنائهم ومعيليهم، وأعرف ما يعاني أبناؤهم في سجن الموت سجن تدمر العسكري الصحراوي؟؟

١٣- أنواع التعذيب في سجن تدمر

١ - التعذيب بالجلد على الرجلين بالكرباج بعد وضع المعتقل في الدولاب وضبط رجليه بعصا الفلقة.

٢ - التعذيب بالجلد بالكرباج على الجسم العاري والظهر والصدر والجانبين، أو الضرب بالكرباج على الرأس.

٣ - التعذيب بالجلد بالكرباج على الأيدي وجهاً وقفا.

٤ - التعذيب بالخنق باليدين أو الشنق بعصا الفلقة المذكورة سابقاً، أو بالدوس بالحذاء على الرقبة أو الضغط على الحنجرة بالركبة.

٥ - التعذيب باللكم والرفس والدوس على مختلف أنحاء الجسم.

٦ - التعذيب بالضرب بالعصا الغليظة قطر (٧ - ٨سم) وطول (١.٢٥)م على الظهر أو الرأس أو الأطراف أو البطن.

٧ - التعذيب بالوخز بالمسلة وراء الأذن وفي الآليتين والكتفين والوجه وغيره.

٨ - التعذيب بالضغط على الخصيتين أو رفسهما.

٩ - التعذيب بالضرب بالحذاء على الوجه.

١٠ - التعذيب بوضعية الجلوس، حيث يجبر المعتقلون على الجلوس بأوضاع مرهقة فترات طويلة منها: جلسة السجود واليدان خلف الظهر، ومنها القرفصاء واليدان خلف الظهر والرأس محني بشدة والقدمان منصوبتان وغيره.

١١ - التعذيب بالأعمال الرياضية المجهدة: رقصة روسية (التمرين السادس) - مشي البطة - القرفصاء - سير القرد - الضغط وغيره.

١٢ - التعذيب بوضعية الوقوف على رجل واحدة واليدان مرفوعتان إلى الأعلى ساعات طوالاً.

١٣ - التعذيب بالتجويع وقلة الطعام كماً وكيفاً.

جهاز معتقل تدمر العسكري الصحراوي

أ - مدير السجن: الرائد المجرم فيصل غانم "٣٤" سنة علوي طائفي متوسط القامة ممتلئ الجسم حليق الشاربين. يتميز بالقسوة البالغة الدموية يملأ قلبه حقد أسود على المعتقلين، لذا فهو مولع بحفلات التعذيب الصاخبة، ومولع بصراخ المعذبين لا يرتاح إلا إذا سمع صوت ضرب الكرباج، وعويل المعذبين من باحات السجن. وهو متكبر متغطرس لا يكلم مرءوسيه إلا باستعلاء واحتقار دون أن يلتفت إليهم. والرائد فيصل من المقربين من الطاغية أسد وممن يثق بهم كثيراً. وقد هيئت له كافة الإمكانيات ليقوم بمهمته في ضبط معتقل تدمر والسيطرة عليه والتعتيم على ما فيه. وعززت إمكانية المجرم فيصل بأن أسند إليه منصب قيادة سرية التأديب الموجودة في نفس الثكنة التي يقوم فيها سجن تدمر، ومنصب ضابط أمن المطار العسكري الذي لا يبعد عن مدينة تدمر إلا ٢كم تقريباً، وزوّد أيضاً بهاتف خاص يتصل مباشرة مع مكتب الطاغية حافظ أسد.

ب - معاون مدير السجن: وهو برتبة نقيب. طويل القامة حنطي اللون، وهو ضالع أيضاً في جرائم سجن تدمر.

ج - ضباط الصف ويبلغ عددهم حوالي (١٥) ضابط صف عرفنا منهم:

١ - المساعد الأول أحمد ٣٤ سنة، متوسط القامة، أسمر مليء الجسم، له صوت رفيع حاد مميز، وهو من بلدة القريتين التابعة لمحافظة حمص.ويتميز هذا المجرم بأنه شديد القسوة والجشع والمخادعة، فهو الذي يقود عمليات التعذيب، ويوجه الجلادين

ويدفعهم، وكان لا يتوانى عن سرقة أموال المعتقلين. نقل من سجن تدمر في أواخر عام ١٩٨١ وخلفه الرقيب علي شعبان في منصب رئيس الانضباط، يعاونه الرقيب الأشقر.

٢ – الرقيب علي شعبان ٣٢ سنة، أسمر طويل القامة، علوي طائفي، وهو معتز بنفسه، نزق غضوب، وإذا غضب اشتد شره وأذاه.

٣ – الرقيب الأشقر: ٣٠ سنة، ممتلئ الجسم، علوي طائفي.

٤ – الرقيب جهاد: ٣٠ سنة، متوسط القامة، ممتلئ الجسم أسمر، يلبس الثياب الضيقة، متعجرف لا يأبه بأرواح المعتقلين، مندفع إلى تطبيق برنامج التعذيب على المعتقلين.

٥ – الرقيب الأول فيصل: ٣٠ سنة، علوي طائفي، متوسط القامة أسمر اللون، متكبر متبختر نشيط في برنامج التعذيب.

٦ – العريف فواز حسين: عمره ٢٨ سنة، متوسط القامة، أميل إلى النحافة، له شاربان رفيعان أسودان وصوت حاد، وهو علوي متعصب مليء بالحقد، ميت الضمير. كان مولعاً بتعذيب المعتقلين وإيذائهم، وممارسة شتى صنوف البطش والإرهاب عليهم، لا يرعوي عن سفك دمائهم البريئة بشغف زائد، ولا يرعوي أمام جلال الموت الرهيب. وقد رقي فواز بناء على هذه المواصفات إلى رتبة رقيب.

٧ – الرقيب منير: (علوي).

٨ – الرقيب علي ديوب: (علوي).

٩ – العريف شعبان: ٢٥ سنة، طويل القامة ممتلئ الجسم، أسمر اللون، أجش الصوت، وهو علوي ملحد فاجر شرير، مليء بالحقد. يتميز من بين جلادي سجن تدمر بأنه كثير العنجهية، بالغ القسوة والعنف على المعتقلين، فهو من عتاة الجلادين في سجن تدمر، وفي رقبته كثير من الدماء والأرواح البريئة التي قضى عليها.

١٠ – الرقيب عادل: ٢٥ سنة، أسمر، علوي.

١١ – العريف الأشقر: ٢٤ سنة، ممتلئ الجسم، أشقر علوي حاقد شرير، قتل معتقلاً صغير السن يدعى أحمد طوير، أثناء الحمام.

١٢ – العريف (ولي): وهو لقب له لأنه يتلفظ بكلمة: ولك باللهجة الجبلية ولي، وهو في العقد الثالث من عمره، متوسط الطول أبيض ممتلئ الجسم، علوي.

١٣ – المساعد ذو الشاربين الكبيرين وهو رئيس قلم السجن.

١٤ – المساعد أبو بسام (الممرض): وهو أسمر طويل القامة، يعمل بنشاط في مهنته، يخفف آلام السجناء ومعاناتهم.

د – العساكر الجلادون، وهم من عناصر الشرطة العسكرية، ويبلغ عددهم حوالي ٣٠٠ عنصر. أغلب هؤلاء من العلويين، وبعضهم من الشوايا والبدو، وبعضهم من الحزبيين الموالين، وجميعهم يهيمن عليهم فكر خبيث موجه، وجهل بالحقائق مطبق.. ويغلب على أكثرهم أصلاً فجور وسوء خلق وانحلال ذاتي. استغله أسيادهم فتراهم مندفعين إلى عملهم الإجرامي بلا شعور أو تفكير.. من هؤلاء الجلادين نفر تميزوا بالعتو والإجرام، واشتهروا بنشاطهم واندفاعهم إلى إيذاء المعتقلين والإعنات عليهم، وممارسة شتى صنوف القمع والإرهاب عليهم ومن هؤلاء:

١ – الشرطي سمير الملقب (حيو): في العشرين من عمره، أسمر الوجه نحيف الجسم، له شاربان أسودان مبرومان في وجه متطاول وهو سكير فاجر، كان يردد دائماً مجون السكارى، ويكثر من ترديد كلمة (حيو) التي لقب بها بعد ذلك..

والجلاد (حيو) باطني حاقد يمقت المعتقلين أشد المقت، ويسبهم بألفاظ بذيئة، ويتوعدهم بالشر والسوء، وهو شرير مجرم ينتهز كل فرصة للانقضاض على المعتقلين وصليهم بصنوف الضرب والإيذاء بنذالة لا مثيل لها.

٢ – الشرطي صلاح: في الثانية والعشرين من عمره، متوسط القامة أبيض اللون أجش الصوت، وهو علوي من قرية حريصون القريبة من بانياس على الساحل السوري، وهو كسابقيه من الجلادين معروف بالحقد فالغل والفجور والتجرد من كل الصفات الإنسانية، وحين يصرخ الجلاد صلاح في المعتقلين فإن صوته يشي بما في قلبه من غل وحقد وسعار على المعتقلين.. كما كان لا يتمالك نفسه فينفث ما في قلبه من حقد على المصلين إيذاءً وسباباً بذيئاً وتهديداً بشكل علني صريح، فكان يصرخ مهدداً وهو يغلي غيظاً وغضباً ويقول: "والله اللي ميصلي لفضي التلاتين ببطنو".

٣ – الشرطي نعيم: طويل القامة أسمر الوجه، عمره قريب من الخامسة والعشرين، موطنه الأصلي الجزيرة الفراتية، وهو من طائفة الآشوريين، فهو ملحد فاسد العقيدة وهو فظ الأخلاق ملئ بالشر، لا يقل عن أقرانه السابقين في السوء والإجرام.

٤ – الشرطي (وجيه) في العشرين من عمره، قصير القامة حنطي اللون، وهو علوي حاقد لئيم، يندفع إلى تعذيب المعتقلين وإيذائهم في كل مناسبة، وكان مظهره يوحي بأن

عمره لا يجاوز الخمسة عشرة عاماً لذا كان بعض الرقباء ينادونه قائلين: يا صغير. وكانت تصرفاته تتسم بالسخافة والصبيانية، منها أنه كان يجبر رئيس المهجع أن يلبس حذاء (شحاطة) ثم يقدم له الصف في المهجع، وهو يضرب رجله بالأرض وكانت مجمل تصرفاته توحي بالغرور والحقد والجهل الذي يملأ رأسه.

٥ – الشرطي النصراني: وكان يظهر أو يدعي كراهية للتعذيب ولا يتورع عن فعله وتعذيب المعتقلين.

أما الجلادون الباقون، فمنهم من لم يبرز ولم يشتهر اسمه في مهجعنا، ومنهم من كان يحرص على التعمية وعدم معرفة اسمه، حتى كان بعض هؤلاء الجلادين يغيّر صوته ويخاطبنا بأصوات مختلفة.

أعداد المعتقلين في سجن تدمر

صرح أحد الرقباء العاملين في سجن تدمر، من الذين يقومون بضبط أعداد المعتقلين، خلال مناوباتهم في معرض تسخطه أو تفاخره بعمله أنه يعمل في سجن يحوي أكثر من (٣٥٠٠) معتقل، كان ذلك في أواسط ١٩٨١ وكان متوسط عدد النزلاء في المهجع الواحد (١١٠) معتقلين تقريباً، وعدد المهاجع المستعملة في السجن (٣٢) مهجعاً، وكان الحساب التالي ٣٢×١١٠= ٣٥٢٠ معتقلاً. وفي نهاية عام ١٩٨١ كان معدل نزلاء المهجع الواحد ١٤٠ معتقلاً، وكان عدد المعتقلين في السجن كله يساوي ١٤٠ × ٣٢ = ٤٤٨٠ معتقلاً، أما في منتصف عام ١٩٨٢ وحتى بعد استغراق المهاجع الجديدة الأربعة فكان معدل نزلاء المهجع الواحد (١٧٠) معتقلاً، فأصبح العدد الكلي في السجن ١٧٠ × ٣٢ = ٥٤٤٠ معتقلاً، ومعنى هذا أن كل ثلاثة معتقلين حصتهم ١م٢ يعيشون عليه كل حياتهم، التي يقضونها في سجن تدمر، فالحياة في سجن تدمر وضمن مهاجعه المغلقة مشكلة في أساسها، فكيف إذا أضيفت إليها مشاكل أخرى، وهكذا نجد أن الكثافة والازدحام بدأت كمشكلة منذ أوائل عام ١٩٨١، أي بعد بضعة شهور من بداية استقبال السجن للمعتقلين بعد إفراغه في المجزرة الرهيبة. أما بعد ذلك في أواخر عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٢ فإن الكثافة غدت رهيبة وأصبحت الحياة في مهاجع سجن تدمر صعبة قاسية، ونبتت مشاكل عديدة وأخطار شديدة.

الفصل العاشر

بعد محنة (١٩٨٢م)

عجز السوريون في كل مرة عن التنسيق بين المدن

منذ أن بدأ الصدام بين الإسلاميين والسلطة البعثية، كانت السلطة تنفرد بالمدن السورية واحدة واحدة، ففي عام (١٩٦٤م) ذهب وفد من أهالي حماة منهم رياض العظم يرحمه الله، إلى دمشق وحمص ودير الزور وحلب،ولم يتمكنوا من إثارة أي من هذه المدن، سوى مجموعة من الإخوان في حمص يقودها الأستاذ (...)، اعتصمت في مسجد خالد بن الوليد رضي الله عنه، حتى دخلت الدبابة إلى صحن المسجد واعتقل الإخوة كلهم.

وفي عام (١٩٦٥م) حدث صدام بين مجموعة الدكتور محمد أمين المصري والسلطة في الجامع الأموي، وكذلك دخلت الدبابات إلى صحن الجامع الأموي واعتقلت الإخوة وأرهبت المصلين.

وفي عام (١٩٧٣م) كانت أحداث الدستور في حماة مع مشاركة صغيرة من حمص فقط، وفي الحركة الجهادية في الأعوام (١٩٨١،١٩٨٠،١٩٧٩، ١٩٨٢) كانت المعركة تشتد في حلب، وتهدأ في حماة، ثم تشتد في جسر الشغور، وتهدأ في حماة وحلب، لعجز الطليعة عن تكوين قيادة مركزية بعد استشهاد الدكتور عبد الستار الزعيم يرحمه الله، كانت المعارك قوية جداً في حلب خلال (١٩٧٩م)، وضعيفة في حماة، وقوية في حماة خلال (١٩٨٠م)، بعد أن ضعفت في حلب، وهكذا.

وأخير وقعت المجزرة الكبرى في مأساة حماة، وحركت السلطة خمسة وعشرين ألفاً من سرايا الدفاع والوحدات الخاصة لقتل الحمويين، ولو قامت انتفاضة في حلب أو دمشق في نفس الوقت لكانت كفيلة بتشتت قوات السلطة وانهيار معنويات أزلامها، وزيادة احتمال التمرد في الجيش، ولكن بقيت حماة قرابة عشرين يوماً، وبقيت المعارك الشرسة حتى آخر يوم في المعركة، ولم تقم انتفاضة في حلب أو دمشق.

تخلخل الصف الإخواني بعد مأساة حماة

كانت مأساة حماة امتحاناً قاسياً جداً فرض على جماعة الإخوان المسلمين، كشف هذا الامتحان أن الجماعة ضعيفة عسكرياً وسياسياً وإعلامياً، وأن الجماعة مازالت لا تجيد غير الدعوة فقط، ولا تتقن العمل السياسي والإعلامي والعسكري.

صعدت السلطة بعد مأساة حماة من مساعي التفاوض مع الإخوان، حتى نما في صفوف الجماعة رأي يرى أن التفاوض هوالحل الأخير الذي يحفظ أرواح من بقي من شباب الجماعة، بينما نما رأي آخر معاكس له يرى أن متابعة العمل العسكري المسلح هو الحل الوحيد.

وقد جرت جولة من المفاوضات في الأسبوع الثاني من كانون الأول (١٩٨٤م)، مثل الإخوان فيها الدكتور حسن هويدي يرحمه الله؛ واثنان من قيادة الإخوان، كما مثل السلطة العقيد هشام بختيار ومصطفى خليل وعلي دوبا وكلهم من ضباط المخابرات الكبار، تمت المفاوضات في ألمانيا، ونقل لي أحد المشاركين فيها أن السلطة كانت تهدف إلى زعزعة الصف الإخواني، ونثر بذور الشك بينهم، وعندما قدم وفد الإخوان مطالبهم التي تتلخص في انتخابات نيابية حرة، والسماح للحركة الإسلامية بالعمل السياسي، وإطلاق سراح جميع المعتقلين، وعودة المهاجرين إلى عملهم وجامعاتهم[1]، لم يستطع وفد السلطة أن يسمع هذه المطالب حتى النهاية، وإنما انسحب من المفاوضات وسافر إلى دمشق دون إعلام الطرف الإخواني.

التحالف الوطني للشعب السوري

في صيف (١٩٧٩م)، قال لي أحد الضباط الكبار من أقاربي في دمشق، وكان واثقاً مما يقول: هل صحيح أن الإخوان تحالفوا مع صدام حسين؟ فأجبت على الفور: يستحيل، ما الفرق بين صدام وحافظ؟ قال: يبدو أنك بعيد عن الساحة السورية، وكان واثقاً مما يقول لذلك تابع القول: لقد سافر الشيخ سعيد حوى إلى بغداد، (وكان الشيخ سعيد مقيماً في

---

(١) أعلن ذلك في بيان وزعه الإخوان جاء فيه تقدم وفدنا بالمطالب التالية للجماعة والشعب في أول لقاء بيننا جرى في الأسبوع الثاني من كانون الأول (١٩٨٤م) : ١- إلغاء قانون الطوارئ والأحكام العرفية التي يرزح الشعب تحتها منذ أكثر من عشرين عاماً. ٢- تعليق الدستور الذي وضع ليخدم حافظ الأسد في استبداده، ريثما يوضع دستور جديد . ٣- إعلان الحريات العامة وضمان حرية التعبير عن الرأي، والحقوق السياسية لجميع المواطنين. ٤- الدعوة إلى انتخابات حرة ونزيهة. ٥- تشكيل هيئة تأسيسية لوضع الدستور .٦ اعتبار الجيش مؤسسة وطنية تمثل الشعب كله .

عمان بعد خروجه من السجن عام (١٩٧٧م)، والتقى نائب الرئيس العراقي السيد طه ياسين رمضان هناك. ولما سمعت اسم الشيخ سعيد يرحمه الله بدأ تفكيري يميل إلى التصديق لما أعرفه عن التفكير المرن والتكتيكي عند الشيخ سعيد يرحمه الله.

وفعلاً جرت لقاءات عديدة، بين الإخوان المسلمون وحزب البعث السوري المهاجر في العراق ويسمون القيادة القومية وفيهم ميشيل عفلق (مؤسس الحزب) ومحمد أمين الحافظ (رئيس مجلس الرئاسة السوري عند استلام البعثيين للحكم عام١٩٦٣)، وشبلي العيسمي وحمود الشوفي وغيرهم، وفيهم عدد من الضباط العسكريين الفارين إلى العراق أو المسرحين في سوريا أو مازالوا غير مكشوفين في القوات المسلحة، وأسهم كذلك في هذه اللقاءات الاشتراكيون بزعامة أكرم الحوراني، والناصريون بزعامة محمد الجراح وجاسم علوان، وبعض الأفراد المستقلين من العلويين مثل الدكتور سليمان الأحمد الذي انضم للتحالف بعد قيامه[١]، وغيرهم.

ووصلت هذه المحادثات التي كان الإخوان المسلمون لحمتها وسداها[٢] إلى الإعلان عن تشكيل التحالف الوطني للشعب السوري ويهدف إلى (كما أعلن الإخوان ذلك في بيان لهم بتاريخ الحادي عشر من آذار ١٩٨٢م).

١ العمل الجاد والدؤوب لإسقاط النظام الحاكم في سوريا باعتماد كافة الوسائل السياسية والإعلامية والجماهيرية والعسكرية.

٢ محاكمة كبار المسؤولين في هذا النظام عن جرائمهم التي ارتكبوها بحق الشعب والوطن.

٣ إقامة حكومة مؤقتة تقوم فور سقوط النظام الحالي، وتعمل بأسرع ما يمكن لانتخاب مجلس تأسيسي يضع دستوراً للبلاد. وتعالج الأوضاع الاقتصادية المتدهورة وتنهي حالة السلب والنهب والرشاوى، وإنقاذ العمال والفلاحين والكادحين من عبث النظام في مكتسباتهم.

---

(١) وتمكنت المخابرات السورية من اغتياله بعد سنوات في أوربا.

(٢) برر الإخوان لقواعدهم أسباب إقامة هذا التحالف بأن العالم كله وخاصة أمريكا لا ترضى بتسلم الإخوان المسلمون دفة الحكم، ولكن إقامة دولة وطنية يكون للإخوان المسلمين فيها ضلع أمر وارد دولياً، لذلك أراد الإخوان أن يكون التحالف الوطني غطاءً دولياً للمعارضة السورية . كما أرادوا ترتيب أوراقهم السياسية لمرحلة ما بعد الحسم العسكري والآن.

٤ الإسلام دين الدولة والشريعة الإسلامية هي المصدر الأساس للتشريع.

٥ ضمان الحريات العامة لجميع المواطنين، ومنها حرية الاعتقاد والتعبير والاجتماع وتشكيل الأحزاب السياسية.

٦ إعادة بناء الجيش على أساس التمثيل الكامل لجميع فئات الشعب.

٧ معالجة الأوضاع الاقتصادية المتدهورة وإنهاء حالة السلب والنهب والرشاوى.

٨ إنقاذ العمال والفلاحين من عبث النظام في مكتسباتهم، والعمل على تعزيز هذه المكتسبات.

٩ إعادة النظر في المناهج الدراسية وجميع مؤسسات الدولة لإنقاذها من حالة التردي الراهنة.

١٠ التعويض الكامل لذوي الشهداء والمتضررين.

١١ الإيمان المطلق بتحرير فلسطين.

١٢ التضامن الكفاحي مع الثورة الفلسطينية.

١٣ النضال الجاد لإقامة الوحدة العربية

١٤ إقامة أوثق العلاقات مع الدول العربية الشقيقة.

١٥ إقامة أوثق العلاقات مع العالم الإسلامي شعوباً ومنظمات، لأن المسلمين سند قوي للعرب.

١٦ عدم التورط في الصراعات الدولية.

وقد اتخذت الطليعة هذا التحالف مناسبة للطعن في الإخوان والتشهير بهم، إلى حد تكفير كل من رضي بالتحالف، كما أعلن ذلك عدنان عقلة نفسه. وسعى عدنان عرعور إلى توريط الشيخ عبد العزيز بن باز في إصدار فتوى تحرم التحالف نشرتها الطليعة في بيان لها بتاريخ (١٤/ ١/١٩٨٣م) كما نشرت فتوى للشيخ ناصرالدين الألباني والشيخ محمد قطب حول الموضوع ذاته، وكلاً منها لا تجيز هذا التحالف.

وقد أشاعت الطليعة ومن تعاطف معها من الإخوان حالة من البلبلة في الصف الإخواني، سببها الجهل في السياسة الإسلامية لدى قواعد الإخوان المسلمين، وعلى الرغم من نقد الصوفيين وبعض جماعات العلماء للإخوان المسلمين بأنهم يهتمون بالجانب السياسي كثيراً، فقد تبين جهل قواعد الإخوان المسلمين بالسياسة الإسلامية، عندما تعجب كثير من أفراد القاعدة ؛ تعجبوا من التحالف مع أحزاب قومية وعلمانية، مما حدا بالباحث

الإسلامي الدكتور منير محمد الغضبان (المراقب العام الأسبق للإخوان المسلمين في سوريا)؛ إلى إصدار بحث مطبوع عن التحالف في الإسلام، وضح فيه جواز التحالف وبين أصوله في السنة النبوية، وبعد عشر سنوات صار تحالف الإخوان المسلمين في مصر أو السودان أو الجزائر أو تركيا مع أحزاب علمانية أمراً مألوفاً ومقبولاً عند الشباب المسلم.

وقد أعطى هذا التحالف الوطني للشعب السوري الإخوان المسلمين في سوريا بعداً وطنياً كبيراً، طالما حاولت الأحزاب القومية والعلمانية إبعادهم عنه ووصمهم بخدمة أغراض المستعمر، وهاهم اليوم يقودون الأحزاب العلمانية نفسها لتحرير سوريا من الطاغوت الأسدي الذي جثم على البلاد وأذل العباد. كما كانت هذه الأحزاب تصور الإخوان المسلمين بأنهم بعيدون عن الديموقراطية، وهاهم اليوم ينادون بتعدد الأحزاب بعد تحرير سوريا من الطاغوت.

انقسام جماعة الإخوان المسلمين

نما الصراع السياسي بين طرفي الإخوان، طرف يرى طريق التفاوض وطرف يرى طريق العمل العسكري، ودخلت فيه حزازات شخصية بين كبار القادة، وحزازات محلية أيضاً بين المدن السورية، وانتهى ذلك في (١٩٨٦م) إلى انشطار جماعة الإخوان المسلمين السورية إلى جماعتين: الأولى: يقودها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والثانية: يقودها الأستاذ عدنان سعد الدين. وأسهم هذا التمزق بضعف الجماعة وقعود عدد كبير من خيرة أبنائها عن العمل السياسي، وهبوط مركز الجماعة في البلدان المضيفة كالسعودية والأردن والعراق، واستمر هذا الانقسام حتى عام (١٩٩٢م) حيث تأكد كل فريق بأنه عاجز عن تنفيذ مخططه، فالسلطة لم تعد مهتمة بالتفاوض، ولم تقدم أي تنازلات للجماعة، كما أن العمل العسكري صار شبه مستحيل بعد حرب الخليج الثانية وهزيمة العراق ووقوف السلطة السورية إلى جانب التحالف الأمريكي. فعادت الجماعة إلى الوحدة وصارت تضمد جراحها وتعيد بناء صفها الذي تهدمت جوانب كثيرة منه.

مأساة الطليعة

سبق القول أن الطليعة انفصلت عن الإخوان بعد وفاق عام (١٩٨١م) بسنة واحدة أو أقل من سنة، وصارت تهاجم الإخوان سياسياً وإعلامياً، وتصفهم بالجبن والتخلف، كما أعلن عدنان عقلة كفر كل من وافق على التحالف الوطني للشعب السوري من قادة الإخوان والجبهة الإسلامية (عمر عبد الحكيم، ص ١٢٩). وترى أن النزول إلى سوريا

والعمل من قواعد سرية في الداخل هو العمل الصحيح المثمر. وصارت الطليعة تعد العدة للعودة إلى الداخل بعد مأساة حماة.

وفهمت السلطة ماتريده الطليعة، خاصة وأن اختراق الطليعة كان سهلاً جداً وقد اخترقتها المخابرات السورية إلى حد كبير كما سيتضح.

وصل إلى عمان(جاهد دندش) ولقب نفسه باسم أبوعبدالله الجسري، وقد التحق هذا الرجل بالطليعة بعد خروجه من سوريا مدعياً أنه أحد أفرادها السابقين في الداخل، وبقي سنتين في بيوت الطليعة في عمان، وبعد أن وجد فيه عدنان عقلة الرجل الذكي صار يعتمد عليه (عمر عبد الحكيم، ص ١٣١). ولما حذره الإخوان منه أجاب بأن الإخوان يحسدونه على كل رجل مهم من رجاله، وينشرون عنه الشائعات، وتمكن الجسري من قلب عدنان عقلة، وعرف شغفه اللامحدود بالنزول إلى سوريا، فعرض عليه أن ينزل الجسري إلى الداخل لترتيب قواعد للطليعة في الجبل (في محافظة إدلب ومع حدود سوريا مع تركيا، وهي منطقة مثالية لحرب العصابات)، وتم ذلك، ثم عاد الجسري بمعلومات طار عدنان عقلة لها فرحاً كفرصة سانحة وتم ترتيب نزول أبي الخير نائب عدنان عقلة مع بعض مساعديه عن طريق تركيا، وهيأت المخابرات بعض عناصرها، في الجبل على أنهم من عناصر الطليعة، استقبلوا أبا الخير عند الحدود وسلموه (كلاشن بدون إبرة) وكذلك أعطوا مثلها لمرافقيه، ومشوا معهم حتى ابتعدوا عن الحدود ثم فاجأهم كمين للسلطة فتمكن من القبض عليهم بسهولة، وتحت التعذيب استسلم أبو الخير نفسياً وعقلياً للعدو، وتعاون مع المخابرات على إكمال تنفيذ المخطط، فأرسل رسائل بخط يده إلى عدنان عقلة، تحت إشراف المخابرات، ونزل عدنان كذلك وتتابع النزول حتى وصل عددهم إلى سبعون مجاهداً من الطليعة، كانت المخابرات تعتقلهم بصمت بعد بضعة كيلومترات من الحدود، وهكذا وقع عدنان عقلة ونائبه أبو الخير، وسبعين من مجاهديهم في الفخ، وتمكن سبعة من هؤلاء المقاومين من الفرار بعد اعتقالهم، ووصل ستة منهم إلى الأردن ليضعوا من تبقى من الطليعة في حقيقة الموقف ويمنعوهم من النزول.

وأدى هذا الاعتقال إلى اكتشاف جميع قواعد الطليعة في حلب والمنطقة الشرقية ودمشق، وقضي عليها، وآلت قيادة الطليعة إلى الأستاذ هاشم شعبان (أبو العلا مدرس رياضيات من دير الزور)، فعرضت عليه السلطة المفاوضات بواسطة المسؤول العسكري للطليعة في المنطقة الشرقية بعد أن سيطرت السلطة السورية على عقله وجندته لخدمتها واسمه أبو مروان (وأظنه عبد الحميد الصالح) فأخرجته من السجن وأرسلته إلى عمان سراً فاجتمع بأبي العلا وأبي النور، وأقنعهم بجدوى المفاوضات والصلح مقابل الإفراج عن المعتقلين، ودون استشارة مجلس شورى الطليعة ولا القيادة توجه أبو العلا وأبو النور

وأبو حسين خضرو لمقابلة وفد من المخابرات السورية في ألمانيا، وبينما كانت المفاوضات مستمرة في ألمانيا أرسلت السلطة مفاوضين آخرين إلى عمان استدرجا من تبقى فيها من الطليعة إلى النزول فسحبوا البساط من تحت أبي العلا وزميليه، وجروهم إلى مفاوضات في قبرص ثم دمشق انتهت إلى أن تعفو السلطة عن كل عنصر من الطليعة يسلم نفسه لها ويتعاون معها، وهكذا استسلم من تبقى من الطليعة ونزل بضع وعشرون رجلاً، وبقي في عمان من الطليعة بضعة عشر رجلاً وقد آلت قيادتهم إلى عبد الستار عبود (أبو صالح) فأصدروا بياناً أدانوا فيه الصلح مع السلطة، بتاريخ ٢٨/١/١٩٨٥م (عمر عبد الحكيم، ص١٣٣). وهكذا انتهت الطليعة المقاتلة.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقـــدمـــــة	٥
الفصل الأول: من كتب التاريخ؟..................................	٧
الفصل الثاني : النظام الأسدي (١) يحكم سوريا	١٩
الفصل الثالث : ماذا تعرف عن حافظ الأسد!!؟.....................	٦٧
الفصل الرابع : الطليعة المقاتلة	١٣٩
الفصل الخامس : الإخوان المسلمون يدافعون عن دمهم وعرضهم....	١٤٩
الفصل السادس : ماذا تعرف عن رفعت الأسد؟....................	١٥٧
الفصل السابع : بعض مجازر النظام الأسدي......................	١٧٣
الفصل الثامن : عودة إلى مأساة حماة (١)........................	٢٣٩
الفصل التاسع : التعذيب في سجون الأسد	٢٥٣
الفصل العاشر : بعد محنة (١٩٨٢م)..............................	٣١١



سوريا
مزرعة الأسد